

حسن إبراهيم أحمد

العقل الإيماني

العقل الإيمانى
مصداقية الوعد بالخلاص؟



Author :Hasan Ibrahim Ahmad
Title : The fiducial Mentality
Al- Mada P.C.
First Edition :year 2000
Copyright © Al- Mada

اسم المؤلف : حسن ابراهيم احمد
عنوان الكتاب : العقل الايماني
الناشر : المدى
الطبعة الأولى : سنة ٢٠٠٠
الحقوق محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٧٧٦٨٦٤ - ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. Cyprus

Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 .

Tel: 2776864 - 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

البريد الالكتروني : al - madahouse @ net.sy

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

حسن ابراهيم أحمد

العقل الإيمانى

مصداقية الوعد بالخلاص؟



الطبعة الأولى: ١٩٨٨

إهداء

- الى زوجتي:

أرجو أن يكون صبرك مباركاً.

- الى أولادي:

انتصروا لما يجعل الحياة أبقي وأجمل في
المعركة بين الخبز والثقافة.

- الى أصدقائي:

أشكركم لثقتكم.

- الى الآخر:

أرجو أن يكون عقلك منفتحاً، وألا يكون
الخلافاً في الرأي سبباً للنيل من كرامات
الناس، وأن يكون في هذه المادة الثقافية
مايقنعك بضرورة تجاوز الواقع إن أمكن.

مقدمة

لقد فتحت الأديان السماوية على آفاق رحبة، وكانت ثورات أصيلة، عبرت عن حراك اجتماعي ما كان له أن يقر، تلبية لمتطلبات الحياة. وكانت الارهاصات تعبيراً أصيلاً عن الحاجة الى التغيير، ثم إن الولادة كانت طبيعية، واستغرقت الوقت الكافي واللازم ليخرج المولود معافى وقادراً على الاستمرار.

كان انبثاقها وصعودها مبشراً بقدراتها على أن تضم الى منظومتها كل ماهو جميل وتقدمي، وتدرجه في حركتها المتجهة صعوداً والى الأمام، والقادرة على أن تتجاوز كل المعوقات، وتبطل مفعول كل العراقيل. لكن، وما إن كتبت لها الغلبة، حتى انقلب العقل الثوري التغييري، الى عقل قارٍ ومحافظ ومعادٍ لكل إمكانات التغيير ودعواته، وربطها بالماضي بدل التطلع الى المستقبل.

كيف افتقدت الأديان هذه الطاقات الخلاقة، وهذا الاندفاع، وتحولت الى عامل كبح وتراجع؟ لماذا لم تعد ناظمة إبداع وخلق؟ وهل تكفي الإعلانات النظرية بأن الدين الفلاني صالح لكل زمان ومكان؟.

نعم، إنه كذلك، صالح لكل زمان ومكان، ولكن أية صلاحية؟ وأي زمان ومكان؟ هل يصح أن نفهم الزمان والمكان بالطريقة ذاتها وبالمفهوم ذاته الذي كان لهما في غابر الأزمان وقبل دخول التعقيدات والتطورات الحديثة، عندما كانت الأديان طاقة خلق وإبداع في تلك البيئات؟ والأهم، هل بقيت الأديان محافظة ومعبرة في وجودها اليومي، عن تلك الروح التقدمية التي تواكب عملية الخلق والإبداع، وعن تلك الطاقة، بمعنى هل تم تطوير أو تطويع النص لمواكبة تغير الواقع؟ هل بقيت الأديان في حقلها: ناظمة قيم، وحارسة سلوك، أم تعدته الى غيره؟.

إننا اليوم أمام جوابين:

الأول: وهو الذي يتبناه فريق العقل الإيماني، الذي لا يزال يحلم بتثبيت الواقع، بل يرى أن الواقع بكل كتلته يجب أن ينتقل الى الماضي، لا أن نستعيد من الماضي تلك الطاقة الإيجابية المشحونة بروح الخلق والإبداع، وذلك بأن نحیی قيم العقلانية والتقدم والتنوير التي تجد لها متسعاً في حيزنا، ونتوخى منها إحداث تغيير إيجابي، لندرجها في حركة الحياة المتجددة، على ضوء كل التجارب والخبرات والمكتسبات التي حصلت عليها البشرية عبر مسيرتها، لا ضداً عليها ونفياً لها. وبالتالي سيكون على هذه الفريق أن يبرر التخلّف الحاصل في ظل سيطرته عبر الأزمنة الماضية، ومالذي منع من التقدم طالما أن جميع حوافزه موجودة؟ لماذا تم التفريط باللحظة؟ وإذا كان بإمكانني أن أجيب، فإنني أجيب بأن هذا الفريق بدل أن يحیی قيم العقلانية والتقدم، قام بإحياء قيم التخلّف والتعصب والانغلاق وأراد تعميمها وقسر الواقع للتطابق معها، أي صادر حركة الحياة. يعني أنه ضيّع طاقة التقدم التي حلمت بها البشرية وأملتها من الأديان، وفرط بها.

الثاني: هو ذلك الذي يتبناه فريق العقل العلمي والنقدي، والذي لا يزال يجاهد لإحياء طاقة الخلق المبتدعة، هو الذي يريد أن يحمل الواقع الى المستقبل، ليتقاطع مع كل قوى الخلق والإبداع في هذا العالم الذي لم يعد يصح أن ينغلق فيه أحد على ذاته، أو يغلق أبوابه دون العالم، هذا العالم يسير الى المستقبل دون أن يضع في اعتباره مواكبة النصوص لمسيرته أو عدم مواكبتها، إلا بمقدار ما تؤمنه من حافز ورعاية للهوية، وإن السوق حافز لتقدمه أكثر من امتلاك هذه النصوص، لا بمنطق العداء للنصوص، لأنها مرتكزات قيم، لا مشاريع وخطط عمران.

وعلى ضوء ذلك، لا يريد أحد أن يفرط بالنصوص، ولا بالهوية، ولكن وعلى ضوء النقطتين المشاريتين: صلاحية النصوص عبر الأيام أن تكون عامل تقدم وتغيير، وهي النقطة الأولى، وضرورة مواكبة البشرية في حركتها باتجاه المستقبل، وهي النقطة الثانية، لا يجوز تضييع اللحظة: لحظة التقدم وصنع المستقبل المنشود.

من هنا من هذه النقطة كان البحث في العقل الإيماني.

لقد وجدنا أن الأديان بنصوصها الأساسية لم تتغير عبر الزمن، لأن الحفاظ على

النصوص كان من أبرز المهمات التي أطلع بها الفريق الأكبر، وصاحب الجهد الأهم ذو الطاقات المميزة من العلماء وأصحاب العقول، فيما سبق من تاريخنا. هل يعني أننا نحمل النصوص مسؤولية مانحن فيه من تأخر؟. لا. النصوص بريئة بمعنى ما، ولا ذنب لها، الذنب ذنب من تعاطوا مع هذه النصوص فلم يستطيعوا استغلال مناحاتها بالشكل الأمثل، وهنا تصح استعارة كلمات قالها الإمام علي، فقد قال عن القرآن «إنه كتاب مسطور بين دفتين، لا ينطق وإنما يتكلم به الرجال»، إذن، لنحمل المسؤولية لمن يتكلم (الرجال) لا لمن لا ينطق (النص)، وقال أيضاً إنه: «حمال أوجه»، فلماذا تم تثبيته على وجه دون آخر؟ وكيف؟ ومن قام بذلك؟.

إذا استطعنا أن نستمد من هذه النصوص حوافز تقدم، وعوامل تساهم في صنع مستقبل كريم، فهذا أفضل، وإذا لم نجد فيها مانحتاج، فلماذا لا يتم تجاوز ما لا يساهم في هذه المعركة والانتصار فيها، دون أن يكون في ذلك احتقار للنصوص أو إساءة لها، بحيث يتم إيجاد الروايز البديلة في غير حقلها، كي لانحولها الى عوامل كبخ وتخلف. لقد وجدت أن المسؤول عن ذلك عقل لم يتعاط مع الأديان بأمانه فلوئها بألوان قواه، هو العقل الإيماني، الذي ماكان له أن يمرر مصالحه إلا على ضوء وهدى النصوص، وبدلاً من أن يكيّف المصلحة مع منطوق النص أو مدلوله، وجد أن الرحيّة الأكثر تتحقق بلوي عنق النصوص أو بتحويلها، أو بإدخال ما ليس منها إليها، أو بتفسيرها على ضوء المصالح والظروف، أي، إن إيقاع التغيير ومنطق التعبير الذي كان يجب أن يوقع على الواقع فيأتي منسجماً مع المبادئ، ليتم الانتقال به الى الأفضل، فيكون بذلك مواكباً لاتجاه التقدم في الأديان، ونزوعها الى إيجاد مجتمعات فضلى، حسب ما هو متوخى منها، جرى إيقاع التغيير على النصوص (بمعنى تفسير النصوص حسب مقتضيات المصلحة، وإذا لزم الأمر استبدالها بنصوص الطوائف والجماعات الإيمانية المتولدة ومقولاتها، مما جعل النصوص البشرية تختلط بالنصوص الإلهية، بل يمكن أن تزيحها وتحل محلها في الأهمية والمرجعية والقدسية، أو تواكبها وتلازمها، لا لكي تسير تغير الحياة فتساهم في عملية التقدم، بل لكي تواكب وتسير تطلعات ومصالح الجهات الإيمانية، أي تفصيلها على مقاسات وأحلام ضيقة، إن تغيير النصوص كان

البديل الأسهل لتغيير الواقع.

إنه المنطق الأسهل، لأن تغيير الواقع يحتاج الى جهد وإرادة، لكن تغيير النصوص بإحداث التحولات الكبرى فيها عبر التفسير والتأويل والاحتكار وانتاج النصوص البديلة عند كل طائفة، وكل مذهب وكل نحلة، واستخدام النصوص سلاحاً ماضياً في إخراج الآخر ونقضه وعزله وتجاوزه وقتله، كل ذلك باسم الله، وعلى ضوء النصوص فيما آلت اليه من تشويه، كان هو الآلية المتبعة.

لقد تخيل المؤمن أن النص أصبح ملكه، لأن إيمانه وفهمه قاصرين، أو لأنه تخيل أن تعاطيه مع النصوص يسمح له باحتكارها، وهو يتعاطى معها على ضوء مصالحه ورغباته ويستنطقها بذلك. ولما تخيل أنه امتلك النص وتوجيهه، توهم أنه يمكن أن يتحكم بالإرادة المتعالية، فلونها أيضاً بألوان عقله القاصر والمشوّ، ورغباته ورؤيته للحياة، وجعلها صواعق وغضباً على أعدائه ومخالفيه في الدين أو الدنيا، يصبها اتهامات وتجريحا وتشويه سمعة وسلب كرامة، وإذا امتلك القوة صبها قتلاً ودماراً وإخراجاً من ربقة الدين ونفياً، وهو في كل ذلك يتوهم أنه يساير صحيح الدين، دون أن يتوقف فيراجع نفسه، ماذا أخذ وماذا ترك، ماذا أبقى من الدين ونصوصه عندما أحدث فيه هذا القطع، وهذا التغييب لما فيه من قيم جميلة؟ وبالتالي لمصلحة من إحداث التوتر المجتمعي، وتعميم الحقد والضغينة مما قد يعود الى أقرب الناس إليه.

لقد أدى كل ذلك الى كثرة الاتجاهات التي تعاطت مع الدين ونصوصه بهذا الشكل، والتي لونت بالوان مصالحها ورؤاها وأهدافها، وهذا ما جعل كل فئة إيمانية تنتج نصوصها البديلة عن النص الرئيسي المقدس والمشارك بينها جميعاً، كل فئة أصبح لها تاريخها وشخصياتها على ضوء نصوصها، فأصبح الدين أدياناً، والملة مللاً. وأصبح الآخر الغريب عن الدين أو عن الشعب، آخرون منهم من كان خارج الدين ومنهم من كان داخله وكل آخر مخالف لا بد من نفيه، والنفي لا يخرج عن آلية التكفير وبيان الخروج عن حقائق الحياة وصحيح الدين، لشرعنة النفي، ومقدمة لقتله والحرب معه. ونعود لنسأل أنفسنا الى أين وصلنا؟ ومن المسؤول عما وصلنا إليه؟.

إن أولئك الذين أوصلونا الى هنا دخلوا عالم القداسة، مع كل أفكارهم وكل نصوصهم، فالنص المستند الى المقدس والذي يحاكيه، يكتسب القداسة منه، ونصبح

في بحر من المقدسات التي يتهم الإنسان بتلوئثها كيفما اتجه، من آراء الرجال الى النصوص وحتى مخلفات هؤلاء الرجال والقيم المادية التي صنعوا منها ترسيمات للتذكر وأداء الشعائر.

إذاً، إذا كان البحث في العقل الإيماني، محاولة لمعرفة، ومحاولة معرفته أكثر وأكثر ضرورة، لسيطرته على الواقع، والتعرف على الواقع أكثر يكون لتجاوزه. إن سيطرته على الواقع لا تكمن في تعميم وجهات النظر الطائفية والمذهبية والمليئة الملونة بألوان أصحابها فقط، ومحاولة الضغط على الحياة السياسية والاقتصادي والثقافية للاتساق مع وجهات النظر التي تتبناها الطوائف والاتجاهات الإيمانية، واللجوء الى التخويف والاتهام، بل تكمن أيضاً في الآليات الذهنية التي أصبحت العقول الفردية تعمل بها حتى في الأمور البعيدة عن الأديان وما تفرع عنها من مذاهب واتجاهات، لقد أصبحت هذه العقول مبرمجة، برمجة إيمانية، إن عدم قبول الآخر، وعدم التنازل عن الرأي، والتشبث بوجهة النظر، وأنا الصبح وغيري الخطأ، دخل الى كل مجالات حياتنا، في بيوتنا وشوارعنا ودوائرننا، في أحزابنا ونقاباتنا، في جلسات السمر والتسليّة، في كل مناحي الحياة، نعلن قداسة الرأي المؤدلج أو الفردي وعدم احتمال له للخطأ، ونتشبث به، إننا نستجر كل ذلك من عمق قمترسنا بالعقل الإيماني وأساليبه التي عمل على توليدها خلال قرون عديدة، ولا تتوافر الإرادة للخروج من مفاعيل هذا العقل.

إن العقل الإيماني، هو العقل السائد في كل مناخات حياتنا ومناحيها، ما كان قريباً منها الى الدين وما كان بعيد عنه!

هل علمتم بعد هذا لماذا شغلني التفكير بهذا العقل ومعطياته؟! هل عرفتم لماذا اتجهت الى الكتابة عنه؟!

لست بريئاً من هذا العقل لأنني عشت حياتي كلها في بيئة يتحكم بها، وتعيد انتاجه على جميع المستويات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، فكيف أستطيع أن أكون بريئاً في تفكيري وسلوكي من هذا العقل المتحكم؟! وهل أنا إلا ابن البيئة؟!

إنني في محاولة تفكيكي لهذا العقل سواء نجحت أم لم تنجح، لم أتوخ إلا

التعرف عليه، والتعريف به من وجهة نظر، هي خاصة من حيث الجهد الذي بذل، ولكنها ليست خاصة من حيث تلاقيها مع وجهات نظر الكثير من الناس، من يحسنون التعبير عنها ومن لا يحسنون، من يجروون على التعبير عنها ومن لا يجروون، من يرون في ذلك فائدة ومن لا يرون، لما قرّ في أذهانهم من استحالة تغيير الواقع (فالساحل لا تعالج) ولتمكّن قيم الهزيمة من أعماقنا.

لقد قلت وأقول دائماً لمن أتحدث إليهم، إن كتلة الواقع المتخلف وما يفرزه من مشاكل كبيرة جداً، وإن تغييره ليس بالأمر السهل، وقد تكون الهزيمة نصيب من يحاول كما كانت نسبياً فيما مضى، لكن ما أراه مصيبة المصائب، أن نعلن الهزيمة قبل خوض المعركة، بذلك نخوض المعركة بنفسية المهزوم وعقلية المهزوم وعزيمة المهزوم فلا يكون من الهزيمة مفراً، وأقول: إن المعارك تخاض دائماً، فإما أن ينتصر الإنسان فيها وإما أن يهزم، وعندها يقول انتصرت أو هزمت، واحتمال النصر موجود كاحتمال الهزيمة خاصة إذا تم الإعداد جيداً للمعركة، أما أن يعلن الإنسان الهزيمة قبل خوض المعركة، فياللطامة الكبرى!!!

لقد انتصرت شعوب العالم وقواه التي تقودها رياح التقدم والخلاص، وكانت معاركها والقوى المواجهة لها أشرس وأعنف، فلماذا نسوّق الهزيمة والهزيمة فقط؟! على العموم لا بأس على من انهزم في معركة حقيقية خاضها، بعد دراسة ودراية أن يعود الى نقد نفسه ومعرفة أخطائه ومحاولة تلاقيها في معركة قادمة يجب أن يخوضها متجاوزاً الخيبة التي حصل عليها من معركته الأولى. إنها معارك التقدم ضد التخلف، معارك الشعب ضد المستغلين، معارك العقل ضد قيوده، معارك الدين ضد مزوريه ومحرفيه ومستغليه ومحتكريه.

هكذا أقرأ الحياة وهكذا أدعو أن نحياها.

لا أريد مغادرة هذه المقدمة قبل الإشارة الى أنني لم أنطلق في هذا العمل الذي أقدمه للناس من أي عقدة تتحكم بي، ولا من أي حقد، ولا من أي احتقار للآخر، ولا ضد فرد أو مذهب أو فئة مقصودة بعينها. إنني أوّمن بحق الآخر وأفسح له المجال كما أستطيع، بالقدر الذي أوّمن بحقي في أن يكون لي رأيي الذي أتمسك به وأدافع عنه، وأرجو أن يفسح لي المجال للتعبير عنه، وإنني أعتذر سلفاً عن أي شعور بالعداء أو

الضدية يتولد عند من يقرأ هذا الكتاب، وإذا وجد من يحس بذلك فأقول له إنه لم يصل حيث أريد، فلا أريد الاساءة لأحد.

لم أكتب انطلاقاً من عدااء أحد، ولا استهتاراً أو احتقاراً لأحد، ولا نفياً أو استبعاداً لأحد. والآخرون ومبادئهم ونصوصهم وقناعاتهم سواء التقيت معها أو لا، وافقت عليها أو لا، هي محل احترام عندي، إنني أردت النيل من الوضع القار الذي يضعني في موقع التخلف ويمعني من اللحاق بركب الحضارة والتقدم، أردت أن أسلط ضوءاً، وأطلق صوتاً، فالتغيير يحتاج الى ذلك، فإذا استطعت أن أحدث أثراً وتعاطفاً مع آراء هذا الكتاب، أكون بذلك قد وصلت الى غايتي، وأعتقد أن الآراء الأخرى النقيضة تملأ الأسواق، فليكن حظنا في الحضور كحظها، وليكن للناس حق الاختيار والاختلاف دون استلاب، مع التحفظ على أن قراءة هذا الكتاب، قد تكون على أرضية معدة من قبل العقل الإيماني ومعبأة باتجاهه، وهذا مايمكن أن يجعل القراءة منحازة سلفاً. أرجو أن أكون مخطئاً.

إن الدراسة هي دراسة في الواقع، وتحليل للراهن، وليست قراءة في التراث، والحاضر فيها من التراث موظف للإيضاح ولبیان الفكرة أو لوصل الواقع بجذوره التي دشنها الماضي.

إنها قراءة في عقل العامة وسلوكهم في حراكهم اليومي ومعتقداتهم التي صنعتها الأيام مثلما صنعتها النصوص الكبرى، صنعها الدراويش كما صنعها الأنبياء، وتناقلتها الألسن قبل أن تتناولها الأقلام.

نريد أن نتجاوز الإعاقة الممتدة التي سببها العقل الإيماني، فأصبحت من مكوناته، وهي التي تترجم قناعات وسلوكاً في مواجهة عصر تتطلب أحداثه وطبيعته، الانتقال الى أساليب تنتمي اليه حقيقة في مواجهة المستجدات، فليس مقبولاً في هذا العصر أن تستمر القناعة بأن جبل المقطم انتقل من وسط القاهرة الى خارجها استجابة لدعاء مجموعة من المؤمنين في عصور غابرة، وقد شكلت استمراراً لمنطق المعجزة، وليس مقبولاً أن تستمر وتتواتر وتتناسل هذه الأساليب والقناعات في مواجهة الأحداث الطاحنة، فلا أحمد عرابي قائد الثورة المشهورة ووزير الدفاع في حكومة محمود سامي البارودي استطاع أن يوقف الهجوم الانكليزي على مصر عام ١٨٨٢ بقضائه فترة

قصف الانكليز للاسكندرية بالصلاة والدعاء على الإنكليز بالاندحار والهزيمة، بدلاً من قيادة المواجهة والإشراف عليها، ولا حسن الترابي هزم الأمريكان بطلبه الى الشعب السوداني تخصيص أسبوع للدعاء المستجاب على الأمريكان لأنهم قصفوا السودان في أواخر القرن العشرين، وإن الاسكندرية والسودان وغيرهما من نواحي هذا الوطن، سيتكرر قصفها إذا بقي هذا العقل يكرر تناسله دون توقف

نيسان ٢٠٠٠
حسن ابراهيم أحمد

تمهيد

(١)

في التأسيس للبحث في الإيمان لابد من التعرّيج على اللغة.

- في القاموس المحيط، وتحت مادة: الأَمْنُ:

وَأَمِنَ بِهِ إِيمَانًا: صدّقه.

وَالْإِيمَانُ: الثقة، وإظهار الخضوع، وقبول الشريعة.

- وفي المعجم الوسيط، وتحت مادة: أَمِنَ:

الإيمان: التصديق. و - شرعاً التصديق بالقلب، والإقرار باللسان.

هذا يظهر أن معنى الإيمان في لغتنا العربية يحيل الى مستويين بينتهما المعاجم:

المستوى الأول: هو المستوى القلبي، اليقيني، الباطني العميق. ويظهر في

«صدقته»، «الثقة»، «وثق به وصدقته»، و«التصديق» وهذه مفردات توحى بتشكيل

قناعة داخلية، في عمق وجدان الإنسان وفكره، تقطع مع السطحية، كما تقطع مع

المخادعة. إنه إشراق في داخل النفس ويقين.

المستوى الثاني: هو المستوى الظاهري التلفظي، مستوى الإعلان والإشهار،

المستوى السطحي الذي يحتمل المخادعة والتلون، ولا يشير الى أصالة الاعتقاد، وتشير

الى هذا المعنى عبارات: «إظهار الخضوع»، «قبول الشريعة»، «الإقرار باللسان»، إنه

إظهار قد لا ينطوي على معنى حقيقي يعمر نفس صاحبه.

وسيرد الإيمان مقروناً بالعقل في بحثنا بالمعنيين كليهما، وما يشكلانه من طيف،

ويحدد المعنى في كل مرة سياق الحديث. إلا أن البحث ينطلق في الأساس من المعنى

القلبي اليقيني، وأبرز تحولاته وتغييراته عبر الممارسة العملية والنشاط الإنساني.

ولزيد من التأسيس نحاول فهم الإيمان في بعض حقوله:

فمن الحقل المسيحي نورد آراء وتعريفات يقدمها «ندره البازجي»^(١) يقول:
١ - الإيمان هو تلقائية الروح، أي انجذاب الروح وتوقها الى حقيقتها، أي فعل الروح في ذاتها، أي عودة الروح الى حالتها الأولى.

٢ - الإيمان هو إشراق داخلي.

٣ - الإيمان هو حالة فوق عقلية.

هذه التعريفات الثلاثة، تؤكد جميعها المعنى الباطني العميق أو المستوى القلبي واليقيني للإيمان باعتباره فعل من أفعال الروح.

والتعريفات التي يقدمها البازجي تجد بعدها وتأسيسها في فهمه للدين الذي يقول عنه: «الدين هو تجربة روحية عميقة داخلية في الإنسان. ونستطيع أن نقول هو حضور دائم للروح الالهية في الإنسان. فهو إذن تحقيق لهذا الحضور. والتحقيق هو تجربة روحية»^(٢). ثم يسأل: «ماهي الأديان؟» ويجيب: «هي كل تجربة روحية يتحقق فيها الحضور الإلهي في الإنسان»^(٣).

هكذا نجد أن فهمه للدين يؤسس لتعريفات الإيمان التي يقدمها. ولكنه لا يغفل عن أن هناك شكلاً آخر للإيمان يميزه أنه ينطلق من «أن ظاهر الأديان حكم وأخلاق، وباطنها أسرار عميقة. وهكذا يقسم الإيمان الى قسمين: إيمان ظاهري وإيمان باطني»^(٤). والظاهري هنا يبرز المعنى أو المستوى السلوكي الذي قد يبقى أميناً على الأصل وقد ينحرف عنه.

ولتأسيس هذا الفهم للإيمان في الحقل الإسلامي، نشير الى ما بينه الإسلام من معاني هذه الكلمة حسب منطوق القرآن: «قالت الأعراب أمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الأيمان قلوبكم»^(٥). وواضح تفريق الآية بين الإيمان والإسلام. فلفظ الإيمان يحيل الى المعنى القلبي العميق الذي أشارت إليه المعاني اللغوية.

ويقول تعالى: «إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات»^(٦). وواضح هنا أيضاً التفريق بين الإسلام والإيمان، كما ورد في الآية السابقة.

ويقول تعالى: «هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم»^(٧) ويقول: «... فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون. وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً الى رجسهم وماتوا وهم كافرون»^(٨).

والآيات السابقة تؤكد أن الإيمان معنى قلبي، وعلى أساس عمقه وصدقته وسلامته من الزيف وبعده عن الرجس، يكون القبول الإلهي، والرضى الإلهي، فما لم يكن الإيمان متأصلاً في أعماق النفس والوجدان فلن يكون إيماناً سليماً، وبمقدار ما يكون عمقه يكون تحقيقه للإرادة الإلهية. كما تشير إلى أن الإيمان درجات أو مستويات، وهذا أيضاً يؤسس لما سيرد في هذه الدراسة.

ولا ننسى أن أركان الإيمان كما تعلمناها هي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. أي أن الإيمان الإسلامي هو التصديق والتيقن من هذه الآيات باعتبارها أول مقومات الإيمان السليم. وهي معان واعتقادات قلبية.

أما أركان الإسلام فهي: الشهادتان والصلاة والزكاة والصيام والحج. وهي ممارسات ليس بالضرورة أنها تنطلق عن عمق اليقين والتصديق، بل هي أفعال ظاهرية قد تكون منقطعة عن بعدها الإيمانى القلبي، فتحمي صاحبها من العتب والالتهام ولكنها لا توصله إيمانياً. ونلاحظ هنا الانسجام مع المعنى اللغوي.

وهنا يمكن الإشارة إلى ما آل إليه الإسلام، كنهج إيماني. يقول الدكتور محمد شحرور^(٨) وهو يخلص: « إلى تلخيص ما فعلته الأدبيات الإسلامية بالثقافة العربية الإسلامية وبالفكر الإسلامي اليوم: حين ربطت مفهوم الدين والتدين بشعائر الإيمان باعتبارها من أركان الإسلام بعيداً عن المعيار الإخلاقي ... فأصبح الحكم على دين الإنسان يتم بدلالة صلاته وصيامه ... فأخذ الوجه الشعائري من الدين الأولوية المطلقة على الوجه الأخلاقي، حتى انعكس ذلك في التربية المنزلية ... فأصبح إفطار يوم من رمضان، أكبر كثيراً من الكذب». وما فعلته الأدبيات الإسلامية فعلته الحياة اليومية، أي الناس في ممارساتهم الإيمانية قبل ذلك، فجاءت الثقافة محصلة لفعل الناس.

وإذا كنا نريد تسليط الأضواء وطرح الأسئلة على ما آل إليه الإيمان، والتحويلات والتماهيات التي حصلت له فإن ذلك لن يتم بدون هدي العقل الذي هو نظام معرفي تقرأ الأحداث والأفكار على ضوئه، هذا العقل يظهر من خلال الثقافة فهي الإطار لمعرفة عقل ما: «فالتفكير بواسطة ثقافة ما، معناه التفكير من خلال منظومة مرجعية تتشكل إحداثياتها الأساسية من محددات هذه الثقافة ومكوناتها، وفي مقدمتها الموروث الثقافي، والمحيط الاجتماعي والنظرة إلى المستقبل، بل والنظرة إلى العالم،

الى الكون كما تحددها مكونات تلك الثقافة»^(١٠).

وانطلاقاً من هذا الفهم يمكن القول إن حديثنا عن العقل الإيماني يأتي في إطار الثقافة الشعبية كما آل إليها تدين الجماهير، فهذا العقل تشكل عبر القرون في إطار الشقافة الشفهية أو التي وجدت طريقها الى التدوين، وفي إطار الحياة اليومية والممارسات التي يقوم بها المؤمنون، والتي تحولت الى طقوسية راسخة في العمق الاجتماعي، وهذه الطقوسية تشكلت على الأغلب من خلال التحويلات والتغييرات التي أحدثها المؤمنون في إطار ثقافتهم الدينية على النصوص والطقوس والأسس التي تم اعتبارها ركائز أساسية للإيمان الأرثوذكسي، هذه التحويلات خاضعة لكل المؤثرات المجتمعية من عادات وعلاقات ومصالح، ولذا فإن هذه التحويلات اعتبرت مواضع اجتماعية يعتبر خرقها أو التخلي عنها جريمة تفوق جريمة خرق القانون، لأن الناس وجدوها بإرادتهم في حين أن القانون فرض عليهم من قبل سلطة أعلى وهو عدو شرس لنزوات الإنسان، هذه التحويلات سلوكية إجرائية تندرج في الحراك الاجتماعي، والصيرورة الاجتماعية، وتستند الى التناقل الشفهي وشبه الشفهي للقناعات، والمواضعة الاجتماعية، في إطار السلوك والحياة اليومية. فزيارات قبور الأولياء والصالحين لا تستند الى نصوص دينية أساسية مع أنها أصبحت جزءاً من مكونات الثقافة الشعبية، والمعتقدية الإيمانية، والحراك الاجتماعي المرتبط بالإيمان والقناعات الدينية الشعبية الراسخة، خاصة في أريافنا، ولدى جميع الطوائف والأديان. كما أن الاحتفالية التي آلت إليها ممارسة بعض العبادات في الإسلام كما في غيره تقدم صورة لعادات وثقافة شعبية تلتقي مع الدين أحياناً وتقطع معه أحياناً أخرى، ومثال ذلك ما آل إليه صيام رمضان والعادات التي تكونت حول هذا الصيام في كل بيئة على حده، وهذا كله تكون شعبياً عبر الأيام وتحول الى ثقافة وعادات قاره سواء كان لها أصلها الديني أو لم يكن.

إن تحول العادات والموروث الشعبي أياً كان أصله، الى معتقدات شعبية، قد تم من خلال مزجها وتطعيمها بقيم دينية، وربطها بنصوص مقدسة مما أحالها الى معتقدات إيمانية، مرتبطة بالمقدس والمتعالي، وأصبح الخروج عليها يقتضي التجريم أكثر من الخروج على النصوص المقدسة لأنها مرتبطة بما تواضع عليه المجتمع ورسخ في

بنيته الفكرية الثقافية والاجتماعية.

إن العقل الإيماني الذي نصفه هو (العقل المكوّن) والذي اكتسب من الرسوخ والقوة ماحوله الى (عقل مكوّن)^(١١).

وتتبدى صعوبة دراسة العقل الإيماني، في اختلاف المعطيات الثقافية التي يستند اليها في دراسته. هذه المعطيات متنوعة ومختلفة بتنوع المناطق الثقافية والشعوب، وما ولدته وما تراكم لديها عبر الأيام والأزمنة من عناصر ومكونات يتداخل فيها العقلاني بالخرافي، وما ينتمي الى الطبيعة بما ينتمي الى ما وراء الطبيعة، والتاريخي باللا تاريخي.

(٢)

لا نستطيع الحديث عن علم أو فكر منفصل ومعزول عن غيره في هذا العصر، فالعلوم و الأفكار تتقاطع وتتلاقى، ويساند بعضها بعضها الآخر، ولا بد للبحث الرصين من اعترافه بالاتكاء على ما أنجزته الثقافة عبر تاريخها، فهي فعل تراكمي، وهو في عصرنا متشعب الأبعاد كثير المسارب والمشارب، وتظهر ضرورة التعرف على أطراف الموضوع وتشعباته ومدى تماسه مع غيره، بالإطلاع على ما أنجزته بعض العلوم الإنسانية، ربما أكثر مما أنجزته العلوم الكونية والطبيعية التطبيقية.

انطلاقاً من هذا الفهم نجد أنه لا بد من الاتكاء على الدراسات الاجتماعية، وفهم الحراك الاجتماعي، باعتبار أن أية عقائد إيمانية لا بد لها لكي تتكون مجتمعياً، من إطار اجتماعي أو بوتقه اجتماعية تتكون داخلها، وتنمو كما الكائن الحي. ولا شك أن ما ينمو في مجتمع من المجتمعات قد لا يكون عليه النمو في مجتمع آخر، فالمجتمعات تتمايز بدرجة تطورها الحضاري، ولا شك أن درجة تقدم مجتمع من المجتمعات قد تساهم في تنقية قيمة من الخرافة والسحر، كما أن قبول الحلول الخرافية والسحرية، أو الحلول التي لا يمكن تأصيلها علمياً قد تكون مستبعدة في مجتمع ما ومقبولة في مجتمع آخر، وهذا كما قلنا مرتبط بمدى تقدم أو تخلف المجتمع، كما هو مرتبط بالعلاقات الاجتماعية والأسس التي تقرر عليها، فالمجتمعات ذات العلاقات القرابية، أو المجتمعات القبلية وما يشبهها من طائفية ومذهبية تكون عرضة للتأثر الإيماني أكثر

من غيرها ، لما يسود في هذه المجتمعات من مسلمات و يقينيات يتقدم فيها العقل القراقي الانتمائي على العقل العلمي.

وكما أن للدراسات الاجتماعية دوراً جليلاً في دراسة ومعرفة العقائد التي تسود مجتمعاً معيناً باعتبار أن المجتمع هو المادة الأولى ، فلا شك أن لعلم العقائد ونشوتها وتطورها دوراً لا يقل عن دراسة أحوال المجتمع ، فالعقائد التي يمكن أن تنتشر هنا غير العقائد التي يمكن أن تنتشر هناك. ولكل عقيدة مكوناتها ومضمونها وآليات انتشارها وسماتها التي تعتمد عليها في الانتشار والتي تجد البيئة الاجتماعية مهيأة لها ، كما أن درجة تعقد العقائد وبساطتها تعتمد الى حد كبير على تعقد وتشعب وتطور العلاقات الاجتماعية. من هنا كان الأثر الكبير لعلم الاجتماع الديني والانثروبولوجيا في التعرف على نشوء وتطور العقائد.

ولا يخفى ما للمعرفة التاريخية من أثر كبير في دراسة تطور العقل الإيماني وانبثاقه في التاريخ ، فعلم التاريخ طور آليات التدقيق والتمحيص للنصوص ونقدها ، بل قراءة ما وراء النصوص من مؤثرات ، واعتماد الدراسات التاريخية المقارنة ، وعلم العقائد المقارن. والتاريخية من جهة أخرى تعني الانتماء الى التاريخ والإنسان ، والى العقل والمنطق لا الى الغيب وقواه ، والسحر والخرافة ، وتاريخية أي بحث أو عقيدة تعني تأصيله إنسانياً وربطه بمجتمعه في إطار حركة التطور الاجتماعي عبر الأزمنة. إن ظهور كافة الأفكار ما كان منها عقلانياً ، وما كان منها خرافياً في التاريخ ، يعطي علم التاريخ دوراً كبيراً وفاعلاً في التعرف على مادته.

ومع بعد موضوعنا (العقل الإيماني) عن العلوم الكونية والتطبيقية إلا أن محاولات تأصيل العلوم دينياً ، ومحاولات تأصيل الدين علمياً ، والتي نشأت بفعل حمى انتشار العلوم في العصر الحديث ، جعلت من العلوم الطبيعية مجالاً يجوسه العقل الإيماني ، كما جعلت التأثير القدسي للنصوص يبحث عن مرتكز له في العلوم التجريبية التي أثبتت جدارتها ، ومن مبدأ لا يعرف نفسه من لا يعرف إلا نفسه ، ولا يعرف الحق من لا يعرف إلا الحق ، يظهر التعسف أحياناً في مقارنة العلوم الحديثة للنصوص الإيمانية المقدسة ، ومن أمثلة ذلك (وهي مقارنة إيمانية للعلوم) دراسة حاولت أن تصنع جسراً بين العلوم الكونية والدين الإسلامي بعنوان «العلوم الطبيعية في القرآن» تأليف «يوسف

مروه» يستعرض بعض ماجاء فيها د. صادق جلال العظم^(١٢)، يشير المؤلف الى أن في القرآن / ٦١ / آية في علم الرياضيات، و / ٦٤ / آية في علم الفيزياء، و / ٥ / آيات في علم الذره، و / ٦٢ / آية في النظرية النسبية، و / ٢٠ / آية في علم طبقات الأرض (الجيولوجيا) ... الخ.

وقبل التوقف عن إبراز علاقة العقل الإيماني ودراسته بالعلوم المتنوعة وضرورة إفادة الدارس مما تقدمه القراءات في مجال هذه العلوم، أجد من الضروري الإشارة الى علم يحبو ويتكون ببطء من شأنه أن يكون ذا تأثير كبير في تفسير الكثير من الزوايا الغامضة وغير المؤصلة علمياً والتي كانت فيما مضى حكراً على العقل الإيماني، وكان الكثير من مؤدجليه يعتمدون عليها في تمرير الكثير من الغيبيات الداخلة باب المعجزات. فقد استطاعت حزمة من العلوم والأبحاث تندرج تحت اسم «الباراسيكولوجيا» أن تحقق اختراقات تشبه ما ينسب الى المعجزات والكرامات، في الوقت الذي لا يمكن نسبتها الى ذلك، لبعد من يقومون بها عن حقل الإيمان والمقدس، بالتالي عن حقل الكرامات. من هذه العلوم التخاطر، والاستبصار، والسيكوكينيزيا وغيرها. والسيكوكينيزيا هي المقدرة التي يمتلكها الفكر على تحريك المادة بدون مساعدة قوى خارجية منظورة، ف «نليا ميخائيلوفا حين تحتاج الى غرض ما، يكفيها أن تثبت نظرها عليه، فيبدأ بالانزلاق باتجاهها»^(١٣)، وهي امرأة روسية بدينة وربة منزل كانت تحرك عيذان الثقاب وكؤوس الخمر دون أن تمسها، كما كانت تحرك أنابيب الألمنيوم والتفاح وأباريق الماء^(١٤). وقد استخدم التخاطر على الغواصات عند الأميركيين والسوفييت لمعرفة كل منها أسرار الآخر^(١٥)، كما استخدم التخاطر لالتقاط الأحاسيس والأفكار الخفية للناس الذين نلتقيهم^(١٦)، وهناك تجربة أشرف عليها ثلاثة من علماء الفيزياء، لشخص استطاع أن يتعرف على الأغراض التي يمسك بها شخص آخر أو يتطلع اليها والمسافة بينهما ثلاثة آلاف كيلومتر، وكانت التجارب في أوقات متباعدة وفي غرف معزولة، كما أن الباراسيكولوجي (ميسنغ) استطاع الدخول على الزعيم السوفيتي (ستالين) عبر عملية اختبارٍ وتحدٍ، متجاوزاً أطواق الحراسة الخرافية والأبواب الموصدة والإجراءات الشديدة للوصول الى ستالين، وكان الزعيم ذاته قد طلب اليه أن يفعل ذلك إذا استطاع ليعرف مدى قدراته التخاطرية، حيث يبدو أنه لم يكن يصدق

ما ينسب الى ميسنغ من أفعال^(١٧).

هذه الأمثلة البسيطة والقليلة، لانستطيع أن نقول أنها جرت هي والكثير غيرها مما هو أشد تعقيداً، في إطار كرامات الأولياء، إنما هي في إطار تجارب علمية، على طريق وضع قواعد لعلم جديد قديم، وهذا يحدونا للقول إن مالم يوضع له أسس وقوانين علمية سابقاً من ظواهر الكون ليس غريباً أن يتم وضع القواعد والقوانين العلمية له فيما سيأتي من الزمن، فالعلم واعد ومبشر بآفاق وفتوحات جديدة، وهذا لا يعني تكذيب أو نفي الكرامات عن سابق إصرار وتخطيط، إنما يعني أنها قد تجد نفسها في إطار علم له قواعده وقوانينه، وعندها لن تكون سلاحاً للدعاية ومواجهة الآخرين والتخويف والإخضاع، بل إنجازات علمية لم تكن مصنفة سابقاً. كما تعني أن هذه الأعمال والخوارق ليست حكراً على فئة أو عقيدة أو اتجاه، إنما هي قدرات ماثورة في أشخاص موجودين في كافة المجتمعات وإن هذه القدرات تنمو بالتدريب والتوجيه.

(١٣)

العقل الإيماني هو قراءة تلوينية مفرضة، للنصوص كما للواقع من ناحية النصوص، فإن هذا العقل يخضعها لمعطياته واتجاهاته، وعملية الإخضاع هذه لا تخلو من قسر وتعسف أحياناً، لأن سلاحه الأساسي هو التأويل، والتأويل في أحد وجوهه هو إخضاع النص لآليات محددة تجعله ينطق بما تريد الجهة التي تقوم بالتأويل، فتفهم ماتريد وتنتقي ما يناسبها، هكذا فعل الخوارج مثلاً، حيث اختاروا من النصوص ما يؤيد شعارهم الشهير « لا حكم إلا لله »، ولا تزال آلية الانتقاء التي تنتمي الى القراءة المغرضة المنحرفة التلوينية هي السمة التي تغلب على من يريد أن يؤيد وجهة نظر خاصة بنصوص دينية أساسية، فالحركات المتطرفة الإيمانية التي تفهم الدين حسب مزاجها، تُعتبر قراءتها قراءة مغرضة فهي تتناسى الآيات والأحاديث التي تحض على التسامح والمحبة والتآخي مثل « إن الدين يسر » و « لا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام أنت كافر » و « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين من آمن بالله وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » و « مارآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن » ... الخ ويقدمون في حجاجهم وتبريرهم نصوصاً

جاءت في ظروف مختلفة، ولغايات مختلفة عن الغايات التي يستعملونها لها مثل: «وأعدوا لهم ما استطعتم ...» و «إن الدين عند الله الإسلام ..» و «قاتلوا في سبيل الله ...» و «من ابتغى غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه» ... الخ.

بالإضافة الى الانتقائية في النصوص مما يؤدي الى عدم التكامل في النظرة بحيث يتم النظر من زاوية خطط لها وأرادها المتطرفون بالتالي عزلت النصوص عن سياقها ومناسباتها، فنصوص أي دين تشكل بمجملها منظومته الفكرية والعقيدية، وانتزاع بعضها من هذا المجموع يحدث خللاً، بالتالي فإن العقل الإيماني، عندما يقوم بالانتزاع فهو يفعل ذلك لإعطاء الأجزاء المنتزعة من النصوص معاني غير المعاني التي تحملها النصوص الحقيقية، وليجعلها مبرراً لما يريد القيام به، أي لشرعنة خطواته على مبدأ «لاتقربوا الصلاة ...».

وقد استمرت القراءة التلوينية المغرضة لنصوص الدين حتى يومنا هذا، وانتقلت من النصوص الدينية التدشينية، الى نصوص اسلامية انسانية تراثية هي بدورها كانت قراءة مغرضة. فقد كان في نتاج ابن تيمية الكثير مما يصنف في إطار القراءات التلوينية، ولقد كانت خير سند للفتاوى الإيمانية التي بدأ يطلقها المتطرفون في خروجهم على الشرعيات ومنطق التعايش في بلادهم، لقد وجدوا مبتغاهم في هذه القراءات المنحرفة، بمعايير الإسلام، وبمعايير العصر، وبمعايير العقل والتعايش. وهنا نتساءل السؤال الذي ظل يشغل بالنا منذ بدأنا نتعرف الى التراث: لماذا استطاعت قوى التطرف والشر والتعصب واللاعقلانية أن تنبش من تراثنا أقتم مافيه من دروس وأكثرها عداً لإنسانية الإنسان، وأن تعيد لها الحياة وتجعلها مقياساً لكل ماتطرحة عليها الحياة من قضايا أو لكل مايستجد، في وقت تحرر العقل من كثير من قيوده، وفي الوقت ذاته لم تستطع قوى العقلانية والتنوير أن تنعش الجانب المشرق والجميل من هذا التراث، مع ما أدعته من صولة وجولة، ومع كل ما أمكنها أن تستند اليه من عقلانيات أفسحت لنفسها مجالاً واسعاً في الواقع والفكر المعاصرين؟.

إن القراءة المتعسفة والمغرضة هي المسؤولة عن توليد واستمرار العقل الإيماني الذي يسعى للاتكاء على النصوص الدينية بما يسعفه على العمل والاستمرار، وبما يسعفه على احتلال الكثير من الساحات التي لا يزال يرتع فيها حتى أنه ورث مناهجه الى

الحقل السياسي.

هنا نشير الى أن فهم العقل الإيماني يتم بمقدار ما نستطيع فهم مستويات التعاطي مع الدين باعتباره منظومة متكاملة من القيم، تعبر عنها نصوص أساسية ونصوص متفرعة، تختزن المضامين الأساسية لهذه القيم، وغالباً ما تكون هذه المستويات مرتبطة بالواقع الاجتماعي والثقافي لفرد أو جماعة، ويبقى المستوى الفاعل في الحياة والصانع لأحداثها والقابع وراء حركة الناس هو المستوى الذي يقطع مع السوية الفكرية والعلمية الرفيعة، ويتعاطى مع الجمهور الشعبي البسيط، الذي يعتبر المناخ والوسط الملائم لنمو الحركات الإيمانية.

تستند دراسة العقل الإيماني ومعرفة مدى شططه وتغربه عن العقل الديني الى المقارنة بينهما، فالعقل الديني أصل، وهو في كل دين من الأديان يتمثل بمنظومة القيم التي عبر عنها منطوقه الأول وتعاليمه الأولى (القراءة المستقيمة) والتي على أساس أخذها في الاعتبار أطلقنا تسميات الدين اليهودي والدين المسيحي والدين الإسلامي، وهي تعني في كل دين ما تضمنه كتابه السماوي المنزل، وما نقل عن الأنبياء من أحاديث وسلوكيات، كما تعني الشروحات الأولية والتفسيرات الأساسية، والنتاج الفكري لمفكري وفلاسفة وعلماء كل دين من الأديان وفروعها الأساسية، ومذاهبها المتشعبة، ثم ماتابعه كبار مثقفوها على امتداد تاريخها مما صنف ضمن الخطوط الصراطية (الأرثوذكسية) للأديان والمذاهب والذي كانت مهمته الشرح والإيضاح دون الخروج على الأسس الموضوعية والمقررة والمترادفة على صحيح التنزيل وتفسيراته الأساسية.

وإذا وضعنا في اعتبارنا المفهوم السابق الذي رسمنا إطاره للعقل الديني كما بدت ملامحه من خلال ما أنتج من خطاب سواء كان الخطاب إلهياً أم بشرياً، فإننا يمكن أن نحدد الإطار الذي يأتي فيه العقل الإيماني، والخطاب الذي يتضمنه. فالعقل الإيماني (القراءة المغرضة)، بشري حصراً شفهي في أغلبه، وشعبي، تحصّل من مزج الناس لمفاهيمهم وعاداتهم الاجتماعية في بيئاتهم الشعبية، مما اكتسب الاحترام عبر الزمن، وأصبح قاراً، مع ماتعلموه من تعاليم دينهم، أو مذاهبهم، إذاً هو يشكل انحرافاً عن الأديان بمعنى أو بآخر، انحرافاً نحو التساهل، باتجاه إدخال ما ليس مقدساً (بشري)

ضمن إطار القداسة، وذلك مما تعارف المجتمع على احترامه وتقديره، ومما توهم الناس أنه يمت الى ما هو مقدس.

وكما يشتمل العقل الإيماني على ما أدى التساهل الى قبوله داخل منظومته، وفي هذا من التسامح ماجعل السحر والخرافة تتسلل لتصبح جزءاً من هذه المنظومة، فإن اتجاهاً آخر يميل نحو التشدد، ويضيق على الناس وعلى التعاليم، ويتعامل مع النصوص بحرفية مطلقة، أو بفهم خاص ومنحرف، ويقطع مع التساهل، ويفسر النصوص حسب مصلحته، ويقسو مع الناس، ويتعسف في الزامهم بما لا يلزم لصحيح الإيمان السمع، هذا الاتجاه أيضاً هو اتجاه التزمت به جماعات خرجت به عن الخطوط الأرثوذكسية للأديان.

كلا الاتجاهين أخرج الدين عن نهجه وسماحته وتوجهه الى الناس، أو عن خطه الصحيح، كلاهما منحرف ومغلق وإن لم يكن بالدرجة ذاتها، كلاهما شكل من أشكال الإيمان المشتط، أولهما بإدخال مالم ليس من ساحة الأديان الى هذه الساحة، وافساحه المجال له، والثاني بتضييق هذه الساحة حتى تم اخراج ما ينتمي إليها منها.

العقل الإيماني يتشكل من القناعات والتصرفات والعادات الخافة بالمقدس والتي لها علاقة بالنصوص الدينية، سواء الأساسية النقية (الإلهية) أو تلك الشروح والمفاهيم (البشرية) التي نشأت حول النصوص الأساسية، وأفادت من قدسيتهها وغلبت على ساحة التدين أحياناً، مع أشكال تطبيقها (طقوسها). ابتداء من ممارسة الطقوس الأساسية وما لحقها من اضافات، وانتهاء بطلب الصدقة من قبل المتسول الذي يستعين بما يداخل الناس من مشاعر الإيمان، للحصول على نقودهم، مستخدماً شتى الحيل وأساليب النفاق، باعتباره يتمترس في عمله هذا، ويستعين بالنصوص والأدعية، ويحيل المنهوبين الى رضوان الله، والى الحسنات المكتسبة التي سيجزى بها في الآخرة. إذاً يحتل العقل الإيماني في طيفه الواسع أجلاً الأعمال وأرقاها وأكثرها إنسانية، كما يحتل أيضاً أخسها وأحطها، وكلا الطرفين أو النهجين يستخدم الإيمان والمشاعر الإنسانية الإيمانية سلاحاً للوصول الى غرضه، جليلاً كان هذا الغرض أو خسيساً.

جاءت الأديان كضرورات تاريخية اقتضاها تطور البشرية، وقد كانت تمثل ثورات كبرى بكل معنى الكلمة، وهي ثورات بلغت من العمق والاتساع ما جعل الحياة بدونها تبدو أكثر صعوبة، وهي ضرورات تاريخية بمعنى أن تطور البشرية وصل الى نقاط تأزم مصيري، فكانت الاستجابة لهذا التأزم بتقديم الحلول النظرية والعملية التي لم تكن قادرة على أن تبلغ تأثيرها الكافي بدون لبوس الدين بما يقدمه من عمق في التماهي مع الحياة الاجتماعية. وهذا لا يتنافى مع كون الأديان كما جاء في أدبياتها هبة السماء والرعاية الإلهية، طالما أن الهدف منها تنظيم حياة الناس وضبط علاقاتهم ببعضهم، وعلاقاتهم بالطبيعة، وبما وراء الطبيعة. إذن الأديان جاءت من أجل الإنسان، والتركيز على ضرورة التوجه الى الآلهة وتقديم فروض الطاعة لها، كان ينبغي التربية باتجاه أن تحيا البشرية حياة يسودها السلام، وإننا نسيء فهم الأديان إذا اعتبرناها في خدمة الآلهة، فإله في المحصلة غني عن العالمين، حسب منطوق الوحي وليس بحاجة لخدماتهم، وإذا كان للأديان غاية عباديه، فهي غاية تربوية، تتجلى في ربط الإنسان بالقيم الإيجابية وتنفيذه من القيم السلبية.

هذه الأديان بنصوصها وأفكارها وقيمها تنتمي الى المتعالي الإلهي لا الى الأرضي البشري، حتى مع اعتبار ما أضيف اليها من نتاج البشر، مما يوضح ويحدد خصوصية فهمها.

ولكي تكون هذه النصوص موضع احترام ولكي تأخذ أبعادها في التأثير في حياة الناس وتغييرها باتجاه الأفضل، طلب الى الناس الالتزام بمبادئها وتطبيقها، فلا يكون المؤمن مؤمناً إلا إذا اعتقد بصحة وإطلاقية نصه الموحى، كذلك لا يكون مؤمناً إلا إذا عمل على تطبيقه، وتطبيقه يأخذ منحنيين، الأول: عقيدي يقضي باقتناع المؤمن بصحة الأفكار والقيم المتضمنة في دينه، سلفاً وبشكل لا يقبل المراجعة، وهذا ينطوي على شيء من التسليم، ويفترض أن يكون هذا التسليم ناشئاً عن قناعة، ولا يجوز أن يسقط أي جزء من هذا المعتقد. والمنحى الثاني: عملي تطبيقي وهذا بدوره يتم عبر مسارين. فهو من جهة يقتضي ممارسة طقوس خاصة تؤكد التزام المؤمن بمبادئه وتزيد من ربطه بمعتقدده باستمرار، ومن جهة أخرى يفترض أن يخضع المؤمن حياته وسلوكياته الى

الأوامر والنواهي التي جاء بها هذا الدين، فتكون هذه الحياة ترجمة عملية للنصوص وللعقيدة، وهذا مانسميه بالناحية الأخلاقية، وربما كانت هي الغاية الأساسية من كل المنظومة القيمية لدين ما، ولاشك أنها تستحق أن ينظر إليها بإيجابية لأنها التطبيق العملي للغاية من الأديان وهي إيجاد مجتمعات بشرية تعيش الحياة في أرقى أشكالها، وهذه غاية الإنسان العاقل، وهذا مطلبه من السماء، فالضلال يتم عبر فقدان البشرية للروائز الأخلاقية التي تجعل من الحياة شيئاً جميلاً.

إن المحاضرة في الأديان وأهميتها بتجاوز إطار البحث، ولكن أريد أن أؤسس للفكرة التالية. فالحياة مليئة بالمنازع والتيارات والأهواء بالإضافة الى الاختلافات المناخية وظروف الحياة الاقتصادية، وكلها تقضي باختلاف المفاهيم وتغيرها، وهذا أمر طبيعي، وسنة الكون والحياة، ولم تنكرها الأديان، إذ أن الله لو شاء لجعل الناس أمة واحدة ولكن إرادته المتعالية اقتضت أن يكون الاختلاف في الحياة حاصل، وإن أي سعي لتغيير هذه الإرادة الإلهية يدخل فيما هو كفر وضلال، لأن هذا التنوع يغني الحياة، شرط ألا يسير في طريق التعارض الذي يولد نفي الحياة. من هنا نرى أن العداءات المعتقدية وما ولدته من صراعات مسلحة (وهي واعدة بتوليد هذه الصراعات مستقبلاً) لا تنتمي الى الإرادة الإلهية بالرغم من كل ما أراده الله من اختلاف وتنوع. إن تأسيس الاختلاف على الإرادة الإلهية، يصح انطلاقاً من أنه لم يشأ أن يجعل الناس أمة واحدة، بل اقتضت حكمته أن يجعل الناس شعوباً وقبائل حسب منطوق النصوص المتعالية، نصوص الوحي، فلماذا كان توجه الناس وباسم الله لاختضاع الآخرين الى اللون الواحد، بعد أن شرعن الله التلون والاختلاف؟ أليس لكل لون جعل الله شرعة ومنهاجاً؟ إذاً هذه الشرائع والمناهج هي من عند الله، فلماذا يتم نفي بعضها للبعض الآخر؟.

إذاً تم تكوين العقل الإيماني تحت ضغط الاختلاف وما ولدته من خلاف من ناحية، وتحت ضغط الغاء الاختلاف، وتشكيل الحياة ذات اللون الواحد المنافية للطبيعة والإرادة، مع ما أدت اليه من خلاف أيضاً. الاختلافات الدينية وما ولدته من خلافات تشكل محوراً من المحاور التي تشكل العقل الإيماني، فلقد تعرض كل دين من الأديان السماوية الى الانقسام المتأني من تعدد الآراء وأشكال التطبيق للمبدأ الأساسي، وهذا

التعدد يخضع لظروف الحياة والمؤثرات الخارجية والعوامل الذاتية والمصالح والعادات. ففي كل دين نجد طيفاً واسعاً من الطوائف والمذاهب والنحل والاتجاهات، ولا شك أنها تمتاز عن بعضها بما تولده من خلاقات مع الاتجاهات الأخرى، هذه الاختلافات تأخذ منحى معتقدي، يعني أنها تتأسس على مستوى الوجدان والعقل وتزداد رسوخاً بفعل التجيش وإعادة انتاجها من قبل الموكلين بالإشراف والرعاية لحسن تطبيق هذه المعتقدات، هنا يحدث التناحر الذي يولده الاختلاف ومحاولة إزالة هذا الاختلاف بالإخضاع، وهو اختلاف مشرعن كما رأينا لا يجوز أن يؤسس للتناحر.

إن تعميق القيم الخلافية هو صناعة بشرية، يدان أول ما يدان فيها حراس الإيمان، في كل طائفة أو مله لأنهم هم العاملون على التجيش والاستنفار العقيدي. على مستوى هؤلاء يتم التلاعب بعقول البسطاء، عندما يصورون لهم أن قمة الالتزام بالعقيدة هو التشدد تجاه الآخر المختلف، فيقعون ويوقعون في الخطأ والجريمة. هذا المسار من مسارات العقل الإيماني سيكون ملحوظاً في الدراسة.

والمحور الآخر من محاور العقل الإيماني التي يتناولها البحث، والذي كان الهاجس الأول، باعتبار أن المحور الأول وموضوع الاختلاف والتفرعات في الأديان قد وجدت من تناولها بكثرة، هذا المحور هو الذي يعني بالترجمة العملية لأفكار ومعتقدات دينية بشكب سليم أو خاطيء، مما شكل التزاماً إيمانياً يمارسه الناس في حياتهم اليومية ويتوارثونه، وهو من نتاج البيئة بتماسها مع الدين. لقد تولدت الكثير من القيم والممارسات السلوكية في مجتمعاتنا واتخذت صبغة دينية معتقدية وأصبحت جزءاً قاراً من قناعات الناس الإيمانية وممارساتهم في مناسبات متكررة، ولو جئنا نبحث عن الكثير منها لما وجدنا له أصلاً في الأديان أو أن هذا الأصل قد تم الانحراف عنه أو تحويره حسب الطائفة أو البيئة أو غير ذلك.

هذا المحور نقرأه في حياة الناس في بيوتهم وحاراتهم وقراهم وليس بالضرورة في كنسهم وكنائسهم ومساجدهم، كانت جدتي تقول لنا: من لا يقول بسم الله الرحمن الرحيم في بداية الطعام، والحمد لله عند الانتهاء منه، فإنه لا يشبع، ومن لا يصلي على النبي عند حدوث البرق تتأذى عيناه، ومن يخرج إلى البرية فعليه أن يقول: بيني وبين الأفاعي الولي الفلاني كي تبتعد عن طريقه، وهكذا. وكانت التميمة التي يكتبها

الشيخ بعد أن يتلقى هبة، وقطعة القماش أو البخور عن ضريح الولي أحد سبل مواجهة الأمراض والشرور. إن هذه الممارسات والقناعات قد لا تشكل ضرراً مباشراً، بل قد تساعد في إفشاء الطمأنينة النفسية أحياناً، إنما من شأنها تدريب العقول وتربيتها على الغيبيات، وهذا شيء له حصيلته في بنية الشخصية وتوازنها الفكري، وهذه القيم ليست مستمدة من نصوص الدين مباشرة بالضرورة، فليس هناك نص على أن من لا يسم الله على الطعام لا يشبع، لكنها طيف من الآداب والقيم الحياتية يتعلمها الإنسان فيما يتعلم لتجعل حياته أكثر بساطة، وربما أكثر تعقيداً.

من هذه القضايا ما يدخل في إطار تغييب العقل، كإشاعة قيم السحر والشعوذة التي يمارسها العاملون بالغيب، وقراءة المستقبل، وممارسة كتابة التمام والحجب والأحراز، أو الذين ينظرون إلى الآخر المختلف دينياً أو طائفيّاً، على أنه نجس ونجاسته متأتية من كفره وبعده عن الله، وهذه مقدمة لعدم الاعتراف به، ومن ثم لنفيه ومحاربته.

هذا المحور من محاور العقل الإيماني شفهي على الأغلب، تتم قراءته من خلال حركة الواقع العفوية، لكنها مع عفويتها تشير إلى عمقها، إلى تربصها بأبعاد شخصية الإنسان، ممن يحسب على المؤمنين، وممن لا يحسب عليهم، هنا تتبدى أهمية الاعتماد على علم النفس، ومفاهيم كاللاشعور في فهم الكثير من الخلفيات التي تبرز مظاهر معينة، كيف نتوصل إلى فهم الآلية التي يعمل بها عقل لاعب الكرة الذي نراه يرسم إشارة الصليب وهو يتقدم لتنفيذ ضربة جزاء، أو عندما يحرز هدفاً؟ كيف نفهم الآلية التي يعمل بها عقل المؤمن ونفسيته وهو يقبل غلاف المصحف قبل أن يخرج من غلافه المطرز ليتعبد بتلاوة بعض آياته؟ إنها ليست جزءاً من العملية العبادية، إنها الكثير الكثير من السلوكيات التي يشكل العقل الإيماني خلفيتها، وهي مظاهر ذات تأثير واضح في حياة الناس اليومية، وفي المناسبات كلبس الأقمعة في عيد القديسة بربارة عند المسيحيين، أو تناول القمح أو تلوين البيض في عيد الفصح، أو الخبز الفطير عند اليهود، أو التعوذ بالله عند المسلم من أي شيء لا يريده، أو كتابة بعض التعابير الدينية والآيات القرآنية على السيارات وفي واجهات المحلات، وتعليق آية الكرسي في أماكن بارزة في البيوت والمحلات التجارية وحافلات الركوب أو أماكن أخرى.

لقد نشأت هذه السلوكيات والعادات الإيمانية تحت تأثير الإيمان الديني وتفاعله مع حياة الناس اليومية ومدى ثقافتهم، وهي تختلف باختلاف الطوائف، فهي عند البروتستانتية غيرها عند الكاثوليك أو الأرثوذكسي، وهي عند المسلم الشيعة غيرها عند السني، وهي عند الشيعة الاسماعيلية تختلف ربما عنها عند الشيعة الإمامية. الطوائف والمذاهب والنحل الناشئة في إطار أي دين من الأديان السماوية، والمتولدة عن ممارسة العبادة في بوتقتها، هي تعبيرات وقراءات إيمانية لهذه الأديان، وهذه التعبيرات لها خصوصياتها وظروفها، بالتالي اختلافاتها مع الخط الذي مثلته الكتل الرئيسية، إذ أنها حالات إيمانية. إن الدين واحد، والتطبيقات أو الاتجاهات المتعددة هي أشكال إيمانية تطبيقية، ذات مواصفات اختلافية وخلافية. كيف يتصرف المسلم السني أثناء أدائه لصلاته كيف يتصرف الشيعة؟ ما العبارات التقديسية التي يؤديها السني وما اختلافها عن التي يؤديها الشيعة؟ من هي الشخصيات التي تنال الاحترام عند هذا أو ذاك؟ إنها اختلافات لادينية لأن الدين واحد، إنها اختلافات إيمانية، الاختلافات الدينية تكون بين دين ودين آخر، كالاختلاف بين المسيحية والإسلام مثلاً، أما في إطار الدين الواحد أو المذهب الواحد فالاختلافات إيمانية، أي في شكل وطريقة التعاطي. وهذه ليست الدين وليست غيره.

ينم العقل الإيماني ببعديه المعتقدي والطقوسي عن بشريته، ولكنه لا يكتسب القداسة إلا بإضافته إلى الإلهي، وهنا تبرز ضرورة ربطه بالدين، وضرورة انتمائه إليه، لكن الممارسة الإيمانية لا تتم إلا بإزاحة أصلها الديني وإحلالها محله، فالاتجاهات الباطنية في الأديان، أبعدت الطقوس والمعتقدات الظاهرية لتُحل محلها بديلها التأويلي الذي لا يتأتى بالفهم المباشر، إنما يحتاج إلى آليات أخرى لاستخراج مافيه من دلالات عميقة.

مرجعية البحث في العقل الإيماني هي الواقع المعاش، وشفهيته وطقوسيته لا تلغي اعتماده على التراثات المسجلة والمكتوبة، من هنا برز تحري بروز مظاهر هذا العقل بالاعتماد على التقاط الجزئيات واللقطات من ممارسة الناس اليومية، بتماسهم مع المقدس وتفاعله معهم وانصياعهم لمفاعيله، كما تم عبر المرجعية المكتوبة والتي كان لابد منها خاصة للمقارنة والتوضيح والتحليل.

تبقى الإشارة الى أن العقل الإيماني الذي نحاول معرفته عبر تفكيكه وتسليط الضوء عليه، هو الأكثر تأثيراً، وهو محرك أساسي للمجتمع والتاريخ. إنه يواجه الإنسان منذ لحظة ولادته ويرافقه في كل مراحل حياته، إن النصوص الدينية الرئيسية، نصوص الوحي، مع ما ترتب عليها وما توالد منها من نصوص أخرى، للشرح والتفسير، أو لاستنباط الأحكام، أو لأي هدف آخر، سواء كان الهدف فقهياً أم عقيدياً، لانجدها تجتذب إلا نسبة ضئيلة من الناس، هم الذين سعوا الى الثقافة المكتوبة، وارتبطوا بها من خلال أصولها، فاستهلكتهم المجلدات والآراء والمباحكات، وهم الذين يرتبطون بالأصول من خلال تشبثهم بنمط ثقافة نخبوية، وبقي التعاطي في هذا المجال حديث نخب الى نخب، شكلت جزراً منعزلة عن الجماهير، وبقيت الجماهير مؤمنة قمارس هذا الإيمان بطرائقها الشعبية المختلفة، سواء انسجم مع ما في الكتب أو لم ينسجم، وهذا الإيمان هو الذي ساهم في رسم شخصيات الناس وتحديد أبعاد هذه الشخصيات، فالطفل المسيحي الذي يعيش حلم عيد الميلاد، يهجس بـ «بابا نويل» القديس الشعبي الذي يشيع الفرح في عالم الطفولة، ويجلب الهدية لهؤلاء الذين لم تتشكل عقولهم بعد نهائياً، من الصعب ألا يترك بصمته على شخصية هذا الطفل، فيساهم في صبغها أكثر مما تساهم كتب اللاهوت. هذا الجو المفعم بالإيمان الطقوسي هو الذي يعيشه الطفل المسلم في منزل والديه وفي حارته في رمضان من كل عام، فيمزج الإيمان بكل ما يفرح عندما يأتي عيد الفطر حاملاً للأطفال بعض ما يحلمون به.

إنني أزعّم أن هذا المناخ الذي لا ينتمي في أغلبه الى الكتب وما تختويه هو الذي يساهم أكثر من أي مقوم آخر في تكوين الشخصية الإيمانية، ومؤثرات هذا المناخ وعناصره هي التي تسهم في الشكل الذي يكونه المؤمن في المستقبل سواء بانفتاحه على قيم الرحمة والتسامح والمحبة والخير، أو بانسرابه في متاهات التعصب والحقد المذهبي المفارق لحقيقة الأديان في أفقها المتسامي والمتسامح.

عن أية شخصية ستنجلي تلك الأجواء التي تسود احتفالات كربلاء السنوية التي تقام في الأوساط الشيعية والمعبرة عن عدم الغفران للآخر والذات، أو التكفير عن تلك الجريمة الشنعاء التي ارتكبت بحق الحسين، والتي لاتزال تستعاد بأجوائها التراجيدية؟ هل ستفرج عن شخصية متسامحة؟

وعن أية شخصية ستنجلي عقيدة الغيتو والغويم عند اليهودي؟! إننا نتناسى أن الحياة لن تقدم لنا إلا الشخصيات التي نصنعها في بيئاتنا، وإن هذه الشخصيات لن تكون إلا من العناصر التي ندخلها في تصنيعها. إن الشخصية المؤثرة في الواقع والقادرة على تحريكه، بالتالي على صناعة تاريخ الكتب والتاريخ الاحتفالي، بل تاريخ الناس في حراكهم اليومي وعلاقاتهم المباشرة، هي الشخصية التي تتشكل منها الكتلة الجماهيرية. لماذا يولي الفكر اهتمامه للأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا فيما كتبوه، ولا يولي اهتمامه لذلك الشاب الذي هاجم نجيب محفوظ بالسكين، أو لتلك المرأة التي تصنع كنزة الشتاء لفقر لا يجدها، منطلقة من شعورها الإيماني؟!.

(٥)

الكثير من الأبحاث والدراسات تتصف أحكامها بالاطلاقية والشمول، ولا يشذ هذا البحث عن هذه الصفة أحياناً، كما سيظهر للقارئ، فكثيراً ما يأتي الحكم دون تمييز بين زمان وزمان أو مكان ومكان أو فئة اجتماعية وفئة أخرى. والإطلاقية والشمولية قد تتضمنان صوابية الرأي وقد لا، وهو الأعم الأغلب، فالخطأ هو الوجه الآخر للصواب في أي حكم. وفي السبيل إلى فكر يحترم عقل القارئ، ويجنبنا الكثير من المزالق، وينسجم مع حقائق الحياة، دون تعسف في الأحكام، فإننا نشير إلى أن أحكام بحثنا هذا نسبية، وهذا مانعته، وما يرد من إطلاقية فإنما يرد على سبيل التغليب. وتبدو النسبية في مجال البحث في العقل الإيماني من نواح عدة.

فمن ناحية أولى تبدو النسبية في عامل الزمن، فالأزمان تختلف في عمق سيطرة القيم الإيمانية السليمة أو الزائفة، فالزائفة تسود أيام الضعف، واختلال القوى، أيام حلول الكوارث الطبيعية أو غير الطبيعية، وأيام غلبة الأعداء، ولا شك أنها تحتاج إلى مناخ تتردى فيه الثقافة العلمية والعقلانية ويضعف شأنها، ويتراجع دور حاملها، عندها يصبح العقل محموماً في البحث عن مبررات وتفسيرات تعوزه في امتلاك أية معرفة أو أي شرح أو تفسير لقضية ما فلا يجدها في حقل الثقافة العلمية والعقلانية المفتقدة، فيكون التوجه التلقائي إلى حقل الثقافة النقيض، حقل الخرافة والسحر

والشعوذة، أو حقل الغيبيات والتعميمات التي لاتقنع إلا العقول التي تعودت الاستسلام.

أثناء الكتابة الأخيرة لهذا البحث أوردت الأنباء في ٦/٣/٢٠٠٠ خبراً مفاده أن فتاة جزائرية تزرف من عينيها دماً دون ألم، وهذا شيء ملفت، والشيء الآخر الملفت في النبأ هو مسارعة رجال الدين من مسلمين ومسيحيين الى معاينة الحالة واعتبارها حالة إيمانية، فالفتاة في رأي هؤلاء تملك خاصية شفاء المرضى، طبعاً على الطرق الإيمانية، وبعد أن هبط وزنها من ثمانية وخمسين كيلو غراماً الى ثلاثة وأربعين، تقرر نقلها على نفقة السفارة السعودية الى الديار المقدسة لإجراء الفحوص الطبية وأداء فريضة الحج، فهلا كانت الفحوص قبل إطلاق الأحكام للفصل فيما إذا كانت حالة إيمانية روحية أم مرضية مادية؟!.

عندما تحدث كوارث كالزلازل مثلاً، تستثار العقول، وتبدأ بالبحث عن الأسباب، عندها نجد أن التفسيرات العلمية العقلانية المستندة الى تحليلات نابغة من استنطاق علم الجيولوجيا وطبقات الأرض، تجد حاملها من فئة قليلة من المثقفين ثقافة علمية وعقلانية، بينما نجد أن التفسيرات التي تشير الى أن هذه الزلازل أو الكوارث الأخرى، دليل على غضب السماء، وعدم رضى الآلهة، تسود في الأوساط الشعبية البسيطة والغالبة على الساحة الاجتماعية ولا عجب أن تستقطب الكثير من المثقفين ثقافة سكونية، هذا ماجرى في تفسير الزلازل التي حدثت في تركيا صيف وخريف ١٩٩٩م. وقد يأتي تفسير الهزيمة أو النصر أمام العدو، باستعداد الجيش، وتأمين متطلبات المعركة، كما قد يشير تفسير آخر الى أن العملية مرتبطة برضى الله أو غضبه. فقد كانت هزيمة حزيران دليل غضب الله في نظر بعض مؤدجلي الإيمان كالشيخ محمد متولي الشعراوي، وكان نصر تشرين دليل رضا الله بحيث أرسل ملائكته لإنجاز النصر كما سنرى في رأي الشيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر. إن التفسيرات السلبية للأحداث تمنع من البحث عن كوامن الخلل ومحاولة إصلاحها أو تجاوزها إذا كان ذلك ممكناً. وهذه التفسيرات التي تسود في أزمان الضعف والتراجع الفكري، مبتعدة عن الاستهداء بمبدأ العلية والسببية في إدراك كنه الأمور، قد لاتسود في أزمنة أخرى، يكون العقل فيها مطمئناً، وغالباً ماتكون أزمنة الطمأنينة والسلم، أزمنة القوة والمنعة،

حيث يسود العقل العقلاني والنقدي بدلاً من العقل السحري والغيبى، وتاريخ الشعوب ناطق بما يفصح عن هذا الرأي. من هنا كانت الأحكام النسبية لا الإطلاقية هي التي يجب أن نقرأ البحث على ضوءها.

وكما تبدو النسبية في عامل الزمن الذي هو عامل تاريخي، فإنها تبدو من ناحية أخرى محكومة بعامل المكان، أي المجتمعات السكانية، فليست كل المجتمعات بمستوى واحدة من حيث سيطرة العقل الإيماني أو النقدي، ففي المدينة الواحدة تختلف نسبة هذه السيطرة من حي إلى حي، فهي ليست في حي «باب الواد» في العاصمة الجزائرية كغيره من الأحياء، حسبما أشارت أخبار الحركات الإسلامية المتطرفة، وهي في الأرياف والمراكز البعيدة عن المجتمعات الحضارية الكبرى غيرها في المدن التي نالت نصيباً محترماً من الحضارة والتقدم، ففي الأرياف والأماكن غير المتحضرة جيداً تسود التحليلات المركزية على مستوى الجماعات القرابية كالقبيلة والعشيرة أو الجماعات العقيدية كالطائفة أكثر، وترتبط مصلحة الجماعات هذه بوحدة الرأي والتفسير، أي الشمولية، ومركزية الرأي، أي سيطرة الفرد. فلا يمكننا اعتبار منطقة الصعيد في مصر مثل غيرها في القاهرة والاسكندرية مثلاً. وهي في بعض الدول غيرها في دول أخرى، وهذا أيضاً تابع إلى المستوى الحضاري، فهي في بلدان أوروبا غيرها في أفغانستان بالتأكيد. كل ذلك يرتبط بمستوى التطور العلمي والثقافي الذي ينعكس في حياة الناس.

وهذه النسبية أيضاً مرتبطة من ناحية ثالثة بالمذاهب والجماعات الإيمانية كما هي مرتبطة بالشخصيات التي تتولى التوجيه والأدلة في هذه الجماعات، فالمؤدلجون يؤدون دوراً كبيراً في التوجيه والتجيش، وبالتالي في نوعية الفكر الذي تتم زراعته واستثماره بين الناس، وبالتالي في نوعية العقل المنتج والذي يصنع حسب رغبات ومستوى وأذواق هؤلاء في الكثير من الأحيان، ودرجة استنارة هذه الفئة متفاوتة بين واحد وآخر، فالشيخ الذي يوهم الناس أنه يقوم بحبس الجنى الذي يتبع إنساناً ما فيؤدي إلى إمرضه أو خبله وبلبله حياته، هذا الجنى يسمى (التابعة أو التابع)، لا يمكن أن نقارن رجل الدين هذا برجل دين آخر، يصل إلى درجة من التنوير تدفعه إلى السخرية ممن يقوم بهذا العمل قائلاً بكثير من السخرية «مساكين أهل أوروبا من يحبس

لهم توابعهم؟». هذه الإشارات تبين وضوح النسبية في سيطرة العقل الإيماني المتخلف أو العقل العقلاني المتنور بين إنسان وإنسان ورجل دين ورجل دين آخر، ورجل الدين المتنور هذا^(١٨)، هو الذي يردد مرشداً المؤمنين من حوله: «كل فعل الواجبات من العبادة»، وهي عبارة تحمل طيفاً واسعاً من القيم الإيجابية، التي باعتمادها يمكن أن تأخذ مجتمعاتنا طريقها الى التقدم والخلاص الذي وعدت به الأديان جميعها. لكن للأسف إن الحق عقيم، وأعظم الرجال من لاذرية لهم. فأمثال هذا الشيخ المتنور قد لا يجدون من يتابع خطهم التنويري، وإذا كان قد سمح لهم بالمرور وممارسة التنوير لاعتبارات ما، فقد يمنع غيرهم وتصب عليه اللعنات لاعتبارات أخرى، ولاننسى أن مثل هذا النهج التنويري يحرم المتكسبين من استغلال غفلة وجهل وتجهيل المؤمنين، والغفلة والجهل طريق الى مورد كبير وبدون جهد، ويبدو أن ذلك في كل زمان ومكان، فقد انتشرت في أوروبا عبارة تقول: «ليس للمال رائحة» ويقصدون أن مصدر المال، وطريقة كسبه لا تؤثر في قيمته لأنه يظل مالياً لا ينظر أحد الى أخلاق دافعه، وهذه العبارة كانت قد وضعت للتندر على رجال الدين، فالقس يقبض المال من يد الزانية ويخزنه في جيبه، والإمام يقبض المال من يد السارق ويخزنه في جيبه، ولايزهد واحد منهما فيه، ومصدره في الحالين حرام، قد نهت عنه الأديان^(١٩).

هكذا تظهر النسبية ليس في المذاهب فقط والأديان فقط بل في رجال المذاهب والأديان الذي يختلفون في مستوى وعيهم وعلمهم، ولاشك أن الأصديق منهم من ينتمي الى قيم الحق والعقل والحرية والعلم.

إن العقل الإيماني يفتقر الى الاستنارة، لأنه دوغمائي، لكن هذا الافتقار ليس مطلقاً، وهذا ما يجعلنا نشير الى النسبية في الأحكام، كما أن مستوى الإغراق في الغيبية والسحر والخرافة ليس واحداً، فالعقل الذي يؤمن أن كل فعل الواجبات من العبادة، ويدعو الى ذلك، يمكن أن يصنف بين العقول التي تقود مجتمعاتها الى الخلاص، كما حدث في إيران أيام المشروطة وأيام ثورة التنباك، وكما حدث في قيادة رجال الدين للثورات في أمريكا اللاتينية، فيما عرف بلاهوت التحرير، وقبلها جرى في بلادنا أثناء التصدي للاستعمار الفرنسي.

إن مستوى التطور العلمي والثقافي لشعب ما أو بيئة ما، يفترض أن يكون لها

تأثير واسع على العقول، فتتغير هذه العقول وتتطور باتجاه ما هو إيجابي، ويتناسب هذا التغيير طرداً مع نمو الثقافة العقلانية، والعلوم بكافة أشكالها وأنواعها وتياراتها.

(٦)

إن العمل على إشاعة المناخ الإيماني في كل جزئيات الحياة زمانياً ومكانياً من شأنه أن يبقى التحريض بهذا الاتجاه مستمراً، مما يعني إعادة إنتاج الشعور الإيماني والقيم الإيمانية، سواء بحضور القيم والتعاليم الدينية الأساسية التي وردت في الأدبيات والمصادر الرسمية للأديان، أو في غياب هذه القيم والتعاليم، هناك عملية ربط شعورية ولا شعورية بين الكثير من المظاهر والتصرفات، وبين الرضى الداخلى بأن كل هذه الأشياء تجعل من الإنسان مؤمناً لا يخرج من حظيرة ما هو ارتوذكسي مستقيم. الكثير من المظاهر يجب أن نقرأ ما وراءها لكي نصل الى فهم صحيح لها، فماذا نقرأ وراء وجود الآيات القرآنية على شكل لوحات مزينة ومزخرفة ومتقنة الصنع، معلقة على جدران البيوت مثلاً؟ هذه اللوحات توحى بمناخين اثنين، أولهما جمالي تجلبه دقة الصنعة وجمالية الفن الذي انتجت اللوحة بمعاييره، والثاني، مناخ إيماني هو الذي دفع المؤمن الى الاستعاضة عن أي منظر جمالي آخر، وقام بتعليق لوحة فيها آيات قرآنية، أو لفظ الجلالة، أو أسم النبي. إن شيوع مثل هذه الحالة أو المشهد يساهم في التشكيل النفسي والعاطفي، ويشكل عاملاً ضاغطاً على المرء باتجاه الإيمان وإعادة إنتاجه، كأن نجد العبارات الإيمانية التي تدعو الى الصلاة على النبي عند مشاهدة عربة تسير على طريق كتب عليها طلب واضح أن تصلي على النبي عند مشاهدة هذه العربة. وما أكثر هذه المشاهد التي منها العبارات المضادة لحسد الحساد، أو موانع الحسد التي اخترعها هذا العقل وعلقها على مراكب النقل وسيارات الأجرة وغيرها، ومنها الآيات التي تعلق في المحلات العامة بشكل بارز من مثل «هذا من فضل ربي» و «لئن شكرتم لأزيدنكم».

إذاً في شوارعنا وطرقنا، في أسواقنا كما في بيوتنا، هناك مشاهد ومظاهر تشد الإنسان الى هذا المناخ الإيماني، يعضدها الكثير من التصرفات التي يقدم عليها الناس، فالمؤمن البسيط، الذي يود تلاوة القرآن تعبداً، يقدم على ذلك بطقوسية، فهو

يخرج الكتاب من المحفظة القماشية المزخرفة التي تفنت زوجته أو ابنته في تطريزها وصنعها إجلالاً لهذا الكتاب، ثم يقبله ويضعه على رأسه، ويعيد تقبيله مرة ثانية عندما ينتهي من التلاوة، ويعيده الى غلافه المطرز، ليستقر على الحائط معلقاً بمشجب ومحاطاً بما يليق به من الاحترام. ولاشك أن كل ذلك يرتبط بالحالة النفسية التي صنعتها الأيام عند المؤمنين.

من المظاهر الإيمانية هذه الاحتفالية الواضحة في توديع واستقبال الحجاج، هذه الاحتفالية تعبر عن شوق الناس واحترامهم لهذه المكانة التي ينالها الحاج، دون التمعن فيما إذا كان هذا الحاج قد أفاد من دروس الحج، وأن مسلكيته في الحياة تعبر عن معاني تتناسب مع هذه المكانة/الرمز، وكثيراً ما يكون هذا اللقب جواز مرور الى ما لايجوز المرور إليه من الانتهاكات، لأن الحاج لم يعد يخاف من المستقبل، لقد ضمن الشفاعة وهي شفاعة لا ترد، فالعبارة التي يستقبل بها الحجاج «من زار قبري وجبت له شفاعتي» لا تترك مجالاً لعدم الغفران، وهذا الغفران (الواجب) يدفع الى الشك أن يكون النبي قد أوجبه على نفسه إلا مشروطاً بالتزامات معينة (هذا إذا سلمنا بصحة الحديث؟) أما أن يكون الوجوب فرضاً على النبي حتى في حال كون من زار قبره قد خرج على القيم الإيجابية للإيمان (تحديداً بعد الزيارة) فهذه مصادره للإرادة النبوية، لانجدها تنسجم مع قيم الإيمان الإيجابية. مع ذلك نرى في الاحتفالية التي يستقبل بها الحجاج، دليلاً على سيطرة المشاعر الإيمانية المتمزجة بأجواء التفاخر والمكانة الاجتماعية، فهذه المواكب الاستقبلية والزينات المقامة، والهدايا والأطعمة والتهنئات، كلها تأتي في سياق إشاعة الجو الإيماني والإفادة من مفاعيله في الحياة. وفي كثير من الأحيان يكون هذا المناخ الاحتفالي أحد أهداف الممارسات الإيمانية سواء في الحج أو في الصيام، وأكثر ما تتمثل هذه الاحتفالية بالتنوع الطعامي، والتكاسل عن العمل دليل الضنى الذي يسببه الصيام، كما أصبح الصوم يتمثل في إرهاب الطبقات الفقيرة بمظاهر هذه الاحتفالية حتى تبدو أنها لا تقل عن غيرها احتفاء بشهر الصيام، وقد أصبح كل ذلك مجالاً للمفاخرة تضح بها وسائل الإعلام، دون أن يدري هؤلاء المتفاخرون أية أذية يلحقونها ببسطاء المؤمنين، وهي لم تكن مستحبة يوماً في الأعراف الإيمانية لما تحدثه من ألم نفسي للفقراء.

وفي البيئة الإيمانية المسيحية تشكل هذه المظاهر بعداً أكبر وحضوراً أشد فيما يتعلق بالصور واللوحات، ومعلوم مالأيقونات والتماثيل من دور في أداء الشعائر، فالمسيحي يجد أمامه في المنزل تمثالاً للسيد المسيح على الصليب، أو صورة للطفل يسوع الملائكي، أو صورة للأم مريم، وهو جاهز في كل لحظة ليتضرع الى هذه الرموز والصور والتماثيل، كما لصور القديسين أو ما يذكر بهم، خلاصاً من هم أو دعماً في مواجهة مشكله. ومع أن الكثير من التصوير في الإسلام غير مستحب، بل تحاربه الجهات الإيمانية المتزمتة فإن عدوى افتناء (صور القداسة) عمت في بعض البيئات الإسلامية، ولاشك أن ذلك يتم بحسن نية، ففي المجال الإيماني لا افتراض لسوء النية، قد نفترض البساطة وضعف الفهم، إنما لاحق لنا في افتراض سوء النية. من هذه المظاهر التي انتشرت في بعض البيئات الإسلامية - ربما تقليداً لما هو شائع في البيئات المسيحية - تعليق الصور لشخصيات قداسية، كمصور (الخضر - مارجرجس) النبي الأخضر الحي في كل زمان ومكان حامي الزراعة والمزروعات، أو تعليق صور افتراضية لعلي وأولاده مثلاً أو صور لمؤمنين وأتقياء سابقين... الخ، كما صور الكعبة والمسجد الأقصى.

كل هذا يستدعي مناخاً تنتفي منه قيم الشر القادم على الإنسان وتترسخ وتثبت قيم الخير المرجوه بالحاح، والمتوسل إليها بكل هذه المظاهر السابقة، ولاشك أن ذلك مرتبط بالبيئات ومستوى تطورها العلمي والثقافي والاقتصادي والاجتماعي، ففي الوقت الذي نجد أن هذه المظاهر تنتشر بكثرة في البيئات الشعبية ذات المستوى الاقتصادي المتدني وربما ذات المستوى الثقافي المتدني، نجد أن هذه العناصر والمظاهر تنحسر الى حد ما عن البيئات ذات المستوى الثقافي العالي وأيضاً عن البيئات ذات الحالة الاقتصادية الرفيعة لأسباب لاتخفى عن ذهن المدقق والدارس، فأصحاب المستويات الاقتصادية والثقافية الرفيعة قد يقدمون على اقتناء لوحات فنية غالية الثمن لتزيين منازلهم بها مستعيزين بذلك عن آية الكرسي أو آية النور، أو غير ذلك من مظاهر الإيمان، ولهذا الأمر دلالات لاتعني أن اللامبالاة الدينية سائدة حيث لاتوجد هذه المظاهر، ولاتعني أن الفقير أو ابن البيئة الشعبية البسيطة يحمل عقلاً أقل تحضراً وأكثر تخلفاً من الآخرين، فالكثير من المظاهر الوارد ذكرها هشة ولاتصمد للامتحان

إذا جد الجد. ولاننسى أن الإيمان يتناسب عكساً مع الثراء.

مانتحدث عنه يحيلنا الى الحضور الدائم للرمز أو لمجموعة الرموز التي يتخذها دين أو مذهب ما، وسيلة لتكريس الحضور المؤثر على عقل الإنسان وعواطفه وبالتالي توجيهها له بالاتجاه الذي يخدمه هذا الرمز وقوة تأثير الرمز تأتي من شعبيته وبساطته وظهوره بأنه غير مقصود، بالتالي تشكل عفويته مدخلاً الى النفوس، وقد يتخذ الرمز أشكالاً متعددة، ويعتمد طرائق متنوعة، فقد يكون كلمة، أو شكلاً أو تصرفاً أو غير ذلك، وربما وضع ليكون رمزاً عن سابق وعي، أو قد تكون الأيام جعلته رمزاً بشكل عفوي. فعندما يتدخل مسلم لحل نزاع بين مسلمين، نراه يطلب منهما ابتداء (صلوا على النبي) وقد يكون هذا الطلب من شخص لآخر أو آخرين في باب النزاع أو غيره، وهنا نرى التأثير النفسي وإحداث جو الطمأنينة، باستحضار ذكر النبي الذي يجله كل مسلم، وهذا الأثر النفسي الحاصل من جراء طلب الصلاة على النبي وتكرار ذلك من قبل الحاضرين والسامعين قد لا يفوقه تأثير آخر، وهنا يعتبر مدخلاً لخوض أي حديث أو المفاتحة بأمر بدا مستعصياً، أو التصديق على موقف أو كلام سابق، وقد تحولت هذه الكلمة الى رمز ذي تأثير قوي لأنها جزء من عقيدة المسلم، والذي لا يتم إسلامه إلا بها، فتأتي لتذكره بموقفه ودوره وتعيده الى الصراط المستقيم، ونرى هذا الرمز يبرز على شكل تلفظ عفوي عقيدي بسيط يكرره المؤمن المسلم في جميع المذاهب والنحل الإسلامية مرات ومرات، وفي هذا الموقف تضعه أيام امتحان مدى التزامه الإيماني بالاستجابة الى نداء التعقل والسلم، كما تفرغ شيئاً من شحنة غضب المتخاصمين بإدخالهم في مناخ إيماني مختلف عن مناخ الحمية والانتصار بالعصبية، وتذكره بثقل مواجهته لذكر النبي دون استجابة.

في ظرف مماثل يلجأ المسيحي الى رمز من نوع آخر، يتمثل بحركة عفوية ترسم الصليب بحركة من يده لاستحضار الرعاية الالهية، وإحداث التأثير في الجو المحيط، وكثيراً ما نرى هذه الحركة تتم في ساعات الضيق طلباً للرحمة والفرج، وفي ساعات الفرج تعبيراً عن الشكر، فلاعب كرة القدم الذي يرجو النصر على الفريق الخصم يرسم إشارة الصليب عندما ينزل الى الملعب كما يرسمها عندما يحرز هدفاً، وتأتي أهميتها من عفويتها وظهورها على أنها الشكل التعبيري المباشر للاوعي الإنسان في لحظة

معينة. ولا شك أن هذا الرمز وغيره لدى المؤمنين يحتاج الى دراسة من قبل علم النفس الديني، أو علم النفس الجمعي، أي من قبل المتخصصين في مثل هذا المجال لبيان القوة الإيمانية التي يملكها، وقوة وساحة التأثير التي تشبه الساحة المغناطيسية. لا أريد مغادرة الموقع قبل أن أشير الى أن في جعبة المؤمنين رموزاً كثيرة ومتنوعة، غنية في قوتها ودورها الإيحائي، وتأثيرها النفسي، والإيمان في المحصلة هو عملية نفسية في أحد أبعاده، وهذه الرموز تحتاج فيما بعد الى استقصاء وجمع وتصنيف قبل التحليل، فماذا تعني أغطية الرأس عند اليهودي المؤمن؟ وبماذا توحى وماتأثيرها؟ مثلاً. ماذا يعني تحويل شكل القرآن (المصحف) كحلي تتحلى بها النساء المسلمات؟ وماتأثير ذلك وبماذا يوحى؟ ماذا يوحى تحويل الصليب الى حلي تبرز على أعناق الفتيات والفتيان عند المسيحيين؟ وغير ذلك الكثير الكثير من الرموز والتصرفات والأشكال التي أخذت بعداً رمزياً، كوضع الهلال مثلاً على الأبنية الدينية الإسلامية، وأغطية الرأس عند رجال الدين في كل طائفة أو مذهب أو ملة، والأدوات التي يستخدمونها، ولماذا كان شكلها هكذا؟ كالعصي والمباخر وغيرها في دور العبادة المسيحية.

كل هذا لا يمكن إغفاله أو استبعاده عن ساحة الفعل الإيماني المؤثر في عواطف الناس وعقولهم وإعادة صياغة وتشكيل هذه العقول تشكيلاً يخدم اتجاهها ما، مع ملاحظة ما يرافق هذه الرموز من شحنات روحية تأليبية من شأنها المحافظة على جذوة الإيمان متقدة وحراسة هذه الجذور خوفاً من خمودها.

ولاننسى أن الرموز التي وظفتها الايديولوجيات الإيمانية الدينية التأليهية، وقد انتقل تأثيرها ومفعولها الى حقول أخرى كالحقل السياسي والاجتماعي، وقد رأينا ذلك واضحاً لدى المتأدلين في إطار إيديولوجيات كان لها تأثيرها الكبير في العصر الحديث كالشعارات التي ترددها قوى معينة، والإشارات والأعلام والأناشيد، وقلما ظهرت ايديولوجيا معاصرة إلا واتخذت مثل هذه الإشارات والرموز، زيادة في التجيش المخيالي ومدى تأثيره، من أمثلة ذلك ما يعنيه شعار النجل والمطرقة في الحقل الشيوعي ومدى تأثير هذا الرمز الذي تحول من حقل الواقع المعاش لدى فئات الكادحين الى رمز ذي معنى للكادحين وغير الكادحين من الشيوعيين والمتأثرين بفكرهم في كل

أطراف المعمورة، ولا تقل الدلالة التي يعنيها وضع الصليب أو المصحف كحلي في عنق الفتاة المسيحية أو المسلمة، عما أصبح أو كان يعنيه وضع المنجل والمطرقة على ياقة السترة عند الشباب والكهول، وبشكل فيه الكثير من الاعتزاز والفخر بل والتحدي أيضاً، وهذا بعدُ لم يعرفه الرمز الديني.

وكما دعوت سابقاً الى دراسة يقوم بها المتخصصون في علم النفس لأثر هذه الرموز على الجماهير وضبط إيقاع حركتها في إطار ماهو إيماني تقوي، كذلك أدعو الى دراسة تاريخية اجتماعية لنشأة هذه الرموز وتطور دلالاتها عبر التاريخ، والقوى الاجتماعية التي أوجدتها، وما مصالحتها، وبيئات انتشارها وظروف هذا الانتشار.

(٧)

في عملنا هذا، قد يتم التساؤل عن المبرر، عن غائية البحث والهدف المتوخى من دراسة العقل الإيماني، وكأن هناك نقصاً في الكتابات المتعرضة للإيمان وتعميم قيمه. وأؤكد أن هذا البحث لا يأتي في الإطار المذكور. هذا البحث يهدف لأن يكون محاولة أو بداية مشروع ينبغي تفكيك ودراسة هذا العقل لمعرفته أكثر، ولبيان مكانته، ومدى ضرورته أو عدم ضرورته، وتأثيره في الحياة العامة، ودعم الجانب الإيجابي فيه.

لقد تمت الإشارة في أمكنة متعددة في هذه الدراسة الى أن هذا العقل (العقل الإيماني) هو عقل عملي نقرؤه في سيطرته على سلوك الناس، ومناحي حياتهم، ومدى التأثير في واقعهم، وانتقاله الى السياسة في ظل الايديولوجيات التي اصطبغت بصبغة إيمانية مستفادة من الإيمان الديني. إن تزايد الانتشار للفكر الطائفي والايديولوجي في وقت نتوخى التخفيف من حدة التعصب المذهبي، والتعايش السلمي للأديان والمذاهب والملل والأحزاب والفئات والجماعات وغيرها، يشير الى مفارقة، ويدفع الى الدهشة، فكلما أملنا أن تكون هذه القيم - سماوية كانت أو أرضية، دينية كانت أو سياسية - عامل وحدة وانسجام، نجد أنها تحولت بفعل العقل الإيماني العقيدي الدوغمائي الى عوامل للتفكك والتناحر، وهي في كثير من الأحيان وعبر تعبيراتها ذات التوجه الالهي أحياناً، والمصطبغة بصبغة ملية أو طائفية مذهبية، شكل من أشكال التعبير عن الواقع المأزوم، فالفكر الديني في مستواه النصي الرفيع والذي

هو مجال النخب الفكرية والثقافية ويتعاطى مع النصوص الرفيعة، لم يتنازل الى دراسة هذا الواقع الإيماني الشعبي، ذي الحضور والفاعلية القصوى في الواقع، وهو شيئاً أو لم نشأ، المحرك الأساسي أو أحد المحركات الأساسية لحياة الناس بعد أن صبغه المؤمنون بألوان مصالحهم وقناعاتهم وعاداتهم، وأدخلوه مجال تدينهم واسبغوا عليه الشرعية، حتى لو كانت عناصره في الكثير من الأحيان لا تنتمي الى الأديان التي ينتسبون اليها.

إن أحد أهداف هذه الدراسة هو تسليط الضوء على هذا الواقع، بعد دخولنا في متاهات الأصالة والمعاصرة، والقديم والجديد، والمؤثرات التي تلعب دوراً في تخلفنا أو نهضتنا، إن التأثير على الجماهير وتوجيهها، لا يكون في دراسة المعتزلة والغزالي والاشعري وابن تيمية... الخ، بل يكون في معرفة حراك الناس الإيماني، في مظاهر تدينهم الشعبي، ذي المظاهر التي لا تخفى على أحد، وهي في الكثير من حالاتها نجد روابطها مع النصوص الأساسية روابط ضعيفة.

والملاحظ أن هناك الكثير من الاتفاق والتقاطع في العناصر الإيمانية، والأفكار الإيمانية، وتوجهاتها لدى جماعات مختلفة ديناً أو طائفة، لقد استبدل المؤمنون النصوص الأساسية بالرموز الإيمانية والعادات والتقاليد التي قد تلتقي كل ملة فيها مع الأخرى، سواء اعترفت بذلك أم لم تعترف، وسواء صنع هذا التلاقي أو اصر محبة واتفاق أو عوامل نفور واختلاف. وأحياناً أخرى نجد أن الانحرافات التي نشكو منها تسيطر على مفاعيل وجماعات هذا العقل، فتصنع المشاحنات التي نشكو منها. إن الاعتراض على تعميق الخلافات، يفترض أن يمر عبر دراسات تبرهن أن الاختلاف عرض والاتفاق جوهر، أي أن العناصر التي تجمع، أكثر من العناصر التي تفرق، أليست الصفات الإيجابية المتعالية والرفيعة هي التي نتمسك بها جميعاً وفي أي دين كميزات وصفات لآلهتنا التي نؤمن بها؟ إذاً الجميع متفقون على هذه ومختلفون على ماهو أقل منها.

إن الإنطلاق من هم تكوين لحمه اجتماعية تسعى الى ما يوحد، دون أن تغفل الاختلاف والتنوع الذي يعتبر أحد عناصر الغنى، يجب أن تكون أحد هموم الدراسات، وذلك ما لانراه اليوم، إذ من الملاحظ في أيامنا هذه، وخلال العقود القليلة الماضية،

تزايد وانتشار الدراسات ذات الصبغة الطائفية والمذهبية، قد يكون هدف بعضها سليماً، ينحو نحواً معرفياً (ابستمولوجياً)، ويقوم على أسس ومناهج نقدية وعقلانية حديثة، إلا أن بعضها الآخر بصنف في الخانة السلبية، والشبهة واضحة فيه، ويأتي ليعخدم هدفاً أيديولوجياً أو سياسياً لجهة ما، أو هدفاً فتوياً طائفيّاً تحجيشياً مغرضاً.

أشير الى مثال واحد، يقع في الخانة السلبية، يتمثل في سلسلة عنوانها «سلسلة الحقيقة الصعبة»، كاتبها أصر على التخفي وراء اسم موهوم «أبو موسى الحريري»، وإخفاء الاسم الحقيقي للمؤلف موضع تساؤل وشبهه، إذ مامبرر هذا الاخفاء لو كان الهدف علمياً معرفياً فقط، وقد صدر في سياق هذه السلسلة أربعة كتب، بعضها يتناول طائفة معينة لاتخلو دراستها من أغراض غير علمية تنضح بها فصول هذه الدراسة، وبعضها الآخر يتناول الاسلام ونبئه وبداياته مشككاً بكل شيء مما اعتبر قاراً وثابتاً في عقول الناس وقلوبهم، مستنداً الى وقائع وأفكار غريبة. والملاحظ أن هذه السلسلة لاتشير الى الناشر أيضاً، وكل مايعرف بهويتها أنها نشرت في بيروت بين عامي ١٩٨٤ - ١٩٨٥م. مثل هذه الدراسة كثير، والأهداف متنوعة، ولتفويت الفرصة على هذه الغايات غير المأمونة، من المستحسن العمل على تفكيك العقل المنتج لها، وفضحه وسحب البساط من تحته، لإنهاء مشروعية العبث بالناس والأوطان.

لقد كان التنوع العقيدي في إطار دين واحد أو في إطار تنوع الأديان معروفاً منذ القدم، وقد أثبت في الكثير من الأزمنة، وعلى مر التاريخ قدرة على التعايش، حتى بين الفئات المختلفة نهجاً، كالتى تعتمد الغنوصية أو السرية أسلوباً وتلك التى تعتمد العلنية أو الظاهرية. والسرية نتاج الخوف، فلا سرية بلا خوف، فهي تتلاشى بتلاشيه، وبسقوط الخوف تسقط الكثير من المشاريع التخريبية.

أن نُسَقِطَ في أيدي المخربين يعني أن ندرس الواقع على مستوى مختلف، يفرز بين قوى لها مصلحة في استمرار الصراع الطائفي والمذهبي والديني المتخلف، وقوى تفهم الصراع فهماً حضارياً، ينطلق من الفرز بين قوى الردة والاستغلال والتسلط ومجابهة حركة الحياة باتجاه الأمام، وهي القوى المسلحة بالخوف والسحر والخرافة، وقوى تنسند الحرية والانعقاد والخروج الى رحابة الحياة والكرامة الإنسانية.

عندما كتبت للمرة الأولى^(٢٠) عن العقل الإيماني، بدا المصطلح (مصطلح العقل الإيماني) مستنكراً عند بعض من ناقشني في الموضوع. وبعضهم رأى أن الفوضى في توليد المصطلحات، يجب أن تقف عند حد، فهم قد سمعوا بالعقل الديني أو بالعقل الإسلامي، لكن لم يسبق لهم أن وقفوا على العقل الإيماني. قلت حينذاك، إن غاييتي لم تكن إيجاد مصطلح جديد، وأنا لا أدري إن كان جديداً أم سُبقت إليه، وقد أكون قرأت مثل هذا المصطلح ونسيت، أو يكون موجوداً ولم أطلع عليه، وعندما كتبت عنه لم يكن المصطلح هو الغاية، ولم أفكر فيه كمصطلح كثيراً، لكنني كنت أقصد مضموناً أوضحه، وفكرة أناقشها، وقد ألحت علي كثيراً، ووجدت أن هذا المصطلح مناسب لهذه الفكرة. الفكرة كانت، أن لكل دين وللبعض الاتجاهات الفكرية والفلسفات منظومات مفاهيمية تشكل ما يدعوه المفكرون (عقلاً)، كالعقل الديني تعبيراً عن منظومة مفاهيم دين ما، أو العقل الإسلامي تعبيراً عن منظومة مفاهيم الإسلام، أو العقل الماركسي تعبيراً عن منظومة المفاهيم الماركسية ... الخ. هذه المنظومات تتضح من خلال الممارسة الاجتماعية لها. ولقد رأينا أن هناك أدياناً، وهناك تطبيقات متعددة لهذه الأديان، وكل تطبيق، لاهو الدين ذاته ولاهو غيره، إنها منظومات من المفاهيم والسلوكيات والتطبيقات والقناعات، تناسلت من الدين والعادات والمصالح وغيرها، إنها شكلية وانحرافات وتكنولوجيات دينية إذا صح التعبير. إذاً قصدت التعبير عن المعاش من القيم الدينية وطريقة إخراجه إلى حيز الوجود والتطبيق .

إن الدين والعقل الديني كما وصلنا في تراثنا أو تراثنا الدينية المكتوبة، قد وجد من يكتب عنه ويكتب ويكتب، ولكن قلة هي الكتابات التي تناول السلوكيات المنسوبة إلى حالة تدين، وهي الفاعلة والمنتشرة والفاعلة على أرض الواقع، فحاولت الكتابة عنها سواء أصبت كما أرجو، أو أخطأت. وأرجو أن أوصل الفكرة.

بعد ما يزيد على العام من كتابتي عن العقل الإيماني قرأت كتاب المفكر العربي الفرانكوفوني الدكتور (محمد أركون)، والمعنون «الفكر الأصولي واستحالة التأصيل»^(٢١)، وهو ذو سوية فكرية عالية، ويعج بالمصطلحات ككل كتابات أركون، بعضها هو الذي اخترعها وبعضها نقله عن غيره. وفي الكتاب قرأت: «هكذا نجد أن

أخذ القراءات الإيمانية بعين الاعتبار أو دمجها ضمن المنظور الموسع للمؤرخ سوف يغني المعرفة التاريخية، ويؤدي في ذات الوقت الى نقد أقل تجريداً أو تأملاً صرفاً للعقل الديني. فهذا العقل ليس إلا أحد أنماط العقل الإيماني، وليس كل أنماطه»^(٢٢). وقد استخدم المفكر أركون مفهوم القراءات الإيمانية بما ينطبق الى حد كبير على المعنى الذي قصدته بالعقل الإيماني، لكنه عاد ليرى أن العقل الإيماني أصل تتفرع عنه أنماط من العقل الديني، في حين جاء في تحليلاتي للعقل الإيماني أنه أحد الأنماط للعقل الديني في كل مرة يظهر فيها، والآية هنا معكوسة.

وفي دراسة أخرى في كتاب أركون ذاته يقول: «بعد أن شرحت كل ذلك يمكن للقارئ أن يفهم سبب تمييزي بين العقل الديني/والعقل اللاهوتي، الذي سادعوه منذ الآن فصاعداً بالعقل اللاهوتي - السياسي. فالعقل الديني نقبض عليه ونبوره كمصطلح فعال على مستوى التعاليم الأصلية أو الأولية المنصبة كمذونات للنصوص التأسيسية... ثم يجيء العقل اللاهوتي - السياسي فيما بعد لكي يحينه أو يجسده في أنظمة معقلنة من المقولات والمعايير والعقائد/واللاعقائد»^(٢٣). وفي الوقت الذي أرى التطابق تاماً بين استخدامي واستخدام محمد أركون لمصطلح العقل الديني، أجد أن أركون استخدم مصطلح العقل اللاهوتي - السياسي، حيث استخدمت العقل الإيماني تماماً، حسب مدلول هذا المقتطف الذي يحمل شيئاً من التعارض مع المقتطف السابق.

أعترف أنني لأجد من العدل أن أقارن بمفكر كأركون، فهو أحد أعلام الدراسات الإسلامية الكبار على مستوى العالم، ومؤرخ معروف للإسلام ذو إنتاج غزير ومميز، وأنا لأجد في نفسي سوى قارئ غير ممنهج، تخطر له بعض الأفكار فيكتبها من وجهة نظر ما. وأحد الذين تعلمت من كتاباتهم واستشهدت بها هو الدكتور أركون. وأرجو أن يكون في هذا التنويه فائدة ما، وقد سررت بما قرأت لأنني وجدت بعض التطابق في الفهم للعقل الإيماني والديني، وهذا من دواعي سروري أن أتطابق في هذا المجال أو بعض جزئياته معه لأن المجال ملكه، وكما اعتز بالتطابق لأنه دليل على عدم النشاز، أعتز بالاختلاف، ومستعد للتراجع لكن ليس بسهولة، بل عند التأكد من الخطأ.

كان العقل الإيماني واضحاً في ذهني أشد الوضوح عندما قاربت الكتابة عنه، فلقد

عاشته كما عايشه الآخرون، اقتربت منه وابتعدت، قرأت الكثير في الدوريات والكتب مما يقع على تماس معه، وعندما أردت أن أوضح صورته كما أصبحت واضحة في ذهني، اعترضتني صعوبات منها نسبة الأمثلة والشواهد والاستدلالات الى العقل الإيماني، والناس يرون أنها تلتصق بالعقل الديني وتستمد من حقله، ومن هذه الصعوبات، لابل أبرزها تحديد ما ينتمي الى سمات العقل الإيماني، وتخليصه مما ينتمي الى آليات عمل هذا العقل، أو ما ينتمي الى تجلياته. فكثيرة هي الحدود والحقول المشتركة، وكثيرة هي التداخلات، فما نحسبه سمة يظهر لنا بعد قليل أنه آلية أيضاً أو أحد التجليات، ولأخذ مثلاً على ذلك، الموقف من العقلانية؛ هذا الموقف يبدو سمة عندما يبرز العقل الإيماني نقيضاً وعدواً للعقلانية، واللّا عقلانية إحدى الآليات التي يواجه بها العقل الإيماني ماهو عقلاني، ثم يبدو أخيراً أنه إحدى التجليات التي ظهر من خلالها لمن يريد أن يتعرف عليه ويتلمس طريقه. وهذا ما أضطرنني للحديث عن موقف هذا العقل من العقلانية، والأسطرة والخرافة، مع مافي ذلك من تكرار ملحوظ كنت مضطراً إليه. وبما أن ما كتبت كان قراءة في الواقع، فلا استبعد أن يكون قد فاتني بعض الجوانب، كما سأكون مسروراً عندما أرى من يعقب ويناقش ويستدرك على الموضوع فهو يستحق في رأيي الكثير من الدراسة والتمحيص. وأعتذر للتقصير.

(٩)

أما الوعد بالخلاص ...

لقد كان هذا الوعد الحافز الأساسي والأول لأتباع الأديان والرسالات، بل لأتباع أي واعد بالخلاص على مستوى الدين، كما على مستوى السياسة. والوعد بالخلاص ليس نشازاً أو خطأ فكل الرسالات السماوية، والمناهج الوضعية الكبرى، نشأت على أرض الواقع الملوث والمبتعد عن الانسان وقيمه الرفيعة، وتصحيح مسار التاريخ كان مهمة شاقة، برزت أول ما برزت على أنها مسؤولية القوى الدينية، لأنها هي التي تصدت أول ماتصدت لشرح الواقع، وما وراء هذا الواقع، مما حير الإنسان، ولم تكن هذه القوى الدينية قادرة على اجتذاب الناس والأتباع دون أن تعدهم بالخلاص مما هم فيه من صعوبات، وبقدرتها على تغيير واقعهم، ولم يكن ماهو أقل من

ذلك مقبولاً ليصنع أفقاً للمعذبين الحاملين بالخلاص. لقد كان الخوف من المستقبل منشأ القلق، والتحكم بالمستقبل إنهاء للقلق. إذن، بالانطلاق من أرضية العذاب والخوف، تنطلق الرسائل الكبرى شارحة ومفسرة وواعدة.

ولقد كان الوعد بالخلاص على أكثر من مستوى:

ففي المستوى الأول كان الإنسان يحلم بالخلاص من الواقع السيء الذي يعيشه في خضم بحثه عن قوته وعن حاجاته اليومية التي ما كان يحصل عليها بسهولة بسبب الصعوبات الطبيعية (عقبات المناخ والأرض وغير ذلك)، والصعوبات البشرية (الاستغلال)، وربما كانت الصرخة الأولى التي أطلقها الإنسان باتجاه السماء، كانت لإملاء معدته الفارغة لا لإنقاذ روحه الضالة. وكما أن الأديان لم تستطع أن تتخطى مشاكل الواقع وتنجز المستوى الأول من مستويات الخلاص، فكذلك حصل لورثتها على هذا المستوي، أي المبادئ الوضعية التي تم الاستهداء بها للاستيلاء على الواقع، إلا أنه تم الاكتشاف مؤخراً أن الاستيلاء على وضع ما سهل إذا ما قورن بإمكانية تغيير هذا الوضع، وكما فشلت الأديان مسبقاً في القضاء على صعوبات الحياة ومشاكلها، كذلك فشلت الإيديولوجيات الوضعية في تحقيق هذا الهدف.

وبفشل المستوى الأول تم الانتقال الى المستوى الثاني من مستويات الخلاص، وهو الوعد بخلاص أخروي، أي إنقاذ الروح، والعودة الى الحياة في مستوى آخر تنتفي فيه الصعوبات التي واجهها المؤمن في حياته الأولى، إنها الحياة في الجنة حيث تتحقق الأحلام تعويضاً عن الأحلام الخائبة في الحياة الدنيا. ولم تكن الأديان أسرع في وعدّها بالخلاص الأخروي من الأيديولوجيات الوضعية التي جعلت محازبيها يعيشون على مستوى الحلم، ما لم تستطع تحويله الى واقع ملموس، فوعدت بالاشتراكية ثم بالشيوعية، حيث ينتفي العذاب والحاجة وتتحقق الأحلام والأمان، وكان غيرها قد وعد بتحقيق مجتمع الرفاه وتلبية المطالب.

ويبدو أن هذا الحلم لا يجف، ولا يضمحل، ولا يتلاشى، ومهما أثبتت الأيام وأضافت من تراكمات، تشير الى هذا الحلم باعتباره دافعاً وحافزاً كبيراً، فإن الوعد يزداد حضوراً، وتزيده المخيلة الشعبية ألماً، فقد أصبح المؤمن يعرف عدد الحوريات

اللواتي سيكون نصيبه في الجنة ويعرف مواصفاتهم، وهي كل المواصفات التي كان محروماً منها ويتوق اليها ويعرف أن كل الملذات التي لم يستطع أن يحققها عندما كان إنساناً يسعى على الأرض سيحققها دون أي عناء. إن العقل الإيماني يزيد الحلم ألقاً وحضوراً ويزيد المساعي نحوه اشتداداً، فيحيل قلق المؤمن الى نوع من الطمأنينة، وهذا جانب إيجابي، يدفع الحياة الى شيء من الاستقرار، ويبعد عنها شبح الخوف الذي يمكن أن يدفع الانسان في حالات اليأس الى ما لا تحمد عقباه.

وعلى العموم فإن طمأنينة من نوع آخر تحصل للمؤمن في حياته الدنيا جراء الأخذ بمفاعيل العقل الإيماني، فلا ننسى هذا الشعور الذي يحصل عليه المؤمن، بأن الخرزة الزرقاء التي علقها في سيارته أو على ثياب ابنه ستبعد عنه وعن أسرته شرور الحاسدين الحاقدين، كما لانسى الطمأنينة الحاصلة من تعليق آية قرآنية مكتوبة بخط بارز أو صورة قديس في صدر المكان الذي يمارس فيه حياته، ولانسى ثقته بالخلاص من أدران الماضي إذا هو قام بواجباته الدينية ولو شكلاً، فصيامه يشعره بالرضى، وصلاته تشعره بالرضى، وحجه يزيل عنه الخوف مما علق به من أدران الماضي، لأنه يعود كيوم ولدته أمه، وشفاعة النبي له (واجبة) كما أوضحنا، إذاً، كل ممارسة إيمانية فيها وعد بالخلاص، وهذا الوعد له جانبه الإيجابي على مستوى الطمأنينة المتحصلة، كما أن له مفعوله السلبي، الذي يشعر صاحبه بأنه يستطيع التخلص من ذنوبه التي يرتكبها متى يشاء، وهذا يسهل عليه ارتكاب الأخطاء طالما أن إزالة أخطارها المستقبلية تحت السيطرة.

وبالرغم من ذلك يستمر القلق ويتجدد!!.

لقد كان الوعد بالخلاص، والحياة الروحية للإنسان تحت السيطرة من قبل تلك الجهات التي نصبت نفسها وصية على حياة الإنسان الأولى والآخرة، وهذا يشعره بأن خلاصه لم يكن ولن يكون حقيقة واقعه. لقد كانت هذه الجهات رسمية فيما يبدو في اليهودية والمسيحية، وهي جهات صنعت لنفسها عالمها المميز من اللباس الى المسكن الى أسلوب الحياة المتمايز عن أسلوب حياة بقية المؤمنين. والدين الإسلامي الذي ليس في نصوصه الأساسية ما يشير الى ضرورة وجود هذه الفئة الأكليروسية المميزة عن عامة الناس، لم ينج من وجودها، ضدّاً على الدين، والغريب أن هذه الفئة هي التي تؤكد عدم

شرعية وجود أية جهة وصائية على حياة الناس الأولى والأخيرة، مع ذلك أوجدت نفسها كفئة لاتقل عن رجال الدين اليهودي والمسيحي تمايزاً عن الشعب، ابتداءً بتحكمها بالنصوص وإدارتها، وانتهاءً بأزيائها وحياتها، مروراً بسيطرتها على حياة الناس من خلال شراكتها مع رجال الحكم، واللعب على أوتار السياسة، ولقد ظهر فساد هذه الفئة (وهنا أؤكد على خطر التعمم)، وفسادها كان مثار تعليق وتعقيب من كبار المفكرين والشهود على العصور. وأعتقد أن شهادة الفيلسوف الكندي ليست شهادة غفل في هذا المجال. فآبو يوسف، يضمن دفاعه عن الفلسفة رأيه بهم لأن رجال الدين يتحاملون على الفلسفة ويقذفون أنصارها والمشتغلين بها بتهمة الكفر والزندقة، فيكشف المنطق الحقيقي الذي يكمن وراء مواقفهم، يقول: «... ذباً عن كراسيهم المزورة التي نصبوها (لأنفسهم) من غير استحقاق، بل للترؤس والتجارة بالدين، وهم عدماء الدين، لأن من تجر بشيء باعه، ومن باع شيئاً لم يكن له. فمن تجر بالدين لم يكن له دين...»^(٢٤).

إن محاولة الخلاص من وصاية ما واستغلال ما، لايجوز أن تكون سبيلاً للوقوع في أسر وصاية أخرى من نوع آخر، حتى ولو كانت وصاية رجال الدين حراس الإيمان الذين نصبوا. أنفسهم لذلك مع اعتراقتهم بأن هذه الوصاية ليست من الدين في شيء، ورفض الوصاية يعني إسقاط جميع مفاعيلها مادية كانت أو معنوية، خاصة تلك التي تأخذ شكل الاتهامات بالكفر والإلحاد والبعد عن الطريق القويم ومخالفة النصوص والموروث وصحيح الدين، وفي الأعم الأغلب لا يكون المتهم قد خالف إلا قناعات هؤلاء، لأنهم جعلوا من قناعاتهم مقاسات لإيمان الناس، ومخاطبتهم لا تكون إلا بـ (أبونا، سيدنا، مولانا، سماحة، غبطة، سيادة...)، وكل هذا يدل على مدى التحكم والسيطرة باعتبار أن هذه الألقاب ألقاب متعالية، تصنف في حقل قيم السيطرة والاستغلال، وتعيد إنتاجها.

(١٠)

عقدت فصلاً في هذا الكتاب للحديث عن الزمن وكيفية تعاطي المؤمن معه، أي كيف يُقرأ الزمن إيمانياً، وقد كان هذا الفصل أول ما كتبت فيه، والحديث عن الزمن

يفتح أفق الحديث عن المكان، لما نعرفه من تلازم هذين المفهومين، وإذا كان الزمان غير متمايز بعضه عن بعضه الآخر، وليس لزمن خصوصية إلا بالأحداث التي تعبر فيه وتنسب إليه، أي أن الزمن هو مفعول إنساني بالدرجة الأولى، خاصة في طريقة فهمه والتعاطي معه، فهو كما وصفناه محايد، أما التحيز فهو إنساني، مرتبط بالتجربة البشرية، وكذا المكان، من هذه الزاوية.

وكما أن للزمن الإيماني خصوصيته، كذلك للمكان الإيماني خصوصيته ربما أكثر من الزمان، ودراسة المكان المقدس، أو المكان في العقل الإيماني، تحتاج إلى دراسات مستقلة، توضح دور الجغرافيا الإيمانية في حياة الناس (المؤمنين)، وأسس تشكل هذه الجغرافيا، وسيكون مرورنا عليها هنا سريعاً من باب استيفاء عناصر الموضوع.

لكل دين أمكنته المقدسة. والأمكنة المقدسة في مفهوم كل دين هي الأمكنة التي شهدت بعض نشاطات نشوء هذا الدين أول ظهوره، وبالتالي تلك التي شهدت تطور وارتقاء هذا الدين في كل مرحلة من مراحلها. والتاريخ والأحداث يشبتان بقاء المشاعر المرتبطة بأمكنة معينة، حية في نفوس وقلوب الناس المؤمنين. أليس على أساس اعتبار قداسة المكان وبحجة ذلك قامت الصهيونية بالتوجه إلى فلسطين دون غيرها من الأماكن المعروضة على اليهود لإقامة كيان مستقل لهم. يحيل إلى هذا المفهوم عبارات وألفاظ، مستقدمة من أيديولوجيا معتقدية، مثل (أرض الميعاد، الأراضي المقدسة) وهذه الأرض المقدسة، تخصص بقع منها بقداسة تفوق قداسة بقع أخرى، فبعض أحياء القدس أو الخليل أو غيرهما، تفوق قداستها بقية المناطق.

وكما أن مكاناً يكتسب من كونه شاهداً على التدشين، فكذلك إن أمكنة أخرى تشهد تدشين مراحل مهمة في مسيرة دين ما أو مذهب متفرع عن هذا الدين، تكتسب أهميتها وقداستها من شهوديتها، وارتباط عواطف الناس بما انبثق عن ذلك التدشين، مما لم يعد يُعدّ جزءاً من كل بل أصبح كلاً مستقلاً.

وإذا طبقنا الكلام السابق على المسيحية، فإننا نلاحظ كثرة الأمكنة المقدسة عند طوائف المسيحيين، وذلك لانتشار نشاط المسيحية التدشيني (التبشيري) في أنحاء كثيرة من المعمورة، فالبداية في الناصرة وبيت لحم والقدس وغيرها من أراضي فلسطين كما في مصر وسوريا والأردن ولبنان، لتتوزع بعد ذلك على مساحة أوسع وشبكة أعم

من الأراضي، وتحديدًا أماكن معينة أنطلق منها التبشير أو توقف فيها أو شهد فيها أحداثاً مميزة، كدمشق وانطاكية والاسكندرية ثم روما والقسطنطينية، وأماكن أخرى كثيرة مأهولة، وغير مأهولة إلا من بعض الرهبان الذي سكنوا ويسكنون أديرة بنيت في أماكن الذكريات، ولاننسى مال هذه الذكريات من دور في إلهاب المشاعر. وأمامي وأنا أكتب هذه السطور مشهد حي يثبت الفكرة التي أتحدث عنها، إنه مشهد تلفزيوني، في بث مباشر يعرض زيارة البابا (رأس الكنيسة الكاثوليكية) إلى دير القديسة كاترين في سيناء، في مشهدة يشارك فيها آلاف المؤمنين، لأن الدير بني في بقعة مباركة، في المكان المقدس الذي تجلى فيه الله لموسى أثناء قيادة شعبه في رحلة الخروج من مصر إلى أرض الميعاد في فلسطين، كما تخبر نصوص الوحي (الكتب المقدسة). إنها تحقيق حلم باستعادة اللحظة والوقوف على مشارفها على المستوى الإيماني.

إذن المكان المقدس، والبقعة المباركة، استتبعت تعلق أفئدة المؤمنين بها، يظهر ذلك من خلال الزيارات المتكررة لهذه الأماكن من قبل المؤمنين، هذه الزيارات تسمى (حجاً)، وأحد أحلام المؤمن أن يقوم به كطقس مفروض حسب الطاقة.

ولم يكن ارتباط الإسلام والمسلمين بالأمكنة أقل من ارتباط الأديان التي سبقتها، وكما أن المسيحية قدست الأماكن التي شهدت أحداثاً في تاريخ اليهودية، فإن الإسلام أعاد الاعتبار لكل الأماكن التي ارتبط ذكر الأنبياء بها، فتقديس مكة حاصل قبل الإسلام، وقد أقره، على أساس اعتبارها مكاناً لظهور فعل إيماني لإبراهيم وولده اسماعيل، إذ بنيت الكعبة، كذلك اعتبار حركة هاجر أم اسماعيل وهي تسعى لتحسين حياة ولدها وحمايته من الأخطار، كما أن الإسلام أعاد الاعتبار لبيت المقدس بالتوجه إليه أثناء الصلاة، قبل أن يأمر محمد بالتوجه إلى الكعبة كقبلة بديلة ومستقلة توحى باستقلال إيمان المسلم عن إيمان اليهودي والمسيحي، وتمايزه عنهما، وهي نقلة لها بعدها ومعناها الاستراتيجية.

وكما كان للأماكن المقدسة عند اليهود والمسيحيين قداستها في الإسلام، كذلك أوجد المسلمون أمكنتهم المقدسة المستقلة بالإضافة إلى مكة (أم القرى) كذلك المدينة المنورة (يثرب) باعتبارهما مدينتان أو مكانان شهدا المراحل التدشينية الأولى للدين الإسلامي. لقد حددت المخيلة الإيمانية كل مكان تحدثت سيرة النبي محمد أنه زاره

وأكسبته شيئاً من التقدير والقداسة، كما حدث لضاحية دمشق (القدم)، كما حدث ذلك في المسيحية، و(قانا) شاهد على ذلك.

وإذا كان للأديان أمكنتها المقدسة كذلك للمذاهب والطوائف أمكنتها المقدسة المرتبطة بالمراحل المهمة من تاريخ هذه الطوائف، وبالأحداث التي انطلقت منها، مسجلة الإشارة إلى محطات إيمانية مميزة. فكريلاء والنجف وقم هي أماكن لها كل القداسة التي تحوزها أماكن أخرى، كما يتجلى ذلك في فهم وحراك الشيعة. وهم ليسوا استثناء في هذا المجال.

ومدافن الشخصيات التي تنتمي إلى اتجاه إيماني معين أو كان لها دور بارز في هذا الاتجاه، اكتسبت القداسة من دور هذه الشخصيات أثناء حياتها، فمقامات السيدة زينب والحسين في دمشق والقاهرة، مراكز تقديس وموضع احترام، وكذلك مقامات خالد بن الوليد في حمص والشافعي في القاهرة، وابن عربي في دمشق والكثير الكثير غيرهم من القديسين والأولياء أيضاً لهم أمكنتهم المقدسة، وزوارهم المتبركين.

لأنترك الحديث عن الأماكن المقدسة ودورها في تشكيل العقل الإيماني، دون المرور بالحديث عن أماكن العبادة، التي يبنيتها الناس لممارسة عباداتهم، وغالباً ما يتم الانفاق عليها بسخاء يثير الشعور بالتباهي، كما يتم التباهي بجمالية هذه المواقع العبادية وكلفتها الضخمة. وهي تكتسب القداسة من خلال المهمة التي وجدت لها، بعيداً عن الأمانة في تأدية المهمة، أو بالرغم من الكثير من السلبيات التي تعتور بناءها، من الهدف المتوخى إلى الأسلوب المتبع. لقد كان حديث الناس ووسائل الإعلام، تلك الكلف الهائلة التي اقتضاها بناء مسجد في المغرب، استخدمت فيه تقنيات مميزة، حيث بلغت كلفته المليارات والناس في المغرب وغير المغرب، من رعايا الإسلام، ومن رعايا غيره، يموتون جوعاً. هنا نتذكر الكلمة المشهورة التي قالها إبراهيم بن أدهم (السلطان إبراهيم المدفون في جيلة على الساحل السوري) وهو الصوفي المشهور: «لقمة في بطن جائع أرجح في ميزاني من عمارة مسجد»^(٢٥). كما يحضر رد عمر ابن عبد العزيز على من طلب منه كسوة الكعبة: «البطون الجائعة أولى»^(٢٦).

لقد أصبحت هذه الأماكن المقدسة تحفاً فنية، وثقت مهارة آلاف الفنانين على امتداد العالم والتاريخ، كما أكدت أن الأديان التي جاءت لتخليص الإنسان من القهر،

مستخدمة إياه في بناء هذه الصروح (أو الكثير منها) والتي لاتعني الآلهة، لأن مكان الآلهة عقول الناس وقلوبهم، وكثير منها أشبه بالعمارة الوثنية، فالآلهة تعبد في أبسط الأمكنة ولا شرط لها إلا الطهارة والنقاء والإخلاص، لكن هذه الأماكن وهذه الصروح تعني أصحاب العُقَد من حكام الدين والدنيا، الذين أرادوها شاهداً على قهرهم لبني الإنسان، الذي يدفع من حياته ودمه وماله وفكره ليُشيد هذه الصروح المقدسة التي تنسب الى أرباب الزمان. ولاشك أنه سيظهر أثر العقل الإيماني في هذه التبرعات السخية لبناء أماكن العبادة، عند المقارنة بما يتبرعون به عندما يطلب اليهم أن يفعلوا ذلك في سبيل قضايا أخرى من شأنها تربية عقل الإنسان وذوقه وقيمه، كالمراكز الثقافية أو المسارح أو أماكن النشاطات العامة الأخرى، التي لاتدخل في باب الإيمان، حيث لايجد المتبرعون الثناء والإشارة الى كرمهم، الذي يقابله ثواب ربهم، عندها سنجد أن الاندفاع تحول الى احجام، والسخاء تحول الى بخل، وهذا من مظاهر العقل الإيماني، وعملائيته.

هوامش التمهيد

- (١) - ندره اليازجي ، رد على اليهودية - واليهودية المسيحية ، دارطلاس - دمشق ، طبعة ثالثة ١٩٩٠ ص ٢٥٩ .
 - (٢) - المرجع السابق ص ٥٤٥ .
 - (٣) - المرجع السابق ص ٥٤٥ .
 - (٤) - المرجع السابق ص ٥٤٧ .
 - (٥) - قرآن كريم ، الحجرات / ١٤ .
 - (٦) - قرآن كريم ، الأحزاب / ٢٥ .
 - (٧) - قرآن كريم ، الفتح / ٤ .
 - (٨) - قرآن كريم ، التوبة / ١٢٤ - ١٢٥ .
 - (٩) - د . محمد شعور ، الإسلام والإيمان - منظومة القيم ، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع ، طبعة أولى ١٩٩٦ / ٨ ص ٦٧ - ٦٨ .
 - (١٠) - د . محمد عابد الجابري ، نقد العقل العربي - تكوين العقل العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، طبعة خامسة ١٩٩١ ص ١٣ .
 - (١١) - المصطلحات مستمدة من المرجع السابق ص ١٥ نقلاً عن الفيلسوف لالاند .
 - (١٢) - د . صادق جلال العظم ، نقد الفكر الديني ، دار الطليعة - بيروت ص ٣٥ .
 - (١٣) - شيلا أوستراند ولين شرودر ، علم نفس الحاسة السادسة ، نحو برهان وتفسير علميين للظواهر الباراسيكولوجية وفوق الطبيعية ، دار الطليعة - بيروت ، طبعة رابعة ، أيلول ١٩٩٤ ص ٢٢ .
 - (١٤) - المرجع السابق ص ٢٢ .
 - (١٥) - المرجع السابق ص ١٦ .
 - (١٦) - المرجع السابق ص ٢٠ .
 - (١٧) - المرجع السابق ص ٧١ .
 - (١٨) - المقصود الشيخ العلامة سليمان الأحمد - المتوفي عام ١٩٤٢ في محافظة اللاذقية سوريا ، وقد كان على درجة واضحة من الاستنارة . حيث كان عضو المجمع العلمي العربي بدمشق ، في زمن سيطرة تخلف مريع في منطقته خلال فترة حياته ، وهو يقول في دحض وجود الجن التابع :
- إنما الجن والتوابع والتنجيم في مذهبي حديث خرافه
ديوانه ص ١٢٨
- ويقول أيضاً :
- | | |
|--------------------------|-------------------------|
| أخفتم كيد تابعة وسحر | وجني وشيطان خبيث |
| متى يا أيها الحازي أفدني | أتاك الوحي بالخبر النبئ |
- ديوان شعره ص ١٢٤
- والعبارة الواردة في البحث هي جزء من بيت شعر يقول :
- أنا في اعتقادي كل فعل الواجبات من العبادة
- ديوان شعره ص ٢١٤

- (١٩) - يوسف ابراهيم يزبك ، النفط مستعبد الشعوب ، سلسلة قضايا وحوارات النهضة العربية / ٣ / . بإشراف محمد كامل الخطيب . منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية ، دمشق ١٩٩٠ طبعة ثانية ص ١٠٦ - ١٠٧ .
- (٢٠) - كان ذلك في مجلة النهج عدد / ١٨ / ربيع ١٩٩٩ .
- (٢١) - د . محمد أركون ، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل ، ترجمة هاشم صالح ، دار الساقى ، طبعة أولى ١٩٩٩ م .
- (٢٢) - د . محمد أركون ، المرجع السابق ص ٧٠ .
- (٢٣) - المرجع السابق ، ص ٣١٤ .
- (٢٤) - د . حسين مروه ، النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية ، دار الفارابي ، طبعة رابعة ج ٢ ص ٥٩ .
- (٢٥) - هادي العلوي - مدارات صوفية - من تراث المشاعيه في الشرق ، دفاتر النهج ، منشورات دار المدى للثقافة والنشر - دمشق ، طبعة أولى ص ١٨٧ .
- (٢٦) - ابراهيم بشير الفويل ، نحو «أو مشروع» الطريق الثالث ، دار الآفاق الجديدة - بيروت ، طبعة أولى ١٩٩٩ ص ١٨٨ .

الفصل الأول

سمات العقل الإيماني*

* تم تعديل هذا الفصل بعد أن كان قد نشر في مجلة «النهج» العدد / ٢٠ خريف ١٩٩٩ .

إذا كان العقل الديني يمثل مرحلة العقل بالقوة، فإن العقل الإيماني يمثل العقل بالفعل، فالعقلان ينتميان إلى حقل واحد، إلا أن العقل الإيماني يختلف عن العقل الديني في كونه عملياً لأنظرياً، أي ممارسة أكثر منه كلاماً، ويتفقان في المرجعية، إنه الممارسة الشعبية، وشكل تجلي الفكر في الواقع، واقع المؤمنين البسطاء. إذن يختلف عن العقل الديني في الدرجة واللون لا في النوع، على حد تعبير د. نصر حامد أبو زيد في مجال تفريقه بين الخطاب الديني التقليدي وخطاب الجماعات المتطرفة (الجهادية)^(١).

لقد كان التواصل مع التراث ومحاولة إحيائه، باعتباره حصن الشخصية العربية والإسلامية، يتم من بوابة النخبة. عندما أردنا مواجهة الآخر لجأنا إلى هذا التراث، فأفضى بنا اللجوء إلى الدين، باعتبار أن التراث قد جرى تفريغه من المضامين الأخرى تقريباً ليصبح مفهوماً منه إلى حد كبير أنه الدين الإسلامي، حصن الأمة وحامي كيانها. طبعاً أقول الدين الإسلامي لأن مساهمة الأديان الأخرى في تراثنا العربي لم تكن بمثل قوة الدين الإسلامي، مع عدم القدرة على تغييبها.

عندما كان العاملون على إحياء التراث والتواصل معه، منذ بداية عصر النهضة إلى اليوم، يطلّون على هذا التراث، فإنهم يطلّون عليه من بوابة أبي حنيفة والشافعي ومالك وابن حنبل أو جعفر الصادق، ومن ثم الأشعري والغزالي وصولاً إلى ابن تيمية وابن الصلاح وابن قيم ... الخ، ومن جانب آخر كانت الإطالة على التراث تتم من بوابة المعتزلة والكندي والفارابي وصولاً إلى ابن رشد ... الخ.

لقد جرب كتابنا وباحثونا والمعنيون بشأن النهضة، أن يذكرونا بكل ما أنتج هؤلاء من فكر، وفتشوا في كتبهم وميراثهم، وقدموا شروحاً وإيضاحات لهم، ونشروا مؤلفاتهم، واستفاضوا في شرح مبادئهم وأفكارهم، حتى أصبحنا نقول، إن لدينا عقلاً

إسلامياً، أو عقلاً دينياً، أو فكراً إسلامياً أو عربياً يتربع على عرشه هؤلاء الأساطين. نخبة من المثقفين العصريين، منذ الأفغانى ومحمد عبده الى محمد عابد الجابري وطيب تيزينى وحسن حنفى، صبت وتصب جهوداً جبارة وكبيرة - ولا شك فى أنها مشكورة - للتواصل مع نخب الماضى.

إذن، كان إحياء التراث حتى يومنا هذا حديث نخب، وقد فهمنا أو حاولوا إفهامنا طريقة تجلّى وعمل العقل الدينى كما ظهر عند كبار المثقفين. وبالنظر الى واقعنا فإن المتعاملين مع النخب المعاصرة، أعداد قليلة من متبعى الحركة الثقافية، وهذه الأعداد قليلة الى حد مرعب، بدليل عدد النسخ المطبوعة أو المباعة لأي عمل فكري جاد ومميز، مجلة كان أو كتاباً فى وطننا العربى، فإذا سلّمنا بهذه النقطة وأعتقد أنها حقيقة، فإن السؤال الذى يتبادر الى الذهن: هل كانت الأعداد التى تتابع الانتاج الفكرى لعلمائنا ومفكرينا القدامى (نخب الماضى) أكثر من الأعداد التى تتابع نتاج مفكرينا وكتابنا المحدثين (نخب العصر)؟، وإذا كان التشابه حاصلاً، وكان عدد المتابعين لنتاج المفكرين القدامى ليس بالنسبة الكبيرة من الجماهير التى كانت تعاصرهم، وكان هؤلاء المتابعون للمفكرين لا يبلغون بحال من الأحوال نسبة الملح فى الطعام، فإن الملح إذا كان ضرورياً ويجعل الطعام مقبولاً فإنه لا يصلح أن يكون وحده طعاماً.

كيف ننقل الحقيقة ونعرفها ونعرف عليها إذا اقتصرنا على هذه النسبة الضئيلة من العاملين فى حقل الثقافة النخبوية؟ والناس، الجمهور العريض، العامة، من يعرفنا على توجهاتهم وفكرهم وعقلهم؟ هل هم بدون عقل فردي أو جمعي؟ هذا غير علمي. وإذا كانت الأيام قد برهنت على إهمال هذه الكتلة فليس من العدل ولا فى مصلحة العلم الاستمرار بإهمالها.

من هذه الزاوية أردت أن ألقى حجراً فى المياه الراكدة، دون ادعاء الإحاطة أو الباع الطويل أو القدرة على تحريك المياه أو تغيير وضعها الآسن، إلا أنها المحاولة...

لماذا هذه القطيعة بين المثقف والعامة؟ لماذا اهتمنا بفكر النخبة وتركنا الجمهور؟ ومن الذى يمثل الأزمنة والعصور: أهم الناس الذين يعيشونها أم نخبها وقياداتها؟ لقد بقي فهمنا لمجتمعنا العربى الإسلامى القديم قاصراً، كما هو فهمنا لمجتمعاتنا

المعاصرة. بقي فهمنا قاصراً لأن التاريخ الذي وصلنا هو تاريخ الشخصيات الكبيرة، التي تصنع حولها ساحة كهرطيسية، أولها كارزميتها، كما أن ماوصلنا يركز على الأحداث الكبرى ذات المستوى السياسي العالي، بينما نحتاج الى حفر تاريخي في الكتب والنصوص لنعرف أية معلومة عن حياة الناس البسطاء، الذين يصنعون التاريخ فعلاً بجهودهم وكفاحهم وعرقهم الذي يستثمره القادة، دون أن يمدحوا بالقصائد الشعرية، أو تشاد لهم القصور، أو تصنع لهم التماثيل، ومعرفتهم في كتب الأدب والنوادر والحكايات الشعبية أكثر من معرفتهم عن طريق كتب التاريخ إنهم سعاد التاريخ على حد تعبير (غرامشي).

تتغير الأيام وتتبدل، وكذلك الأفكار والثقافات، وتنشأ الحضارات ثم تضمحل وتزول، لكن لم يأت يوم سجل زوال الشعور الديني (الإيمان) بعد أن نشأ في أعماق النفس البشرية. لم يكتب لشيء ما، لفكره، لثقافته، لمعنى، لحضاره، لتوجهه، مثل هذه الاستمرارية، وهي لا تعد بالاضمحلال. فالإنسان منذ نشأته وجد نفسه في بحث دائم لمعرفة ذاته. وفي خضم بحثه عن هذه الذات، اهتدى الى إلهه الذي هو جوهر هذه الذات، وأجلى مظاهر وعيه لها، ولكنه لم يرض هذه الحقيقة، ولا يزال مقتنعاً بأنه اهتدى الى جوهر مغاير لجوهره. وتعدد الأديان وتاريخها وما أنجزته في مجال المعرفة الدينية (علم كلام، عقائد، توحيد...) خير شاهد، ونجد أن الصفات التي اسبغها الإنسان على إلهه، تنتمي الى الحقل ذاته الذي يستمد منه صفاته الشخصية (العلم، القدرة، الحياة،.... الخ)، ولكي يكون شيء مغايراً لشيء، يجب أن يستمد الشئان مفهوميهما من حقلين مختلفين.

هذه الصلة الوشيعة بين الإنسان والدين، لم تكن ملك العامة التي تثبت الأيام أنها هي المعنية عند دراسة الأديان وانتشارها، وتطورها، وعمق الالتزام بها، لما نعلمه من خفة تدبّر النخب، وضعف إيمانها. إن العامة تمارس الدين، ونراه حاضراً في حياتها اليومية، لا باعتباره عقلاً فوقياً، أو مفارقاً، وليس باعتباره بنية متعالية، ولكنه يشكل جزءاً من كيائها، وهي في ممارستها له بعفوية وبدون كثير من التعب والتفكير، ودون سابق إصرار أو دون أن تدري، تظهر عقلها الإيماني الذي يدور عليه حديثنا. إذن يتحول المعتقد الديني عندها الى إيمان، الى ممارسة حاتيه، ونشاط يومي في خضم

الحياة وتختفي المبادئ النظرية.

المؤمنون لم ينتظروا أرباب المذاهب لممارسة طقوسهم، فممارساتهم الدينية ونشاطاتهم في هذا المجال، موجودة بوجود هذه المذاهب ومن دونها، قبلها وبعدها، من دون الأشعري والغزالي وابن تيمية وبوجودهم، قبلهم وبعدهم، بوجود المعتزلة أو من دونهم، مع النبي وخلفائه، مع علي ومع معاوية، مع الخوارج ومع غيرهم، في ظل هؤلاء أو دون بعضهم، مع عدم إنكار قدرة القيادات السياسية والروحية على التأثير في مجرى الحياة وتدينها.

إن الحالة التي وصل إليها إيمان الناس في عصرنا، هي من التشوه بحيث لا تعطي الصورة الحقيقية عن الأديان، وما جاءت به من عقائد، إن صورة الناس الإيمانية، وقدرة المؤمنين على مراكمة الإضافات على ما آمنوا به من عقائد، ومارسم لهم من طقوس في الأديان التي ينتمون إليها، تشير إلى أن النصوص الثابتة التي لا يمكن أن يلحقها التغيير باعتبارها نصوص مقدسة، لا تمنع التطورات والإضافات التي تطرأ على إيمان الناس وممارساتهم الطقسية الدائمة التوليد لما هو جديد بفعل العادات والمصالح والضعف الثقافي أحياناً وغير ذلك، إن حراسة النصوص غير كافية بدليل أن أياً منها، بالرغم من قوته ومكانته وكونه حارساً قوياً، لم يحل دون توليد نصوص أخرى يتبعها الناس، أو طقوس يمارسونها إلى جانبه أو بالضد منه.

لقد كان للفقهاء والمصنفين للأدبيات الإسلامية نهجهم المغاير لاتجاه الواقع كما لاتجاه النصوص الأولى، فمحمد أحمد خلف الله يرى أن دارسي القرآن فرضوا أنفسهم وثقافتهم على القرآن ولم يدرسوه بمعطياته الخاصة، معطيات عصره ولغته وأسلوبه، وهذا ماجعلنا نعرف القرآن من خلال معطيات ثقافة الدارسين والشارحين لا من خلال ما يقدمه النص البريء من المؤثرات الأخرى^(٢). إذن فهم النص كان فهماً موازياً لقناعات إنسانية خاصة وثقافات خاصة، أي لاتخلو من الذاتية والغرض والبيئة، وهذه كلها تقع في صلب العقل الإيماني.

لقد أساءت المصنفات كثيراً للغايات المتوخاة من التدين حين ابتعدت عن الفهم الحقيقي للإيمان كما تؤسسه النصوص الأساسية، يقول د. محمد شحرور وهو يخلص: «إلى تلخيص مافعلته الأدبيات الإسلامية بالثقافة العربية الإسلامية وبالفكر

الإسلامي اليوم، حين ربطت مفهوم الدين والتدين بشعائر الإيمان باعتبارها من أركان الإسلام بعيداً عن المعيار الأخلاقي .. فأصبح الحكم على دين الإنسان يتم بدلالة صلاته وصيامه.

وحين خلطت الحلال والحرام (وهو شرع إلهي) بالمسموح والممنوع (وهو قانون وضعي) بالمعروف والمنكر (وهو أعراف وتقاليد اجتماعية) بالحسن والقبيح (وهو ذوق فردي). حتى صار وجه المرأة حراماً .. وصوتها حراماً .. والموسيقى والنحت حراماً .. والتشاؤب بقم فاغر حراماً لأنه يدخل الشيطان .. وقص الأظافر في الليل حراماً ... وحين ألقت العديد من المجلدات في فقه الشعائر التي سميت العبادات ثم اختصرتها، ثم شرحت مختصرها ثم أوجزت ... فأخذ الوجه الشعائري من الدين الأولوية المطلقة على الوجه الأخلاقي، حتى انعكس ذلك في التربية المنزلية .. فأصبح إفطار يوم من رمضان، أكبر كثيراً من الكذب»^(٢).

في مثل هذا الواقع لانستطيع التحدث عن إيمان نقي أو عن التزام دقيق بما بشرت به الأديان يوم جاءت خلاصاً للإنسان، إننا يمكن أن نتحدث عن الطريقة أو الطرق (والطرق متعددة بتعدد الجماعات الإيمانية في كل دين) التي يمارس بها الإنسان ما آمن به من قيم دينية، وهي طرق متغيرة ومتلونة بتغير الأيام وتلون الحياة.

ولا أشك في أن المؤمنين في إطار الديانة المسيحية، يعيشون مثل هذه القضايا، وربما أكثر، فارتباطهم بالقديسين ورؤوس المذاهب وتأثير هؤلاء كان أكبر فيهم بسبب وجود هيكلية أو جسم لاهوتي رسمي في الكنيسة. وتراث المسيحية الفكري، ونتاج كبار رجال لاهوتها في مجال التنظير والتوجيه والشرح الديني، قد لا ينطبق بالضرورة على الممارسة الحياتية اليومية المباشرة للمؤمنين في إطار هذه الديانة، ففلسفة توما الاكويني ليست الشغل الشاغل للمؤمن الذي يلون البيض في عيد القيامة، أو يرتدي القناع في عيد البرباره. وما يقحم على الإسلام والمسيحية، فهو بالتالي قد يكون من سمات اليهودية.

إذن، إن عقل المؤمن العادي وكذلك قيمه التي تبرز في ممارساته قد يكون بعيداً عن المجلدات والشروح وشروح الشروح، بعيداً عن المكتبات وعن الأزهر والزيتونه والنجف مع شدة تأثيرها، ولكن ليس بعيداً عن مقام السيدة زينب وضريح الشافعي

والادريسي وخالد بن الوليد وآلاف الأضرحة الأخرى، ولا عن محمد متولي الشعراوي وعمر عبد الرحمن أو عن مثير كاهانا، كما لا يكون بعيداً عن ليالي عاشوراء والقديسه برباره وبابا نويل والقديس فالنتاين.

يجب أن نعيد النظر في طريقة تكون العقل الإيماني في أمكنة أخرى، وعبر قنوات أخرى، غير الموسوعات والمجلدات، إذا أردنا أن نتعامل بفاعلية مع هذا العقل الجماهيري المؤثر في توجهات الحياة العامة، يجب علينا أن نخرج من حالة الإهمال لهذا القطاع وعقله الجمعي، في الأغلب، الشفهي أو التلقائي المباشر، الذي يحدد موقفه مما يعترضه من قضايا بكلمة أو صرخة أو قيمة أو حرز، بتشهد أو برسم إشارة الصليب أو بأمنية مكتوبة توضح في ثقب من ثقب حائط المبكى. لكن ليس بالضرورة ببحث أو كتاب.

من الماركسية تعلمنا أن البناء الفوقي هو انعكاس للبناء التحتي، ونحن عادة نعرف البناء الفوقي بعد معرفة البناء التحتي، ولكن في موضوعنا هذا، نحن مضطرون للقول بأن الفاصل بين البنائين كبير، فقد كان العقل الديني يمارس حضوره في المؤلفات والكتب والعقول التي تصوغ مقولاتها في البروج العاجية، وتجادل وتناقش داخل قصور الأمراء أو المواقع الدينية المميزة، فتصوغ رؤية نظرية تشكل ما أنصب عليه جهد الباحثين في عصرنا الحديث وهو البناء الفوقي على المستوى الديني. غير أن العامة من المؤمنين كانت تمارس تدينها، أي البناء التحتي في مجال الدين، في مساجدها وكنائسها، وأزقتها وحواريها، مع رجال الدين البسطاء المندمجين مع الكتلة الجماهيرية للمؤمنين بقيمها السحرية والخرافية.

إن التواصل مع الحراك الاجتماعي وفهم توجهاته التي يلعب فيها الشعور الديني دوراً كبيراً، بتحويله الى ممارسة إيمانية، يملئ علينا ضرورة العمل على معرفة هذا العقل الإيماني وآلياته وسماته وكشف دوره، وقماهيه مع ما هو مقدس علماً بأنه نتاج إنساني في أغلبه، أنتجته الكتلة الشعبية المؤمنة في تفاعلها مع أحداث عصرها على مر العصور، لكنها أعطت المقدس دور القيادة ضماناً لشمولية السيطرة وقطع الطريق على الاعتراض.

إن تجليات العقل الإيماني مزيج من الدين والعادات والموروث والمصالح، كما تأخذ

هباته الجمعية الجماهيرية منحى عاطفياً.

لا أحاول قراءة العقل الإيماني في التراث والنتاج الفكري للمفكرين، كما يحدث في التعرف على العقل الديني ومنتجه الثقافي، بقدر ما أعتمد في التعرف عليه على قراءة الواقع، قراءة الأحداث، واللجوء الى الكتب يكون للمقارنة أو لتعقبه تاريخياً وللربط والإيضاح، وهي محاولة محفوفة بالمخاطر، قد تصيب وقد تخطيء، ثم إنني أرجو أن تساعد مساهمتي على التعمق في معرفة هذا العقل وآليات عمله، فالعقل الإيماني لا العقل الديني هو الذي نعيشه على أرض الواقع وهو الفاعل في الحياة اليومية.

إن صفات العقل الإيماني متغيرة متلونة، لأنها متأثرة بعصرها والحراك الاجتماعي فيه، فالجماهير المؤمنة كما سنلاحظ ليست معزولة عن الأحداث، ولكن ليست بالضرورة تتعامل معها وتعكسها كما يجري لدى النخبة السياسية أو الثقافية أو الدينية، ثم أن هذه السمات متداخلة يصعب الفصل بينها، وإذا كنا نفعل ذلك فلتسهيل القراءة والتعرف على هذا العقل بشيء من الوضوح.

ثم إنه إذا كانت بعض هذه السمات تحمل شحنة سلبية فإن هناك سمات أخرى تحمل شحنة إيجابية، ولا يزال الكثير من الأعمال الإيجابية المندفعة باتجاه ما هو حق وخير وجمال يستمد اندفاعه من القيم الإيمانية كما سنوضح.

وهنا أود أن أتوجه الى القراء بطلب المعذرة عما يعتور الموضوع من أخطاء أو نقص أو تقصير فأنا كما قلت لا أقرأ هذا الموضوع في الكتب على الأغلب بل أقرأه في الواقع أيضاً، في الحياة.

ومن أبرز سمات العقل الإيماني:

١ - الاتهامية

يطل هذا العقل على الناس بكونه عقلاً إتهامياً، ويبرز الإتهام في التراشق الطائفي والديني، وهو تراشق يخلو في الكثير من الأحيان من التبصر وإعمال الذهن، ولولا اتهام كل فئة دينية للآخرى بالخروج على المبادئ والقيم لما كان يجوز لها أن تتمايز عنها، ولا يقتصر الاتهام على أن يكون تراشق دين ودين أو طائفة وطائفة، بل

قد يكون الاتهام في إطار الطائفة الواحدة، والاتهام ليس كلاماً يقال فقط، بل وصمة وأعلان حرب، وإخراج عن خط القيم والأخلاق والحقيقة، وإدخال في الشر واللعنة، ويهدف الى الحرص على التمايز وتأكيد الذات.

إن اتهام فرد ما حاول أن يشق طريقاً مغايراً بأنه ملحد أو غير مؤمن أو غير متمسك بأهداب دنيه أمر وارد، وقد لا يكون الاتهام مبرراً، ولا صحيحاً، أو أن الخطأ المرتكب - إذا كان هناك خطأ - لا يستحق هذه التهم، فصدور تصرف غير مألوف من هذا الشخص أو ذاك، لمحاولة التجديد في اللباس أو العادات أو المقتنيات العصرية، قد يدفع الجمهور البسيط من المؤمنين - وغالباً بقيادة أحد رموز الإيمان - الى اتهام هذا الشخص بالخروج على قيم دينيه متوارثه، وكثيراً ما عانى أولئك الذين غيروا في أزيائهم لينسجموا مع ماهو جديد، من التهم المؤذية سواء أكانوا ذكوراً أو إناثاً، ويبلغ الاتهام الحد الأقصى في حالات الإناث لحساسية وضع الأنثى، وكثيراً ما شاغبت العامة من المؤمنين على أديب أو مفكر واتهمته بالخروج على القيم الإيمانية، نتيجة كلمة أو موقف أو رأي، وربما كان الشغب ناتجاً عن تحريض جهات لها مصلحة في الإبقاء على الفاعلية الاتهامية لعقل العامة من المؤمنين كسلاح في المواجهة. ففي حدث غير بعيد زمانياً كاد الكاتب التركي (عزيز نيسين) أن يكون ضحية شغب المؤمنين عليه لأنه دافع عن سلمان رشدي، صاحب (الآيات الشيطانية) علناً، ولولا هرب الكاتب من باب خلفي لأحد الفنادق في بلده تركيا كان ينزل فيه، لما نجا من أيدي مشاغبين - ربما موجهين - لم يفهموا الحدث بشكل كاف، بل تأثروا بما سمعوه. وهذه السمة ليست حديثة، فقد كانت الجماهير المؤمنة جاهزة للانقضاض على كل من يشار اليه بالخروج على الدين، تاريخياً، قبل التأكد مما إذا كانت التهمة كيداً بعيداً عن الحقيقة أم لا. والملاحظ أن ردة فعل الجماهير المؤمنة على الاتهام ردة إجرائية عملية عفوية أو مدبرة ينقصها التعمق في الفهم. إذن يمكننا أن نلاحظ قابلية العقل الإيماني للتجيش وهي سمة قد نراها تتكرر، ونحن نتحدث عن السمات الأخرى.

لقد اتهم كل من سامي الكيالي وعبد الرحمن الكيالي بالكفر والالحاد والزندقة عندما طالبا بسفور المرأة على صفحات مجلة «الحديث» دون أن يكون في مقدور الناس المتعاطفين معهما، والذين يقفون في صفهما الدفاع عنهما في مواجهة التهمة،

ولم تحم شعبية عبد الرحمن الشهبندر، وثقافة صاحبها من التصفية، بفتوى تهمه بالكفر والإلحاد، كما لم تستطع قوى العقلانية والتنوير حماية الدكتور نصر حامد أبو زيد من الحكم الجائر الصادر بحقه، والقاضي بتطليق زوجته تعسفاً وظلماً، كما أن حسين مروه ومهدي عامل وفرج فوده، هم من ضحايا هذا العقل الإيماني الاتهامي، الذي لم يعمل على إثبات التهمة كما تقتضي الأصول بل لجأ الى تنفيذ حكم الإعدام بحق هذه القمم الطليعية.

قبل هذا كان اتهام الآخرين بهدف تصفيتهم وإبعادهم عن الطريق وإنهاء معارضتهم، الأسلوب الذي يعتمد على كل من لاقى معارضة أو شعر بخطر على مكانته ومصالحه. لقد اتهم الأمويون غيلان الدمشقي والجعد بن درهم وعمرو والمقصود لشعورهم بالخطر الذي يشكله هؤلاء لأيدولوجيا الأمويين الذين حولوا الخلافة الإسلامية الى ملك عضوض، ونفذوا فيهم أحكامهم، وهو الأسلوب الذي اتبع في تصفية السهروردي والنسيمي والحلاج لما شكله كل منهم من خطر على مصالح السلطان وفقهاء السلطان. كل هذه الأحداث أحداث مشهورة في التاريخ، ولا يزال التاريخ يعيد نفسه في هذا الجانب، فعندما لا توجد تهمة حقيقية، يتم اللجوء الى الاتهام بالكفر والإلحاد والمروق من الدين، أو الخروج على الأعراف والقيم الاجتماعية وما أسهل تصديق ذلك على العامة، وما أبرع نواطير الإيمان في تدبيج التهم وتسويقها!!!.

لقد اتهم الشيخ محمد الغزالي ميشيل عفلق بأنه تزوج ابنة غولدا مائير (٤). أما الدكتور كمال أبو المجد فيوجه اتهامه الى نصف الصحفيين، وربما الى الجميع، أي الى كل من لا يرى رأيه أو لا يسايره ولا يعجبه، فقد قال في ندوة بعنوان «الاسلاميون والليبرالية»: «لو عندي مصحة عقلية لقبضت على نصف الصحفيين حيث اختل عقلهم، واختل ضميرهم وأسميهم باسمائهم وأقيم بالحجة عليهم أمام أي محكمة يختارونها» (٥).

مالذي يحصل لو أن هذا العقل يقبض على زمام الأمور؟.

٢ - هو عقل تسليمي

إن اليقين الذي يجب أن يتمتع به المؤمن يجعل عقله استسلامياً، إنه يبدأ بالتسليم الموروث الذي يقدم العاطفة على العقل في التعاطي مع القيم، مما يجعل دور العقل ينحصر في تسويق وتجميل هذه القيم لكي تحصل الطمأنينة، وكلما زاد التسليم عمقاً زاد الإيمان قوة، فالإيمان يتناقض مع التفكير كما رأى تولستوي، الذي قال: «من تعلم التفكير صعب عليه الإيمان». ويفضي التسليم إلى الاستسلام له، فالتسليم بالقضاء والقدر يعني الاستسلام لهذا القضاء والقدر وإلغاء حرية العقل في مواجهة النوازل، وبالتالي اعتبار كل ما يصيب المؤمن شيئاً يدخل في باب القدر، والذي يفطر على التسليم يتعلم عقله ذلك، فيصبح التسليم فالاستسلام مبدأ حتى في القضايا التي يعتبر عدم الاستسلام لها إيماناً، ويبدأ التنازل، فالتنازل للسلطة السياسية والتسليم لها فعل إيماني، وأفتى الفقهاء بضرورته، والتسليم يأتي قيلاً للنقد والتمحيص، وهنا تبدو أشد حالات بؤس هذا العقل، ويظهر التناقض مع تسميته عقلاً، وتبدو صفة الاستسلام في تعميمها على ما يصيب الإنسان من كوارث وأمراض، فكلها من الله وبرضاه، والمؤمن لا ينيي يحمد الله على السراء والضراء مستسلماً لما يحل به، وهذا يمنع من البحث عن لغة لمعرفة الأسباب والعلل لأنها فعل الله وقضاؤه وقدره ولذا لاتناقش، وهذا يعني التوقف عن التعقل والتعلم والتدبير التي أمر الله بها المؤمن، كما دل على ذلك القرآن.

لقد أصبح التسليم عالة على الأديان كما أنه عالة على المجتمع، فالدين الذي دعا أنصاره للتسليم بوجود الله وضرورة الإقرار بذلك، أوصل إلى أن التسليم أصبح أيديولوجيا حياتيه، سواء كان الرأي المستسلم له إلهياً أو بشرياً، منسجماً مع صحيح الدين أو غير منسجم، كما أن الاستسلام لمثلي القداسة ولآراء رجال الدين ومؤدجليه، أصبح من مكونات هذا العقل، ولقد صنع التاريخ مسلمات أصبحت جزءاً من ثقافة الكتل الإيمانية. لقد كان لتطور وضع المرأة، واستسلام العامة من الجماهير رجلاً ونساءً لما آل إليه هذا الوضع، مما يتفق مع قيم الدين ومما لا يتفق، أمراً ليس خاضعاً للتفكير والنقاش عند عامة المؤمنين، حتى أن الكثير منهم ربط شرفه ودينه بسلوك نسائه، تقول د. فاطمة المرنيسي: «لقد كان ربط شرف الرجل بسلوك النساء الجنسي

مهمة ممكنة وسهلة عندما كانت النساء حبيسات الأمكنة الخاصة بهن كالبیت والحمام وأقرب قبرلولي»^(٦).

وتبدو فكرة التسليم بالموروث الذي صنعه المصالح بما يحتويه من مقولات وأفكار وقناعات أشد خطراً حين ينسحب على الأزمنة التالية التي تعيش ظروفًا مختلفة عن ظروف تكون هذا الموروث. إن ذلك يعمل على شد الحياة نحو الماضي ومنعها من تحقيق التقدم الذي تنشده كل مرحلة عن المرحلة السابقة لها. إن تحقيق مثل هذا التقدم هو أسمى غايات الحياة، ومنعه هو قطع للحياة عن أجل معانيها وأسمى غاياتها. ويبدو التسليم في الهجوم على مبدأ الشك الذي اعتمده بعض المفكرين والباحثين في العصر الحديث لأنه يؤمن الحافز على البحث والتقصي، بالتالي على عدم الاستسلام لأية مقولة أو موقف قبل التمحيص، ولقد كان الهجوم على طه حسين الذي وظف مبدأ الشك خير مثل على تأييد العقل الإيماني مبدأ التسليم والتضحية بالحقائق التي نتوصل إليها عن طريق تطبيق مبادئ جديدة حتى ولو كانت مستقدمة من ثقافات أخرى.

الاستسلام للسلطة الغاشمة هو عند المؤمن قضاء وقدّر يحول بين المؤمن ومواجهة هذه السلطة، وهذا يوحى بسهولة انقياده للتوجيه المغرض، وإلغاء الجانب التساؤلي والنقدي في عقله يجعله جاهزاً للاقتناع بما يريده له الآخرون، من هنا برزت سهولة سيطرة بعض الفئات المتطرفة على أذهان قطاعات أو أحياء شعبية في مصر أو سورية أو الجزائر، هذه القطاعات استعصت على المستعمر وجبروته وانقادت لأفكار لا تقل بشاعة عن إرادة المستعمرين في الإضرار بالوطن، وهنا يبدو دور بعض القادة المتعاطين في الشأن الإيماني، كالشيخ محمد متولي الشعراوي الذي كانت حلقاته الثقيفية تجمع أعداداً غفيرة لتتلقى شحنة إضافية في التجيش الإيماني كما يبدو دور شيوخ الكاسيت عبر تسجيلاتهم المنتشرة والتي تحوي كل ما من شأنه إيقاظ وتهيج الشعور الديني الإيماني، دون أن تحوي قضايا تعمل على تغيير حال البؤس والفاقة بين الناس.

لا يفوتني هنا أن أذكر بأن العقل الإيماني السياسي يتشبه بالعقل الإيماني الديني في هذا المجال، وكليهما عقل أيديولوجي، ينقاد بسهولة لقياداته، زمنية حزبية كانت أو دينية إيمانية، وكاريزما القائد أو القيادة تحدد درجة الانقياد، والخميني وعبد الناصر

مثالان بارزان في القدرة على تحريك الكتلة الشعبية المؤمنة، سواء كان إيمانها حزبياً سياسياً أو إلهياً ربانياً.

إن انقياد واستسلام جماهير اليهود المؤمنين لقيادة دينية - زمنية هدفها الاستعماري الاغتصابي واضح، وقماهيها مع الحركات الاستعمارية والرأسمالية العالمية واضح أيضاً، يبرز دليلاً عملياً على قدرة القيادات على دفع وقيادة اليهود المؤمنين في الهجرة الى فلسطين، وخلق ما هو سياسي بما هو ديني، ويبرز استسلام عقل هؤلاء المؤمنين لفكرة أرض بلا شعب لشعب بلا أرض، أو لفكرة أرض الميعاد، ولو كان هذا القطيع يتمتع بعقل ناقد لرأى غير ذلك، أي كذب ادعاء هذه القيادات، وهذا إثبات أيضاً لتخلي الجماهير المؤمنة عن التفكير في حال وجود من يفكر عنها، أو يغتصب سلطة التفكير عنها، باسم الدين وضد الدين لأن الأديان لا تأمر بالغاء عقل المؤمن، بل إن الدعوة الى أعمال العقل، والتفكير، ودور العلم والعلماء وذوي الألباب، كما وردت في الكثير من آيات القرآن الكريم دليل على أن المؤمن الحق هو من يتمتع بإمكان الفرز العقلاني لقضايا الحياة بين سالب وموجب، حق وباطل، خير وشر... الخ. إن الاستسلام لتوجيهات رجال الدين، حراس الإيمان والقيم، كان يدفع الأم المصرية المؤمنة، التي ترعرع إيمانها داخل المؤسسات الإيمانية الشعبية، الى أن تفقأ عيني ولدها كي لا يجبر على دخول المدارس التي افتتحت لتعليم الشعب المصري أيام محمد علي باشا، حيث كانت الأجيال تدفع لدخول هذه المدارس من قبل السلطة ليحصلوا على التعليم الحديث، وكان فعل هذه الأم بتأثير رجال الدين الذين أقنعوا الآباء والأمهات، بأن المدارس الحديثة لن تعلم أبناءهم إلا الكفر والإلحاد^(٧).

هل لاحظنا مدى الاستسلام من قبل المؤمن، والتسلط من قبل حراس الإيمان، وسوء مردودهما؟! هل نستطيع أن نتصور مدى بشاعة ذلك؟.

٣ - فقدان الشرعية

يبدو هذا العقل في بعض تجلياته فاقداً للشرعية، وفقدان الشرعية هذا سلاح بيد القيادات الزمنية والدينية، فإذا كان أداء الكتلة المؤمنة إيجابياً يتمهى مع رؤية هذه السلطات ومصالحها ولا يثير لها المتاعب، فلا بأس أن تتم تغطيته رسمياً وشرعياً،

وبالتالي يتحول الفعل الإيماني الى خادم للسلطة، وينبري الفقهاء لتبريره، وإذا كان أداء المؤمنين في غير الاتجاه الذي تريده السلطة السياسية وتابعها الديني، اعتبر خارجياً. وهذا فقدان للشرعية يبدو أكثر ما يبدو في الحالات الإيجابية لفعل العقل الإيماني، منذ الثورة على عثمان بن عفان وصولاً الى القرامطة وثورة الزنج وحتى لاهوت التحرير.

فكل تحرك جماهيري أو عمل تقوم به مجموعة أو فرد، لا يوافق عليه من اعتبروا أنفسهم أوصياء على الدين ونواظير لإيمان الناس خوفاً عليه من الانحراف (والإسلام لا يعترف بسلطتهم حسب المعلن)، سيهاجم ويواجه باعتباره لا ينسجم مع قيم الدين والإيمان، وإن المقاييس التي أخضع اليها أثبتت خروجه على صحيح الدين، والحقيقة قد تكون أنه لم يخرج إلا على قناعاتهم الشخصية، فلم يباركوه. إن تسفيه أي حركة أو عمل من قبل رجال الدين لا يخضع لإثبات جدارته في تقديم الخير للناس كما لا يخضع لامتحان الجدوى والمردود، بل يخضع لمقاييس، قد تكون ذاتية أو مستمدة من حقول أخرى.

والشرعية هنا شرعيتان:

الأولى: هي التي يمنحها رجال الاكليروس أو من يقوم مقامهم في كل دين أو مذهب، وكل حركة لاتنال مباركتهم حتى وإن كانت حركة إيمانية فهي غير شرعية. كما هو حاصل في حركات لاهوت التحرير في أمريكا اللاتينية، وهي حركات دافعت عن حرية الإنسان وكرامته، أو الحركات المتطرفة التي لم تحترم، لحرية الإنسان ولا كرامته في العالم الإسلامي. (وهي شرعية من الأعلى للأدنى).

الثانية: تمثل الوجه الآخر المعاكس والمتمثل بفقدان الجماهير ثقتها بالإيمان الرسمي وفقهاء السلطان، بالتالي حرمان هؤلاء من الشرعية المكتسبة من التفاف (المؤمنين) حول الفقهاء، وبهذا يعبر جمهور المؤمنين عن رفضه للعقل الإيماني التبريري عند فقهاء السلطان، وفيه رد على حرمان العقل الإيماني الجماهيري من الشرعية الرسمية شرعية السلطات وفقهائها. (وهي شرعية من الأدنى للأعلى).

من الطبيعي حسب منطق الأحداث، وما رتبته الأيام، ألا يكون للعقل الإيماني شرعيته التي تبرره في كل ما ينتج عنه، فهذه الشرعية ستلغي في حال وجودها شرعية

السلطات الدينية الرسمية، وفي الأعم الأغلب فإن هذه السلطات متماهية مع السلطات الزمنية الأساسية على مبدأ «الملك بالدين يبقى والدين بالملك يقوى»، وهنا يبرز الكارتل التاريخي المؤلف من المؤسستين الدينية والسياسية، حيث يقدم الدين للسياسة المشروعية الناقصة، وبالتالي تحاول المؤسسة الفقهية الدينية الرسمية أن تلحق المؤمنين بها كأتباع بالضرورة، يقرّون ماتقر ويخالفون ماتخالف، يؤمنون لها المصادقية مقابل الشرعية، أما في حال التفكير بأي جهد مستقل من قبل الكتلة المؤمنة، فإن ذلك سيصطدم بجدار اللعنة من قبل القيادة الفقهية، وإظهار فعلها على أنه فعل الغوغاء، وفي الكثير من الحالات - إن لم يكن معظمها - كانت القيادات الدينية في صف السلطات المتعسفة، أو الاستعمارية، في حين أن جماهير المؤمنين تشكل تيار المعارضة أو النضال. ففي إيران وقف بعض (آيات الله العظمى) في صف السلطة ضد جماهير المؤمنين التي كانت تقاد من قبل رجال دين (آيات الله أيضاً) فيما سمي بحركة (المشروطة) ضد الشاه القاجاري، وفي ثورة التنبك ضد الشركة البريطانية، كما أوضح ذلك المفكر المرحوم هادي العلوي^(٨).

والمشروعية التي نتحدث عنها مرهونة بمدى امتثال المؤمنين لإرادة الممثل التاريخي، حقيقياً كان أو مزيفاً. والتهمة متبادلة كما بينا.

من المعلوم أن الحديث باسم الله في اليهودية مرهون بالحاخامات، كما أن الحديث باسم الله في المسيحية مرتهن للكنيسة ورجالها، وقد أدى التفكير خارج إطار البابويه الى الثورة فالانشقاق والخروج على الشرعية السابقة، وظهور البروتستانتية في بداية عصر النهضة في أوروبا، ومع أن الإسلام لا يقر بوجود مثل هذه السلطات الدينية اللاهوتية، فإن الشرعية لأية حركة خارج إطار هذه الشرعية لاكتسب لأنها شرعية احتكرت الحديث باسم الله، وكلفت نفسها بذلك دون تكليف من الله، وسلطتها لا تقل عن سلطة رجال الدين في الأديان الأخرى. وهذا ما جعل معظم الحركات التي تريد التعبير عن نفسها تلجأ الى العنف لاكتساب شرعية أكثر زيفاً من الشرعية التي افتقدتها.

٤ - ضيق الأفق والأحادية

العقل الإيماني محكوم بضيق الأفق وأحادية الاتجاه، فقد تتالت الفتاوى بتحريم التفكير العقلاني عند المسلمين مثلاً، فابن الصلاح يقول: «من تمنطق فقد تزندق» سعياً لإلغاء التفكير المنطقي المتعدد، وفي عصرنا الراهن نجد فقيه السلطة يكرس الفتوى ذاتها، فعبد العزيز بن باز رئيس هيئة الافتاء في السعودية (سابقاً)، يقول: «الفكر والكفر واحد بدليل أن حروفهما واحدة». ويجيز قتل من يقول بدوران الأرض وكرويتها، ومصادرة أملاكه بعد استنابته^(٩).

من هنا نجد أن العقل المذكور قد حاول صياغة إيمان الجماهير وعقلها بالاتجاه الذي يخدم مصلحته أي مصلحة تكريس الجهل وضيق الأفق، وكثيراً ما ينطلي ذلك على الجماهير المؤمنة التي تعبر عن إيمانها بالتسلم الذي تحدثنا عنه سابقاً. وللتفريق بين الاستسلام وأحادية الاتجاه في العقل الإيماني، نشير إلى انقسام الأديان إلى طوائف، وكل طائفة لها مؤمنوها الذين يتبعون رؤيتها وفلسفتها وتحليلها للقضايا المطروحة، ولو أن أياً من هؤلاء المؤمنين شارك غيره من أبناء الطوائف الأخرى قناعاتهم المغايرة لبطل إيمانه على طريقة طائفته لأن إيمانه على طريقة طائفته، يقتضي الإخلاص لها، وأن يتماهى تفكيره وعقله مع عقل طائفته أو دينه الذي ينتمي إليه، وهو إيمان ناجز ونهائي. من هنا يفتقد العقل الإيماني التنوع، ويرفض منطق الاختلاف الداخلي ودينه، ويظهر التطرف في إدانته لهذا الآخر بما أنه يمتلك الحقيقة التي تسمح لها بإدانة الآخر وحده، من هذا الجانب أيضاً تنشأ شرعة التطرف.

قبول الآخر من مقتضيات السياسة التي يستلزمها التعايش مهما اختلف الاتجاه الإيماني، إلا أن عدم إيمان ابن كل طائفة بما يؤمن به أبناء الطوائف الأخرى يجعل احتمال التوتر فالتطرف فالاقتتال ممكناً، وإيمان المنتمي إلى طائفة ما، بما يؤمن به ابن الطائفة الأخرى أو الدين الآخر يعني أنه أصبح مثله في الإيمان، لأن التمايز قد فُقد، إذاً يعني أنه خرج من إيمان طائفته، إذ لو كانت الطائفتان متشابهتي الإيمان تماماً لكانتا طائفة واحدة، أو ملة واحدة، أو ديناً واحداً.

من هنا كان الحرص على أن يبقى المؤمن ذا اتجاه واحد في إيمانه، تحافظ على ذلك الأسبجة الإيمانية التي تكرست عبر الأزمنة من قبل منظري هذه الطوائف ومؤدجليها.

يظهر ضيق الأفق في إيمان كل ملة أن وجهة نظرها تمثل غاية ما يمكن أن يصل اليه الفكر البشري وفي ذلك إقفال لتطور الحياة والتاريخ، ومنع للمبادئ الأخرى من أن تجري تطويراً على حياة الناس: «وقبل أن نواصل عن أبعاد التاريخ باكتمال الوحي وتلاقيه مع ارتضاء الاسلام ديناً .. ديناً قيماً .. وشريعة نهائية - وهي الأساس والمقياس للقوانين .. والتشريعات - أو قانون القانون»^(١٠). أن يكون الإسلام غاية تطور الأديان السماوية وخاتمتها، فهذا شيء نفهمه، لكن أن يتوقف الإنسان (المسلم وغير المسلم) عن البحث عن قوانين وتشريعات وأنظمة لتطوير حياته، فهذا يعتبر مصادرة لحركة التاريخ وسبقاً لفوكوياما وغيره ممن نعيب عليهم أغلاق التاريخ والتبشير بنهايته، بالتالي مصادرة لعقل البشرية وحركتها الدائبة نحو الأمام، وهذا ضيق أفق كان قد سبق إليه اليهود عندما بشروا بنهاية العالم والعودة الثانية للمسيح وتغلب اليهود على كل من تعاديهم^(١١).

كل ذلك كان يجري دون تقدير حقيقي لما يعتمل ويتطور في رحم الحياة من قوى وعوامل وظروف، أو دون النظر بعلمية وعقل منفتح على الحياة ومجرياتهما، بل بالاعتماد على ما استقر من قناعات إيمانية في عقول الناس المؤمنين، ودون اعتبار لحق الآخر في حرية اختياره لما يؤمن به. إنه إخضاع للناس والفكر والتاريخ لقناعات إيمانية لأفراد أو جماعات لايجوز تعميمها إفساحاً في المجال، وإطلاقاً لحرية الآخرين، ليشكلوا حياتهم ويعيشوها كما يشاؤون لا كما يملى عليهم، أي دون إكراه كما نصت على ذلك الأديان.

ويظهر ضيق الأفق في معاداة العلم وتعميم الجهل، كل ذلك باسم حماية الإنسان من الأخطار، ينقل ول ديورانت الحكاية التالية: (يروي قيصر يوس الهيسترباخي قصة .. عن رئيس وراهب شاب خرجا راكبين معاً. ووقعت عينا الشاب على النساء للمرة الأولى، فسأل رئيس الدير: «من هؤلاء» فأجابه «هؤلاء الشياطين» فرد عليه الراهب بقوله: «لقد كنت أظنهم أجمل من رأيت في حياتي كلها»). ويكمل ديورانت قائلاً: «كانت الفضيلة تبدو لبعض الرهبان كأنها صراع نفساني بين المرأة والمسيح»^(١٢).

ضيق الأفق يظهر لدى الفئات الإيمانية المتطرفة التي ترى أنه لا يوجد سوى حزب واحد يؤدي دوراً إيجابياً تاريخياً هو (حزب الله) وهو الحزب الذي يضم قادة وأتباع

هذا التيار، وحزب الشيطان الذي يؤدي دوراً سلبياً وهو من عداهم من الناس في العالم كله، وعلى حزب الله أن يعلن الجهاد والحرب المقدسة - دون ما هواده - على حزب الشيطان^(١٢).

والعقل الإيماني الذي قلنا إنه عامل في مجال السياسة كما هو عامل في مجال الدين، هو العقل الأحادي الاتجاه الذي لا يقبل التشارك، بالتالي يرفض الآخر فيسعى إلى إلغائه أو تهميشه، وهذه نزعة سائدة في العالم (خاصة المسمى بالثالث) كثيراً، ومنه وطننا العربي. فالتعددية تحتاج، أولاً، إلى عقل منفتح على الآخر، ومؤمن بضرورة وجوده، وشرعية هذه الوجود، حتى ولو كان لتبرير وجود الأنا، فمنبع العنف الاجتماعي من هذه الزاوية، محاولة طرف إلغاء طرف آخر نتيجة ضيق الأفق، ومن الزاوية ذاتها، تبدو الديمقراطية كهدف ووسيلة أيضاً، بعيدة المنال في مجتمعاتنا بالرغم من ضرورتها الملحة.

العقل الإيماني عقل فتوي متحيز ودوغمائي يخلق أسيجته الخاصة لحماية عقائده. وهو بالتالي عقل محافظ وتقليدي، متمسك بالعادات التي أصبحت جزءاً لا ينفصل من كتلة العقائد التي يحقق هذا العقل وجوده من خلال ممارستها؛ والخروج على أي من هذه العقائد يحكمه منطق البدعة، فالضلالة.

٥ - التسلط والشمولية

لا يفتقر العقل الإيماني إلى التسلط والشمولية، حيث تبدو شموليته في ادعائه علم كل شيء باعتبار المصدر الإلهي لعلمه، وأن كل علم أو معرفة مصدرها الوحي، وليس في الكون ما يمكن أن يخرج عن السلطة الإلهية التي آمن بها المؤمن، ومن هنا تنبع تسلطية هذا العقل، وهو عقل لا يفسح المجال للآخر كي يظهر أو يعبر عن وجوده، يحاول طمسه، يزاحمه على موقعه.

من جهة أخرى، سيفه مسلط على محازبيه، فكل إشارة يتم تفسيرها خروجاً على الإيمان مصيرها القمع الشديد، والحرمان من رحمة الله الواسعة، فالسيف للهراطقه. وهي عقوبات سرعان ما يبررها العقل الإيماني، فالجماهير المؤمنة كثيراً ما تصادق على الأحكام الصادرة على المخالفين لفاهيم إيمانهم ولقواعد هذا الإيمان، كما يصور ذلك

المشرفون على حماية الجماعة من الفساد، أما السكوت وعدم الاحتجاج فيفسر موافقة على الأحكام، فالجماهير المؤمنة التي كانت تصلي في المسجد صبيحة عيد الأضحى، لم تحتج عندما قال والي بني أمية على العراق، إن أضحيتته في العيد ستكون هذا الكافر، يقصد الجعد بن درهم، حيث نزل واحتز رأسه في أصل المنبر، وعلى مرأى من الناس الذين سوغ لهم عقلهم الإيماني التضحية بهذا الكافر الذي صورته عدوه السياسي والطبقي، دون أن يحتج أحد، والناس يعلمون أن الجعد بن درهم أقرب إلى الجماهير المتمتعة بهذا العقل. كما لم يحتج مؤمنو أوروبا على ماكانت تفعله محاكم التفتيش من تصفية للمعارضين والمفكرين باسم الإيمان السليم، ومحاكم التفتيش هذه يقول عنها ول ديورانت: «ونحكم عليها جميعاً بأنها أشنع الوصمات في سجل البشرية كله، وبأنها تكشف عن وحشية لانعرف لها نظيراً عند أي وحش من الوحوش»^(١٤). وربما كان الخوف في هذه الحالات هو الوالد الشرعي لهذا الإيمان.

وفي العصر الحديث اضطرت بعض الحكومات إلى إضافة مواد في دساتيرها تشير إلى أن دين الدولة هو الإسلام، أو أن مصدر التشريع للدولة هو الإسلام، أو أن دين رئيس البلاد هو الإسلام، وذلك استجابة للضغط الذي شكله المؤمنون.

وفي فلسطين المحتلة، تقف الحكومات الإسرائيلية عاجزة أحياناً عن الإقدام على بعض الإجراءات نظراً لتصلب وتسلب العقل الإيماني عند اليهود المؤمنين، الذين يشكلون مصدر خوف للحكومات في الكثير من القضايا التي يعتبرون أن للدين اليهودي علاقة بها، وهي كثيرة، ومن أمثلة ذلك، العجز عن القيام ببعض الأعمال خرقاً لنظام السبب الإيماني عند اليهود المؤمنين.

ولعل من أبرز مظاهر تسلط العقل الإيماني عند المسلمين، والذي يعد من العادات التي قُسرَت بعض آيات القرآن على استيعابها، والتماهي معها لتغطيتها واكسابها الشرعية، هو الحجاب، الذي ذكر أنه كان مفروضاً على المرأة في فترة حيضها، في الحضارات القديمة، ثم فرضه بولس الرسول عليها خلال وجودها في الكنائس، وجاءت آية الحجاب في القرآن لتشمل نساء النبي ونساء المؤمنين، في وضع اجتماعي معين، مستبعدة فئة الإماء، ومضحية بهذه الفئة، إلا أن هذا العقل الإيماني عبر العصور ظل يطور الحجاب وينتقل به من البساطة إلى التعقيد، ويزيد في إحكام سيطرته، بعقل

ذكوري امتلاكي متصلب، حتى تحول عند المرأة في الكثير من البيئات الإسلامية الى سجن محمول، لاتنجو من تحاول الخروج منه من التفسير والتكفير، أخذاً بمبدأ المرأة كلها عورة.

وغير بعيد عن هذا العقل وكمثال على التسلط على عقل الإنسان، ماورد في كتاب بعنوان «الحداثة» من سلسلة «قضايا وشهادات» أن طالباً جامعياً في سنته الأخيرة في الجامعة بدولة الإمارات العربية المتحدة، كتب في مجلة تصدرها الجامعة، أن على المرأة إذا رفعت سماعة الهاتف، وكان على الطرف الآخر رجل غير محرم، تطهير أذنها ببعض الأدعية والآيات القرآنية، في حال لم تلفظ أية كلمة، وإذا حدث وتلفظت مع الرجل بأية كلمة فالإجراءات أشد. أليس في هذا تسلطاً على عقل الإنسان وفكره وإرادته؟.

إن هذا التسلط على الإنسان المؤمن وعلى المجتمع، لايشمل التسلط على العقل والروح وعلى علاقة الإنسان بربه وكيفية تعبد إياه لينجو من عذاب الآخرة فقط، بل أصبح التسلط والسيطرة يشمل جميع جوانب حياته من اللباس والهيئة الى أدق التفاصيل الأخرى، فلا يستطيع الإنسان في إطار العقل الإيماني إنجاز معاملة الزواج، خارج إطار الملة والجماعة الإيمانية وإلا عد ذلك كفراً، والزواج باطل. ولا يغيب عن البال الردود العنيفة التي حصلت في لبنان لمجرد أن رئيس جمهوريته اقترح وضع قانون للزواج المدني، أي خارج إطار المؤسسات الإيمانية تسهيلاً للناس ورحمة بهم. ومن هذا الباب ما ذكره بعض من عملوا في بعض مناطق المملكة العربية السعودية، فقد روى مدرس أنه وصل الى المدرسة التي عين فيها أثناء انعقاد مجلس للمدرسين، وعندما مدّ يده ليسلم على زملائه المجتمعين، رفضت أيديهم أن تمتد إليه، وعندما استوضح السبب، قيل له لأنك تلبس البنطلون (زي الكفار)، وعندما دخل مدرس آخر على مدرسته لاحظ المدير أن أحد أظافر المدرس بطول عدة مليمترات فأمره بقصه لأن الشيطان يسكن تحته.

ومن هذا القبيل ما أوردته، د. نوال السعداوي من أنها حاولت أن تسلم على رجل إيراني كان يرأس وفد بلاده الى أحد المؤتمرات النسوية، وعندما مدت يدها لتصافحه غطى يده بطرف عباؤه، ولما سألتته عن سبب فعله، قال لها: أخاف الشيطان، عندها

ردت ساخرة: أما أنا فقد هزمت الشيطان منذ زمن بعيد^(١٥).
هكذا يكون التسلط على عقل الإنسان، وهو تسلط يشله ويعميه ويجعله أسيراً
وتابعاً لتفسيرات الجهل والغيبية.

٦ - لا يعرف العالم معرفة علمية

العقل الإيماني لا يعرف العالم معرفة علمية، أي عن طريق التجربة، إنه لاعلمي أي غيبي، وهذا يفضي الى الحلول السحرية، ليس بمعنى ممارسة السحر، بل بمعنى الابتعاد عن السببية والعلية كمناهج معرفية، وقد مررنا بفتوى (ابن باز) التي تقضي بتكفير من يقول بكروية الأرض ودورانها. إن طريقه لمعرفة العالم هو الوحي، الهادف الى تشكيل منظومة قيم لا منظومة معارف، إن قوى ما وراء الطبيعة هي التي تلقن العقل الإيماني ما يجب أن يعرفه، حيث يرى حلول المشكلات التي تعترضه بالنصوص (كما يفهمها) والأدعية والكرامات والرقى والحجب وغيرها من أساليب، فالحلول الإنسانية لاغية، والإنسان لا حول له ولا طول.

العلم ينتمي الى عالم القوانين الدقيقة، والدين ينتمي الى عالم القيم المتعالية، وطريقهما ليس واحداً، وأسلوب عملهما للسيطرة على العالم ليس واحداً، فالتجربة لا دور لها في المعرفة الدينية الإيمانية، والمعرفة عن غير طريق التجربة لا مكان لها في العلوم.

لقد نسي المؤمنون أو تناسوا أن عصا موسى التي شقت البحر لبني اسرائيل، وأن الملائكة الذين أيدوا المؤمنين في معركة بدر، قد جاءت في الكتب المقدسة للإخبار عن المعجزات التي ساقها الله لتأييد أنبيائه، مع ملاحظة دور المعجزة في تثبيت صدق النبوة ودحر معسكر خصومها، كما تناسوا أن زمن المعجزات ليس بالضرورة أن يعود، لأن زمن النبوة انقطع، كما أن البيت الحرام لم يعد مهدداً كي يرسل الله الطير الأبابيل، أو مرض الجدري ليهزم جيش أبرهة. والمعجزة اصطلاحاً: «هي ظهور أمر خلاف العادة في دار التكليف لإظهار صدق ذي نبوة من الأنبياء أو ذي كرامة من الأولياء مع نكول من يُتحدى به عن معارضة مثله»^(١٦). وعرفها الاسفراييني بأنها «فعل يظهر على يد مدعي النبوة ..»^(١٧) والملاحظ اقتصار المعجزة على الأنبياء وتعبيره (مدعي النبوة)

دون الأولياء، وكلمة (ولي) من المصطلحات الإيمانية الغائمة الأبعاد، والمستغلة جيداً، والمحتكرة. ومن شأن المعجزة التي يقبض عليها المؤمنون أن تكرر العجز البشري وتحسم الصراع. فمع انقطاع زمن النبوة، وعدم تحديد مفهوم الولاية تحديداً علمياً دقيقاً وثابتاً وواضح الأبعاد والمعالم، يستمر النهج الإيماني، فأضرحة الأولياء التي يقصدها المؤمنون للنزهات والسياحة والتبرك، تملك حلولاً صحية واجتماعية، كشفاء الأمراض المستعصية، وانجاب الأولاد وحماية الغياب ومعرفة الغيب، كما أن حسد الحساد تبطله الخرزة الزرقاء، كل ذلك باستحضار مظاهر التقى والإيمان. وعظام القديسين في المسيحية - حتى لو اكتشف بعد ذلك أنها عظام غير بشرية - تجلب البركة وتحقق الأمنيات، ومعرفة الغيب والتنبؤ بالمستقبل والإيمان بما يراه الناس في أحلامهم كل ذلك بعض من ايدولوجيا الإيمان. ولا بأس أن نرى صورة مريم يتكرر ظهورها على شكل طيف في بعض أحياء القاهرة عدة مرات، وقد أكد ذلك بيان للبابا كيرلس السادس في أيار ١٩٦٨، وقد كان الظهور كما قيل في كنيسة الزيتون بضاحية من ضواحي القاهرة. ويقال أن بعض الناس قد تمكنوا من التقاط صور لطيفها^(١٨). والزيت المقدس الناضح من أيدي أحد المباركين يستشفى به من كل داء، ولا بأس أن يتجمع المرضى وذوو العاهات لنيل بركة أحد الأولياء أو الآباء فينصرفون وقد ذهب ما كان لهم من أدواء وعاهات، وليس غريباً أن يشفى مريض من مرضه الذي استمر عقوداً وأدى الى عاهة عجز عنها أهل الأرض، بزيارة في الحلم من قبل أحد الأولياء أو الرموز الإيمانية. إذن نحن أمام سيل من الحلول المتواصلة لمشكلات المؤمنين، وكلها حلول مرتبطة بالسماء، ومن له علاقة مباشرة بها، على أن هذه الحلول نهائية، لاتبقى آثاراً، وهي حاسمة وآنية، بمعنى غير متدرجة، ولاتؤمن بالمراحل، مما لم يستطع العلم انجازه. وهذا العقل الغيبي يستقطب قطاعات جماهيرية واسعة جداً، والمستوى العقلي للكثير من هذه الجماهير يسمح بالأسطرة.

يسعى المتأسلمون كما يسميهم د. رفعت السعيد الى تربية الناس تربية لاعلمية، قوامها السحر والغيبيات والخوارق، وكلها تنفي العقل وتبعده عن ساحة التبرير والتعليل، والملاحظ أن الكتب التي ينشرها الإيمانيون، تسعى لتعميم الحلول البعيدة عن منطق العلوم الكونية لأية مشكلة مطروحة، كما ينقلون التاريخ والأحداث الماضية

على هذا المستوى فيسبغون عليها مسحة من الخرافة: «إن نوحاً عليه السلام بنى سفينته من عظام حيوان يبلغ طوله مسافة مابين السماء والأرض، ويبلغ عرضه مسيرة عام كامل»^(١٩). وينقل السعيد أيضاً عن الكتب التي تقدم لتثقيف الأتباع من المؤمنين: «إن ياجوج وماجوج أمة، وكل أمة أربعمئة أمة، لا يموت الرجل منهم حتى ينظر الى ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح، وهم من ولد آدم يسرون في خراب الأرض، وهم ثلاثة أصناف وصنف آخر يفرش إحدى أذنيه ويلتحف بالأخرى، لا يمرون بفيل، ولا وحش لا خنزير إلا أكلوه، ومن مات منهم أكلوه...»^(٢٠)، كما ينقل: «إن نعلي الشيخ تطيران في الهواء وتضربان رأس الفاسق حتى يموت، وإن تابع الشيخ (تأملوا إنه تابع الشيخ وليس الشيخ نفسه) يمشي في الهواء والشمس تسلم عليه، وإن الشيخ وهو في المهد رضيع كان يمنع نفسه عن ثدي أمه في رمضان .. وأن أهل بغداد رأوه رأي العين يقف على ماء دجلة والأسماك تجيء إليه فوجاً بعد فوج فتسلم عليه وتقبل يديه ورجليه»^(٢١).

هكذا يتم تصنيع العقول في المعاهد المعدة لتخريج المؤمنين جداً. العقل الإيماني لا يهتم بنشر المعرفة وتعميمها، ومن هنا تسهل السيطرة عليه لأنه عقل غير نقدي، أي عقل لا عقلاني، والعقل قد يوجد بصفة لا عقلانية كثيراً (حسب تعبير ماركس) وهذا العقل يخاف العقل العلمي الناقد فيهاجمه، ويقف الى جانب الدراسات الوصفية الاستاتيكية، ويعلن عداؤه للدراسات الفكرية النقدية، التي تتعاطى مع العقل باعتباره قوة تطلع الى الحقيقة، أي قوة حرة وسيّدة لا يرضيها إلا بلوغ الحقائق. العلمية والسببية ليستا من آليات عمل العقل الإيماني، والمعروف أن لاعلمية بدون سببية، سببية تعمل في أفق قوانين العلم التجريبي الذي لا يتعاطى معه هذا العقل، ولا يجد من مصلحته الاعتراف بالعلم الحديث ومنطقه التطوري المحكوم بالتوجه الى الأمام، والبقاء للأفضل

٧ - التلون والتقلب

العقل الإيماني متلون، متقلب، غير ثابت. إنه بسيط التكوين تارة، معقد تارة أخرى، تؤدي دراسته الى الحيرة في ما يحركه، تمر الأحداث الكبرى فلا يهتز لها أحياناً،

لنراه يتجاوب مع أحداث بسيطة وفردية في أحيان أخرى، وتؤثر فيه الشائعة، وهو متسامح تارة، متشدد أخرى، يتلون مع تقلبات الحياة السياسية والاجتماعية.

يؤيد جمهور المؤمنين حكومة ترفع شعارات الإيمان، وإعلاء كلمة الدين، ثم نرى الجمهور ذاته يؤيد حكومة أقل تمسكاً بالمبادئ السماوية الدينية، يؤيد الحكم الاشتراكي النزعه، وهو ذاته يؤيد الحكم الرأسمالي النزعة، يضيفي غطاءه على الليبرالية، ولا بأس أن يضيفه على الشيوعية، كما لم يكن الغطاء الإيماني ضافياً أكثر في فترة حكم أنور السادات، رافع شعار دولة العلم والإيمان، عما كان عليه في عهد عبد الناصر. هذا العقل ذاته نراه في انقسام الشارع العربي والإسلامي الى مؤيد للعراق، ومؤيد للتحالف ضد العراق أثناء حرب الخليج الثانية، وكل فريق له فقهاؤه وفتاواه المبررة لسلوكه وإيمانه، وكلهم يرى أنه على حق، والدين واحد، والإيمان واحد.

الإيمان متغير مع الأيام أيضاً، مع أن العقائد ليست محكومة بمنطق التغيير، العقائد ثابتة، والزمن متحرك، والحس الإيماني لاصق بالزمن، ويترجم ذلك الى واقع علمي، فالزني المحكوم بمنطق الإيمان في يوم ما، والذي يملئ على المرأة ارتداء الحجاب، لا بأس أن نجده يميل الى التحرر من القيود والتخلي عن الحجاب كلياً أو جزئياً.

إن تلون هذا العقل تحت تأثير الزمن تارة، وتحت تأثير السياسة والأحداث تارة أخرى دليل على أنه محكوم بمنطق المصلحة، وهذا مايفرض التلون والتكيف، وهو في كل ذلك لا يحتاج الى مبررات، ولو احتاج اليها لاستمددها من فتاوى فقهاء لهم سمعتهم تاريخياً، مثل هؤلاء الفقهاء أعلنوا ضرورة الرضوخ لأية حكومة سواء جاءت بالرضى أو بالغلبة، والخروج على الحاكم الظالم لايجوز اتقاء للفتنة «أدوا الحاكم حقه وأسألوا الله حقكم»، «يجب أن تصلوا ولو وراء مخالف». مثل هذه الفتاوى لاتبرر التلون فقط، وإنما تبرر الإستسلام للظلم والتسلط الذين أشرنا اليها.

لايغيبن عن بالنا أن تلون هذا العقل وتأيينه لكل حكومة متغلبة أخضعته، جعله أداة طيعة لهذه الحكومات، وعصا بيدها، تستعملها للخارجين على سياساتها أو المشككين بمشروعيتها. وهذا العقل تسهل عليه الوصمة بالكفر والإلحاد وتوزيعها بعد تلقي الإشارة بها على أي فرد يكون هدف هذه الجهات الموجهة لهذا العقل أو السيطرة عليه، فهذا الجمهور الذي روج التهمة على ابن سينا بأنه أنكر البعث، وشاغب على ابن

رشد، وترك ابن باجه يموت مسموماً، كرر المواقف ذاتها في عصرنا الحديث فلم يهب لحماية الكواكبي، وترك المتلاعبين بالمشاعر الدينية الإيمانية يعبثون بحياة نصر حامد أبو زيد، ويهاجمون نجيب محفوظ لقتله، كما كادوا يودون بحياة عزيز نيسين كما مر معنا.

والمرير في ذلك أن العقل الإيماني لم يتوقف كثيراً لنقد الفتاوى التي يصدرها أو تصله ضد فلان أو فلان، فلم يميز بين ثائر في سبيل كرامة أمته ومصلحة شعبه، مستنير جعل الدفاع عن كرامة الناس وقيمهم هدفه، وبين من أهدروا هذه الكرامة وسعوا لمصالحهم المشبوهة، فبرز هذا العقل غوغائياً غير منضبط، لم يكن حسين مروه ومهدي عامل اللذين اغتيلوا، ومارسيل خليفه الذي قدم للمحاكمة، إلا مفكرين وفنانين اختاروا عن قناعة وطواعية أن ينحازوا الى جانب الإنسان في أسمى قيمه الإنسانية، وأن يعملوا ليرتقوا بمستواه بواسطة فكرهم أو فنهم الى قيم الحرية والانعقاد.

أليس من العيب أن تسوق العامة إشاعة خلال الحرب العالمية الثانية تقول إن هتلر قد أسلم، فترتفع الأدعية والصلوات طالبة من الله نصره، غافلة عما عدا ذلك، من أن هتلر ليس مفخرة لأحد مسلماً كان أو مسيحياً، وإذا كان شر البلية ما يضحك كما يقولون، فإن من هذا الشر المضحك أن يستطيع نابليون بونابرت عرض نفسه على الأزهر وجمهور المصريين المؤمنين بأنه مسلم غيور على الإسلام أكثر من أبنائه السابقين ويجد هذا العرض القبول. ولا ننسى أنه وقومه معتبرين من الكفار في نظر المسلمين في ذلك الوقت على الأقل.

واستكمالاً للصورة فإننا نجد لهذا العقل مواقف مشهودة في الدفاع عن قيم مجتمعاته وحقوقها، ففي الثورة المصرية سنة ١٩١٩ وقف الناس جميعاً في مواجهة المستعمر، وانطلق الأب سرجيوس، وهو القس المسيحي، من الأزهر بخطبة بدأها بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» ثم سار في مظاهرة ضد الإنكليز. ولا ننسى دور لاهوت التحرير في تحرير أمريكا اللاتينية. كما لا ننسى دور الإيمان في الثورة الجزائرية، أو في ثورة عام ١٩٣٦ في فلسطين، كما لا ننسى دور بعض الفئات والجماعات الإيمانية في مواجهة الصهيونية في فلسطين وجنوب لبنان، وفي وقت عزت فيه الغيرة على الأوطان.

ويمكن لهذا العقل أن يغير مساره وينحرف عن اتجاهه السابق بسبب مؤثرات جديدة تطرأ على ساحته، فحركة الإصلاح الديني اليهودية المتأثرة بحركات الإصلاح الديني المسيحية، دعت الى اندماج اليهود بمجتمعاتهم الغربية، وهجر عقيدة الغيتو التي تدعو الى الانغلاق، وشجعت الزواج المختلط واعتماد اللغات الوطنية في العبادة^(٢٢).

هنا يمكن الإشارة الى أن الدين في تحوله الى أيديولوجيا عند المؤمنين، يمكن أن يكون أفيوناً بالمعنى السلبي للعبارة - عبارة ماركس - ويمكن أن يكون زفرة للمضطهدين كما تشير العبارة ذاتها في قسمها الثاني الذي تناساه الناس تناسياً مغرضاً، وعندها يكون بلسماً. ألا نرى التلون صارخاً؟!.

٨ - الجماعية

هو عقل جماعي (قطيعي)، وهو خط دفاعي جاهز دائماً، لكن إمكان تفعيله غير محكوم بآلية واحدة واضحة، أو بشخص لمدة طويلة، إنها آلية غائمة، تصعب السيطرة عليها، لكن إذا تم ضبط إيقاعها، واستغلت الإمكانيات العقيدية المتوفرة لهذا العقل فإنه يفعل العجائب.

إيران هنا مثل حي، ففي أحداث جرت في إيران في العصر الحديث، أثبت العقل الإيماني الإيراني أنه فاعل في ساحة التغيير، منقاد بقوة باتجاه ماخطط له، فمن ثورة التنبك ضد الشركة البريطانية، الى أحداث المشروطة والمستبدة ضد الشاه القاجاري، الى ثورة مصدق في منتصف القرن العشرين، الى الثورة الإسلامية الإيرانية عام ١٩٧٩ بقيادة الخميني، والى الحقل ذاته تنتمي ثورة عام ١٩٢٠ في العراق. في كل هذه الأحداث الكبرى نقرأ جماعية الحركة، التي تعني جماعية الفعل الإيماني، والشعور المحرك لهذا الفعل، أي العقل المتحكم بتحريك هذه الكتلة الجماهيرية الهائلة، والتي أثبتت عبر الحركات المذكورة أن لاشيء يقف في وجهها، وهذا دليل (قطيعية) هذا العقل وفئويته أيضاً (طائفية)، كما أثبت فاعليته وتحسسه لمشكلات البلاد والعباد، وإيجابيته في التعاطي مع إمكانيات التغيير، بغض النظر عن وجهة هذا التغيير ولونه، بالرغم من أنه معروف بالسلبية.

يبدو تحرك هذا العقل الجمعي سهلاً في بعض الأحيان، إيجابياً فاعلاً تجاه أحداث ما، خاملاً بارداً فاقدًا للحس تجاه أحداث أخرى، في بلاد أخرى، في زمن آخر، وحتى في البلاد ذاتها أو في الزمن ذاته، من يتحكم بتوجيه هذا العقل ويسيطر عليه؟ هل المشكلات المطروحة هي التي تحركه؟ هل الأشخاص وقدراتهم؟ وهؤلاء الأشخاص هل هم الساسة أم رجال الدين؟.

إن تحركه يمكن أن يكون إيجابياً تقديمياً فاعلاً، ويمكن أن يكون رجعيّاً سلبياً يصنف في خانة تغييب العقل وتخدير الناس.

في أية خانة نصنّف تحرك الحشود الكبيرة للقاء بابا الفاتيكان؟ فهو أينما تحرك وإلى أي بلد توجه نجد أن مئات الآلاف أو الملايين تندفع لحضور قدّاساته التي لا تتسع لها الأمكنة فتجري في الساحات العامة، يندفع اليها الشباب قبل الشيوخ، ولاننسى لقاءاته مع الشباب كلقاء باريس الذي توجه إليه الشباب من كل أطراف المعمورة.

كيف نفهم اجتماع عشرات الآلاف في كل ليلة من ليالي عاشوراء؟ معظمهم من الشباب، يندبون ويعولون ويدمون رؤوسهم وصدورهم العارية من شدة اللطم، يردد المكان صدى نحيبهم وعويلهم وصراخهم وتفجعهم، في ليالٍ ممتدة، حزناً على الحسين الشهيد، ومعاقبة لأنفسهم عندما تتلى عذاباته وسيرته، ومأساة استشهادِهِ. وفي الباب ذاته نذكر باستعارة عذابات المسيح من قبل جماهير المؤمنين الذين يصل الأمر ببعضهم، إلى حد تثبيت أجسادهم على الصليبان بمسامير ضخمة تخترق أطرافهم، استعارة للحظة، واستحضاراً للألم الذي عاناه المسيح.

وهذه العذابات يشار إلى أنها متوارثة، ومتناسلة من تجارب أقدم في تاريخ المنطقة، فقد أشار الكثير من المؤرخين لتاريخ المنطقة القديم، إلى مثل هذه العذابات التي كانت تجري في احتفالات جماهيرية سنوية، في ذكرى غياب أدونيس الإله الكنعاني أو في ذكرى عودته إلى الحياة، بحسب ماترويه الأسطورة، كما كانت تجري في مصر في الذكرى المشابهة للاله المصري أوزيريس. وقراءة كتاب «لغز عشتار» للكاتب فراس السواح تقدم فكرة عن ذلك.

إن المفارقة تبدو حادة إذا رأينا أن الأحزاب بكامل جهودها وتجهيزاتها، التقدمي وغير التقدمي عاجزة عن استقطاب الجماهير، والشباب خاصة إلى تجمعاتها، بالرغم

من أنها ترفع شعارات العمل في سبيل المصلحة العامة، مصلحة الجماهير، وترهن جهودها وحياتها لذلك دون جدوى، في حين لا يطلب من البابا رفع شعار سوى شعار الإيمان، ولا من قارئ السيرة الحسينية إلا قدرته على إثارة الحزن واستحضار اللحظة لحظة الألم الحسيني، بشكل عاطفي مثير، تكفيراً عن تقصير لم تستطع أربعة عشر قرناً من الندب ومعاقبة الذات إزالة أثره من نفوس الشيعة.

إن ازدياد إشعاع الشعور الديني في النفوس والتوجه باتجاه التدين عند قطاعات واسعة من الجماهير، خاصة منهم الشباب، وانتشار هذه العدوى، بشكل واسع، وظهور الحركة الجماعية لهذه الجماهير عندما يتم تجييشها، يبرز القطيعية (الجماهيرية، الجماعية) في وعي المنتمين الى هذا العقل.

إن العقل الإيماني قد يصاب بانحرافات خطيرة وحادة يعبر عنها تعبيراً شذوذاً في غاية البشاعة. ينقل أديب ديمتري^(٢٣)، أخبار بعض الجرائم الطقوسية الجماعية والمرتبطة بممارسات شعائرية شيطانية، وتزايدها المفزع، وهي جرائم وشعائر تنتمي الى العقل الإيماني، وتوحي بالقطيعية، فقد تم اكتشاف مقبرة على الحدود بين الولايات المتحدة الأمريكية والمكسيك، فيها / ١٣ / جثة مشوهة ومقطعة الأوصال قرب كوخ، وفي داخل الكوخ قدر معدنية شيطانية فيها خليط من مخ بشري ودم مع رأس ماعز ومخدرات.

والحديث عند تزايد الاتجاهات الطقوسية والانتماءات الجماعية التي تتناقلها الأنبياء، وكل هذا مرتبط بالشذوذ والمخدرات وأكل لحوم البشر والعبادات الشاذة، وممارسات السحر الأسود، والتضحية بالأطفال، وتعذيب الضحايا والتمثيل بهم، هو نتيجة قناعات إيمانية شيطانية شاذة، فقد تم اعتراف أحدهم بقتل / ٣٦٠ / شاباً لحساب شيعة شيطانية من عبدة الشيطان^(٢٤). ولاتني وسائل الإعلام أن تنقل مثل هذه الأخبار كما أخبار الانتحارات الجماعية الإيمانية.

٩ - اللاقاريخية

يفتقر العقل الإيماني الى منطق التطور وآلياته. إن اضطراب حركة الإيمان، الظهور القوي تارة، والاختفاء أخرى، اشتداده أحياناً، وضعفه أخرى من غير أن تكون هناك

متغيرات مهمة في الحياة، تبرز هذه الحركة اللامتواترة، المضطربة، مما يوحي بأن هذا العقل يفتقر الى النسق التطوري المنسجم مع الحياة في صيرورتها.

في أشد حالات الحاجة الى العقل والتعقل العلمي الناقد والفاعل في حياة أمة ما، يبرز حدث ما، ينتمي الى تأثير العقل الإيماني، يوحي بتخلفه عن الحدث قروناً. إن إعلان محمد متولي الشعراوي أنه صلى ركعتين شكراً لله عقب هزيمة حزيران المريرة، لأن الهزيمة برأيه أوقفت المد الشيوعي في المنطقة^(٢٥)، يشير الى فقدان الحس التاريخي والوطني أيضاً في سلوك ممثل بارز من ممثلي العقل الإيماني ومجيشي شعوره، وهذا الرجل نفسه يعبر عن لا تاريخية عقله بإصرار عندما يعلن في أواخر القرن العشرين أنه مع استرقاق الأسرى من الكفار لأن معاملتهم كعبيد شيء إنساني في رأيه وهو أفضل من قتلهم، كما دعا الى سبي نساء العدو الكافر ومضاجعتهم وذلك تكريماً لهن لأن الرجل المسلم يعاملهن كزوجات، وقد جاء ذلك في حديث تلفزيوني^(٢٦). ألا نحس بأن هذا العقل ألغى القرون التي قطعتها البشرية في نضالها من أجل الحرية والتقدم والبناء الحضاري؟ ألا نحس بفقدان الشعور بتطور الحياة عند ممثلي هذا العقل؟ ألا ينتمي هذا التفكير الى لحظة عفى عليها الزمن منذ قرون؟.

تظهر لا تاريخية العقل الإيماني في طريقة تعاطيه مع الثقافة والمثقفين ورفضه بعض جوانبها بل محاربته لهذه الجوانب، كالموسيقا والسينما والرقص والنحت والتصوير حرباً لا هوادة فيها وبكثير من التخلف، ويبدو أن الثقافة والمثقفين لا يروقون لهذا العقل، فراشد الغنوشي زعيم حركة النهضة الإسلامية في تونس (وهو موصوف بأنه من الإسلاميين المعتدلين، ويطالب بالديمقراطية وحرية الرأي) يقول: «المثقفون هم صوت الشيطان»^(٢٧) دون أن يحدد أي نوع أو أي فئة منهم يريد أو يقصد، إلا أنه من الواضح أنه لا يقصد المثقف الديني المؤمن باعتبار أن الشيطان ينفر من هؤلاء.

إنه المعنى ذاته، الذي يعلنه زعيم سياسي هذه المرة، من حقول الإيمان السياسي، بل من فعاليات النازية، يقول غورتنج: «عندما أسمع كلمة ثقافة، أتحسس موضع مسدسي»^(٢٨).

إن هذه النظرة الى الثقافة والمثقفين تعبر عن لا تاريخية فاضحة، فالعبداء للثقافة لا يساير منطق التاريخ في حركته دائماً الى الأمام.

إن افتقاد العقل الإيماني للنسق التاريخي التطوري، بحيث لا يؤمن بأن الزمن تحكمه النظرة التطورية من الأدنى الى الأعلى، أو من الأسوأ الى الأحسن، من مميزات هذا العقل ومناقض لمنطق العلم، لقد قبض هذا العقل على ذروة تطور الحياة وقمة أداء السماء والأرض في لحظة التدشين، تدشين دينه أو مذهبه، فهل بعد القمة من تطور؟! إن تأكيد الأديان على هذه الفكرة هي القبض على العقل الإيماني متلبساً بجريمة تجميد الحياة في نقطة معينة من نقاط مسيرتها وتطورها.

من مظاهر لا تاريخية هذا العقل الإيمان الذي لا يزال متقدماً في أذهان اليهود بظهور المسيح المخلص، وبقِيامة المسيح عند المسيحيين، كحل للمشكلات التي تزداد تراكمًا، والتي لا تقدر إرادة الإنسان وعقله وعلومه على أن تؤثر فيها، ولا يمكن أن تغير الواقع هذا التغيير الجذري الرباني الذي يمكن أن يحدثه الإعلان عن بدء الحركة الإلهية الغيبية التي ينتظرها المؤمنون: إنها توقف الزمن وحركة التاريخ، وتشل العقول وتمنعها من التفكير في إيجاد الحلول الممكنة لمشكلات الواقع والقضايا المعترضة، التي يتوهم العقل الإيماني أن استعصاءها لا بد له كي ينتهي من ظهور المهدي المنتظر. والعقل الإيماني لا يسعى لجمع الأدلة والبراهين والانطلاق منها، فعمله غير محكوم بمنطق ما، إنه محكوم بالمعجزة التي انقطعت، إنه لا سببي كما بينا، لا يبحث عن العلل الكامنة والآراء والأحداث، كما تفعل العلوم.

١٠ - الرحمة

إن السمة الأساس التي يفترض أن تكون للعقل الإيماني، وقد كانت أحياناً، هي الرحمة، التي تم الانزياح عنها، هذا الانزياح تؤكد القراءات التي قدمناها فيما تقدم، وأدت الى إبراز السمات التي ذكرناها، إذ أن هذه السمات لم تتأكد في مجرى السلوك الإيماني، إلا على حساب غيرها وبالتغلب عليه.

من أين ينبع العنف؟ وكيف يبدو كأحد تجليات العقل الإيماني، وقد جاءت الأديان لتؤكد التآخي والتراحم والتوَادد والتعاطف وغيرها من المعاني الإنسانية العامة. من أين ينبع الجهل والخرافة في هذا العقل، والأديان تدعو الى التبصر والتعقل والتفكير والعلم؟ وهذه المعاني كانت من أبرز المحاور التي أكد عليها القرآن الكريم،

باعتباره أبرز مرتكزات الإيمان وأساسه في البيئة العربية الإسلامية، وكما يؤكد المؤمنون. لقد خانهم فهمهم.

إن العقل الإيماني بالرغم من الانحرافات الخطيرة التي عاناها ويعانيها يومياً، لم يفقد قدرته على التأثير الإيجابي، في أحد حقوله وعلى ساحة الأحداث المعاصرة، يظهر ذلك من خلال النضال في مجالات غير المجالات التي ذكرنا نضاله فيها من قبل، حيث يبدو أنه يتصدى لمهمات اعتبرتها بعض السلطات ليست من شأنها، إنها مهمات تحقيق الوجه الإنساني للدين، بفعل إيماني تطوعي يبرز الوجه السمع، ويتجلى ذلك في الكثير من الجمعيات الخيرية، والمؤسسات التي ترعاها جهات مرتبطة بهذا العقل الإيماني الذي يتم استقطابه لصالح الاتجاه الحقيقي لمعاني التوادد والتراحم التي بشرت بها الأديان.

إن الإيمان بمفعوله الإيجابي، الإيمان بمعناه المستوحى من الكتب المقدسة، والتعاليم التي علمها الرسل، لا من الانحرافات البشرية ذات الأغراض غير المشروعة، يكمن وراء التقديم السخي، بعيداً عن الأهداف المشبوهة التي انحرف هذا الإيمان باتجاهها. هذا التقديم يتجلى في دعم الجمعيات العاملة في مجال رعاية الطفولة والمياتم وأبناء الشهداء، أو الصم والبكم، أو جمعيات رعاية الشيخوخة، ودور العجزة والمسنين، وفي مجال دفن الموتى وغير ذلك، إن الإيمان ذاته الذي لم تفسده الأيام ولا يزال على نقائه هو المندفع للمساهمة في إزالة أخطار الكوارث الطبيعية التي تتعرض لها بعض المناطق في العالم، بعيداً عن انتماء هذه المناطق الديني والطائفي، من خلال الجمعيات الخيرية والإنسانية لتخفيف آلام الناس ومواساتهم وانقاذهم، وهي ماتزال تجد لها ضرورة ومكاناً في ظل غياب من يقوم بمثل هذه المهمات. وبعض هذه الجمعيات والمؤسسات ذو صفة محلية وبعضها ذو صفة إنسانية عالمية، كالصليب الأحمر والهلال الأحمر، عرف كيف يتخطى إيمانه الحدود، فهو لا يخضع لجغرافية أو قومية أو دين، بل معياره الأساس الإنسان وما تتطلبه الحياة لتحقيق إنسانيته.

هذا المعنى وهذه السمة سواء أكان تجليها فردياً أو جماعياً هو صورة من صور النقاء الإيماني الذي تنكر له الكثير من المؤمنين المتقوقعين، أو الذين يعملون في مجال قتل الإنسان وتخريب قيمه، وهم يتوهمون أنهم يحققون إرادة السماء.

لقد كانت الرحمة هي السمة التي بقي المؤمنون على امتداد التاريخ يعتزون بأن أديانهم تنتمي اليها، وتحض عليها، والرحمة بانفساحها على كل المعاني الإنسانية التي تحقق إنسانية الإنسان وانعتاقه، وتقطع مع كل ماهو شر وخبث ونفاق. ولسنا بحاجة الى استنطاق النصوص الدينية الأساسية. وقد جاءت سير الكثير من العظماء وفي الكثير من الأحيان تؤكد منطوق الأديان واتجاهاتها: «فقد رويننا عن محمد بن عبد الله بن عبد القاري أنه قال: قدم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجل من قبل أبي موسى، فسأله عن الناس فأخبره ثم قال: هل فيكم من مغربة (أي خبير غريب)؟ فقال: نعم رجل كفر بعد اسلامه، قال فما فعلتم به؟ قال: قربناه فضربنا عنقه، قال عمر: هلا حبستموه ثلاثاً وأطعمتموه كل يوم رغيفاً واستتبتموه لعله أن يتوب أو يراجع أمر الله، اللهم إني لم أحضر ولم أمر ولم أرض إذ بلغني»^(٢٩).

إن الخبر السابق مثال واضح للدروس التي أرادت الأديان تعليمها للناس بلسان كبار رجالها، فكيف تم تجاهل هذه الدروس وتحويل الأديان الى معتقلات للفكر، ومقاتل للرحمة والتراحم، واستولى الحقد والتعصب على عقول المؤمنين بحيث أصبح الناس يموتون جوعاً كما يموتون في السجون وعلى أيدي الجلادين وقادة الدين والدنيا، حتى ارتفعت صيحات الرحمة، من خلال هذا الأتون مطالبة بالعودة الى ماهو حق وخير وجمال في هذه الأديان. فابراهيم بن أدهم الصوفي الشهير المدفون في مدينة جبلة على الساحل السوري يقول فيما ينقل عنه العلامة المرحوم «هادي العلوي» «لقمة في بطن جائع أرجح في ميزاني من عمارة مسجد»^(٣٠).

وفي هذا الخضم من الحقد والضغينة والشر، أظهر العقل الإيماني السعسي لاستحضار كل ما من شأنه إشاعة الرحمة والشفقة، طبعاً المقصود هنا تلك البقايا من العقل المتسامح والمنفتح على القيم الإيجابية، وعلى هذا الطريق نرى نهج «بابا نويل» الذي كان شخصاً فأصبح رمزاً للمحبة والتوادم والتراحم والعطف على الصغار وتخفيف معاناتهم وإشاعة الفرح والأمل في نفوسهم. إن استحضار صورته المستمرة عبر التاريخ من سيرة أحد القديسين الذين جسدوا المعاني التي يرمز اليها في حياتهم، هو دليل على أن جانب الرحمة في الحياة كما في الأديان لم يصبح عقيماً بعد، بل لايزال هذا العقل قادراً على إشاعة الفرح والمحبة والطمأنينة، وعلى هذه الأسس يرتكز رمز آخر

من الرموز التي يستخدمها هذا العقل، إنه رمز الحب، القديس فالنتاين « حامي العشاق ورمزهم ومخفف معاناتهم، إنه إكمال للمعاني التي تنبعث من رمز «بابا نويل»، كلاهما من شانة إشاعة الفرح، والتخفيف من آلام الناس وعذاباتهم، ونقلهم من أجواء الشر والسوداوية والظلم الى أجواء الخير والمحبة والأمل.

عقل الرحمة الإيماني هو الذي يقدم للحياة مؤمنين يجعلون الحياة أكثر بهجة وفرحاً، بنبد التعصب وبالتنوع، واختيار الجميل مما عند الآخر، ومشاركته في قيمه ورموزه التي تقدم صورة التعايش الجميل بين حقول إيمانية مختلفة، تقدم الأدبية رضوى عاشور في شهادة لها، صورة جدتها المؤمنة التي تألف التقويم القبطي أكثر من سواه، وتنتظر هلال رمضان على مدار العام «لم يكن شهراً رمضانُ جدتي، كان حبيباً تتحمم له قبل اللقاء، تتطيب، ترتدي الجديد من ثيابها وفي الفراق تودعه بالبكاء». «تتكحل في سبت النور، تبتهج لسقوط المطر في الغطاس، وفي يوم عيد الفصح، في الليل تضع تحت وسادتها بصلاً أخضر وتنام. وتبكر صباحاً لدفع أياً منا لحمل البصل ليلقي به في النيل. ابنة أصيلة لثقافة تدخل عناصر جديدها على قديمها ولا تسقط سوى أقل القليل»^(٢١).

هوامش الفصل الأول

- (١) - د . نصر حامد أبو زيد ، نقد الخطاب الديني ، سينا للنشر ، طبعة أولى ١٩٩٢ ص ١٢ .
- (٢) - محمد أحمد خلف الله ، الفن القصصي في القرآن الكريم ، يليه عرض وتحليل بقلم : خليل عبد الكريم سينا للنشر + الانتشار العربي طبعة رابعة ١٩٩٩ ص ٣٢ .
- (٣) - د . محمد شحرور ، الإسلام والإيمان - منظومة القيم ، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع ، طبعة أولى ١٩٩٦ ص ٦٧ - ٦٨ .
- (٤) - د . رفعت السعيد ، المتأسلمون - الإرهاب والفتنة الطائفية ، دار الأهالي - دمشق طبعة أولى ١٩٩٤ ص ٩٧ .
- (٥) - المرجع السابق ص ١٠٣ .
- (٦) - فاطمة المرئيسي ، الجنس كهندسة اجتماعية - بين النص والواقع ، ترجمة : فاطمة الزهراء زريول ، المركز الثقافي العربي ، نشر الفنك طبعة ثانية ١٩٩٦ ص ١٤٨ .
- (٧) - د . عز الدين الأمين ، نشأة النقد الأدبي الحديث في مصر ، دار المعارف ، طبعة ثانية ص ٤٨ .
- (٨) - هادي العلوي ، في الإسلام المعاصر ، المنشور ضمن كتاب : فصول من تاريخ الإسلام السياسي ، مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي ، شركة F.K.A. المحدودة للنشر - نيقوسيا - قبرص . طبعة أولى ١٩٩٦ ص ٦٢ .
- (٩) - د . رفعت السعيد ، مرجع سابق ص ١٠ . أيضاً كتابه ضد التأسلم ، كتاب الأهالي / ٥٦ / يونيو ١٩٩٦ ص ٦٢ .
- (١٠) - إبراهيم بشير الغويل ، نحو « أو مشروع » الطريق الثالث ، دار الآفاق الجديدة - بيروت . طبعة أولى ١٩٩٩ ص ٣٤ .
- (١١) - أديب ديمتري ، نفي العقل ، دار كنعان للدراسات والنشر - دمشق طبعة أولى ١٩٩٣ ص ٢٦٢ .
- (١٢) - ول ديورانت - قصة الحضارة مجلد ٤ / جزء ٥ / ١٦ / - عصر الإيمان ، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية ، ترجمة محمد بدران ١٩٦٥ ص ١١١ .
- (١٣) - المستشار محمد سعيد العشماوي ، الإسلام السياسي ، سينا للنشر طبعة ثالثة ١٩٩٢ ص ٣٦ .
- (١٤) - ول ديورانت ، مرجع سابق ص ١٠٦ .
- (١٥) - د . نوال السعداوي - مجلة الناقد ، مقال بعنوان : ذراع الأخطبوط - من الكوكا كولا حتى حبوب منع الحمل ، العدد ٧٧ / تشرين الثاني نوفمبر ١٩٩٤ .
- (١٦) - علي مبروك ، النبوة - من علم العقائد الى فلسفة التاريخ - محاولة في إعادة بناء العقائد ، دار التنوير للطباعة والنشر ، طبعة أولى ، بيروت ١٩٩٣ ص ٢١٢ . نقلاً عن : أصول الدين للبهنغادي ص ١٧٠ .
- (١٧) - المرجع السابق ، حاشية ص ٢١٢ ، نقلاً عن : الاسفراييني ، التبصر في الدين ص ١٠٤ .
- (١٨) - د . صادق جلال العظم ، نقد الفكر الديني ، دار الطليعة - بيروت ص ٩٧ .
- (١٩) - د . رفعت السعيد ، مصدر سابق ص ٨ .
- (٢٠) - المرجع السابق ص ٨ .
- (٢١) - المرجع السابق ص ٨ .
- (٢٢) - أديب ديمتري ، مرجع سابق ص ٤٣ .
- (٢٣) - المرجع السابق ص ١٤ .
- (٢٤) - المرجع السابق ص ١٤ - ١٥ .

- (٢٥) - د . نصر حامد أبو زيد - نقد الخطاب الديني - سينا للنشر طبعة أولى ١٩٩٢ ص ١٩ .
- (٢٦) - د . رفعت السعيد . ضد التأسلم - كتاب الأهالي رقم /٥٦/ يونيو ١٩٩٦ ص ٧٤ .
- (٢٧) - د . رفعت السعيد - المتأسلمون - مرجع سابق ص ٢١ . نقلاً عن الأخبار القاهرية التي نقلت بدورها عن النيويورك تايمز التي نشرت حديثاً للفتوشي .
- (٢٨) - أديب ديمتري ، مرجع سابق ص ٤٤٦ .
- (٢٩) - خليل عبد الكريم - الإسلام بين الدولة الدينية والدولة المدنية ، سينا للنشر ، طبعة أولى ١٩٩٥ ص ١٦٠ . نقلاً عن البيهقي أبو بكر أحمد بن علي في كتاب «السن الصغير» حققه وأخرج حديثه ، عبد السلام عبد الشافي وأحمد قباني ، المجلد الثاني ص ٢٢٢ - الحديث ١٤١٧/٣٤٦٧ طبعة أولى ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .
- (٣٠) - هادي العلوي - مدارات صوفية ، العبارة وردت سابقاً .
- (٣١) - رضوى عاشور - مجلة الطريق ، شهادة « جدتي وأمي والكتابة » عدد / ١ / كانون الثاني + شباط ٢٠٠٠ ص ١٩٢ .

الفصل الثاني

آليات العقل الإيماني*

* تم تعديل هذا الفصل بعد أن كان قد نشر في مجلة «النهج» العدد / ٢١ / شتاء ٢٠٠٠ .

سبق أن أوضحنا أن العقل الإيماني الذي نتحدث عنه، ليس العقل الأبستمولوجي (المعرفي)، أي الكتابي المستنبط من النصوص، بل هو العقل الأيديولوجي الشفهي لكيان انطولوجي (وجودي)، وجوده اعتباري مشخص يتبدى في تحويل الناس ما هو فكري الى عمل، أي إنه عقل سلوكي، إنه الفكر عندما يكون له وجود في الواقع المشخص، وهنا تبدو التحولات والانحرافات التي تطرأ على الفكر عند مواجهته للواقع، واقع الناس، إذ قد لا يبقى أميناً لتوجهه، بل قد لا يحافظ الفكر دينياً كان أو سياسياً إلا على خطوط واهية تربطه بمصدره المتعالي، فتحدث القطيعة بين الفكر وحياة الناس، وقد تتغير الحياة فيحدث التغير الفكري الموازي لتغيرها واللاحق له (ارتباط البنية الفوقية بالبنية التحتية)، وهنا تطرح الأسئلة نفسها، ماذا تبقى من النظرية أو المبدأ؟، الى أي مدى تم الانحراف عنهما؟، وهنا أيضاً يبدو السؤال الذي طرحه المفكر الإيراني الذي أصبح رئيساً لبلده، (محمد خاتمي)، وجيهاً عندما قال: هل بالضرورة أن مافهمناه من الدين هو عين الدين حقاً؟، وأظن أنه قصد بالفهم هنا الترجمة العملية السلوكية لمنظومة القيم الدينية. أي بالصيغة التي نفهمها من السؤال: هل كانت حياتنا وفكرنا منسجمين مع الغاية التي أرادت الأديان تحقيقها عندما أرسل الله الرسل، ومع ماجاؤوا به من قيم، لإيجاد مجتمعات بشرية مثلى؟ هل كان الإخراج أميناً على النص وموازياً له؟.

لا يقلل ماتقدم من احترامنا للنصوص الدينية، هذه النصوص التي اختلف الناس على فهمها، فكيف على تطبيقها؟! إذ المعروف أن التطبيق يقدم فرصاً أكبر للاختلاف، فكيف إذا كان النص بحد ذاته حمال أوجه على حد تعبير الإمام علي؟. لنأخذ قضية الحجاب في الإسلام مثلاً، فهي من أبرز القضايا التي كان لها وجود في النصوص وفي الواقع، وقد اختلف وجودها فيهما بين النظرية والتطبيق، كما اختلف

ذلك وتبدل في تطور التطبيق عبر العصور كما عبر البلدان أو الاتجاهات العقيدية. فالحجاب قضية اجتماعية نفسية بيئية، كانت قبل الإسلام مرتبطة بواقع معين، فلما جاء الإسلام أبقى على الحجاب كإشارة ودليل لاعلاقة له بمدى الالتزام بالقيم، ولم يحول الإسلام الحجاب من دليل شكلي ظاهري، الى دليل قيمي مرتبط بعمق الإيمان ومؤثر عليه سلباً وإيجاباً، وأدت التحولات التي خضع لها الى اعتبار الخارج عليه خارجاً على منظومة القيم الإسلامية، وعلى صحيح الدين، وهو كافر، فكل ما في المرأة عورة ويجب حجبها عن أي مخلوق وخاصة من الذكور، حتى لو كان من ذكور الحيوانات، فهناك من أفتى بأن على المرأة التي تربي كلباً ألا تخلع حجابها في الغرفة التي يوجد فيها الكلب إذا كان ذكراً، وإذا كنا نستطيع أن نستتر المرأة في تلك الخيمة التي هي الحجاب، ونجعلها أسيرة سجنها المتنقل فكيف يمكن ستر صوتها، وبأي حجاب بعد أن أفتى باعتبار صوت المرأة عورة.

ذكرت ذلك إشارة الى التحولات التي طرأت على فهم النص الديني عبر علاقته بالواقع، وكيف يكون الفهم انحرافاً عن صحيح الدين في الكثير من الحالات التطبيقية المخاططة التي تزيج ما هو صحيح من الوجود، وللتدليل على أن التطبيق الإيماني للدين ليس بالضرورة عين الدين.

لم تعد اليهودية يهودية واحدة، بل يهوديات متناحرة، فاليهود الاشكناز الغربيون تنشأ بينهم وبين اليهود الشرقيين حرب شرائعية، فلا يأكلون من الطعام نفسه، ولا يصلون الطقوس نفسها ولا يزوجون أبناء طائفة من أخرى، وحين دعي حاخام شرقي الى عرس يهودي اشكنازي لم يأكل من الطعام الذي قدم له، والعريس الاشكنازي لم يتعجب لأنه هو لا يأكل أصلاً من طعام اليهودي الشرقي ولا يأمن أحد الطرفين لطريقة ذبح ذبائح الطرف الآخر، وقد وزع الاشكناز كراساً صغيراً في القدس اعتبر فيه أبناء كل اشكنازي يتزوج من يهودية شرقية «أبناء طمث نجسين» وأن جميع أبناء اليهود الشرقيين نجسون طوال عمرهم، والاشكناز لا يتزوجون من الشرقيين إلا إذا تم «تزويج ابن معاق من فتاة شرقية»، وقد أفتى الحاخام عوفا ديا يوسف بمنع شرب النبيذ الذي يصنعه الاشكناز لأغراض استخدامه دينياً، واعتبر بعض الحاخامين تسجيل زواج الشرقي من الاشكنازية في سجلات الاشكناز كارثة^(١). هذا غيض من فيض يوحى

بمدى وعمق الانقسام في مجتمع متجانس دينياً، واعتبر التدين الأساس الذي يقوم عليه هذا المجتمع وهو المجتمع الاسرائيلي، كل منهم يمارس إيمانه بطريقة مختلفة وصلت حد التناحر الذي يأخذ أشكالا من تعصب كل منهما ضد الآخر.

وكما حصل لليهودية فقد حصل للمسيحية التي أصبحت مسيحيات تخوض الحروب ضد بعضها على جميع المستويات العقيدية والفكرية والاجتماعية وأيضاً القتالية. والإسلام أصبح إسلامات وما أكثرها، وليس منها ما يعترف للآخر أنه على حق أو أنه الصواب. كل هذا انتاج العقل الإيماني وأشكال تجليه. عندما نزلت الأديان الى الناس، من الخالق عن طريق الرسل، كانت موحدة، وليس منهم من جاء بأكثر من دين واحد، والآن نرى الدين الواحد أصبح ديانات متحاربة لاتعترف إحداها بالآخرى. إنها طوائف أوجدتها السياسة والمصالح والأهواء، ولم يوجد لها الرسل والأنبياء. إذاً العقل الطائفي عقل إيماني، متمرس برؤياه ورؤيته، وبفهمه المفروض للنص. وإذا كانت الطوائف متعددة وتدين كل منها الأخرى، فكذلك عقلها متعدد ويدين كل منها الآخر. إذن نحن أمام اللا وحدة، أمام التفرقة الطائفية التي تصنعها عقول تناحية متزمتة، هناك دين واحد وطوائف عدة، في كل منها مؤمنيتها، بالتالي نحن أمام عقل ديني واحد، وعقول إيمانية متعددة بتعدد الطوائف والمذاهب والحالات والفروع وحتى الأشخاص في كثير من الأحيان.

وبالتأسيس على السؤال المهم السابق للرئيس الإيراني (خاتمي) والذي ينطوي على الشك في فهمنا الصحيح للدين، يمكن أن نجد أنه من المشروع السؤال عن مدى مشروعية المشاريع الطائفية الإيمانية، أي فهم كل طائفة للدين، باعتبار أن إيمانها يمثل الدين الصحيح، وإيمان غيرها لا، وبالتالي فهو مرفوض، والمؤمن به كان كافراً، بل نجد من الضروري طرح سؤال أشد عمقاً يتعلق بالأديان السماوية على الأقل وما تفرع عنها من طوائف وملل، حيث ترى هذه الأديان وهذه الطوائف وهذه الملل، أنها تعبد إلهاً تنسب إليه كل صفات التعالي، فهو إله واحد، باقنوم واحد أو أكثر، وصفاته تؤكد قدرته المطلقة والكلية من العلم والإرادة والحياة والقدرة ... الخ. فإذا كانت كل طائفة تؤمن بأن هذه الصفات هي الصفات التي يتمتع بها الاله الذي تعبده، وهي صفات مشتركة بين كل آلهة الأديان والطوائف، إذن هي اتفقت على ماهو جوهري في نظرتها

للالة، فعلام اختلفت؟! اتفقت على الجوهرى واختلفت على ماهو أقل منه، أى على العرضى إذا صح التعبير، أى ما لايجوز أن يؤسس لحروب وتناحر بدأ دون أن نتوقع له نهاية، وغير الجوهرى يفترض ألا يؤدي الى خلافات جوهرية، بين مذاهب تنتمي الى دين واحد، أو أديان تنتمي الى جذر واحد (الأديان الابراهيمية). ولكنه العقل الإيماني!!.

كان سقراط يقول: «لست ضد آلهة الجمهور، بل ضد فكرة الجمهور عن الآلهة» ومع ذلك حكم عليه بالاعدام، وهذه حال من يعترض على فهم الجمهور للدين، الذي هو البعد الإيماني، حتى لو ثبت أن هذا الفهم خاطئ، أو بعيد عن صحيح الدين، ومنحرف عن منظومة القيم التي جاء بها هذا الدين أو بشر بها، بل إن كل طائفة لها موقفها من المعارضين على الفهم الارثوذكسي، أو التطبيق الذي أرادته الهيئة الكليروسية لهذا المذهب أو الطائفة، في الوقت الذي نجد أن أغلب الاعتراضات على التطبيق جاءت من منطلق الغيرة على الدين أو المذهب، وأملاً في تصحيح الأخطاء المتراكمة التي يقرّ بها الجميع أحياناً.

هنا يكتسب التفريق بين ماهو إلهي وما هو بشري أهمية كبيرة. إن القدسية التي اكتسبها النص الالهي لألوهيته، يجب أن تسقط عما هو بشري إنساني لبشريته. إن الإيمان أي الأيدولوجيا الدينية، حول كل الجهود التي قدمتها البشرية في سبيل فهم أوضح للدين ومعطياته، الى نصوص اكتسبت قداستها من دورها في التجييش الإيماني، والثبات العقيدي للمؤمنين، ولتأكيد إلحاقهم كأتباع مخلصين للمؤسسة الكليروسية. ما نسبة المؤمنين المسلمين الذين يتوقفون لمعرفة الظروف التي جاءت بها فتاوى ابن تيمية مثلاً، وفيما إذا كانت تلك الفتاوى التي كانت وليدة ظرف وواقع خاصين، يجب أن تستمر على درجة فاعليتها، بل أن تكسب القداسة باعتبارها صادرة عن «شيخ الإسلام»، وبالتالي يجب الإيمان بها دون التفكير في ظروف انتاجها، حتى لو أدت الى فتن طائفية ومذهبية، تبدأ ولا تنتهي، في وقت نحن أحوج فيه الى اللحمة والوحدة الوطنية. إن فعل هذه الفتاوى التي أثبتت بها قماها مع ماهو مقدس، مروراً بكل ما قدمه أعلام المذاهب، وصولاً الى الحديث النبوي، فالنص الأساسي (الإلهي)، طبعاً هذا التماهي يتم على مستوى الفرد المؤمن غير المعني بالدراسات الفكرية أو

الفقهية أو التراثية أو غير ذلك، وهؤلاء هم عموم الأمة. وما يقال بصدد الإسلام واكتساب الأشخاص والنصوص اللاحقة للقداسة فيه، ينسحب على المسيحية واليهودية أكثر وأكثر، فلا تعاليم السيد المسيح تشكل في أيماننا هذه محور اهتمام وإيمان المسيحي، ولا شريعة موسى تشكل جل محور المقدس اليهودي. إن فيما أضافه رجال الدين المسيحيون، ما أنسى المؤمن المسيحي التعاليم الأصل للسيد المسيح ونحّاها جانباً ليحل محلها فهم رجال الاكليروس المسيحي لهذه الديانة، وكذلك في اليهودية. من هنا تأتي أهمية الفرز بين ماهو بشري من مكونات النسق الإيماني، وما هو إلهي من مكونات النسق ذاته. ومن بين أبرز من يعملون على الفرز بين هذه المكونات، المفكر «محمد أركون» الذي يرى: «أن العقائد والقوانين المشتقة من الوحي تشكل حتماً سياجاً دوغمائياً أو عقائدياً مغلقاً يقبل العقل البشري في أن ينحصر داخله. وهذا ماكنت قد دعوته (بالعقل الإسلامي) تحديداً، تماماً كما يوجد هناك عقل مسيحي أو يهودي أو ماركسي، ووحدهم فئة رجال الدين أو الفقهاء هم المؤهلون لاستخدام هذا العقل الذي تمارسه عندئذ السلطة العقائدية»^(٢). والسياج الدوغمائي العقائدي المغلق الذي يتحدث عنه هو أساس ومنطلق العقل الإيماني.

قانون جريشام يقول: «العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة من السوق»، وفي مجال السياسة يوجد قانون مماثل مؤداه أن القيم الرديئة تطرد القيم الرفيعة من الواقع^(٣). ينطبق هذا القانون على المجال الإيماني وذلك باعتراف المؤمنين ذاتهم، الذين يرون أن القيم الإيجابية الجيدة تتبدل بتطور الزمن بقيم أقل منها جودة، وكلما تأخر الزمن، وزاد البعد عن عصور التدشين، كانت القيم الدينية أقل حضوراً، واستبدلت بطقوس إيمانية أقل صدقاً وعمقاً، أي أن القيم الإيمانية الأقل التزاماً والأكثر تهاوناً وبعداً عن القيم الجيدة هي التي تسيطر، يأتي ذلك في تعبيرهم عن الثناء على كل ماهو قديم في هذا المجال، وعن عدم قدرة الأيام على أن تخلف أولئك الذين نعتبرهم القدوة والمثال. وهم مع الإقرار بأن الأيام تستبدل ماهو جيد بما هو رديء باطراد، فإنهم لا يفعلون شيئاً لترك ما ثبت لهم أنه ينتمي الى ماهو رديء، فيضاف كل هذا الركام الى الأسيجة الدوغمائية التي تحدث عنها أركون، وتزداد الرتاجات رتاجاً جديداً على العقل الإيماني، ويزداد تحجره وانغلاقه دون أن يبدو أن هناك فسحة لتخليص هذا العقل من

تزمته وانغلاقه، بل من تضييعه للقيم الجيدة، وتمسكه بالردیئة.

إننا إذ نطلق هذه الصرخة ونحن نشیر الى أبرز الآليات التي يعتمدھا العقل الإيماني، فإننا نضيفھا الى كل الصرخات التي انطلقت قبلھا، للحفاظ على ماتبقى من قيم الحق والخير والجمال في مظاهر وحقول عمل هذا العقل، داعين له أن يعمل في إطار حركة الواقع، مبدلاً نهجة الانغلاقی الاتهامي، ومستلھماً قيم حرية العقل، وانعتاق الإنسان. إن إشارتنا الى علاقة العقل الإيماني بالزمن، وإبراز أهم سماته، تندرج في سياق دراسة هذا العقل المنغلق، علّ الأيام تعمل على أن تتخلق ظروف تنحو بهذا العقل نحو الانعتاق رحمة بالبشرية، دون أن يعني ذلك التفريط واللامبالاة التي قد تدفع من لا يفهمون القصد الى مزيد من الاتهامات.

لقد تجلّى العقل الإيماني بأشكال مختلفة، وظهر بمظاهر ولبوس متعددة، وعبر عن نفسه في كل مرة احتاج ذلك بأشكال منها ما ينسجم مع حقائق الأديان ومنها ما لا ينسجم، في ضوء فهمنا للدين أنه جاء لإنقاذ البشرية وانعتاقها، وتفجير كل طاقات الخير والجمال والحرية فيها، لا الى تكبيلها وكنم أنفاس الحرية المتصاعدة، وتقييدها الى ما هو رديء وباطل في ماضٍ احتوى الجيد والردیء.

ومن أبرز آليات هذا العقل الإيماني:

١ - استغلال المقدس والاحتفاء به

نعود لنؤكد أن العقل الإيماني هو مزيج من الدين والموروث والعادات والمصالح والأهواء، هذا المزيج يحتاج الى الملاط اللازم ليببدو متماسكاً وواحدًا، هذا الملاط هو إلحاق كل ذلك بالمقدس، عندما يتم ذلك يحصل هذا الملحق على كل الضمانات اللازمة للحماية والاستمرار، وهذا ما أدى الى اتساع دائرة المقدسات لتكون قادرة على احتواء كل هذا الخليط المتنافر، المتجمع والمنضوي في هذا السياق الحمائي، وخدمته.

لقد جاءت الرسائل السماوية مبشرة بقيم لم يختلف الناس على قيمتها ومكانتها، ولم يختلفوا على وجوب الحفاظ عليها من الانتهاك بعد أن أدت الى استقرار الجماعة أو الجماعات. إلا أن إلحاق ما لا يجوز أن تلحقه القدسية، بل من

المعيب أن تلحقه، بغيره من المقدسات، جعل الأمر مختلطاً. وليس هناك مصلحة لا للدين ولا للدنيا في توسيع هذه الدائرة (دائرة المقدس)، إنما المصلحة هي مصلحة أشخاص، يبدأ المقدس عندهم بالجلباب واللحية وغطاء الرأس، وحتى حجارة الأضرحة، وكل التراتيل والأدعية والترسيمات والنصوص التي قصد منها القهر والتغلب، مروراً بالقرون المعبرة عن احتواء هذا المقدس وصولاً الى استعادة اللحظات القدسية الحقيقية التي جاء بها الأنبياء والمتمثلة بالنصوص الدينية التندشينية.

لقد خرج المقدس في الديانات السماوية من عبادة التوراة، وقد شكلت مع غيرها من النصوص الدينية اليهودية، أي أسفار الوحي التي جاء بها موسى أو ما وضعه أبحار اليهود، ملاذاً لمن يريد الاحتما أو التحايل، فقد نقل عن (مناحيم بيغن) رئيس وزراء اسرائيل اليهودي المؤمن المتشدد، أنه كان يبكي حين يطالب بإزالة المستوطنات من سيناء خلال المباحثات التي أفضت الى اتفاقات كامب ديفيد، وكان يقول: لتقطع يدي اليمنى ولتفقأ عيني اليمنى إن كنت سأوافق على إزالة حجر واحد من حق أعطتنا إياه التوراة، ولكنه حين رأى أن بين يديه اتفاقية تحقق مصالحه ومصالح كيانه، نسي التوراة وقدسيتها، ووقع على المعاهدة التي نصت على إزالة المستوطنات، وظهر أن احتماؤه بالمقدس حيلة، وقد كانت هذه الحيلة ولا زالت صالحة للاستخدام، فكل ما يخالف مصالح اليهودي يحيله الى النصوص، وطلاب المعاهد الدينية، أي ممثلو المقدس وحماته لا يخضعون لقوانين التجنيد كما يخضع الآخرون في الدولة التي قامت على أسس توراتية إيمانية، كي لا يدنس إيمانهم.

والمسيحي الذي يسارع الى رسم إشارة الصليب احتما من أي خطر، أو جلباً لأية مصلحة، لا يزال يرى في الأيقونة التي صنعها البشر وتنتمي الى عالمهم رمزاً مقدساً يحتمي به ويلجأ إليه، والكنيسة التي تعلم أن يسوع كان ضد التملك، بل كان مشاعياً على رأي المفكر «هادي العلوي» في كتابه «مدارات صوفية» حيث تخلى عن أملاكه المتمثلة بالمشط والكوز عندما علم أنه يمكن أن يمشط لحيته بأصابعه، وعندما رأى انساناً يغرف الماء بيديه ليشرب، هذه الكنيسة سعت للسيطرة على ما تستطيع من أملاك، وحازت ثروات خرافية، والناس يموتون جوعاً، ناسية المسيح وتعاليمه، ومحتمية بقدسيتها، ومستغلة خوف المؤمنين من الإشارة الى أطماعها، وتنافي أفعالها مع القيم

الفاضلة التي بشر بها المسيح.

وقد وسعت الكنيسة من دائرة مقدسها فأصبحت مبانيها مقدسة، وأملاكها مقدسة، ورجالها مقدسون، وأزيائهم مقدسة، بل محتويات الأديرة والكنائس والأدوات المساعدة على أداء الطقوس مقدسة، وأصبح العقل الإيماني المدرسي مشغولاً بهواجس من صنع القداسة من مثل كيفية التصرف إذا أكل فأر العشاء الرباني. وما إضفاء القداسة على كل ذلك مما ينتمي الى عالم البشر والطبيعة إلا للتوسع في السيطرة واحكامها، وكبت الحريات ومنع الناس من التفكير خارج إطار الخط الأرثوذكسي الذي رسمه كل مذهب إيماني على حده.

وكما صنع العقل الإيماني اليهودي والمسيحي سياجه المقدس أو أسيجته القدسية، باعتبار تعدد المذاهب، وحبس الأنصار والأتباع داخل هذه الأسيجة، فكذلك العقل الإيماني الإسلامي لم يكن أقل نشاطاً في هذا الاتجاه، فقد احتتمت المصالح بالنص مبكراً، فبعد احتماء الخوارج بـ «لا حكم إلا لله» جاء دور الحكام منذ معاوية، وعندما فشل في صنع سياج حمائي من القرآن، لأن القرآن لن يسعفه على أعماله لجأ الى السنة، ولا يخفى أنها كانت مفتوحة في تلك الأيام^(٤)، وأن فقهاء السلطان كان يمكنهم إيجاد المبررات وإصاقها بالسنة متى شاؤوا، أو شاءت مصلحة الحاكم، هذا الحاكم الذي تجرأ أن يقول: «الأرض لله ... وأنا خليفة الله»^(٥). وقد اجتهد هذا العقل لإضفاء القداسة على الأماكن والأزياء والأشخاص والممتلكات، فحجاب المرأة الذي كان في يوم من الأيام عادة وتقليداً اجتماعياً وحاجة بيئية أصبح أحد مفردات منظومة القداسة، لما يحققه للمؤمن الذكر من مصالح السيطرة والامتلاك. وها نحن اليوم أمام واقع يكفي إلقاء نظرة لتبيان حجم المقدسات وانتشارها ابتداء من النصوص الى بيوت العبادة والأضرحة والممتلكات والرموز، سواء كانت هذه الرموز أشياء أو أشخاص (ميتين أو أحياء) اكتسبوا قداستهم من انتمائهم الى مذهب ديني، بالرغم من نفي المسلمين أن يكون للإسلام هيئة اكليروسية. لكن الواقع يشير الى غير ذلك.

إن مدى انتشار المقدس وقوة تأثيره قد أغرى الكثير من أصحاب البدع والأهداف المشبوهة التي تولد الجرائم، لاستغلال هذا المقدس والاحتماء به، والصاق الأهداف والمبررات القذرة به للاحتماء. فالقائد المتطرف في (الجماعة الإسلامية) في الجزائر

(حسن خطاب)، لكي يبرهن على انتمائه الى القداسة يدّعي أن الرسول يزوره في المنام كل ليلة جمعه ليحضّه على مقاتلة الكفار، وهو يقوم ببعض الأعمال البهلوانية، وله تأثير كبير على أتباعه خاصة من العاطلين عن العمل منهم، وهو يشرب من دم ضحاياه^(٦).

أن نجد عند المؤمن طعاماً مقدساً، ولباساً مقدساً، وأزمنة مقدسة، وأمكنة مقدسة، وأناساً مقدسين، ولغة مقدسة، وأفكاراً مقدسة، وعناصر مقدسة من الطبيعة في عالم الحيوان وفي عالم النبات، يعني كل ذلك اكتمال المملكة المقدسة، أو العالم المقدس، فمن دخله كان منه، ومن كان خارجه الحق بعالم النقص والخطأ، علماً أن من هذه المقدسات أو معظمها، عناصر مادية لا تحمل أي معنى قيمى، والتقديس إنما يكون للقيم. وهنا نرى لا علمية ولا عقلانية العقل الإيماني واضحة في توسيع دائرة تأثيره وسيطرته. إنه عالم من الوهم وسجن أيديولوجي دوغمائي، ارتضى هذا العقل أن يحبس نفسه فيه مسروراً بعالم من الطمأنينة المتخيلة، متخيلة لأنها مأزومه، تنطوي على الكثير من القلق الذي يظهر في علاقة المؤمن بما حوله ومن حوله.

٢ - الأدلجة

عندما يتحول إيمان الإنسان الى نمط حياة، الى قناعة وسلوك، الى سجن عقيدي طوعي تغمر من فيه قناعة بأنه على الطريق الصحيح، وغيره على الطريق الخطأ، ومنافذ الخروج من هذا السجن تبدو مغلقة، يغلقها الداخل إليه على نفسه، ولا يغلقها عليه الآخرون، عندما تصبح قناعاته مقاساً يقاس عليه ما عند الآخرين من قناعات وقيم، فيصم كل ما لا ينسجم مع هذه المقاسات بأنه مرزول وفاسد، عندها نتيقن أننا أمام أيديولوجيا لا تفسح المجال للآخر، في حرمها. والأيديولوجيا مصطلح ترعرع في حقل السياسة، لكنه يفعل فعله في حقول أخرى كالدين.

تبدو الطوائف مثالاً واضحاً على العقل المؤدلج، فكل طائفة ترسم توليفتها العقيدية، فتصبح هذه الترسيمية أو التوليفة مقياساً لكل جوانب الحياة، من علوم أو فنون أو غيرها، فما انسجم معها، دخل عالمها القدسي، وما لم ينسجم، سقط في عالم المرزول، وهي تحاول أن تشتمل ترسيماتها على كل شيء، ابتداء بالإمارة وانتهاء بدخول

المرحاض، فالمؤمن لايجوز له عند التغوط أن يستقبل القبلة، كما لايجوز له أن ينفرد بأنثى ما لم تكن زوجته أو من محارمه لأنه مااجتمع رجل وامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما، هكذا يتم تصنيع العقول وأدلتها، وعلى هذه القيم تبنى، مما يحيلها الى عقول أسيرة للخرافة والخزعبلات، وأسيرة تلاعب المتلاعبين. وبهذا تصبح القيم الرديئة طريقة حياة، يحياها المؤمن على كل المستويات عقيدة وتطبيقاً، وتستمر بالتوالد.

لقد أعطت الصهيونية في العصر الحديث، عصر الأيديولوجيات، أوضح صورة عن تحول العقيدة الدينية الإيمانية الى أيديولوجيا، لقد حاولت الصهيونية أن توحى للعالم أجمع أنها التطبيق الحي والطريق الذي لا يوجد غيره لتنفيذ تعاليم اليهودية كدين، لقد كان الدين حاضراً في الصهيونية في كل ما من شأنه اقناع اليهودي بأنه متمسك بصحيح دينه، وملتزم بتعاليم ربه، من هنا نشأ إيمانه، ومن هنا توجه هذا الإيمان لخدمة أغراض أخرى هي أغراض الجماعة، على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي ... الخ، وهذا الإيمان الذي تمت مخاطبته وتجييشه لصالح قوى مهمومه بالسيطرة والاستغلال، لا بتنفيذ تعاليم الرب وتحقيق إرادته ووعوده، ثم أحالت هذه العقود المؤمنة المتغلبة على مشاعر المؤمنين من اليهود كل عنفوانها العقيدي الى عمل تجلى في خلع شعب من أرضه للسيطرة عليها تنفيذاً لإرادة ربانية من تخلى عنها أصبح آثماً، من يهود العالم طبعاً.

والواضح أن الصهيونية باعتبارها عقلاً إيمانياً، تحرص كل الحرص على إعادة إنتاج هذا العقل لإبقاء سيطرته المطلقة على المجتمع تحقيقاً لمصالح الجماعة. وهذه السيطرة تظهر من خلال التمسك بالكثير من الشكليات، واستحضار النص التوراتي في مواجهة المستجدات، فقانون السبت لايجوز خرقه، وزى رجال الدين لايجوز خرقه، والمعاهد الدينية يجب أن تحظى بالامتيازات، كعدم خدمة خريجها في الجيش، أو تأمين الإنفاق عليها دون تقتير، لأنها تعنى بإيجاد من يرث السلف الصالح ويعبر عن استمرارية الأيديولوجيا في الإمساك بناصرية المجتمع.

وليست الجماعة الإيمانية اليهودية (الصهيونية)، هي المعنية فقط بإعادة إنتاج أيديولوجيتها، بل كل الجماعات الأيديولوجية، سياسية كانت أو دينية، ويعتبر التعليم أهم الآليات التي تتبع لزيادة التحريض وضمان الاستمرارية، والتعليم له أشكال

متعددة، من هنا نجد أن الحركات الإيمانية، تسعى دائماً إلى السيطرة على قطاع التعليم والثقافة متوخية الإمساك به، أي الإمساك بدفة توجيه المجتمع والأجيال. وإشراف الجماعات الدينية في كل الأديان والطوائف وسيطرتها على قطاع التعليم وخاصة الديني، ونضالها في سبيل ذلك دليل على حرصها على إعادة إنتاج نفسها. كما أن من آليات الأيديولوجيا استعادة المناخات الإيمانية وما قاساه المؤمنون الأوائل في سبيل نشر مذهبهم، بغية التجيش العاطفي. فعلى شاشة التلفزيون، تشرح رئيسة دير القديسة «تقلا» في معلولا، بتاريخ ٢٠٠٠/١/١ تاريخ نضال هذه القديسة، والمعاني المستفادة، والمعجزات التي تحققت لها، فقد كانت تقلا فتاة هربت بإيمانها من ظلم وتعسف الحاكم، حيث كانت تعيش في جنوب تركيا، وكان الحاكم قد عذبها ووضعها بين الوحوش الضارية، ولكن الله نجّاها، فضربت في الأرض ضناً بإيمانها، وعندما وصلت إلى جرف معلولا منهكة خائرة القوى وجدت أن الطريق مسدود أمامها بجبال لا تستطيع تسلقها فركعت وطلبت من الله النجدة، فأنفلق الجبل منشقاً إلى نصفين لتحصل تقلا على الممر الذي يتيح لها تجاوز هذه العقبة. وفي مكان ركوعها بني الدير.

العبارة تكمن في تسويق هذه الأحاديث في هذا العصر، فقصة موسى حين انشق له ولبنى إسرائيل البحر، تستعاد، وهنا تظهر القدرة الإلهية المطواعة، وتدخلها في اللحظة الحاسمة، إنها قدرة موظفة وجاهزة تحت الطلب. والمهم في كل ذلك، المحافظة على الجو الإيماني والحرص على عدم تزعزعه، لإبقاء الأيديولوجية تفعل فعلها. حتى لو تدخل في ذلك التفكير السحري والأسطوري، بل ربما كان المفضل، لأن تغلبه يأتي بالضربة القاضية.

لاشك أن الأديان غير بعيدة عن الأيديولوجيا بشكل عام، لكن هناك محطات في التاريخ وفي هذا العصر شاهدة على الاستغلال الأمثل للإيمان في تحويله إلى رؤية أيديولوجية، فالحركة القرمطية التي أقامت دولتها، ونظمت مجتمعتها في مرحلة من مراحل التاريخ الإسلامي، هي لوحة مشهدة لأدلجة الإيمان، وفي العصر الحديث أو القريب من الحديث، برزت الحركة الوهابية، التي صنعت ترسيماتها العقيدية والدينية وحولتها إلى قيم إيمانية تشمل جميع الجوانب الحياتية، وأغلقت نفسها على هذه القيم

محاولة إيمانها الى أيديولوجيا. وليس بعيداً عن ذلك ما حاولت وتحاول الفئات التي دعيت بالأصولية أو (المتأسلمة عند د. رفعت السعيد) أن تفعله متوسلة الى ذلك كل ماتستطيع لتصنع المجتمع والتاريخ والدين والقيم والثقافة.... الخ، على مقاسها الشاذ. والمتهم فيما يجري في الكثير من الأحيان هو الدين، والدين مفتوح على أشكال لا حصر لها من الترسيمات والتأويلات بعدد الجماعات أو المريدين، وهو لذلك حاصل على البراءة، والمتهم هو هذا الشكل الإيماني أو ذاك، هذا العقل الإيماني أو ذاك، حيث مصلحة هذه الجهة أو تلك

إذاً كل حركة تتوسل الدين وتحاول إخضاعه لترى الحياة بلون العدسات التي وضعتها على أعينها، هي حركة مؤدجلة. ليس من المعقول أن تتحمل الأديان - كل الأديان - هذه الألوان جميعها، فالألوان للحياة ومعطياتها، فلماذا تحاول أن تخضع الدين لألوانها؟! لا شك أن التلوين هو القناعات الإيمانية التي تتبناها الجماعات المؤمنة.

٣ - توظيف الخوارق والخرافة

بما أن قوة البشر محدودة، فإن في عالم الإيمان ماينفذ بقدرات تفوق قدرة البشر، وبالتالي هناك قوى فوق بشرية تقوم بذلك، والقوى فوق البشرية، تنتمي الى عالم الألوهة وما يزخر به من عجائبية لا تخضع لقوانين حياتنا البشرية، أو لقوانين العلم والطبيعة، وهذه القوى القادمة من عالم الغيب لا تزال تفعل فعلها في عالم الشهادة، حسب قناعات المؤمنين، فقد ذكر الدكتور (عزيز العظمة) (٧) أن الرئيس السوداني عمر حسن البشير طلب من الجهات المعنية دراسة عن مساهمة الجن السوداني المؤمن في عملية التنمية في السودان، متجاوزاً بذلك منطق العلم وقيم العقلانية السائدة في العصر الحديث، بل والتي دعا إليها القرآن في الكثير من آياته.

لاستطيع أن نلوم بسطاء الناس المؤمنين في ظل هذه الأيديولوجيا، حين نجد أنه تشكلت لديهم قناعات لا علمية ولا عقلانية، بأن لاشيء تعجز عنه القوى الغيبية ذات المواصفات الالهية، ناسين أن هذه القدرات الإلهية ليست جاهزة تحت الطلب لكل من أراد تسخيرها فيما يريد من أغراض، وناسين أيضاً أن القدرات الإلهية وظفت المعجزات فيما وظفتها تأييداً للرسالات السماوية التي كانت تهدف الى إنقاذ البشرية،

وأنها ليست ذلك المشجب الذي يعلق عليه المؤمن أو أي مدع كل ما أحوجه من براهين، ودعاوي تعطيل قوانين الحياة والطبيعة، فالزمن ليس زمن نبوات ولا رسالات.

إن العقل الذي تربي على هذا النمط من التفكير يوظف الخوارق والخرافات لتجاوز أبسط العقبات التي تعترضه، ليربح نفسه من عناء التفكير والعمل لتجاوزها، ولترسيخ الحلول الغيبية اللا علمية، في عملية معقدة تستهدف توجيه العقل للاقتناع بأن صاحب هذه الحلول لا ينتمي الى العالم الأرضي المحدود القدرات. فقد أورد الدكتور (عزيز العظمة) أيضاً^(٨)، أن (محمد رشيد رضا) مارس الرقى والتعاويذ وآمن بها واعتقد أن له كرامات ولاننسى أن (محمد رشيد رضا) تلميذ الشيخ المتنور وداعية الإصلاح الإسلامي (محمد عبده) قد حاول الظهور بمظهر المستنير والمهتدي بقيم العقلانية حتى أعيته المظاهر، وهنا تبدو المفارقة.

في هذا الوسط اللا علمي الذي أسقط السببية والعقلانية من اعتباره اعتماداً على القوى الغيبية، ترتع الخرافة، فلا عجب أن نعلم أن عدم القدرة على التلقي الجيد للعلم سببه أكل الكزبرة الخضراء، أو النظر الى رجل مصلوب، أو رمي القمل على الأرض وهو حي (حسبما أورد د. العظمة)^(٩).

عندما لا نتعلم ربط الأمور بأسبابها الحقيقية وعللها من منطلق علمي، نصل الى مثل هذه النتائج والأسباب المستمدة من حقول الخرافة والسحر. من هنا نقول إن اللا علمية إحدى صفات العقل الإيماني وآلياته، وهذا ما يدفعه بالضرورة الى إيجاد التبريرات والتفسيرات التي تتطلبها مستجدات الحياة، في حقل آخر غير حقل العلم والعقلانية بما ترتكزان عليه من تجريبية ومناهج أخرى، وذلك لأن العلوم التجريبية المعاصرة خادعة وضالة ومضلة في رأيه، وذلك لجعل الابتعاد عنها يصبح واجباً دينياً. وللقيام بواجبه ودوره في إيجاد البديل لما يدينه يلجأ الى إيجاد التبريرات والأسباب في إطار العقل الغيبي الخرافي، الذي يقحمه فيما يجوز وفيما لا يجوز، ويصنع منه آلياته.

إن في أساليب معالجة الأمراض بإخراج الشياطين من أجساد المرضى بالرقى والتعاويذ، وسط جو إيماني يلعب الدور الرئيسي فيه شيخ مؤمن، على صوت النداءات الإيمانية المبهمة التي تفهمها شياطينهم، ومن خلال عبق البخور والظلمة وجو الرهبة

المفروض على الطارئ على مثل هذه الأجواء، ما يشير الى استمرار هذا العقل في اللجوء الى آليات سحرية غيبية بعيدة عن الحقيقة العلمية، بمقدار بعدها عن الإيمان بمعناه الإيجابي، وهي لاتزال مستمرة في أداء دورها في إخراج الشياطين من أجساد المرضى كما في حبسهم (حبس التابع كما مر معنا)، وفيما يسمى بالموالد التي تحفل بضرب الشيش، كما تحفل ببعض أساليب الصوفية وال دراويش كما يقولون، وهي من الصوفية والدروشة براء، لأنها لاتتنتمي الى عالم الحيلة والخديعة والدجل، كما أنها مصائد لأموال البسطاء من المؤمنين.

وكما أن توظيف الخوارق مستمر عند المؤمنين المسلمين كذلك هو مستمر عند المؤمنين من المسيحيين واليهود، فلجوء المسيحي الى الأيقونات والنذور وعظام القديسين وبقاياهم للمساعدة في تجاوز الكثير من المشاكل، هو من قبيل تدخل العقل السحري والحلول الخرافية في مواجهة مشاكله مع واقعه. كما أن اليهودي الذي لا يزال رأسه مخموراً بالرابطة بين إله خاص متى دعاه استجاب، وبالذكريات التي تسعى مؤسساته الدينية الإيمانية على إبقاء إيمانه بها حاضراً، تعيده الى الحقل الإيماني الذي يعتمد على السحر والخرافة، ولا شك أن كتابة طلب، أو أمنية، يرجو صاحبها أن تتحقق، وتحتاج الى المعونة الالهية، أي إن تحقيقها فوق قدرة البشر المنظورة، لإيداعها ثقباً من ثقب حائط المبكى في القدس، بعد أداء الصلوات، وإظهار الخشوع، هو نوع من أسطورة الحياة والحلول التي تتطلبها مشاكلها، في وقت تراجعت فيه الاسطورة لتسلم مواقعها الى العلم والعقل، وهذه ولاشك تنتمي الى العقل الديماغوجي الإيماني الخادع الذي أراد توظيف الدين بشكل سافر ومباشر لأداء دور سياسي عندما نراها تصدر عن رئيس وزراء اسرائيل (نتنياهو) أملاً في أن تساعد قوى الغيب على أن يفوز برئاسة وزراء اسرائيل للمرة الثانية، بل مصيدة لأصوات المؤمنين، وصدور مثل هذا الفعل عن مثل هذا الرجل، في مثل هذا التوقيت (فترة الدعاية الانتخابية)، بالغ الدلالة على توظيف السحر والخرافة والدجل في التأثير على عقول المؤمنين (الناخبين)، مع اليقين أن إيمانه بمصلحته لا بربه هو الدافع الى فعله هذا.

إن هذا العقل متوالد ومتوارث فـ: «لم يكن الشيطان في خيال العامة من أهل العصور الوسطى، وفي خيال رجال الدين من أمثال البابا جريجوري الأكبر، رمزاً أو

كناية أو تشبيهاً بل كان جسماً حقيقياً من لحم ودم، يغطي كل مكان في العالم، يغوي الناس بضروب من المغريات ويخلق كل أنواع الشر»^(١٠) وقد اعترفت امرأة من طلوسة (طولوز) بأنها ضاجعت الشيطان، وأنها في الثالثة والخمسين من عمرها ولدت منه هولة لها رأس ذئب وذنب أفعى^(١١).

ويقول ديورانت: «كان الإيمان بما لبعض المخلفات، والطلاسم، والتمائم، والرقى، من قدرة على الاتيان بالمعجزات عزيزاً على المسيحيين والمسلمين على السواء، وقد ورثوا هذه العقائد من الأديان الوثنية القديمة»^(١٢). وكتابه (قصة الحضارة/عصر الإيمان) يعج بمئات القصص والحكايات التي تشير الى نمو العقل الإيماني البعيد عن كل دين أو فكر ديني أصيل.

وهكذا وعلى امتداد التاريخ أفسح هذا العقل المجال واسعاً للخرافة والسحر وللخوارق، ووظفها ظناً منه أنها تخدم استمراريته، وإذا كانت قد أدت دورها سابقاً فهي الآن تجد نفسها في مأزق يتمثل في مواجهتها للعقل العلمي النقدي الذي لا يقتنع بسهولة، وله مذاهبه في الكشف عن حقائق الأمور، حيث يوظف الشك بشكل واسع للوصول الى الحقيقة.

انطلاقاً من هذا المنظور نشير الى اجتهاد المؤرخين الإسلاميين لتأسيس نبوة محمد تأسيساً ميشولوجياً، من خلال حديثهم عن بعض الارهاصات، كتأويل رؤيا ربيعة بن مضر، حيث يرى أنه عندما ملك قبائل ربيعة رأى رؤية هالته في نومه، فلبجأ الى الكهان والسحرة والعياف فاحتاروا في تفسيرها حتى فسرها «شق بن أنمار بن نزار» و«سطيح بن مازن بن غسان» وأخبروا ربيعة عن غزو الحبش للكعبة ومن ثم مجيء نبي يأتيه الوحي من العلي، وهو رجل من ولد غالب بن فهر بن عبد بن مالك بن النضر^(١٣). وفي عصرنا هذا لاتزال قيم اللا عقلانية والسحر تمارس يومياً وباطراد ويتأيد رجال الإيمان تكريساً لقيم الموروث في جانبه الخرافي، والناس يلتمسون الحلول حيث لاتوجد. فضريح الشافعي مثلاً يتلقى الرسائل من مرسلها، وبمجرد أن تلقى الرسالة المكتوبة في حرم الضريح، تحصل المعجزة ويتم حل المشاكل المطلوب حلها والتي يطلب الناس عبر رسائلهم معونة الضريح لحلها، وهكذا تنجز الحلول عن طريق الأضرحة الممتدة على مساحة الأيمان وعالمه.

إن الوفاء لمن أثبتوا خلال حياتهم حضوراً مميزاً وفاعلاً، وقدموا خدمات جليلة لمجتمعاتهم، وكانوا موضع ثقة الآخرين بهم لما أبدوه من أخلاق كريمة، وتمسك بالفضائل، لا يتم بتقديس، الحجارة، إن في ذلك عودة الى الوثنية، بل يكون التقديس باستلهاهم القيم والمعاني التي جسدها هؤلاء في حياتهم، وبأن تتحول أفعالهم الكريمة الى قدوة، فتصبح فاعلة باعتبارها تجربة إنسانية مميزة في تقدم المجتمع وإبعاد القيم الرديئة عنه، إن ذلك يكون بتحول هؤلاء الى رموز للخير والتقدم لا للتخلف والجمود. بذلك يكون الوفاء للشخصيات التي أثبتت كبير نفع مادي أو معنوي لمجتمعاتها. ومركز التقديس في هذه الحالة هو العقل والوجدان وليس المواقع المادية. إن في توظيف الخوارق والخرافة والسحر وتحكيم الغيبيات، وتغيب دور الإنسان بنسبة الأفعال المعجزة الى تلك القوى، آلية مهمة في التأثير على العقول المؤمنة التي لم تتكون تكوناً علمياً ونقدياً.

٤ - توظيف السلطة ومهاجمة الخصوم واستبعادهم

لا أشعر بالحاجة الى الخوض كثيراً في حقل إثبات مابين السلطة السياسية والسلطة الدينية الإيمانية من تنسيق ووحدة في حال لم تكونا سلطة واحدة، حيث تتمكن السلطة السياسية من استغلال المقدس، وتجييش شعور المؤمنين في القضايا التي تحتاجها، وتمكن المؤمنين وسلطاتهم من التحرك بحرية للإمساك بالمشاعر وتوجيهها، وتوظيف الامكانيات الكبيرة في سبيل ابقاء هذه المشاعر جاهزة لتلقي الشحنة الإيمانية، فتاريخ العلاقة بين الطرفين لا يعود الى اليوم أو الغد القريب، لقد نشأ معاً وترعرعا معاً، وبالتالي تشعر كل سلطة منهما باليتم إذا غابت عنها ربيبتها، وافتقدت وجودها، ولقد أثبتت الأيام أنهما كانتا قادرتين على صناعة المعجزات عبر العصور، ولا تزال قدراتهما واعدة، وأحلامهما طموحة، خاصة حيث يسود التخلف، وحيث تكون شرعية أي من السلطتين موضع شك.

عبر التاريخ كان الراجح الأكبر من هذه العلاقة هو السلطة السياسية المفتقرة الى الشرعية، وبافتقارها الى الشرعية تفتقر الى الشعبية، وليس هناك ما هو أهم وأضمن من استخدام الشعارات الإيمانية في التعويض عن المفتقد. فالأعلام الأمريكي مثلاً

يسجل حضوراً كثيفاً للمسيح، وللقيم المسيحية المتألفة، مرة كل أربع سنوات، وذلك لأن المرشحين لمنصب الرئاسة في الولايات المتحدة الأمريكية يتسابقون لخطب ود الناخبين، أياً كانت ميولهم، وباللغة التي يفهمونها وترضيهم، لاقتناعهم بأنهم كمرشحين يمثلون قمة الالتزام بما تريده كل شريحة، حتى في حال تناقض الشرائح، لذا يعتبر التمسك بالقيم المسيحية والإعلان عن ذلك مدخلاً لاجتذاب المؤمنين، وهم حريصون على إشاعة الإيمان باستحضار كل ما من شأنه دغدغة مشاعر المؤمنين ومحاكاة توجهاتهم، مما يروونه مناسباً للحصول على أصواتهم، إن هذا يسمى اللعب بورقة المسيح، حسب التقارير التي تتناول النشاط الانتخابي للمرشحين الى الرئاسة في الولايات المتحدة الأمريكية^(١٤).

إننا نطلق على هذه العملية اسم (قوة التعويض، أو القوة التعويضية) انطلاقاً من قدرة مستخدميها على سد الثغرات، وتذليل العقبات التي تعترضهم عن طريق حسن استخدامها وإدارتها، لما لها من ميزة للتفوق على كل عقبة موصوفة أو غير موصوفة، فالسياسة أخلت عن رضا أو عن كره أن ينتمي الى عالمها معارضة ومعارضون ولو شكلاً لاستكمال اللعبة، أما الدين فلا يحل ذلك، ولا يجوز أن يكون في عالمه معارضة لأن المعارضة في مجال الدين تجلب لصاحبها الويل والشبور وعظائم الأمور، باعتبارها معارضة للمتعالى المقدس، من لا تجوز معارضته حتى قلبياً، وأقل ما يقع على المعارض في هذا المجال (مجال الدين) هو الموت باسم الله في الدنيا وفي الآخرة، لأن الخروج على الإرادة الالهية شيء خارج عن إمكانية الغفران أو التجاوز، ويجلب لصاحبه عقوبة الموت في الدنيا والخلود في العذاب في الآخرة.

من هنا كان الساسة عبر التاريخ يقتربون من المؤمنين بإظهار أنفسهم حريصين على حدود الله، وانهم مؤيدون من السماء، ولا تعجزهم الوسائل والحجج التي تربطهم بالمقدس، كادعاء الانتماء الى سلالات مقدسة، أو سلالات باركتها السماء، بالتالي يضعون أنفسهم مكان من لا تجوز معارضته، أو إن معارضته محكومة بعقوبة الموت كما بينا. والتمن الذي يدفعه المعارض في هذا المجال هو الثمن الذي دفعه كثيرون من قبل، واللافت للنظر أن أبرز هؤلاء من المثقفين المطالبين والحالمين بالحرية من أمثال عمرو المقصوص أستاذ معاوية الثاني وغيلان الدمشقي والجعد ابن درهم والحلاج والطبري

والسهروردي والنسيمي وغيرهم. وفي هذا إشارة كافية الى استعداد رجال المؤسسة الدينية للسلطة السياسية على كل من يخالف توجهاتهم وإيمانهم دون تدقيق بمستوى الإيمان ونوعيته، هل هو زائف أم صحيح، كما أن فيه إشارة كافية على الوقوع على المبررات التي تفنن المؤمنون في تقديمها لتبرير جرائم السلطات السياسية بحق معارضيها، فالخصوم لاهوادة في ملاحقتهم ومهاجمتهم. وفي كل مجتمع صغر أو كبر نجد من يشار الى خروجهم على قيم الدين والإيمان، فالعدو إذا لم يوجد يخترع، لا لأن هؤلاء خرجوا فعلاً على قيم الإيمان الصحيح، بل لأنهم ربما طرحوا أفكاراً لا تنسجم مع توجهات ومصالح حراس الإيمان، ومن شأنها أن تفضح الأيديولوجيا التي يعتمدونها.

لقد كان تاريخ أوروبا في العصور الوسطى مثلاً حياً لاتحاد السلطتين للاتفاق على حياة الناس ومشاعرهم الإيمانية من خلال محاكم التفتيش سيئة السمعة، ولم تتخلص أوروبا من هذه السيطرة تماماً إلا بعد انتهاء القرون الوسطى بزمان طويل، فبعد عودة الملكية الى فرنسا في أعقاب الحقبة البونابرتية وبمنطلق رد الفعل على ماجرى إبان الثورة، صدر قانون انتهاك الحرمات أو التدنيس يقضي بالموت مع قطع اليد اليمنى مسبقاً فيما يتعلق بالجرائم ضد الكنيسة. وفي اسبانيا عادت محاكم التفتيش في زمن الملك فرديناند السابع ١٨١٤ - ١٨٢٣ وعظم نفوذ الجزويت^(١٥).

ومن الملاحظ بوضوح شديد استخدام الصهيونية لكل سلطة سياسية أمكنها استخدامها في تنفيذ مشروعها الذي تنسبه الى الإيمان مع أنه سياسي يقوم على الاغتصاب.

وفي العالم الإسلامي، يبدو التوظيف المتبادل بين الدين والسلطة جلياً وواضحاً في وصول كل منهما لما يريد، يبدو ذلك واضحاً في افغانستان حيث التماهي بين سلطة الدين وسلطة الدولة، يأخذ بعداً شمولياً، كما يبدو في مناطق ودول أخرى تريد أن تؤسس سلطة الدين على سلطة الدولة وقوة بطشها، ويصح العكس. وهنا يتم التناقض بين الهدف والوسيلة فالدين قناعة وتسليم والسلطة خضوع واستسلام. لكن تخليص أحدهما من الأخرى تاريخياً أمر عسير، للتداخل الشديد بل التماهي أحياناً.

ولاشك أن هذا العقل يرغب بانشاء محاكم التفتيش التي تلائم مزاجه عندما يشاء، بل إن محاكمهم لها سلطة الاتهام والمحاكمة وإصدار الحكم والتنفيذ في وقت

واحد، فأحد قادة الجهاز الخاص الذي شكله الإخوان المسلمون في مصر يقول: «إن أعضاء الجهاز يمتلكون الحق - دون إذن من أحد - في اغتيال من يشاؤون من خصومهم السياسيين. فكلهم قاريء لسنة رسول الله في إباحة اغتيال أعداء الله»^(١٦).

إن استعداد حراس الإيمان للسلطات السياسية على أعدائها تحت عنوان محاربة الإلحاد وحماية الدين، شيء من مسلمات التاريخ، كما أن إضفاء الحماية السياسية على بعض الحركات الدينية حتى الخارجة على الشرعية أمر نجده في تأييد ملوك ألمانيا للحركة اللوثرية التي أدت إلى انشقاق الكنيسة الكاثوليكية في بدايات عصر النهضة في أوروبا، وهذا توظيف للسلطة السياسية بشكل بارز.

وكما استطاع العقل الإيماني الاسلامي والمسيحي توظيف السلطة، فكذلك استطاع العقل الإيماني اليهودي، بل لقد تفوق هذا على مثليه الاسلامي والمسيحي في تجيير سلطة الدولة لصالحه، ولا يزال الأقدار على ذلك في الديانات السماوية، فالدولة مثلاً في إسرائيل مضطرة لاعفاء أعداد كبيرة من الشبان من الخدمة العسكرية قد تصل نسبتهم إلى ٢٠٪، فقط لأنهم من طلاب المعاهد الدينية، أليس هذا دليلاً على سيطرة العقل الإيماني في كيان قام على عسكرة الدولة والمجتمع؟ لكنه قام أيضاً على الوحدة بين الإيمان والسياسة ولو ظاهرياً.

ومن مظاهر مهاجمة الخصوم، خصوم الإيمان تحول العقل الإيماني إلى الحركية التي بدت واضحة في عصرنا الراهن على امتداد العالم الاسلامي من أفغانستان إلى الجزائر، هذه الحركية التي طورت أشكالاً إيمانية غريبة وشاذة، وربطتها بالدين، وهذه الأشكال الإيمانية لا تنتمي إلى ما عرفه المسلمون في سابق عصورهم، ولا كان في أحلامهم وتصوراتهم، كما لم يكن من أساليبهم وطرقهم فيما مضى، إنما قد تكون هذه الآلية قد تطورت عن آلية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن المعروف أن النبي طالب بتغيير المنكر على أي مستوى يستطيعه المؤمن من المستويات الثلاث، اليد أو اللسان أو القلب، ومنذ أن استقر نظام الحكم في الاسلام وانتظم جهاز الشرطة قال الفقهاء: إن تغيير المنكر بالقلب من حق الأفراد، وتغييره باللسان من عمل الدعاة، وتغييره بالقوة من سلطة الحكومة^(١٧). وهنا نجد الباب مفتوحاً لافتراض الخصوم، وإيجاد مبررات مهاجمتهم وتنفيذ الهجوم بأية وسيلة أو طريقة كانت وغالباً ما كانت الوسائل العنيفة

هي المتبعة.

كل هذا أدى الى ظهور آلية أخرى من آليات عمل العقل الإيماني في استبعاد الخصوم من ساحة العمل السياسي والايماي، والتميز ضدهم، تميزهم بسلبية ظاهرة، لافتقار هذا الاتجاه الى الديمقراطية كآلية تحكم تحركه ورؤيته.

٥-المواجهة مع العلم

لا أريد أن أشرح إحدى مسلمات الدين الاسلامي وتوجهاته الواضحة، حيث لا تنتظر جهود إضافية لابرار دور العلم في العمارة الدينية الايمانية الاسلامية، وحقيقة ربط الدعوة الى عبادة الله عبادة صحيحة بالعلم وتحصيله لاينكرها إلا جاحد أو جاهل، ولا أظن أن منطق الوحي في الديانات السماوية الأخرى قد وقف من العلم موقف الضد أو النقيض، كما أظن أن جو المقاربة لا المفارقة هو الذي يفترض أن يسود بين ديانات تصر على مصدرها السماوي، وبين مؤمنيتها من جهة، وبين العلم من جهة أخرى.

بعد التسليم بالحقائق الماضية، وهي حقائق على صلة بالايماي الحقيقي، كان لابد لمن يرون في أنفسهم أنهم حراس الإيماي من التحايل لاقتناع الناس أن العلم علمان: علم يؤدي الى الله وعلم يؤدي لغير الله، الى الشيطان، وبالتالي فما قاد الى الله فهو علم، وما قاد الى غير الله فهو جهل. ومن هنا سهل عليهم تصنيف العلوم، فما أعجبهم ووافق أهواءهم وانسجم مع أيديولوجياتهم، فهو علم، وهو مع الله ومع الدين، وهذا أقل القليل، وهو العلوم الدينية النقلية التي تتوجه باتجاه استلامي لا تحرك عقلاً، ولا تشير نقداً، بالإضافة الى الدراسات التاريخية واللغوية التي تتبع هذا النهج الستاتيكي، ومالم يعجبهم لأنه يحرك العقول ويشير الأسئلة والنقد ويسعى الى تفسير العالم تفسيراً سببياً عليناً، ويعتمد التجربة والمناهج الحديثة، فهو من وحي الشيطان، أي ليس مع الله، وبالتالي فهو جهل وضلال، والجهل مربوط بالكفر والاحاد والذم، وبالتالي يحمل مبرر اقتلاعه وتصفيته. هكذا أراد العقل الإيماني أن يطل على الحياة وعلى الناس.

لم تستطع أوربا أن تخرج من عصور الظلام، وتصنع نهضتها التي نراها اليوم

ونتوق الى تقليدها، والوصول الى ماوصلت إليه من تطور، إلا حين تمردت على الطريقة الايمانية في التعاطي مع العلم والتي مر ذكرها، وهي رؤية وقفت في وجه كل تطور، فأودت بحياة الكثير ممن تجرؤوا على إشاعة التفكير العقلاني. والضحايا في هذا المجال كثر، ليس أولهم ولا آخرهم جيوردانو برونو، كما أن غاليلو كاديكون ضحية هذا العقل الايماني العقيم عندما قال إن الأرض تدور، وقامت الدنيا ولم تقعد على داروين ونظريته في التطور العضوي^(١٨). ولم تنتصر أوروبا إلا بعد أن اخترقت هذه الجدران السميكة من التجهيل على يد أمثال ديدرو وفولتير وروسو وبيكون وديكارث وأمثالهم، وهؤلاء أو أغلبهم اعتبرتهم مراجعهم الايمانية أو كنائسهم متمردين وأبقين، وفولتير في هذا المجال مثال للملاحقة والكيد.

وبتأثير العقل الايماني وسيطرته على قطاعات جماهيرية واسعة، خاصة تلك التي كان حظها من التعليم قليلاً، كان العمال في بداية القرن التاسع عشر يحطمون الآلات متوهمين أن فيها الشيطان الذي يسبب لهم البطالة، ولكن سرعان ما أدركوا أن الآلات بريئة من ذلك^(١٩).

وفي هذه الإشارة دليل على المواجهة بين العقل الايماني والعقل العلمي الى أن تحصل الاستنارة، والاستنارة تقطع مع الكثير من القناعات والأساليب التي تترس بها العقل الايماني.

في العالم الاسلامي بدأت المواجهة قديماً واستمرت، وكان من ضحاياها الكثير من الفكر المستنير، كالذي انتجه ابن رشد، وكان هو قاب قوسين أو أدنى من أن يكون ضحية، وبالتأكيد لن يكون آخر الضحايا نصر حامد أبو زيد.

البحث عما يؤيد هذه الفكرة يتأسس على النهج الذي نهجه الفكر الايماني عند المسلمين في مواجهته لكل جديد، ولا تزال هذه المواجهة مستمرة، لكنها كانت أكثر حدة في بدايات تسرب العلوم الكونية الطبيعية الى البيئة الاسلامية، كما برزت قديماً في العداء للفلسفة والمنطق، وقد مر بنا سابقاً الهجوم الذي شنه الفيلسوف الكندي على رجال الدين، وهذا الهجوم إنما كان دفاعاً عن الفلسفة التي كان يهاجمها ويهاجم العاملين فيها، أصحاب العقل الايماني، يتابع الكندي قائلاً: «ويحق أن يتعري من الدين من عاند قنية علم الأشياء بحقائقها (يقصد علم الفلسفة)، وجملة كل علم نافع،

والسبيل إليه، والبعد عن كل شيء ضار، والاحتباس منه»^(٢٠). ومن المرويات عن ابن الصلاح قوله «من تمنطق فقد تزندق» دون أن يفرق في أي مجال يستخدم معطيات علم المنطق. و «الفكر والكفر واحد بدليل أن حروفهما واحدة» عند وريث علمه، عبد العزيز بن باز. وإذا كانت محكمة غاليلو قد جرت منذ عدة قرون، واعتذرت عنها الكنيسة بعد ذلك، فإن القائل بما قاله غاليلو بعد هذه القرون العدة، أي القائل بأن الأرض تدور، يجب أن يستتاب فإن لم يتب ويتراجع عن رأيه، يقتل وتصادر أملاكه، حسب فتوى لابن باز^(٢١)، في زمن يكاد الاعتقاد بمثل هذه الفتاوى يكون كفراً لما تحمله من إساءة للدين، وتعتبر تهريجاً عقلياً وإيمانياً، لأنها تضع الدين موضع الضد والنقيض للعلم، وتصر أن تكون العلاقة بينهما علاقة مواجهة واتهام وتناحر، لعلاقة تكامل وتعاون للوصول الى الاستنارة والحرية.

لقد كانت المواجهة مع العلم مناسبة أخرى تثبت قصور العقل الايماني الذي يحاول ربط ذلك بالدين في كثير من الأحيان، والدين في هذه الأحيان براء من التهمة كما هو براء من أكذوبة أن هناك علماً يؤدي الى غير الله، أي الشيطان، فالعلم هو العلم، والانسان بسلوكه وباستخدامه للعلم هو الذي يصل، إما الى الشيطان أي الشر وأذى البشرية، أو الى الرحمن، أي الانعتاق والحرية. وفي هذه الحالة وبهذا المعنى، فليعلن المؤمنون عدائهم وبراءتهم لمن يصلون بعملهم لغير الله، بدل أن يعلنوا عداؤهم للعلم وحربهم عليه، فيتضرر، من موقفهم المجتمع والأفراد، مؤمنون كانوا أم كافرين، ولنتذكر أن الله تعالى عندما يذكر العلم في القرآن لم يكن يذكر علماً مؤمناً وآخر كافراً، ولا علماء مؤمنين وعلماء كافرين.

على هذا العقل أخيراً أن يقلع عن مواقفه هذه، وإذا لم يقلع عن مثل هذه المواقف المتزمته التهريجية، فيجب أن ينتزع عن منصة الوعظ بمعادة العلم انتزاعاً، وليقتنع أنصار عدااء العلم أنهم لن يصلوا إلا الى الشيطان الذي ينقرون منه، فهم أنسال تلك المرأة المصرية التي أوصلها تحريض الشيخ، الى أن تفقأ عيني ولدها كي لا ترسله الى المدارس التي افتتحتها الدولة أيام محمد علي باشا في مصر لتعليم الأجيال، كي لا يتعلم الكفر الذي تعلمه هذه المدارس، كما أنهم أنسال ذلك الشيخ الذي كان يوجه المرأة.

كم سأكون مسروراً وسيكون العلم في عافية إذا سمعت أن فئة أو جماعة أو هيئة من علماء الدين الاسلامي ومشايخه (باعتبار عدم وجود من يتولى الموقف باسم الجميع كالبابا في الكنيسة الكاثوليكية) أو اذا أفاقت هذه الهيئة وتجرات أن تعلن إعلاناً شبيهاً بالإعلان الذي نقلته وسائل الاعلام عن بابا الفاتيكان في يوم ١٣/٣/٢٠٠٠م، والخبر يقول إن البابا يوحنا بولس الثاني الذي أعلن أسفه للاخطاء التي ارتكبتها الكنيسة خلال ألفي عام، ويعتذر عن هذه الأخطاء أمام الله.

وكما أن هذا الإعلان ينطوي على اقرار بالخروج عن مبادئ الديانة في سلوك الكنيسة، فإن فيه شجاعة، وفيه شعوراً بضرورة تصحيح المسار الذي لم يكن ينتمي الى الدين، الى الله!!

٦ - الانتقائية والانتقال من الخاص الى العام وبالعكس

لاشك أن منطق الحياة غير المصادر يعطي الحق لكل إنسان أن يعجب بما يريد أو يقتنع، من أشياء أو أحداث أو اشخاص أو أفكار، ومن حقه أيضاً ألا يعجب أو يقتنع بما يريد ألا يقتنع ويعجب به، وهذا أمر طبيعي يتعلق بحرية الانسان وخياراته في الحياة، وقد جاءت مبادئ الديمقراطية في العصر الحديث لتعزز هذا الرأي، ولو نظرياً.

أما في الأنساق الفكرية ذات الشكل الجماعي فهي تُخضع ماتواجهه الى عملية انتقائية، وإذا كان ذلك من حقها، فمن واجبها أن تُخضع العملية الى منطق تبريري مقنع أكثر مما تتطلب الآراء الفردية التي يتحكم بها مزاج وعقل فردي. إن الإشارة بالرضى والقبول، أو بالإدانة والرفض، لقضايا وأشياء تنتمي الى قطاع واحد، يبرر هذه الإشارة، ويشير التساؤل حول القواعد والضوابط التي اتبعت في التقسيم. فالعقل الايماني يفصل بين العقل وتطبيقاته، بين النظري والعملي، بين العلم والتكنولوجيا، فالمنتجات الصناعية للغرب يمكن التمتع بها، ناسين أنها تطبيقات تكنولوجية لعقل الغرب العلمي، هذا العقل الذي يقبله المؤمن المسلم كتكنولوجيا وتطبيقات صناعية، ويرفضه كأساس نظري، مستحلاً لنفسه هذا الفصل غير الممكن، فالتكنولوجيا الغربية قائمة على أساس فكري وفلسفي وحضاري ونظري، قائم في أعماق العقل الذي أنتجها، بالتالي فهي الترجمة العملية لهذا العقل، فكيف يمكن قبول الثمرة المادية

مجردة من عمقها العقلي،؟ كيف يمكن التعاطي مع هذه المنتجات دون استحضار العقل المنتج؟ وهل تعمل السيارة مثلاً على المبدأ ذاته الذي كان يعمل عليه الجمل، سفينة الصحراء؟ هل يمكن الفصل بين خطة المعركة ومجريات القتال؟.

إن العقل الايماني يبرز تناقضه بانتقائيته أحياناً، فالمؤمنون يستخدمون آخر ما توصلت إليه الصناعة الغربية، وأكثره دلالة على تطور الحياة، كأجهزة الصوت والإضاءة والتكييف وحتى منجزات الثورة المعلوماتية، وقد يكون هذا الاستخدام في قطاعات على تماس مباشر مع ممارسة القناعات والواجبات الايمانية، كاستخدام هذه الأجهزة في المساجد، واستخدام الحاسوب في الدراسات القرآنية وفي المعاهد الدينية ودور العبادة، وهذه تجهيزات لم تكن على زمن الأنبياء والسلف الصالح، فكيف يتم ذلك مع رفض استخدام أية أداة توقع (قتلاً أقل همجية) من السيف وفاء لعصر النبي...؟! ولماذا يكون الاستبدال والأدوات مزاجياً انتقائياً، يركز على الخصوصية في جانب لينساها في جوانب أخرى ربما تكون أكثر إلحاحاً...!؟.

تذكر الانتقائية والانتقال عبر المبرر، بالعبارة التي أوردناها سابقاً والتي شاعت في أوروبا القرون الوسطى «ليس للمال رائحة» تندراً على رجال الدين وإشارة الى الأموال التي يحصلون عليها من أي مصدر، مهما كان فاسداً ولا أخلاقياً، دون أن تنتقل أخلاق وقيم واهبيها معها، وبالتالي جاءت هذه العبارة في مجال التعويض والتندر على جشع رجال الدين ومباركة الواهبين، دون الأخذ بعين الاعتبار المعايير الأخلاقية التي يفترض أن تحكم عملهم وحياتهم، ولا يزالون حتى يومنا هذا وربما في أكثر المواقع الايمانية، لا يترددون في قبول الأموال كهبات لهم، أو مساهمة في مشاريعهم الايمانية، وهم يعلمون أن مصدرها قدر، أو أنهم لا يتعبون أنفسهم في البحث عن مصدرها. يلحق بهذا ما يسمى في أيامنا «تبييض الأموال» بمباركة مؤسسات إيمانية، والاشارة هنا الى ما ينشر عن دور رجال دين يهود في هذه العمليات، حيث يشرفون على مؤسسات مالية مهمتها شرعنة المال الحرام. وعلى كل حال فكل مال يأتي من فساد أو حرام وبارك رجال الدين لواهبه، على أثر المنح التي يحصلون عليها منه فهو مشاركة في عملية التبييض التي تنفّر منها الشرائع الدينية وحتى الوضعية.

لقد أدان الشيعة عمر بن الخطاب، الخليفة الراشدي الثاني لتعطيله النص القرآني

في زواج المتعة لكنهم لم يدينوه في تعطيله للنص القرآني، في أمر توزيع أراضي البلاد المفتوحة على المقاتلين، ولم يدينوه أيضاً في تعطيله للنص ذاته في إقامة حد السرقة في عام مجذب، والنص هو النص، فكيف ندين تعطيله هنا لنسكت عن تعطيله هناك؟ التعطيل هو التعطيل، فلم هذه الانتقائية؟.

السينما فن حديث، وهو كفن محايد لا ينتمي الى عالم السوء ولا الى عالم الحسن، كالكثير من الفنون غيره، والسينما وغيرها من الفنون يمكن أن نحملها بالقيم الإيجابية التي تساهم في بناء الإنسان بناء اجتماعياً فعالاً، ويمكن أن تكون حاملاً لقيم رديئة، فلماذا الانتقائية والانتقال مما هو شاذ وخبيث لتعميمه وتحميل المسؤولية لفن بريء، ولادانة فنون كثيرة واعتبارها فاسدة، وبالتالي تصنف مع ما هو حرام؟.

لقد كان تعاطي الجماعات المتطرفة في مصر والجزائر وأكثر منهما في أفغانستان، مع هذه الفنون التي ساهمت في الارتقاء بذوق الإنسان ووعيه في كافة أنحاء المعمورة، تعاملاتاً همجياً يدل على نسق فكري قاصر عن التمييز بين ما هو سلبي وما هو إيجابي. إن إدانة فلم سينمائي لايجوز أن يتحول الى إدانة للسينما بشكل عام، وإدانة أغنية لايجوز أن تصبح سبباً لتحريم الغناء واعتباره كفراً وخروجاً على الأخلاق، هذه هي الانتقائية والتخصيص والتعميم غير المسؤولين.

لقد بلغ التطرف حد ادانة (أي مجتمع) بالكفر والالحاد والجاهلية، بالتالي تحليل قتل أبنائه للتخلص من الكفر والالحاد. وفي هذا قيام بمهمات الشرطي والفقيه والقاضي بل وفعاليات أخرى نيابة عن المجتمع. هكذا. المجتمع دفعة واحدة مجتمع جاهلي، كافر، بالتالي تجب تصفيته، لأن تصرف فرد أو مجموعة، لم يوافق مزاج هذه الجهة الفلانية أو تلك، أو أتى بما لا يعجبها، هذه الفتاوى تكررت في غير مكان من مجتمعاتنا الاسلامية المؤمنة (جداً) والتي حاولت هدم قيم المجتمع وطمأنينته، إرضاء لنزعتها في التخريب والتدمير.

٧ - الانخراط في الموروث

ينظر المؤمن الى كل جديد بمنظار الريبة والشك، فكل المطلوب منه الحفاظ عليه، قد أملي فيما أملي منذ زمن قديم، وهذا القديم ينطوي على جميع القيم التي يفوز

المؤمن إذا هو حافظ عليها، لذلك لم يكن يشعر بالطمأنينة للأشياء الطارئة، خوفاً من أن تكون مخالفة لنصوصه وقناعاته التي شكلتها الأيام، حتى أصبحت قيمتها كالأثار، كلما كانت أقدم كانت أغلى ثمناً وأكثر قيمة.

لم يستطع المؤمن أن ينسجم مع عصره لأن ولائه لعصر مضى، وما ورثه من هذا العصر الماضي يحمل كل المصادقية، وإحدى آليات المواجهة التي يستخدمها هذا العقل الايماني في وجه خصومه أو متهميه بأية قضية مثارة، هي سندها النصي أو التاريخي لا العقلي، فكل قضية لها سند من نص أو أثر أو ورد مثيلها في عصور التدشين التي لا تشوب إيمانها شائبه، تعتبر مقبولة وصحيحة، أما إذا كانت هذه القضية أو الفكرة ليس لها سند من التاريخ أو النص، أوليست من عادات الأسلاف، فهي بحاجة الى فتاوى تدخلها عالم الشرعية والمقبول، بالتالي المقدس، أو تتم مصالحتها مع الموروث، وإعلان تشبهها به، وإلا فيجب أن تبعد لانتمائها الى عالم المرذول والدنس.

جاء في المرجع الفلاني كذا، وورد في كتاب فلان كذا، وحدثنا فلان عن فلان بكذا، أو حدثنا من نثق بعقله ودينه، ونقل عن المغفور له كذا، وغير ذلك من الأساليب والإحالات التي باتت معروفة، هي الأساليب التي يحيل إليها ويعتمدها العقل الإيماني في إثبات ما يريد أو نفي ما يريد، والملاحظ أنها كلها توصل الحاضر بالماضي، وتؤسسه عليه، أو تحاول أن تجد له السند والنصوص التي يفتقر إليها لكي يكتسب مشروعيته ووجوده الحق.

طلق أحدهم زوجته لأنها شؤم، والحديث الشريف يقول: الشؤم في ثلاث المرأة والفرس والدار، وقد وجد من أفتى له بالطلاق استناداً الى هذا الحديث الموروث الذي لم يقم أحد بتقييم أثره على ضوء مستجدات الحياة، ولا التفكير بمصادقية العمل بمثل هذه الأحاديث، ومدى مطابقتها لما عرف من دعوة الاسلام الى التعقل ونبد الخرافة والدجل، والى تمحيص القضايا التي تمس حياة الناس.

ينتمي الى هذا الاتجاه، أمثال الفتوى بتحريم تشريح طالبة الطب لجثة رجل إلا في الظلام، ناسين أنهم بهذا الشرط يمنعون أية امرأة من تعلم الطب. كل ذلك حفاظاً على القيم والأخلاق ومنع النظر الى العورات، دون تقدير الضرر الذي سيحقق بالمجتمع الذي يضحى به وبمصالحة إرضاء لقناعات موروثه صنعتها عقول بشرية مريضة، ونسبتها الى

المقدس والالهي. وهي موروثة عن زمن لارابط بين ظروفه والظروف التي نعيشها، مع ذلك يتم تحكيم الموروث بزمن لا ينتمي إليه.

من هذا الموروث الذي لا ينتمي الى العصر، النظرة الى الآخر، فالشيخ محمد متولي الشعراوي يبيح الاسترقاق ويقول: «أما معاشرتنا النساء الأسيرات معاشرتنا الأزواج ففي هذا تكريم لهن، إذ يفعل بهن السيد مايفعله مع زوجته»^(٢٢).

إن هذه النظرة تنسى أو تتناسى أن الزمن تغير، بل لاتغير أي انتباه لما يستجد على مستوى العالم من معطيات وقوانين لاتستطيع الموروثات أن تستمر في ظلها، وما ألقته من أضواء على الكثير من أمور الحياة. لقد ورث المسلمون تشريعاً يقضي بأن المسلم أو المسلمة يمكن أن يطلب الطلاق من شريكه ويحصل عليه، إذا كان ينبعث من فمه رائحة كريهة (بخر) وقد عمل الفقهاء والقضاة على تفريق الزوجين لهذا السبب إذا طلب أحدهما، ومع أن الزمن تغير وأصبحت رائحة الفم من الماضي إذ يستطيع طبيب الأسنان القضاء عليها لأنها قد تكون ناتجة عن تسوس أحد الأسنان، مع ذلك يرفض العقل الايماني التخلي عن هذا الحكم الفقهي لأنه من الموروث الذي اكتسب صفة القداسة، وهنا يظهر الجمود والتحجر الذي يؤدي إليه الانخراط في الموروث انخراطاً غير نقدي لا يحكم العقل العلمي المتجدد.

لاشك في أن القيم الموروثة عن أي دين من الأديان، قضايا قيمية ستكون المجتمعات التي تحرص على سلامة نفوسها وتطورها بحاجة إليها دائماً، فمنظومة القيم الدينية فيها ما هو منسجم مع كل إيجابي من قيم الشعوب وأخلاقها، وهي هنا جاءت مدعمة بانتمائها الى المتعالي، إلا أنه من أجل استعادة ما هو إيجابي في هذا الموروث، لابد من إخضاعه الى عملية تفصل عنه ما لحق به من معاناة الأيام وتراكم الآراء والتجارب البشرية التي اختلطت به حتى لم يعد بمقدور أحد إلا الجهابذة تنقيته، كما أنه بحاجة الى اكسابه تلك اللمسة التي تجعله ينسجم مع واقع العصر المتجدد، فإذا ما أبقي المتزمتون من المؤمنين على تزماتهم في الحفاظ على المظاهر والشكليات فربما خسروا النصوص بخسرانهم لمجتمع أدار لها ظهره.

٨ - المحافظة على الشكليات

لأنقصد بالشكليات هنا تلك التي لاغنى للمضمون عنها، والتي لا يكتمل بدونها، حيث يشكل المضمون مع الشكل تلك الوحدة الجدلية، يغني كل منهما الآخر ويغتنى به، فمن الجنون والحمق التفكير بفصل مضامين العبادات عن طرائق وأشكال ممارستها وشعائر أدائها مثلاً. المقصود بالشكليات هنا تلك الإضافات والتصرفات التي ينخرط بها المؤمن وهي في حقيقتها لا تحيل الى مضمون له علاقة بجوهر ما يؤمن به، فجوهر الايمان لا يغنيه تقصير الجلباب ولا يسيء إليه تطويله، أو ربما الاستغناء عنه نهائياً واستبداله بزي آخر، والنبي محمد - وهو ليس وحيداً في هذا المجال بين الأنبياء - لم يلزم نفسه وأتباعه بزي محدد، فقد ارتدى أزياء كان يلبسها اليهود والمسيحيون كما تذكر الأخبار، وليس هناك زي لا يكتمل إيمان المرء إلا به، فهذه أمور مرتبطة بحياة الناس وبيئاتهم الاجتماعية. وإطالة اللحية لا تحيل الكافر مؤمناً كما أن حلاقتها لا تحيل المؤمن كافراً، إذ الايمان فعل قلبي، واعتقاد معاني وقيم، مع تمثل هذه المعاني والقيم في الحياة التي يحيها الإنسان، فمهما بلغت العمائم فإنها لا تصنع إيماناً غير موجود أصلاً، كما أن افتقادها لا يقلل من إيمان يعمر قلب صاحبه.

إن الكثير من المظاهر التي توحى بالتقى، وإسراف أصحابها بالإيحاء بغيرتهم على إيمان المؤمنين وعلى انتشار مظاهر التدين، لا ترتبط بمضمون حقيقي، كما لا تعني كثرة المساجد في بلد ما، أو جمال عمارتها وكثرة ما أنفق عليها، أن هذا البلد الذي يحتويها أكثر إيماناً من غيره من البلدان، وهي التي يتسابق بعض الأغنياء في الاعلان عن المساهمة بعمارته وكسوتها بمبالغ لا يقدر عليها فقراء المؤمنين، بفعل ينطوي على كثير من مظاهر الدعاية وقليل من الإيمان ربما.

إن الأفعال بمعانيها ومقاصدها، قال ابراهيم بن أدهم، الصوفي العابد المعروف: «لقمة في بطن جائع أرجح في ميزاني من عمارة مسجد»^(٢٣). كما لا تعني كثرة الصلوات والأدعية وقيام الليل وصيام النهار، تقوى صاحبها إذا لم يصاحب ذلك نية صادقة وراسخة في أعماق الوجدان، تقضي بتقديم كل ما هو مفيد للمجتمع والناس وتجنب إضرار الآخرين، وهذا هو المقياس الفذ لقياس إيمان المؤمن. إن غطاء الرأس الذي يلحق اليهودي بجماعة المؤمنين المتمسكين بدينهم، لا ينجي من العقوبة الأخروية، إذ

استحقوها بأفعالهم وكانت حقاً موجودة، إذ أن الإيمان، شكلياً كان أو حقيقياً ليس جواز مرور الى قتل الناس واغتصاب حقوقهم وإلحاق الأذى بهم والذي لاشك فيه أن الكثير من المؤمنين يرون في هذه الشكليات، حبل النجاة، والبديل الذي زودهم به إيمانهم، ومن كان بهذا المستوى من التفكير، سواء كان قائداً أو مقوداً، يشير الأسى لبؤس تفكيره، في حين أن البعض الآخر، وهو الأهم والأفعل، فهو يعرف أن الشكل الذي ينطوي على مضمون زائف وغير حقيقي، لانفع يرتجى منه، ومع ذلك لا يجرو أو لا يريد هدم حائط الشكليات الذي يفصله عن المعاني العميقة والحقيقية لإيمانه.

الكثير من الشكليات يتلقاها الطفل في البيئة اليمانية مع أسس تربيته الأولى، فتزرع في سلوكه وتظهر في طريقة عيشه، فالكثير من المفاهيم يحرص الأهل على تلقينها لأولادهم، والأهل عندما يكونون على درجة جيدة من الوعي لا يلقنون أولادهم إلا المفاهيم المنسجمة مع العقل، لكن الأسوأ، عندما يكون الأهل جاهلين، فلن يكون تلقينهم إلا على شاكلتهم. ليس خطأ أن يبسم الإنسان في بداية تناوله للطعام، إنما الخطأ أن تخيف الطفل بأنه إن لم يبسم فلن يشبع، وأن عليه ألا يأكل بيساره لأن الشيطان يأكل بيساره، وإن فتح فمه عند التثاؤب يعرض المثائب الى دخول الشيطان من فمه، وإن لبس الكبار لحواتم العقيق شيء حسن لأن العقيق يسبح الله، وينتمي الى هذه المصنوعة الكثير من الخرافات التي تتعلق بالشكليات كالاعتقاد أن حلاقة الرأس تزيد القدرة على الجماع، وغير ذلك من الشكليات التي تدخل في معتقدات الناس وتصبح إحدى مكوناتها، لكنها لا تتأسس على أية قاعدة علمية موضوعية أو على أية قاعدة دينية سليمة وإنما دخلت الى قناعات الناس من العادات والممارسات اليومية، وضعف الامكانيات الفكرية التي تعمل على تحصين الشخصية، وقد حازت هذه الشكليات على درجة القداسة التي تحوزها القواعد الدينية السليمة عادة.

أن الشكلية إحدى ميزات الطقوسية، والكثير من الطقوس أخذ الطابع الآلي وطابع العادة، وغاب عنه العمق الفكري، فعند ممارسة الإنسان لطقوسه العبادية، يفترض أن يكون ذهنه وقادراً وتفكيره في كيفية الأداء الذي يحقق التواصل مع ربه لا تشويه شائبة. فلننظر الى كيفية تنفيذ المؤمنين لطقوسهم من وضوء وصلاة وصيام

وحج، نجد سيطرة الطقوسية الشكلية الآلية عند الجماهير الواسعة هي المسيطرة، لاتوازيها المشاعر الايمانية الحقيقية واللازمة لصدق الأداء والانتماء، وكأن المؤمن في عجلة من أمره وعليه أن ينجز هذا الواجب المكروه!

وهذا كان مصدر قلق وإدانة من قبل المتنورين من رجال الدين الذين هالهم ما وصل إليه الناس من جهل واستهتار في التعاطي مع أمور دينهم، ومتى ضعف الالتزام الصحيح والوعي ضعف الوازع الأخلاقي الذي من شأن الدين أن يريه. يقول الشيخ محمد عبده، فالمسلمون: «ضيعوا دينهم واشتغلوا بالألفاظ وحرفيتها وتركوا كل مافيه من المحاسن والفضائل، ولم يبق عندهم شيء. هذه الصلاة التي يصلونها لا ينظر إليها الله ولا يقبل منها ركعة واحدة، حركات كحركات القروود وألفاظ لا يعقلون لها معنى....» (٢٤).

ومن الشكليات التي برزت في برامج وأدبيات الفئات المتطرفة الايمانية، والتي نهجت نهجاً جهادياً ضد السلطة والمجتمع، ووقفت هذه الفئات منها موقفاً يوحي بالتمسك بها مهما كان ضررها الاجتماعي، خروج المرأة الى العمل، وخروجها الى الطريق مع غير محرم، وعدم حجابها، وارتداء الرجال للبنطلونات (لأنها تبين مفاتن أجسادهم) ومشاهدة برامج التلفزيون غير الدينية، وسماع الموسيقى والأغاني، ومباريات كرة القدم، ودخول المسارح والملاهي ودور السينما، وزيارة المعارض والمتاحف، ومشاهدة الآثار، واقتناء الصور والتماثيل، وارتياح الشواطئ، والتحدث بلغة أجنبية أو تعلمها، وقراءة كتب أجنبية أو غير كتب التراث الإسلامي، وقراءة أي كتاب من الشرائع الأخرى، والسياحة لغير زيارة القبور (٢٥).

وكما أن وجود شكليات لاتنطوي على مضمون حقيقي إيماني، يجد بعده في صدق النية والنقاء الداخلي والتوجه الصادق نحو تحقيق القيم الأصيلة التي بشرت بها الأديان وجاءت من أجلها كما في الاسلام، كذلك فإن هذه الشكليات تبقى معزولة ومنقطعة عن بعدها الايماني الأصيل في المسيحية واليهودية إذا لم يرافقها العمل الجاد لاحتوائها الى ممارسة حياة يومية، وفعل اجتماعي ينحو نحو حرية الجماعة وانعتاقها والحفاظ على كرامة الانسان في جماعيته، فأزياء الكهنة وكثرة الاكسسوارات التي يستخدمونها، من مباخر وعصي وشموع وأزياء، بالإضافة الى جوقات الإنشاد

والترتيل والموسيقا وغير ذلك، لا تكفي بأن تكون دليلاً على أن الايمان الصادق بخير ولا تشويه شائبة، إذا بقيت معزولة عن إمكانية تجسد هذا الايمان في حياة الناس اليومية وتحويلها الى رحمة وتسامح وأمل.

٩ - الرحمة والتسامح والأمل

تحدثنا فيما سبق عن آليات تنطوي على ماهو سلبي أكثر مما تنطوي على ماهو إيجابي. فالعمل إذا كانت أحوال المؤمنين قد أفضت الى هذه المواقع والآليات التي تحدثنا عنها؟ المهم أننا تحدثنا عن هذه الآليات حديث العقل لاحديث العاطفة، الحديث المدعم بالأدلة المستمدة من الواقع والممارسة العملية التي نطقت وتنطق بها الممارسات اليومية والتاريخية التي نقلتها الكتب والأخبار، وربما كان هناك آليات أخرى غفلنا عنها ولم تخطر ببالنا، أو أننا عددناها في مجال تجليات العقل الايماني القادمة، ونريد أن ننوه الى أن فصل سمات العقل الإيماني عن آليات عمل هذا العقل، وفصل سماته وآليات عمله عن تجلياته أمر غير ممكن في الواقع الحياتي، إنما يتم الفصل هنا من أجل الدراسة وإجلاء الواقع وبيان جوانب الموضوع، الذي أرى أنه كان ولا يزال ذا تأثير كبير، سواء برز هذا في مجال الايمان الديني، أو في مجال الايمان السياسي والاجتماعي وميادين تجليه، حيث سيطر العقل الايماني على المجال السياسي بشكل واضح، والايمان هو الايمان، أكان المبدأ موضوع الايمان سياسياً أم دينياً.

في كل ماضى لم نكن نعثر على الايمان والتقوى الحقيقيين المنبثقين عن المعاني والقيم الدينية التي بشرت بها الأديان السماوية، فشككت اللحمية والسدى لنسيج الحياة المتواصل، إلا مشوبة بالكثير مما نفرت منه هذه الأديان، وناضلت ضده، فرجال الدين الذين كانوا يبيعون صكوك الغفران للناس في القرون الوسطى المسيحية يمثلون وجهاً من وجوه الصورة التي يمثل وجهها الآخر اولئك الذين قال عنهم ول ديورانت: «إن طوائف الرهبان اشتهروا بمستوى حياتهم الخلقي الرفيع» و «لعل نصف الكرادلة كانوا يسلكون مسلك اتقيا المسيحيين المتدينين»^(٢٦).

صحيح أنه لا يكفي أن يكون نصف مجمع الكرادلة من الاتقيا وهذه صورة سلبية، لكن هذا يوحي بأن الحياة لم تكن مليئة بالسواد والشر فقط، بل بالرحمة والخير أيضاً.

وإذا كانت معاني الحق والخير والجمال التي تنشد الرحمة والتسامح والأمل غير متضمنة في سابق حديثنا فليس معنى هذا أننا نفتقدناها في الحياة التي يحيها المؤمنون. فلا يزال الكثير منهم يستجيب لنداء الرحمة التي أرادت الأديان أن تعلمها. وفي هذا الموقع، موقع الرحمة يمكننا أن نضع اعتذار البابا مؤخراً عما اقترفته الكنيسة من أخطاء خلال ألفي عام انصرمت.

لقد شكلت مشاركة المؤمنين في رعاية بعض معاهد العلم والتربية، وتأهيل ورعاية المعوقين، ومساعدة الفئات الاجتماعية التي تحتاج الى المساعدة، والإسراع في تقديم ما يخفف من وقع الصدمات والكوارث التي تتعرض لها الشعوب، والانفاق على المشافي والمراكز الصحية، وفي إشادة المرافق العامة والعناية بها، وفي غير ذلك مما يحتاج المساهمة المادية والمعنوية، كل هذا شكل جسراً للتواصل مع المعاني الحقيقية للإيمان الذي نشرت به الرسالات السماوية. ولعل الجوانب الأبرز من هذه الجوانب التي ذكرناها، والذي ساهم كثيراً في تقدم البشرية وانعتاقها، هو رعاية معاهد العلم والتربية، حتى لو لم يكن لهذه الرعاية من هدف سوى نشر المذاهب الإيمانية وتعميق تأثيرها في حياة الناس، وقد كانت هذه الغاية سبباً الى تطور التعليم، بحيث لم تستطع المدارس والمعاهد المذهبية أن تبقى بمعزل عن العلوم التي تتطور تطوراً مطرداً، إذ لو بقيت في معزل عن مثل هذا التطور لحكمت على نفسها بالاعدام، علماً أن بعضها كان من أنصار العلوم الحديثة وكان حريصاً على تتبع الجديد.

من جانب آخر نجد أن معظم المذاهب الدينية تشكل عقبة ضد انتشار الكثير من المفساد. فهذه المذاهب الدينية، سواء في المسيحية أو الاسلام تبذل جهودها ضد الانتهاكات الاعلامية للقيم الأخلاقية كالذي تقوم به بعض المحطات التلفزيونية. ووقوفها في وجه انتشار المخدرات التي تعتبر من أشد ما يفتك ببناء الجيل، ومعالجة تأهيل المدمنين، ويشبه الوقوف ضد المخدرات ومحاربتها ومعالجة مدمنيها، مواجهة انتشار مرض الأيدز هذا الوباء الفاتك.

ماذا تعني الرحمة أكثر من الالتزام بما يساعد على تحقيق إنسانية الإنسان وتكريس حرته، والدفاع عن قيمه الإيجابية في مجال بناء شخصيته، بالإضافة الى مواجهة ما يتعرض له من أخطار خاصة تلك الأخطار الأكثر فتكاً والتي تأخذ الطابع

المعنوي الذي يسلب الشخصية قيمها.

إن هذا الجانب يأخذ شكل الدفاع عن الأخلاق وحمايتها، حيث تعتبر الأخلاق حقلاً من الحقوق التي يتجوهر فيها الايمان (الصادق).

إن معاني التوادد والتراحم، وصلة الرحم، وإشاعة معاني وقيم الحياة الإيجابية، ومكافحة الفساد والقيم الأخلاقية المتردية، والدعوة الى التمسك بالفضيلة والى إشاعة السلام والرعاية الاجتماعية، وغير ذلك من قضايا يعد اشارات واضحة الى استمرار زخم العمل الايماني في إطار القيم الإيجابية للأديان، حتى لو لم تنفذ الى لب المشاكل كالاستغلال والطغيان ونهب خيرات الشعوب وتجاوز القوانين والاحتماء بالمقدس و... الخ، وبتكريس القيم الإيجابية والنضال من أجلها، وربطها بقضايا المجتمع الحياتية من أجل اغناء الحياة وإثرائها من أجل غد إنساني أفضل.

١٠ - الجهاد

الجهاد فريضة اسلامية دينية، وهو وسيلة لاحقاق الحق، ولتحصين المجتمع ضد الظلم، والابقاء على الفضائل، ورد الأطماع، وصيانة المقدسات... الخ. وقد ارتبط الجهاد بحامله الاجتماعي، فهناك حامل اجتماعي أحال الجهاد الى عنف ضد المجتمع لتحقيق مآرب في غاية البعد عن الدين والايمان الحق.

ينطلق مفهوم الجهاد عند هذا الحامل من أرضية تكفير الآخر، وهذا مايدعو (د. رفعت السعيد) الى القول إن عنف هذه الحركات متأصل فكرياً، فالفكر الذي تتربى عليه ينضج بالعنف تجاه الآخر، في حين يرى (د. فيصل دراج) أن هذا العنف رد على عنف الدولة ضد المواطنين^(٢٧).

يحتكم هذا الاتجاه في تكفيره للناس الى فكر المودودي الموروث عن ابن تيمية وأقرانه، كما يرثه (سيد قطب) الذي يحكم على المجتمع بأنه جاهلي (في كتابه معالم في الطريق) وتجهيل المجتمع (أي نسبته الى الجاهلية، الى الكفر والضلال) خطوة أولى في طريق نفيه وقتله. فالشيخ الغزالي في شهادته أمام المحكمة في قضية اغتيال فرج فوده، يحدد الكفار بقوله: «كل من قال بالقانون الوضعي»^(٢٨)، علماً أن النبي يقول: «من كفر مؤمناً فهو كافر»، ولقد ذكر مدرس عمل في إحدى مدارس اليمن، أن اليوم

الدراسي يبدأ في هذه المدارس أو بعضها بخطبة دينية صباحية، يلعن فيها الخطيب الشيوعيين والاشتراكيين والعلمانيين والديمقراطيين وأضرابهم من الكفار.

ويعتبر هذا الاتجاه ضد كل هذه الفئات من الكفار واجباً دينياً مقدساً، والتجهيز والاعداد لهذا الجهاد واجب أيضاً. فزعيم الاخوان المسلمين الشيخ (حسن البنا) يقول: «في الوقت الذي يكون فيه لكم معشر الاخوان المسلمين ثلاثمائة كتيبة قد جهزت كل منها نفسها... في هذا الوقت طالبوني بأن أخوض بكم لجج البحار»^(٢٩).

إن توجه الجهاد (العنف) باتجاه الداخل، باتجاه المخالفين بالرأي، جعله يصطبغ بالصبغة السلبية، في حين أن كلمة الجهاد تحيل في عمق معناها القار الى معنى إيجابي في أذهان المسلمين، ولانستطيع أن نقول إن الآخرين هم المسؤولون عن ذلك، لقد سعت الحركات المتطرفة الى هذا الفهم بنفسها، فحركة النهضة الاسلامية المعتدلة في تونس والتي تعتبر من الحركات الساعية الى التغيير السلمي والديمقراطي كما يصرّح زعيمها «راشد الغنوشي»، هذه الحركة صبت ماء النار في حلق داعية اسلامي مسن لأنه خالفهم الرأي، وحرقوا بعض خصومهم أحياء^(٣٠).

حامل اجتماعي آخر يطالعنا ببقائه أميناً على الجهاد كوسيلة لتحقيق قيم الحق والخير والحرية، علماً أننا هنا نتحدث عن الجهاد الأصغر حسب المفهوم الديني الإسلامي.

لقد كانت مواجهة الشر والعدوان عبر التاريخ منوطة بالقوى المؤمنة بانسانية الإنسان وقدره في التوجه الى الأمام، من هنا وجدت هذه القوى نفسها تنخرط في مواجهة المعتدي لأن هذه المواجهة جزء من ايمانها. فإذا تجاوزنا جهاد الانسان في القديم، حيث كان يرى ويؤمن أن جهاده في سبيل إعلاء كلمة الله، وفي العصر الحديث فإن هذا المؤمن لم يستطع أن يفصل بين إعلاء كلمة الله وبين حرية وطنه وانسانيته، والفصل بين التوجهين غير ممكن لأنهما ينتميان الى حقل قيمي واحد سواء في الماضي أو في الحاضر.

في الجزائر، وجد الانسان الجزائري نفسه مفعماً بإيمان لا يفصل بين الله والوطن، وقضيته الوطنية هي قضيته الايمانية، وقد تماهت المعاني والقيم الوطنية مع الايمان بالله، فكان ذلك حافزاً لايجاد آلية استطاعت تخليص الجزائر من الاستعمار الفرنسي

عبر ثورة المليون شهيد، وقد أعطى هذا البلد المعنى النقيض لتوظيف الايمان في السنوات الأخيرة من خلال الترويع الذي قامت به عصابات اجرام مطلقة عليه اسم الجهاد، وقد برز هذا التناقض في جنوب لبنان من خلال توظيف الجهاد تارة ضد قيم وطنية من أمثال: حسين مروه ومهدي عامل، وهنا يظهر الوجه السلبي للجهاد حيث تم اغتيال المذكورين، وتارة ضد العدو الصهيوني مغتصب الأرض والحقوق، حيث الوجه الايجابي أو الأكثر إيجابية في تاريخ الاجتماع البشري، أعني مواجهة الشر والعدوان. وهذا يذكرنا بسمة التناقض في العقل الإيماني.

هذه الجدلية الرائعة بين الايمان الديني والايمان بالوطن ذي البعد الاجتماعي السياسي، عبر عن آلية يلجأ إليها العقل الإيماني في بعض فصول تجليته تجلياً إيجابياً، في خضم الكثير من الآليات التي لجأ إليها ليثبت وجوده، وليعبر عن نفسه تعبيراً حمل الكثير من السلبية.

لأنستطيع أن نتجاوز هذه الآلية (الجهاد) دون الإشارة الى الدور الذي لعبه الايمان في ماعرف بلاهوت التحرير في دول أمريكا اللاتينية، حيث برز رجال اللاهوت قادة ثوريين مؤمنين بقيم الحرية والانعقاد ليشكل عملهم هذا ظاهرة يذكرها التاريخ بكل التقدير والاحترام.

هوامش الفصل الثاني

- (١) - تحسين حلبي ، صحيفة المحرر نيوز - الاسبوعية ، العدد ٢٣٣ / ٢٥ شباط ٢٠٠٠ / آذار ٢٠٠٠ / نقلاً عن الصحافة الاسرائيلية ، خاصة هآرتيس عدد ١١ شباط / ٢٠٠٠
- (٢) - محمد أركون ، العلمنة والدين ، دار الساقي طبعة ثانية ١٩٩٣ ص ٧١
- (٣) - المستشار محمد سعيد العشماوي ، الاسلام السياسي ، سينا للنشر ، طبعة الثالثة ١٩٩٢ ص ١٧
- (٤) - ابراهيم بشير الفويل ، نحو « أو مشروع » الطريق الثالث ، دار الأفاق الجديدة - بيروت ، طبعة أولى ١٩٩٩ ص ٢٦٢ وغيرها
- (٥) - المستشار محمد سعيد العشماوي ، مرجع سابق ص ٤١
- (٦) - صحيفة المحرر نيوز عدد ٢١٨ / ٣ - ١٩ ت ١٩٩٩
- (٧) - د . عزيز العظمة ، مجلة النهج / ١ / شتاء ١٩٩٩
- (٨) - د . عزيز العظمة ، العلمانية من منظور مختلف ، مركز دراسات الوحدة العربية ، طبعة أولى ١٩٩٢ بيروت ٩٩
- (٩) - المرجع السابق ٥٤
- (١٠) - ول ديورانت ، قصة الحضارة ، مجلد ٥ / جزء ٤ / عصر الايمان / ١٦ / ترجمة محمد بدران ، الادارة الثقافية في جامعة الدول العربية ١٩٦٥ ص ٤
- (١١) - المرجع السابق ص ٤
- (١٢) - المرجع السابق ص ٢٧
- (١٣) - علي مبروك ، النبوة ، من علم العقائد الى فلسفة التاريخ ، محاولة في إعادة بناء العقائد ، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ، طبعة أولى ١ / ١٩٩٢ بيروت ، حاشية ص ٨٠ نقلاً عن : الكامل في التاريخ لابن الأثير ، ج ١ القاهرة ١٢٤٨ هـ ص ٢٤٥ وكذلك تاريخ الرسل والملوك ، الطبري ، جزء ٢ / القاهرة ص ٩١٠ - ٩١١
- (١٤) - صحيفة الكفاح العربي - لبنان - السبت ٤ آذار ، مارس ٢٠٠٠ .
- (١٥) - أديب ديمتري ، نفي العقل - دار كنعان للدراسات والنشر ، دمشق ، طبعة أولى ١٩٩٣ ص ٩١
- (١٦) - د . رفعت السعيد ، المتأسلمون - الارهاب والفتنة الطائفية ، دار الأهالي ، طبعة أولى ١ / ١٩٩٤ . دمشق ص ١٠
- (١٧) - المستشار محمد سعيد العشماوي - المرجع السابق ص ٢٠
- (١٨) - د . صادق جلال العظم - نقد الفكر الديني - دار الطليعة ، بيروت ص ٣٠
- (١٩) - أديب ديمتري - المرجع السابق ص ٩٥
- (٢٠) - نقلاً عن : د . حسين مروه ، النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية ، دار الفارابي - طبعة رابعة ١٩٨١ ج ٢ ص ٥٩
- (٢١) - د . رفعت السعيد ، المرجع السابق ص ١٠ ، أيضاً كتابه ، ضد التأسلم ، كتاب الأهالي رقم / ٥٦ / يونيو ١٩٩٦ ص ٦٢
- (٢٢) - المرجع السابق ص ١١
- (٢٣) - هادي العلوي ، مدارات صوفية ، من تراث المشاعية في الشرق ، دفاتر النهج ، دار المدى للثقافة والنشر ، طبعة أولى ص ١٨٧
- (٢٤) - كتاب المعرفة والسلطة ، مساهمات نظرية وتطبيقية ، سلسلة دراسات الفكر العربي ، من دراسة منشورة في الكتاب للدكتور ، حليم يازجي ، والكتاب لمجموعة من المؤلفين بإشراف د . فهمية شرف الدين ، معهد الانماء العربي ، بيروت ط ١ أولى ١٩٨٩ ص ١٥٥

- (٢٥) - المستشار محمد سعيد العشماوي ، مرجع سابق ص ١٢٠
- (٢٦) - ول ديورانت ، قصة الحضارة ، مجلد / ٥ / جزء / ٤ / ٢١ / عصر النهضة - ترجمة محمد بدران الادارة الثقافية في جامعة الدول العربية ، طبعة ثانية ١٩٦٧ ص ٨٢
- (٢٧) - مجلة النهج عدد / ٢٠ / شتاء ١٩٩٩
- (٢٨) - د . رفعت السعيد ، مرجع سابق ص ١٥
- (٢٩) - المرجع السابق ص ٧٤
- (٣٠) - المرجع السابق ص ١٠٦ .

الفصل الثالث

تجليات العقل الايماني

لقد وجدت فيما سميتُه العقل الإيماني (وهنا أذكر أنني لم أعتمد على مصطلح قد وضعه غيري سابقاً، ولا أدري إن كان موجوداً بهذا المعنى قبل الآن) الفاعل والمحرك الأساسي للكثير من جوانب الحياة في مجتمعاتنا، بل إن تأثيره يفوق ما يمكن أن نتوقعه في كثير من الأحيان، لقد أصبح ومنذ وقت بعيد بنية قارة في أعماق النفوس كما في أعماق المجتمعات وقواها الفاعلة، وانتقل من مجال الدين الى الحياة الاجتماعية والسياسية بالتالي الثقافية أيضاً.

لنتذكر أن الدين (أي دين) كما الثورات العظمى في التاريخ، قد جاء استجابة لتطور الحياة بما يحمله من طاقة تفسيرية، بالتالي طاقة تغييرية، إذ هو حركة تقدمية بهذا المعنى لارتباطه بضرورة الحياة الاجتماعية وصيرورتها، وانتشار الأديان كان تعبيراً عن تلاقي حاجة ماسة مع طاقة خلاقة. الحاجة الماسة، لاتزال موجودة بقوة (باعتبار الحاجة المستمرة للتطور والتغيير) لأن البؤس الإنساني بكافة معانيه وأشكاله يزداد ويتسع، في حين أن الطاقة الخلاقة الموجهة باتجاه انسانية الانسان لم تعد موجودة بمعناها الروحي (الديني)، باعتبار انقطاع النبوات التي كانت الأساس لهذه الطاقة الخلاقة وأحد تجلياتها الأساسية، ولكن ليست الوحيدة، وربما لم تعد تلبي حاجة التطور، بعد أن تحولت الى حالة سلبية عاجزة عن الخلق، بل أصبحت تمثل حالة كبخ (حالة إيمانية)، مما دفع الى إيجاد بدائل ترعى التطور المنشود الذي تفرزه الحياة وتتطلبه، تبدت في القوانين والفلسفات الوضعية، وهنا لامجال للفسر، فما لبي حاجة الحياة للتطور سيتمسك به الناس مقدساً كان أو غير مقدس، مع ذلك فإن هذا لايعني انحسار التأثير الديني والمشاعر الإيمانية وإنما يعني فقدانها لطاقة الخلق وتلبية الحاجات الاجتماعية، لعدم قدرتها على مسايرة التطور التاريخي للمجتمعات بسبب نصيتها المغلقة، ولهذا السبب ظهرت فئوتها (مذهبيتها)، وهذه في إحدى قراءاتها تعني

فقدانها للتوجه التقدمي الذي كانت تحمله، والتعبير عن العجز والتقوقع لعدم القدرة على التجدد، كما تعني في كثير من الأحوال ظلاميتها ورجعيتها، وبروز طاقة الكبح فيها، أي تحولها الى حالات إيمانية دوغمائية افتقدت مبدأ التسامح بالقدر الذي افتقدت فيه مواكبة التطور العلمي وحالة الانفتاح والتقدم والاعتراف بالآخر.

وكما كانت فكرة الأديان وظهورها تنطوي على معاني التقدم والإنسانية، فإنها تنطوي أيضاً على فكرة عظمة الألوهة، لأن كل تقدم أو تطور أو تغيير باتجاه الأفضل مرتبط بالإرادة الالهية القاضية بتنظيم شؤون الناس الدينية والدنيوية، وفكرة الألوهة تقطع مع الأشياء الصغيرة التي لا تنتمي الى منظومة القيم الرائدة، فلماذا سعت البشرية لظهار الآلهة وكأنها بحاجة الى من يستحثها على رعاية الكون بالقرايين وغيرها؟!.

لرعاية هذه الكون ذي النظام البديع، بل لرعاية مصالح الناس المنتمين الى اليهودية، دشت هذه الديانة السماوية الأولى هذا المبدأ (مبدأ القرايين الذي ربما ورثته عن الديانات التي وجدت قبلها على أرض المنطقة التي نشأت فيها، وهي ديانات غير توحيدية، غير سماوية كما تم التصنيف) ثم وجد استمراريته في الأديان الابراهيمية اللاحقة. ثم من قال إن الاخلاص لفكرة الألوهة يكون بكثرة النصوص، وتعقيدات الطقوس، ومتاهاات اللاهوت، مايؤدي بالضرورة الى سيادة الأوصياء، حراس المقدس على النصوص، لأن من لا حارس له فمفقود في عرفهم؟! لماذا لا تكون بساطة التوجه الى الاله باسقاط كل الحواجز والوساطات بين الانسان ومايعبد؟! إنه العقل الايماني، فلنبحث عن السبب فيه. إنه العقل الذي لا يترك الإنسان حراً، يصل الى ربه بالطريقة التي يفهمها من تعاليم دينه دون وصاية الشراح والموجهين.

لقد لعب العقل الايماني دور بروكرست وسريره، بل كان لكل نمط إيماني مذهبي أو طائفي سريره الذي يقيس عليه، فيبتر أو يشد للتوفيق مع متطلباته أي إنه كان ينفي الآخر الذي لا ينسجم معه، أو يحصل بينهما شيء من الاختلاف. ولقد غذت المصالح السياسية كل ذلك، وكثيرة هي الحكومات التي استجابت لمعطيات عقل إيماني لتلاقي مصالحهما، بل كثيرة هي السياسات التي طورت عقلاً إيمانياً مناسباً لها. إن الحكم الذي تحميه حراب الجنود، لا يركن الى حماية الآلهة ولا ينتظرها، ولكنه لا يتخلى عن

حماية رجال الدين، أرباب العقل الايماني وحراس المقدس، حيث يستخدمهم كما يستخدم السيرك مروضي الوحوش.

بالإضافة الى ذلك نجد أن امتداد العقل الايماني وسيطرته كان مرتبطاً بأبعاد تاريخية وجغرافية بالإضافة الى الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، حيث أن سيطرته في منطقة ما وزمن ما وشكل ما لا يعني بالضرورة سيطرته في منطقة أخرى وزمن آخر بالشكل ذاته، فتركيا وافغانستان مثلاً،، دولتان ومجتمعان اسلاميان، وفي الوقت الذي يبدو - على السطح - أن تركيا قد انتصرت للعلمانية بما تعنيه من علم وعقلانية وديمقراطية وغيرها نجد أن افغانستان في ظل الطالبان تبدو معتزة بالحالة القروسطية التي تعيشها، دون النظر الى حالة انسجام خصوصيتها الايمانية مع صحيح الدين، أو دون التفريق بينهما، بما يعنيه الدين من تاريخيه وتطور وما يعنيه الايمان كما آل إليه من تسمير للواقع وثبتت لقواعد الحياة على منطق الرجوع والتخلف.

كثيرة هي المظاهر التي اعتمدها العقل الايماني، وكثيرة هي التوجهات التي توجهها، ونحن لاندين التنوع والاختلاف، لأننا نرى فيهما حافزاً على الخلق، لكن هذا التنوع والاختلاف في أشكال بروز وتجلي العقل الايماني، لم يكن مشغولاً بتوليد ما هو جديد والسباق إليه واحتواؤه، بقدر ما كان مشغولاً بتثبيت الواقع، والتحكم به كي لا يفلت زمام التوجيه ودفة القيادة من يده، إن الإمساك بعقل الناس وضبط عواطفهم وسلوكهم وتصنيف غرائزهم، وحماية حقوق ملكيته لكل ذلك هو الهاجس المحرك لهذا العقل.

إن أشكال تجلي العقل الايماني في الحياة مرتبطة بالمهمات التي كان على هذا العقل أن ينجزها، إنها جدلية الشكل والمضمون، إذ ليس من المعقول أن يسعى الى التسيد والسيطرة دون شريك، وأن يطبق مبادئ الديمقراطية في الوصول الى أهدافه، وأن يراعى حق الاختلاف والتنوع، وهو لا يخاف التناقض بمقدار ما يخاف أن يؤدي سلوك طريق الديمقراطية الى انحساره ونهايته.

لقد كانت تجليات العقل الايماني مقروءة لمن أراد في الواقع المعاش، ولا تزال مقروءة لمن أراد تتبعها. ومن أبرزها :

١ - التعالي

والتعالي هنا يرتبط بالأسطورة والاصطفائية. فمجتمع المؤمنين لا يجد سنده ومبرراته في الواقع المعاش من قبل جمهور الناس الآخرين، بل يجده في القوى المتعالية، قوى الغيب، قوى فوق، المتحركة بقوى تحت، والمؤمن لا يرضيه قال فلان الكاتب أو الأديب أو المفكر أو العالم، بل يرضيه قال الله أو أحد أنبيائه أو أحد الأولياء أو أحد أفراد السلالات المقدسة المتناسلة عبر الأيام. إذن المشروع الفكرية والثقافية للعقل الايماني ليست أرضية بل مرتبطة بقوى السماء الموجهة لقوى الأرض، بالتالي هي أعلى منها رتبة، وكلما علت رتبة المرجع الذي يتم الرجوع إليه كلما علا مكان وموقع المرتبطين به. التعالي يأتي من الارتباط بقوى فوق طبيعية، وتمثيل هذه القوى في أرض الواقع، والمشكلة تكمن في عدم قدرة العقل الايماني على الربط بين الواقع والماوراء ربطاً علمياً فأهمل الواقع لصالح ماورائه.

نجد التعالي في الحديث عن القوى الخفية التي تؤسس للأحداث الكبرى، وتعمل على إبرازها وإخراجها المخرج المناسب، فنبوّة محمد التي هي واقع معاش أخذ أبعاده، وجدت بعد حين، مؤرخين يؤسسون لها اسطورياً، وقد تم ذلك مثلاً من خلال الكثير من الحكايات، منها حكاية النذر الذي نذره عبد المطلب جد الرسول، بأن ينحر أحد بنيّه إذا ولد له عشرة أولاد ذكور، وذلك لما لقي من قريش عندما حفر بئر زمزم، وبقيّة القصة معروفة، كيف أن القداح عندما أراد الوفاء بالنذر خرجت تشير الى التضحية بعبد الله والد محمد، وهذا ماكرهه عبد المطلب (مع الأخذ بعين الاعتبار أن القداح هي قداح هبل، فكيف ركن مؤرخو الاسلام الى هذه الحكاية؟!) وتتابع الحكاية بأن عرافة الحجاز رأت أن يضربوا القداح على عبد الله أو الدية (والرأي ثانية هو رأي العرافة)، والدية هي عشرة من الإبل، وأن يزيدوا عشرة عشرة حتى ترضى الآلهة (آلهة الجاهلية - الأوثان)، وكان ذلك عندما بلغت الإبل المئة عدداً^(١).

أليس من المضحك المبكي أن يكون على المسلم المؤمن أن يعتقد أن لهبل وللعرافة فضل في نبوة محمد وإخراجها الى حيز الواقع؟! إذ لولا إرشاد العرافة وقبول هبل لتمت التضحية بوالد محمد. أليس من الضلال أن تؤسس نبوة محمد على رضى آلهة الضلال والوثنية، وهذا الرضى هو الذي أجاز لهذه النبوة أن تظهر؟! أم أن العقل

الايماي لايتعب على تمحيص ما يرويه من أخبار ليرى مدى تعارضها مع منطلقاته؟ المهم أن يبرز أن جذور النبوة تنتمي الى هذا المتعالي ولو كان الفاعل في إبراز هذا المتعالي هو هبل وعرافة الحجاز!!

من هنا كان الايمان بالخوارق والكرامات والمعجزات أحد أساليب العقل الايماني لتبرير ما لا يجد له مبرراً، ضدّاً على العقل العلمي النقدي العقلاني، أو للتعامل مع ما لا يستطيع التعامل مع مبرراته الواقعية وحتى مع قناعة المؤمن أن زمن المعجزات قد ولى، لأن الله ساقها تأييداً لرسله، ولغايات تختلف عن غايات مؤمني هذه الأيام، الذين لا يجدون مانعاً من توظيفها في أي وقت أو أية مناسبة. فكم من مرة تردد أن الجرافات الضخمة مثلاً، قد عجزت عن إزالة حجارة من موقع ما وهي حجارة صغيرة بالنسبة لقدرة الجرافة، يتبين بعد ذلك أنها حجارة لقبر، ولدى التدقيق يتبين أن هذا القبر سواء تم التأكد أم لا، هو قبر لولي من أولياء الله، اصطفاه وكرمه بهذه المعجزة، وعندها يفعل العقل الايماني فعله الاسطوري.

المتعالي مبرر لا بد منه للعقل الايماني، حتى الفكر السياسي قد حول الارتباط ببعض الرموز السياسية الى ارتباط فوق واقعي، ايماني، فليتين هو مثل للشخصية التي يجعل منها المعجبون والأيام شخصية تتعالى على الواقع، ويصبح كل فعل من أفعالها مؤسّطراً، ويصبح الارتباط بها ارتباطاً بالمتعالي، وفي التاريخ والواقع السياسيين أمثلة كثيرة لهذا التعالي في العقل الايماني السياسي. وعندما نقول انه لاغنى لهذا العقل عن التعالي فإن هذا يعني شكلاً من أشكال الفقر عند هذا العقل، فثقتة بنفسه تجعله لا يرى فيما هو طبيعي وواقعي سبيلاً لمحاكاة الناس واقناعهم وجذبهم، فكأنه لا يثق بنفسه أو بإمكاناته أو بمسئداته ومنطلقه فليجأ الى التعالي، وإلا فما مبرر ذلك؟ لماذا لا يلجأ لحسم المعركة على أرض الواقع إذا كانت هناك معركة للسيطرة على حقول التعليل والتبرير؟ إن توظيف ما هو متعال يحقق أغراضه بسرعة في كثير من الأوساط التي يعمل فيها هذا العقل.

لقد ارتبط تاريخ اليهود الذي نقلته التوراة، ارتباطاً وثيقاً بالاصطفاء الالهي وبالتالي بالمتعالي عن الآخرين الذين أصبح وسيلة اليهودي للتمييز عن الآخر، واحتقاره وابتزازه في كثير من الأحيان، فقد تحولت الكثير من أحداث هذا التاريخ الى أساطير،

وأصبحت الشخصيات المتعالية فيه شخصيات اسطورية، ابتداءً من انطلاقهم في رحلة الهجرة الى أرض الميعاد، وحتى دخولهم الى مصر وخروجهم منها الى أرض ميعادهم ثانية، ويلحق بذلك عودتهم الثانية الى هذه البقعة المقدسة في العصر الحديث، ولو بجيش تقوده الرأسمالية الصهيونية بدل جيش يقوده يوشع.

كذلك تحولت الكثير من أحداث التاريخ المسيحي، من قيامة المسيح، وأعمال القديسين على امتداد التاريخ وصولاً الى حفلات الشفاء الجماعي التي تنظم من قبل المؤمنين المسيحيين، وما رافق وما يرافق ذلك من تحول الشخصيات من شخصيات جد طبيعية وواقعية الى شخصيات اسطورية متعالية.

وفي الإسلام، فقد بدأت اسطرة أحداثه على يد مؤرخيه الأوائل كما رأينا في اسطرة نبوة محمد، ولا تزال حتى يومنا هذا بما يرافق الحديث عن كل ما يخص الشخصيات الدينية والايمانية من التبجيل والادهاش. فالكثير من الروايات تريد إخراج النبي محمد من مستواه البشري لالصاقه بالمستوى الالهي منذ طفولته، وربما منذ كان نطفة في صلب والده، أو في أصلاب أجداده، فالنبي عند هؤلاء ولد مختوناً، بينما النبي يؤكد مستواه البشري وصفته الانسانية (إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة)، ثم إن الروايات تؤكد قيامه بالأعمال التي كان يقوم بها الناس، ويسلك سلوك الآخرين، إنما تميز عنهم بالنبوة والرسالة، والقرآن الذي جاء مؤكداً لنبوة محمد جاء مؤكداً لإنسانيته، فقد اعتبره مرشداً ونذيراً ولم يصف إليه سلوكاً إلهياً، ولا صفات فوق بشرية، إلا بما يتلاءم مع وضعه في ضرورة تبليغ الرسالة، وفي كل هذا حكمة كما يرى البعض، فعندما يتم تبليغ الناس الرسالة من إنسان مثلهم يحوز فضائل البشر لافضائل الآلهة يأخذ التبليغ معناه الجاذب ومصداقيته، إذ لو كان التبليغ إلهياً لما كان ينتمي الى عالم الناس، ولبقي الفاصل كبيراً بين الرسول والمرسل إليهم. ومع ذلك تأبى الأسطورة إلا أن يكون أطول من كل طويل مشى معه، وإنه لم يظهر له ظل على أرض، وأثر رجله لا يظهر على أرض رخوة، في حين يظهر على الأرض الصلبة، ولم تُر له قذارة، وكانت غيمة تظله أينما ذهب... الخ.

نجد ترجمة صريحة وواضحة لمفاهيم التعالي والأسطرة في أقوال ومفاهيم وقناعات شائعة في هذا الوسط الايماني من مثل قولهم (المؤمن لا يحرق ولا يغرق)، وفي التعبير

والتفسير للكثير من الأعمال الكبيرة التي تجري، فالملائكة هي التي اخترقت خط بارليف شرقي قناة السويس، وقد كان هؤلاء الملائكة كالعادة يلبسون الثياب البيض، ووجوههم بيضاء، فيما نقل عن شيخ الأزهر حينذاك، الشيخ عبد الحليم محمود^(٢). هذا التعليل لاقتحام التحصينات الاسرائيلية يهدف الى سلب الجندي المصري شرف النصر، بحرمانه من الفاعلية في تحرير الأرض، دون الالتفات الى تضحياته.

لماذا الاستغراب فتاريخ هذا العقل ناطق بهذا المستوى من التعليل، فالدكتور صادق جلال العظيم يروي نقلاً عن خطاب القاه الأنبا صموئيل بحضور مندوب الاتحاد الاشتراكي والبابا كيرلس السادس، كيف أن جبل المقطم الذي كان في يوم ما داخل مدينة القاهرة، قد انتقل الى خارجها لأن رجال الدين المسيحي من الأقباط في مصر اجتمعوا ودعوا الله أن ينقله، لأن حاكم القاهرة المسلم في العصور الوسطى طلب دليلاً على أن المسيحيين يعبدون الهاً حقاً يعترف به هذا الحاكم، وان دينهم صحيح وعليهم أن يبرهنوا على ذلك بنقل الجبل خارج القاهرة، كل ذلك بمكيدة الوزير اليهودي، ففعلوا بادعيتهم وتوسلاتهم كي لا يبعدوا عن بلادهم^(٣).

هكذا نرى أن العقل الايماني قد استغل منطقي التعالي والاصطفاء، معبراً عنهما بالخوارق والاسطرة في طريقة إفصاحه عن نفسه، وجاء إفصاحه هذا مع عصور التدشين ولا يزال ممتداً الى يومنا هذا.

٢ - العنف

إن أول ما يسجل لهذا العقل هو عدم قبول الآخر، نفية واستبعاد، وفي حال تم قبوله سياسياً أو اجتماعياً فإن نفية أيديولوجياً وعقيدياً باق، وإلا تم الوقوع بالتناقض، إذ كيف يتم قبول عقيدتين متناقضتين؟!.

هكذا نجد استمرار وجود مرتكزات النفي والاستبعاد مهما قيل، فالخلاف العقيدي ليس خلافاً ثانوياً، وهذا ما يتم ببسر وسهولة يدعوان الى الدهشة، فليس أسهل عند المؤمن من وصم مخالفه في الرأي بالكفر والزندقة، ولأسباب لا تتطلب حتى ما هو أدنى من ذلك، وأحكامهم هذه تتسم بالتأبيد وتبتعد عن المرحلة، وتكون معبراً ومبرراً لكل الشناعات والبشاعات التي ارتكبت وترتكب بحق الآخر المخالف بالرأي. والمؤمن

مضطر، لا بل من صلب عقيدته أن يتهم مخالفه بأنهم ليسوا على الطريق الصواب، ومنطقه، كل من ليس من طائفتي أو رأيي فهو ضال أو كافر، أي خارج عن الصراط الارثوذكسي، ولو آمن أي مؤمن من أية طائفة أن مؤمناً آخر من طائفة أخرى على حق لوجب أن يكون وإياه من طائفة واحدة، بالتالي يكون هذا كارثة على أرباب الطوائف ومؤدجليها، ومن هنا تبدو حراستهم شديدة للأسيجة الدوغمائية المغلقة لطوائفهم حسب المصطلح الأركوني^(٤)، وتكون بذلك مبررات العنف ودواعيه حاضرة وكلها ترتبط في رأيهم بمصلحة إلهية، وهم يخونون الالهة عندما ينسبون إليها المصالح، إذ لا مصلحة للسماء إلا أن يعيش أبناء الأرض بمودة وسلام وطمأنينة، ولهذا أرسل الله هذا العدد الكبير من الرسائل، التي جاء بها رسله وأنبياءه.

إذن كل دين، كل مذهب، كل مله، يحمل في أحشائه نقض الآخر ونفيه، والعنف هو القابلة المولده (وهنا نستعير تعبيراً لماركس). نفي الآخر لا يتم بالوسائل السلمية فقط، لأن أحداً من المتنازعين لا يتزحزح عن موقفه، بسبب ارتباط التمرس بالعقيدة، وما كان عقيدياً لا يصح التنازل عنه، ويجب أن يبذل في سبيله الغالي والرخيص. وإن ما يحكى عن حوار بين المؤمنين من أديان مختلفة، كان فيما مضى - مع أنه قليلاً ما حصل - وسيكون في المستقبل حوار طرشان إذا ارتبط هذا الحوار باخلاص المتحاورين لعقائدهم، والخطورة في العملية ستكون في التنازل عن المبادئ، فمن سيقدم على ذلك، ولمصلحة من؟ هذه الأسئلة والاحتمالات تبقى العنف أحد أشكال الحوار المحتملة في أية لحظة. فالاختلاف يولد الخلاف، والخلاف يولد العنف، هذا مثلاً ما ينذر به خلاف أبناء الموقف الحياتي الواحد، فالمؤمنون من مسيحيين ومسلمين في الناصرة بفلسطين، اختلفوا حول بناء مسجد بجانب كنيسة البشارة في الناصرة، وخلافهم هذا ينذر بشر مستطير تغذيه وتدفع إليه السلطات الاسرائيلية، وهؤلاء المؤمنون هم الذين بقوا حتى يومنا هذا وحدة متماسكة في وجه عدوهم الواحد، الصهيونية المغتصبة التي وجدت كيف تفرقهم، بإثارة العقل الإيماني ونوازعه المحركة.

في كثير من الأحيان تتم الخلافات بين الاتجاهات السياسية ويلجأ المختلفون لاستعارة الحلول من حقل العقائد الإيمانية الدينية، وإن كان العنف هنا مؤقتاً ويمكن المساومة لانتهائه، باعتبار أنه لا يرتبط بالمقدس، وإن كان هناك مقدس فمقدس السياسة

مقدور عليه، ويمكن تجاوزه بسهولة كما تقتضي المصلحة لأنه بالأصل جاء لخدمة المصلحة الآتية ذات المستوى الدنيوي الأرضي.

المصالح موجودة في الدين وفي السياسة إلا أنها في الدين أخفى مما هي في السياسة، ولقد تم المزج بينهما، لفائدة كل منهما للآخر (الملك بالدين يبقى والدين بالملك يقوى). والملاحظ تاريخياً أن النزعات التي آلت إلى العنف كان مبررها المصلحة، لكن الغطاء يختلف، فغطاء كل من الأمويين والعباسيين لاغتصاب السلطة هو غطاء إيماني، فكان ذلك - حسب المبررات المقدمة، يتم خدمة للدين وفي سبيل الله، وتصحيحاً للاعوجاج، أو إقامة للعدل الضائع، ولا يتم ذلك إلا بالاستيلاء على السلطة، إذ استعمل الدين غطاء لمصلحة سياسية، وهذا الغطاء هو الذي استخدمته الصهيونية في اغتصابها لفلسطين، كما أنه الغطاء الذي استخدم لتغطية وتبرير الحرب بين العراق وإيران ذات الهدف السياسي، إلا أنه تم استخدام إحياءات إيمانية، كتسمية الحرب بالقادسية لتغطية المشروع السياسي. وهكذا غيرها من الحروب قديماً وحديثاً، مروراً بالحروب الصليبية، إلى إبادة الهنود الحمر، وحتى الثورة البروتستانتية وما استتبعته من حروب بين المؤمنين، أبناء الدين الواحد.

نعود للتذكير بالشخصيات الفكرية التي كانت ضحية العنف الإيماني، والمصالح السياسية من أمثال: الجهم بن صفوان وغيلان الدمشقي وعمرو المقصوص والحلاج والسهروردي والنسيمي وغيرهم، وللغرب المسيحي أيضاً سلسلة ضحاياها التي تذكر بها محاكم التفتيش سيئة الذكر.

لقد برز العنف الشعبي، عنف العامة، الموجة إيمانياً، مثلاً صارخاً عبر التاريخ لأثر العقل الإيماني في محاولته للقبض على الحياة وتحريكها حسب مؤشرات. فالطبري صاحب التاريخ والتفسير الشهيرين ألف كتاباً ذكر فيه اختلاف الفقهاء، ولم يذكر ابن حنبل فقيل له في ذلك فقال: لم يكن فقيهاً بل كان محدثاً، فاشتد ذلك على الحنابلة، فشغبوا عليه وأهلكوه ومنعوا دفنه نهائياً، وادعوا عليه الرفض والاحاد. وعندما أبدى الامام القشيري شعار الأشعرية في بغداد ثارت عليه فتنة العامة سنة ٤٦٩ هـ فقتلوا واطهروا شناعة. وتوفي الصولي بالبصرة مستتراً لأنه روى حديثاً لا يؤيد أحقية علي بالخلافة فطلبته العامة لتقتله فلم تقدر^(٥). وهذه أمثلة من التاريخ على الهيجان

الايماي للعامة، ولا يزال هذا الهيجان يتكرر، يذكرونا بذلك الموقف من سلمان رشدي إثر نشر روايته (الآيات الشيطانية) وما فعلته بين المسلمين ونذكر بموقف العامة من عزيز نيسين الكاتب التركي اللامع الذي كاد يكون ضحية غضب جماهير بلده العلماني لأنه دافع عن سلمان رشدي وحقه في التعبير، إنها أمثلة على تجليات العقل الايماي اجتماعياً واتخاذها العنف أسلوباً. وفي أوروبا كانت الشناعات أكثر، سواء في شغب مسيحيين على مسيحيين، أو شغب المسيحيين على يهود.

فقد استمرت مذابح اليهود على يد المسيحيين في أوروبا منذ أواخر القرن الحادي عشر، وعلى امتداد تاريخ اليهود في أوروبا حتى العصر الحديث حيث توقفت^(٦).

وإذا كانت المذابح هي أحد أشكال العنف الموجه من اتجاه ايماني الى اتجاه آخر، أي من المسيحيين الى اليهود، فإن وجهاً آخر من وجوه العنف قد مورس ضدهم بلا رحمة وهو الطرد من الدول الأوروبية أو المدن التي كانوا يقطنونها، فقبل يوم من رحيل كولومبس لاكتشاف امريكا ٣ أغسطس ١٤٩٢ طرد من اسبانيا ٣٠٠.٠٠٠ يهودي، وخلال الأعوام ١٤٢٤ - ١٤٢٥م طرد اليهود من المدن التجارية الأكثر أهمية في المانيا، وواجه اليهود نفس المصير في ايطاليا في القرن السادس عشر^(٧). ومن المؤسف أن الجريمة ذاتها قد ارتكبتها ضحاياها بعد قرون، إذ طرد اليهود الصهاينة سكان فلسطين من أرضهم في منتصف القرن العشرين.

وفي العصر الحديث تبدو الصورة لاتزال قائمة، ففي الوقت الذي ظن الناس أن الوضعية تزيج الدين عن مسرح الأحداث لتأخذ مكانه ينجلي الموقف عن استفاقة عقل ظنه الناس أسلم مواقعه، ليتبين أنه كان قد غفا قليلاً ليستفيق وكأن الحضارة والتقدم وكل ما انتجه العقل الانساني لم يؤثر فيه إلا سلباً، فالعقل الايماي المستفيق بشهية مطلقة على القتل والتدمير في مناطق كثيرة من العالم كمصر والجزائر وأندونيسيا والباكستان والهند وأفغانستان وغيرها، يبرز نفسه أنه عقل خارج التاريخ والعصر، ليس معنى هذا أن عصرنا بعيد عن العنف لكن هذا العصر لبس ثوب المصالح، والعنف الذي نتحدث عنه لبس ثوب الدين وهو يسعى لتحقيق المصالح، وأصبح القتل باسم الله، أو باسم الطائفة، أو باسم الشيخ. إن الطريقة التي يعبر فيها الايمان عن نفسه تبرزه في الكثير من الأحيان عدواً للحوار وللعقل، ويرى أن تجليه عن طريق

العنف أحد مقومات وجوده واستمراريته. ولا أدري هل الايمان يسرق ثوب السياسة أو السياسة تسرق ثوب الايمان، الذي وجد من يعقلن له اتجاهه العنفي وينظر له باتهام المجتمعات الحديثة بالكفر والجاهلية واغتصاب حق الله، الذي هو الحاكمية، ولا أدري ماهو حق الله إن لم يكن حق عباد الله؟! ففي كتابات سيد قطب وقبله استاذ المودودي كما في كتابات وبيانات أمراء الفصائل اليمانية المسلحة، كل ما يستمد منه المؤمن قناعاته في القتل والتخريب والطائفية والنفي. وهكذا تتم في رأيهم عقلنة العنف وشرعنته، واقناع المؤمنين به، إنه العقل اليماني في إحدى تجلياته، وإيقاع هذا التجلي تم تدشينه مبكراً في التاريخ اليهودي والاسلامي، فكل عنف ديني إيماني في الاسلام هو سليل مقتل عثمان والفتنة الكبرى التي أوصلت بني أمية الى اغتصاب الحكم. وهنا لا يفوتنا أن نشير الى أن بعض المفكرين يرى أن العنف المتأسلم المعاصر، ينطلق عن تأصيل فكري، فالعنف متأصل فكرياً في عقائد المتأسلمين كما يرى ذلك د. رفعت السعيد، وأن كل ممارسة للعنف تعود الى عقيدة اعتقدها هؤلاء، في حين يرى د. فيصل دراج، أن عنف الأصوليين الاسلاميين هو رد على عنف السلطات^(٨).

ومما لا شك فيه أن أكثر أحداث العنف دلت على انتماء العقل اليماني وتجلياته الى المصلحة أكثر من انتمائه للدين، واغتصاب العقل اليماني اليهودي ممثلاً بالصهيونية العالمية لأرض فلسطين دليل واضح على ذلك.

وكما يتوجه العنف اليماني باتجاه الآخر فقد يتوجه باتجاه الذات، كما في استحضار عذابات المسيح والحسين من قبل انصارهما في مناسبات معينة. ومن العنف اللامبرر والشنيع الى حد بعيد، والمرتبط بهذا الموضوع، الانتحارات الجماعية التي تقوم بها نحل لها توجهات إيمانية شاذة، فقد ذكرت الانباء يوم ٢٠٠٠ / ٣ / ١٩ إن إحدى الطوائف اليمانية في أوغدة قد نفذت عملية انتحار جماعية، عن طريق اضرام المنتحرين النار بأنفسهم، حيث وجدوا كتلة واحدة متراصة لم يستطع رجال الأمن فصل الجثث عن بعضها كما لم يتمكنوا من التعرف عليها، وقد تحدثت الانباء عن ٢٠٠ / ضحية ثم عادت وتحدثت عن ٤٠٠ / ضحية في هذه المجزرة الذاتية.

٣ - الدروشة والتراحم

لقد ظهرت الرحمة كما الدروشة وغيرهما من مظاهر العفة واللين والسماحة أشكالاً من الاستجابة لأوامر ونواهي دين ما، حيث الدين ينفرج عن مجموعات من الأوامر والنواهي، واستجابات ناتجة عن تفسيرات هذه الأوامر والنواهي. والدروشة التي يمكن أن نرى بعض أشكالها في عصرنا، هي وريثة تيار الزهد والتصوف في بعض المناحي. ولقد كان الزهد امتثالاً لرغبات وأمنيات وأوامر ونواهي عبر عنها الرسل، فالسيد المسيح عبر عن عجز الأغنياء عن الوصول إلى ملكوت الله، ووجد النبي محمد في الفقر راتزاً من روائز الإيمان، ودعا إلى عدم الغرق في الملذات. والعبادات في الأديان السماوية من شأنها أن توصل الإنسان إلى سلوك هذه الطرق التي تبعد الإنسان عن الغرق في الحياة المادية ومتطلباتها.

إن هذا وغيره قد دفع إلى نوازع باتجاه الزهد، والتكشف بما يعنيه أيضاً من انعزال وابتعاد عن الملذات الدنيوية، بعضها أخذ صفة فردية، نحت نحو تقليد سلوك الأنبياء كالمسيح الذي كان لا يملك أي شيء، حتى أنه تخلى عن كوزه الذي كان يشرب منه عندما رأى من يستخدم يديه في غرف الماء للشرب، كما تخلى عن المشط الذي كان يمشط به لحيته عندما رأى من يمشط لحيته بأصابعه، وكانت هذه كل ممتلكاته كما يذكر (هادي العلوي) في كتابه «مدارات صوفية»، كما نحا بضعهم نحو تقليد بعض الشخصيات ذات السير المتألقة في أذهان العامة كأبي ذر الغفاري الشخصية الإسلامية الفذة.

بالإضافة إلى أولئك الأفراد الذين كانت دروشتهم وزهدهم تقليداً واستجابة لأوامر ونواهي معينة، ظهرت جماعات دينية تركز في سلوكها الجماعي قيم إيمانية لاتزال سارية، ولها مؤيدوها والمعجبون بها والمتبعون لها، يتجلى ذلك في بعض الجماعات الرهبانية في المسيحية، وبعض جماعات الدراويش والطرق الصوفية في الإسلام، وهذه الجماعات تصنع لنفسها أنظمة سلوكية عبادية وحياتية مستمدة من القيم الدينية ومن منطق الرد على فساد المجتمعات والأخلاق، ونوع من أنواع المواجهة لما تؤمن هذه الجماعات بأنه رديء وغير منسجم مع قيم الإيمان الأصلية.

إن الزهد بالملذات الدنيوية من مأكّل وملبس وملكيات، كان ولا يزال تعبيراً

سلوكياً إيمانياً عن واقع مدان، بقيمه وسلوكياته، ورد فعل يبرز النقيض، ويحتوي على قيم تعليمية كأنها تشير الى طريق النجاة الذي يجب أن يتبعه المجتمع، لكن هذا الشكل من أشكال الرد قد يبلغ من السلبية مبلغاً يصبح ضرره الاجتماعي أكثر من فائدته كمثال وموجه.

وقد خرج هذه الاتجاه التدروشي التصوفي - على مابين المعنيين من اختلاف - مجموعة كبيرة من القادة الروحيين والزمنيين بمعنى من المعاني، فاق تأثيرهم عبر التاريخ تأثير الساسة ورجال الدين، والمفكر المرحوم (هادي العلوي) يتوقف عند نماذج منهم في كتابه السابق الذكر، ويسميه الأبدال أو أوتاد الأرض. وهم لا ينتمون جميعاً الى قطاع الفكر الديني.

تظهر بعض تجليات العقل الايماني عند قطاع من بسطاء المؤمنين، الذين يتلخص الدين والايان عندهم بالمردود النهائي والغائي له، ومن هؤلاء الكثير ممن اقتنعوا بأن التعويض آتٍ، حيث أخذوا المعاني القرآنية بشكلها المباشر، وهم ينتظرون حصتهم من الحوريات اللواتي سيشكلن جزءاً من مكافأة المؤمن على ايمانه، مما يبرز سذاجة هذا التفكير الايماني الذي يربط الأجر بقيم مادية ذات مردود لذائذي فقط، هذه اللذائذ الحسية تبدو في الصور الخيالية لتلك الحوريات اللواتي يصورن بتمام الجاهزية للاستجابة لرغبات المؤمنين متى أرادوا، دون أن يكون لديهن عيوب النساء العاديات وقذارتهن، فالحوريات في الصورة الايمانية ذوات أجسام طاهرة، شفافة، بلورية.

إن الراسخ في قناعاتي عن الالوهة انها جماع القيم الإيجابية في الكون، طبعاً ليس بالمعنى البراغماتي (النفعي)، بل إن الإيجابية هنا تتحدد بالفاعلية، ومن هنا كان سؤالي الملح دائماً على نفسي، والمعذب أحياناً، لماذا انحرف الايمان بالقيم الايجابية عن أهدافه، وعن تجسيده للقيم الالهية (دينية كانت أو دنيوية) انحرافات لاحصر لأشكالها عبر التاريخ؟! ولماذا أصبح هذا الايمان حالة تعبر عنها سيادة القيم السلبية في مجتمعاتنا فيسود العنف والشر والفقر والخنوع والتواكل و... الخ.

يبدو أن هذه القناعة تقود سلوك الكثير من البشر، وتحذوهم لتجاوز أشكال الفهم الرديئة للايمان، مع تحولاتها باتجاه الجشع والشر وجعل الايمان المزيف غطاء لما تحته من رزائل. والسلوك والترجمة العملية للقناعة ذات المعنى الايجابي للايمان، تبدوان في

محاولات جادة للتخفيف من عذابات البشرية المعذبة حتى لو لم تكن ترقى الى مستوى الإنقاذ، لكنها تبدو رداً صارخاً في وجه كل من عمل على حرف الايمان عن أهدافه الانسانية.

لقد اخترع العقل الايماني وكرس مفاهيم ورؤى وعمل على تطويرها فكرياً واجتماعياً، لتساهم في التخفيف عن المؤمنين من معاناة حياتهم وصعوباتها، ولكي تبقى الأمل والرجاء يعملان على دفع الانسان للاستمرار بهذه الحياة برضى، وهذه الأفكار والمفاهيم على بساطتها أحياناً تنحو منحى التخفيف من عذابات الانسان وإشاعة الأمل، من هذه المفاهيم المتولدة عند الطوائف المسيحية مفهوم «بابا نويل»، الشخصية التي تحولت الى رمز يعتبر محطة من محطات تخفيف المعاناة وترسيخ قيم الصبر على الشدائد، وإشاعة الأمل، بما تحمله هذه الفكرة أو الشخصية المتأسطرة من أمل ورجاء ومحبة، خاصة للصغار في عيد الميلاد. ومثل فكرة «بابا نويل» أيضاً فكرة القديس «فالتاين» بما تحمله هذه الفكرة وهذه الشخصية المتأسطرة من قيم المحبة وإشاعة الأمل في الحياة لدى قطاع الشباب تحديداً، واللافت انتشار هذه الفكرة بشكل كبير في أيامنا حتى في المجتمعات غير المسيحية، وهذا يحمل دليلاً على استعداد الناس للتعاطي مع كل مايزيح الهموم عن كاهلهم بتكريس رموز وأفكار بديلة لتلك التي تسبب المعاناة والقلق.

إن فكرة الرحمة وعقل الرحمة يتجليان إيمانياً في العلاقات التي نشأت في ظروف تاريخية حادة بين طوائف مختلفة من أديان مختلفة، فالقس سرجيوس يخطب على منبر الأزهر أبان ثورة ١٩١٩ في مصر، مبتدأ خطبته بـ «بسم الله الرحمن الرحيم»، وفي هذا مافيه من معاني التلاحم الوطني ونبذ الخلافات حتى العقيدية منها، عندما تتعرض القيم الرفيعة للإنسان الى الخطر، وهذا يشيع جو التراحم والتوادد^(٩).

ومثل الواقعة الماضية مايروية «سمير عبده»^(١٠) من أنه في عام ١٩٣٧م حين جاء أحد أعضاء لجنة المراقبة الدولية الى انطاكية للتحقيق بمزاعم الاتراك سلخ لواء اسكندرون، أغلقت تركيا المساجد، لتوحي للجنة بأنها علمانية وكان اليوم يوم جمعة، فما كان من النصارى العرب الارثوذكس إلا أن فتحو كنائسهم للمسلمين، حيث أدوا فيها صلاة الجمعة في مهرجان وطني رائع، ووقف الخطباء في هيكل المسيح يتلون

القرآن، وصعد المؤذن الى قبة الناقوس ليرفع الأذان، هذه الحادثة تذكر بما فعله النبي محمد عندما سمح لوفد نصارى نجران أن يؤدوا شعائر صلاتهم في مسجده، وهم من المسيحيين. وهنا تبرز سماحة الدين وأنه في الأصل دعوة لأن ينتمي الناس الى التسامح والرحمة لا الى التعصب والكراهية.

ومن مظاهر التراحم الايماني الذي من شأنه أن يصنع المودة بين المؤمنين على اختلاف أديانهم، الاشتراك في الاحتفالات التي تقام في الكثير من المناسبات، مما يعمم التأخي والمحبة والوحدة، في المناطق المختلطة دينياً، ولاشك في انتماء هذه القيم الى الرحمة. يعزز هذا التوجه اقتناع أرباب المذاهب بالحوار الفكري بدل الحوار المسلح، حتى لو كانت جدواه ضئيلة والباب أمامه مسدود بسبب حاجز العقائد.

إن دعم المشاريع الخيرية والانسانية وإن كان تعبيراً ضعيفاً عن الايمان، ولا يرقى الى مستوى الخلاص، إلا أنها إحدى التجليات التي تركز الرد العملي على جانب من جوانب الشرور سواء التي تصنعها الطبيعة أو التي يصنعها الانسان. إن هذا التجلي يمثل جانب الرحمة الذي تفتقده الحياة الايمانية في كثير من مظاهرها، ولا يفوتنا هنا أن نذكر بما في بعض هذه الأعمال الخيرية من أثر الدعاية والادعاء، ومحاولة الظهور بمظهر الرحمة في الوقت الذي تمثل حياة أصحابها الاندفاع الأهوج باتجاه ما هو شر.

ولا يفوتنا أن نلفت الانتباه هنا الى ما تعانيه (بيوت الله) من تخمة في التجهيزات من مفروشات وأجهزة وتحف، والى الانفاق السخي بكل أشكاله عليها، وسواء كانت هذه البيوت لله أو لغیره (والحقيقة إنها للبشر) فهي تستقطب التبرعات والتقدمات لتبدو ثرية مترفة في شكلها ومحتوياتها سواء كانت هذه المحتويات - الجمالي منها وغير الجمالي - تقدم دعماً حقيقياً للايمان الذي اتفقنا أنه قيم جوائيه تعيش داخل أصحابها، أولاً. إن استجابة الناس للتبرع لبناء وتجهيز المساجد بما تحتاجه لأداء المهمة المرجوة، وبما لا تحتاجه، تعكس قناعات المتبرعين وعلاقاتهم وأوضاعهم الاجتماعية، فسواء كان المتبرعون موقنين بأهمية وجدوى تبرعاتهم أو غير موقنين، فالملاحظ السخاء في التقدّمات، بعضهم إيماناً واحتساباً ولاشك، وبعضهم انسجاماً مع وضعه الاجتماعي والاقتصادي، ووفاء لاعتبارات وحسابات دنيوية، وإسكاتاً للألسنة. وإذا كانت التقدّمات للمساجد والكنائس سخية، فإن ما هو أسخى منها، تلك

التقدمات للأضرحة والمقامات، فمقامات الأولياء، وأضرحة الشخصيات ذات الصفة الإيمانية المعتبرة، تتخيم بكل ثمين، حتى ليذهل الإنسان ويتساءل ما الحاجة إلى كل هذه المعادن الثمينة في هذه الأضرحة، وما الذي تؤديه هذه الطنافس والتحف الفنية لقيم الإنسان الإيمانية، وأية أثقال يشعر بها مقدموا هذه الأشياء الثمينة جداً والتي يحاولون إزاحتها عن كواهلهم بهذه التقدمات، والسؤال الأكثر أهمية: ما الدور الذي تؤديه هذه النفقات في تنقية إيمان المتبرع؟ وما الذي تصنعه في نفس الزائر غير الإبهار؟ وما مساهمتها في تخليص الإنسان من مآسيه التي جاءت الأديان لانهاؤها؟ وبالتالي مادورها في صنع إيمان نقي خالٍ من الكدر؟ وهلا كان هذا السخاء في التقدمات لانقاذ البشرية من الجوع والمرض والجهل وإبعاد شبح الموت؟!

فيما يبدو أن الثمن الذي دفعه الإنسان ولا يزال يدفعه تكفيراً لخطيئته الأولى التي آمن أنه ارتكبها، لا يزال مقصراً عن الوفاء بالمطلوب، وما لم يبشر أنه وفى بالمطلوب، إذن عليه أن يستمر بالدفع ثمناً للخلاص.

٤ - الموقف من الفنون

كان الفن عبر التاريخ تعبيراً عما في داخل الإنسان من جمال، ومحاولة لعدم احتكار هذا الجمال، حيث باخراجه يصبح ملكية عامة. وبما أن الخلق جمال فإن الفن هو استعادة لقدرة الخلق على مستوى آخر، يحاكي الخلق الأول (الالهي) ويهتدي به، ولكن لا يمكن أن يضاده أو يناقضه، إنه تجلٍ من تجليات كمال الخلق الأول بالمحاكاة.

من جهة أخرى كان الفن عبر التاريخ تلك الفسحة التي تخلص إليها الروح البشرية من ضيق الحياة التي تحصر الإنسان وتعصره جسماً وروحاً، كان مستراحاً من القهر والحرمان، ووعداً بالخلاص. لكن عقولاً أسيرة لهذا القهر والعذاب الأبدي، خلقت جهنمها على مقاسها، وأرادت تعميم هذا الجحيم، وتلخيص الكون بأنه عذاب بعذاب، من هنا كانت محاولتها تأبيد هذا العذاب، بنفي كل ما هو جميل، ناسية أن الجمال نفي للقبح، كما أن الخير نفي للشر، والحق نفي للباطل، والله نفي للشيطان، إذن إن الجمال والخير والحق تلتقي مع الله، في الوقت الذي يتنافى ويتنافر معها القبح والشر والباطل والشيطان. الجمال ومنه جمال الفن تجلٍ إلهي، في حين أن القبح تجلٍ شيطاني.

العجب كل العجب أن نجد عقلاً مسكوناً بالقبح في مواجهة الجمال، في الوقت الذي نجده يدعي الدفاع عن هذا الجمال. الجمال في الكون بكل مظاهره وتجلياته متصل بالالوهة، والواقف ضد الجمال وتعبيراته هو من حيث يدري أو لا يدري ضد الالوهة. الفن كما نوهت حالة اعتناق، حاول الانسان أن يعبر من خلالها عن برمه وضيقه وتمرده بكل وعلى كل ما يحول بينه وبين الحرية، والله حق وعدل وحرية. وفي التاريخ تعبيرات جمالية كثيرة عبر بها الانسان عن وجوده، تجلت فيما تركه لنا الانسان القديم من آثار رائعة. إلا أن مراحل معينة اقتضت لظرف أو آخر التعامل مع بعض الفنون تعاملًا مغايرًا لمصلحة ما، جعلت المتمسكين بتلك اللحظة يسعون لتأبيدها، فيما أن أهل شبه الجزيرة العربية كانوا يعبدون قوى مختلفة يرمزون لها بأصنام وأشكال وتماثيل، كانت خشية النبي أن تبقى الرسوم والتماثيل تذكرهم بمعبوداتهم السابقة إن هو أبقي ما كان موجوداً منها أو سمح بانتاجها مجدداً، وكان الاسلام لا يزال غصاً طرياً، ومدعاة للخوف عليه، أما الآن، فما الذي يخاف على الاسلام، وهو ملء كيان الانسان والمجتمع؟. إن تاريخية الكثير من الأحكام والأوامر في الاسلام ليست موضع شك، فلم صنعنا من هذه الأوامر أصناماً جديدة بدل التي حطمت غير مأسوف عليها، إن الأصنام الجديدة هي تحجر العقول وجمودها، إنها تلك القيم الرديئة والضارة التي لم نستطع تجاوزها.

لماذا خرجت هذه العقول، وأخرجت ناسها من فضاء الحرية والجمال الى متاهات العبودية والانغلاق والقبح؟. إن عشرات التنظيمات وتحت اسماء مختلفة: وهابية، جهادية، أصولية، أخوانية... الخ، تسابقت في إبراز قدرتها على الهيمنة، وفرضت نفسها في شوارع الفن وفضاءاته متوسلة كل ما بين أيديها من فكر انغلاقى، وأسلحة قتل لمحاربة الجمال المتجلي في الفنون وتهديد العاملين في مجالها، وما لجوء العديد من الفنانين في مصر وغيرها الى الاعتزال أو ارتداء الحجاب في فترة معينة، إلا تعبيراً عن الخوف، واستجابة للابتزاز والتهديد، والدليل أن الكثير منهم عاد الى مزاوله الفن بعد أن ارتفع عنهن التهديد والوعيد، مما يدل على أن محاولة خنق روح الإبداع عن طريق توبة مزيفة غير ذات جدوى، وأن نزوع النفس للتعبير عن الجمال الذي تحسه متأصل في أعماق النفس البشرية.

إن الهجوم على دور السينما لمنع عرض بعض الأفلام، ومنع عرض بعض المسرحيات، في بعض البلدان الإسلامية كمصر، وإلغاء الاحتفالات الفنية، واستعداد الجهات الدينية كالأزهر، في مواجهة كتاب أو لوحة أو أغنية أو مسرحية، هو تعبير فاضح عن ضيق الأفق، والخوف الذي لا مبرر له، كما أنه تعبير عن الوصاية على المجتمع، تلك الوصاية المرفوضة وغير المستندة على أية شرعية دينية أو دنيوية.

إن في إعلان الجماعات الإسلامية في مصر أن الموسيقى صوت الشيطان، وأن المسرح رجس، وأن الغناء مثير للشهوانية، وأن الفنون التشكيلية وثنية والأدب غواية، هو إلغاء لوجه الحياة السمع والجميل، بالتالي إلغاء لوجهها الجليل (الالهي) لأن الجمال من شروط الجلال.

لقد امتد هذا الوعي الزائف بعقله الايماني الى البيوت، حيث أثر على الكثير من الأهل الذين لا يتمتعون بثقافة تعصمهم من تأثيرات هذه العقول المتحجرة، فكثيراً ما يجد الأولاد من يزجرهم إذا انطلق أحدهم يندندن باغنية ما، أو يعزف على آلة موسيقية، مما جعل هذه الفنون الجميلة تتأخر في مجتمعاتنا، وبالتالي لا تسهم في بناء شخصية الأجيال، حيث تبدو حاجة لا بد منها، وحيث التربية الصحيحة عليها تكسب الشخصية مناعة من مساويء هذه الفنون وانحرافاتهما.

إن اقتناع الناس أن الكثير من الفنون تنتمي الى الشيطان وتأثيراته، تحت ضغط العقل الايماني، وبالتالي حرمان أولادهم من ممارسة هذه الفنون والاستمتاع بها، قد أصاب مجتمعاتنا بعرج خفي، وإعاقة دائمة، لا يقدر أصحاب هذا العقل المغلق على التبصر بها، ومعرفة ضررها. تبدو لي هذه الاعاقة مثلاً في الاتهام الأخير الذي وجه الى الفنان «مارسيل خليفة» الذي غنى قصيدة فيها بعض كلمات من آية تتحدث عن النبي يوسف، كان قد نظمها الشاعر «محمود درويش»، والاعاقة تكمن في عدم قدرة هذا العقل على التمييز بين فن هابط يعمل عن قصد أو عن غير قصد على تخريب قيم الانسان وتربية المنحرف من الأخلاق، وبين فن رفيع من شأنه السمو بالانسان واحترام قيمه ومقدساته، والدفاع عن هذه القيم والمقدسات ضد كل ما هو سلبي ورجعي وهابط، وإداء مارسيل خليفة ينتمي الى هذه الحالة الكفاحية ضد كل ما هو شر وقذارة وانحطاط، الحالة التي ترتفع بالفن الى المستويات التي جاءت القيم السماوية للدفاع

عنها وتمجيدها وتربيتها، إنها عالم الجمال في مواجهة عالم القبح. لا أريد أن أفوت الفرصة، للإشارة الى أن الموقف من الفن يختلف من بيئة الى أخرى، ومن دين الى آخر، ومن ثقافة الى ثقافة. هذا جلي إذا وضعنا التراث الاسلامي والثقافة الاسلامية في المواجهة والمقارنة مع الثقافة المسيحية، فقد شجعت الكنيسة الفنون بجميع أنماطها وأنواعها، فالانشاد والغناء والموسيقى تم توظيفها في، الطقوس والشعائر الكنسية عن المسيحيين، والفرق الموسيقية، وكبار العازفين، والمغنون، وجدوا لهم دوراً في طقوس الصلاة، ولاقى فنهم الترحيب في هذا المجال، وبدت الكنائس عامرة بالفنانين الذين يسخرون فنهم في تمجيد الخالق، وتربية المخلوق، كما لاقت الفنون التشكيلية كل احترام وتقدير، وأبدع الفنانون التشكيليون أروع إبداعاتهم في عمارة الكنائس، واضفاء الجمال على كل أجزائها، وخير مثال على ذلك ما أبدعه أحد رموز عصر النهضة الفنان (مايكل أنجلو) الفنان الشهير، وكثير غيره، في الرسم والنحت الذي تم توظيفه في مجال العمارة الدينية أولاً، إن تنافس الفنانين في إبراز مقدرتهم الفنية وتفوقهم من خلال تقديم الموضوعات ذات الدلالة الدينية، برهان على مانقول. وهنا يبرز دور الدين في مجال أعطى البشرية إرثاً فنياً رائعاً، لم يتردد في إبراز الشخصيات ذات القدسية كالسيد المسيح والسيدة مريم بأشكال جمالية متعددة ورائعة. وهنا أيضاً تبدو الفوارق كما يبدو التناقض بين دين وآخر. أو بين حقل إيماني تترعرع فيه الأجيال مشحونة بقيم الإبداع والجمال، وحقل إيماني آخر يجد أضر الضرورات عليه قطع الطريق على هذه الفنون، ويعاقب الفنانين، مبدعي الجمال، تقريباً الى الله.

٥ - التناقض

التناقض نقيصة، ما لم يكن بين أمرين يحتملان التناقض أو أن يكون هذا التناقض يولد جديداً، لأن التناقض دليل الاضطراب وعدم الثبات، وهذا عندما يقع في الفكر يدفع الى عدم الثقة، الى الحيرة والتردد، لقد كان النص الديني عبر تاريخه يحتمل الخلاف «إنه حمال أوجه» كما عبر عنه الامام علي، وهذا كان جلياً في التاريخ الاسلامي، أما أن يحتمل التناقض، فهذا لا يصح، لأنه لا يصح أن يكون نص ما إسلاماً

ولا اسلاماً، حقاً ولا حقاً، إن النقص في أحد معانيه يعني الهدم والازالة والنفي، وليس من مصلحة نص أو فكر أو عقل ما أن يبني (يثبت) شيئاً ليعود فيهدمه (ينفيه)، ولا يصح أن يكون النقيضان على الدرجة ذاتها من الحقيقة والصواب، فلا يكون شيء نقضاً لشيء، إلا إذا حمل الأول بذور نفيه، أي كان في الجهة السلبية الباطلة، ليأتي نقيضه ويعبر عن الجهة الايجابية الحق. إنها تجاوز له.

أن يتناقض الفكر الديني مع غيره، فهذا ممكن، وجيد، يدفع لأن يبقى الأجدر بالبقاء، أما أن يتناقض مع نفسه فما الذي يتولد من المعركة؟

إن وقوع العقل الايماني في حقل التناقض، كفعل وموقف، أو فقد مصداقيته، والمؤمنون لا يتوقفون كثيراً لتحليل ما يمليه عليهم إيمانهم أو من يوجهون هذا الايمان، فهم يقومون بالفعل وغيره، أو بالفعل ونقيضه، وكلا الفعلين عندهم مبرر ويخدم مصالحهم وإيمانهم. وأبرز ما يبدو التناقض بين النص وطرق إخراجه.

لقد سجل لنا التاريخ أحداثاً مبكرة تعطي الانطباع بتناقض هذا العقل الايماني؛ تذكر الأحداث أن الكثير من المحاربين مع علي في صفين، كانوا إذا حان وقت تناول الطعام يذهبون الى صفوف جيش معاوية لتناول الطعام مع جنوده، بينما هم يقاتلون مع علي ويصلون وراءه، وإذا سئلوا قالوا: الطعام عند معاوية أطيب والصلاة وراء علي أطهر؛ فكيف يكون طعام معاوية حلالاً وطيباً، طالما أنه في الموقف الباطل مما استوجب قتاله. وفي الحرب ذاتها تذكر الأخبار إصرار طائفة القراء (المثقفين) على التحكيم بالرغم من تحذير علي من اللعبة الخدعة باعتبارها حق أريد به باطل، وهددوه بالانقلاب عليه إذا لم يحكم، وعندما قبل وجاءت النتيجة كما لا يرغبون خرجوا على علي وحاربوه لأنه قبل التحكيم.

لقد توالد هذا العقل الايماني المتناقض وشاع، وقدم بركاته لكل من طلبها، حتى لو كان لطالبيين متناقضين، فما من حكومة في التاريخ، إلا ووجدت من يستنطق لها النصوص والمواقف لإيجاد المبررات الكافية لشرعنة وجودها، سواء جاءت مغتصبة أو شرعية، اشتراكية أو رأسمالية، مستبدة أو ليبرالية، قومية أو قطرية، ديمقراطية أو مطلقة، علمانية أو دينية. فالعروض جاهزة للتخلص من العتب، وللتعبير عن الشراكة. والعقل الايماني اليهودي الصهيوني، متشدد جداً في فرض قيوده الصارمة على

المجتمع الاسرائيلي و متمسك بالشكليات، وبما يسميه الحق التوراتي، لكنه لا يتردد في التنازل وقبول ما يحقق له مصلحة مباشرة، فمستوطنات سيناء كانت تمثل جزءاً من الحق التوراتي الموروث، والتخلي عنها يعني وقوع في الخطيئة وغضب الرب، لكن عندما وجد الصهاينة أنهم يحققون مصالحهم باتفاقات كامب ديفيد، تخلوا عن الحق التوراتي. وهم يسيرون على هذا المنوال، فالدين عندهم موظف تماماً بتحقيق الاطماع والمكاسب المادية، وعلى امتداد المصالح.

لقد جاء التعبير عن التناقض في العقل الايماني اليهودي، قبل ذلك بكثير واستمر، فقد اعترف حاخام متعصب عام ١٨٤٨ أن تسعة من كل عشرة من الشباب اليهود في عصره كان يخجل من عقيدته، وقد تحول جميع أبناء الفيلسوف والمصلح اليهودي مندلسون عدا واحد عن دينهم^(١١). كما جرى تقليد المسيحيين في كل ما يفعلوه وانشاد تراتيلهم الدينية من قبل تلاميذ المدارس اليهود، وترك الحرية بالختان، وإشعال الشموع في الأعياد المسيحية، وترك طقوس الحمام والنظافة والاعتساف ومراسيم المآتم والأحزان^(١٢). كل هذا تناقض مع النص أو مع الموروث المتراكم تاريخياً. وبابا الكنيسة الكاثوليكية اسقط عن اليهود مسؤولية قتل المسيح، وأعفاهم من دمه، بعد عشرين قرناً من تحميلهم هذه المسؤولية، والكنيسة الكاثوليكية، تصدر براءة لغاليلو من تهمة الهرطقة بعد قرون من إلصاقها به لأنه قال إن الأرض تدور.

ولقد كان الكهنة الانجيليون والبنديكوت والاصوليون يكادسون امبراطوريات مالية بفضل مواعظهم وبرامجهم التلفزيونية^(١٣). وهكذا يظهر التناقض بين عقيدة رجل الايمان وممارسته. ومن باب التناقض الذي وصل حد التشكيك بالعقيدة، قول المشككين إن إخفاق الحروب الصليبية، يدحض ادعاء البابا أنه نائب عن الله أو ممثله في الأرض^(١٤). ومن باب التناقض مع المعتقدات التي لا تحب التملك، امتلاك الكنيسة في وقت من الأوقات ربع أراضي فرنسا^(١٥). كما كانت هذه الكنيسة أعظم قوة مالية في العالم المسيحي ورعاياها يموتون جوعاً^(١٦).

لقد لقي الحنابلة أيام المأمون والمعتصم من العنت والشدة الشيء الكثير، ولا تزال مواقف ابن حنبل مثار للدهشة والاعجاب عند المؤمنين، لصلافة موقفه في وجه المعتزلة القائلين بخلق القرآن، ولا يزال مثالاً للوقوف في وجه التعسف والظلم، وفرض الرأي

بالقوة، ولكن ابن حنبل وجماعته بعده استبدوا استبداداً بشعاً عندما قويت شوكتهم وأصبح رأيهم هو المسموع والسائد، ولم يتوانوا عن ملاحقة خصومهم والتنكيل بهم، وقد قتل في هذه الفتن خلق كثير.

وكان ابن تيمية من أشهر فقهاء الحنابلة، وهو منارة المتشددین في عصرنا، باعتباره صاحب أشهر الفتاوى في التعصب وإثارة البغضاء، وقد لقي مع تلميذه ابن القيم الجوزية معاملة جائرة من فقهاء عصره، وقد حبس في القاهرة والاسكندرية ودمشق ولم يخرجوه من حبسه إلا إلى القبر^(١٧).

وفي حرب الخليج الأخيرة التي لم يلفها النسيان بعد لشدة حضورها، كانت خارطة التحرك الايماني على امتداد الشارع الاسلامي، من المضحك المبكي، وليس جديداً أن يتلون الايمان بألوان السياسة، ولكن أن يصل الى هذا المستوى من التناقض في الوقت الواحد، والانتماء الواحد، وفي ظل القدرات الاعلامية التي تتناقل أبسط الأحداث وأدقها، وفي ظل قدرة المواصلات الحديثة، فقد كان مؤيدو العراق ومعارضوه من دين واحد ومذهب واحد، وباسم الدين والمذهب خرجت التظاهرات تحيي العراق، وباسمه خرجت تظاهرات أخرى تعارض العراق، دعك من فتاوى رجال الافتاء.

وهذا شيخ الأزهر يفتي بتكفير من يتصل بإسرائيل، وشيخ الأزهر الذي يليه بفتي بصوابية اتفاقات كامب ديفيد وعدم تناقضها مع صحيح الدين، وكل بسنده ومبرراته. ومن هذا الباب ما ذكرته إحدى الصحف^(١٨)، تحت عنوان «افغانستان تحتل المرتبة الأولى في العالم في زراعة وتصنيع وتهريب الهيرويين الى الغرب» يذكر الخبر بسيطرة حركة الطالبان (وهي حركة ايمانية جداً) على أكثر من ٩٠٪ من أراضي افغانستان، وهي ترعى انتاج وتصنيع وتصدير أو تهريب المخدرات، فقد انتجت في عام ١٩٩٩ / حوالي ٤٦٠٠ / طن من مادة الخشخاش التي يستخرج منها الهيرويين، وأن حكومة كابول الطالبانية المؤمنة مسؤولة عن ٩٥٪ من كل كميات الهيرويين التي توزع في بريطانيا وحدها وعن ٨٥٪ من الكميات التي توزع في دول الاتحاد الأوربي، والتقارير الذي أصدرته هيئة الأمم المتحدة، والذي تضمن المعلومات السابقة يشير الى أن حكومة الطالبان تتقاضى من المنتجين والمصنعين والمهربين لهذه السموم حصة، تمول بها حربها وعملياتها الايمانية، والحصة على شكل ضرائب تصل الى أكثر من ٢٠٪ تجبى من

العصابات. علماً أن مهربي المخدرات يقدمون القروض للمزارعين بضمان محصول الحشخاش تحت رعاية الدولة المؤمنة.

لا يخفى ما في الخبر السابق من إشارة الى تناقض إيمان هؤلاء الذين يزعمون الايمان، متشددين بتطبيق مبادئه على طريقتهم، ويظهرون أنهم المتمسكون بمبادئ الاسلام ونهجه، والتناقض واضح بين مبادئ الدين، وهذه الأعمال التي تتنافى مع أي مبدأ كريم، ويستحضر هذا الخبر في الذهن قول الشاعر: «لك الويل لاتزني ولا تصدقي». وينطبق هذا على أولئك المسؤولين الذين ينهبون مقدرات بلدانهم وقوت شعوبهم، ثم يندفعون للتبرع لأعمال البر والإحسان وبناء المساجد وغير ذلك مما يسمى «أعمال الخير».

٦ - المحافظة على الموروث

لقد بلغ الموروث من التراكم واشتد تأثيره الى الحد الذي يؤهله ليشكل بثقله وتنوعه وانتمائه عامل إعاقة وشد الى الوراء، عامل ضغط على الحاضر والمستقبل، إذ ليس من السهل لهذا الحاضر ولا للمستقبل أن يتخلص من موروث يعتبر أي مساس به، أو خروج عليه، أو تجاوز له، من أبواب الكفر، لانتمائه الى المقدس، وهو بكتلته التاريخية التراكمية حاضر فينا.

هذا الموروث لم يبق واحداً، لقد تحول ضمن كل دين من الأديان الى موروثات مفارقة لبعضها نتيجة الانقسامات الطائفية والمذهبية، وحاجة كل طائفة الى سند تبرر به وجودها، مما يجعلها مضطرة الى انتاج النصوص، الشفهية والكتابية التي تساهم في الحث على الثبات العقيدي، وتصويب الاتجاه، حيث تدعي كل طائفة، ضمن كل دين إنها مالكة الحقيقة المطلقة وغيرها لا. وبقاء الحضور الطائفي على هذا المستوى من التوقد، يبقى الموروث حاضراً يفعل فعله، وبما أن الموروث المذكور يفتقد الوحدة، فهو لن يساعد إلا في زيادة فقدانها، وفي رعاية الانقسام في أرض الواقع، فنحن نسير باتجاه اللا وحده على كل مستوى، لأن التعدد هنا إلغاء ومصادرة للتنوع، إن التنوع إغناء، لكن في حالة الموروث الطائفي والمذهبي، فإن موروث كل طائفة ومذهب، مغلق مغتن بنفسه، لا يقبل الآخر، وهو محتكر للحقيقة وقار مصمت، فكيف يساعد إلا

على التفرقة وإلغاء التوحد.

يبرز الفعل العجيب للموروث عندما يبرز أثره لدى شخصيات حملت عبر تاريخها لواء الفكر والعقل النقيض للعقل الايماني، وكأن حالة انفصامية تستبد بالجميع، حتى يشعر الفرد أن لافكاك له من التناقض مع تاريخه والعودة الى الموروث ولو في آخر العمر، وإلا كيف نفهم عودة الكثير من المفكرين في حقول الفكر العقلاني والعلمي والعلماني الى حقل الموروث وممارسة شعائره.

لاتزال ثقافتنا هي ثقافة الموروث، وبما أنها ثقافة الموروث إذاً هي ثقافة المذاهب، أردنا ذلك أو لم نرد لأن الموروث في معظمه موروث مذهبي، وإن سياستنا هي سياسة الموروث وبالتالي هي سياسة المذاهب القارة بفعالها وقناعاتها في أعماقنا، وبالتالي فإنها جميعاً لاتساعد على الخروج من حالتها. ولاتزال المذهبية الطائفية وفتنها تطل برأسها كلما سمحت الظروف وساعدتها على الحضور، وقد يكون غافلاً من يعتقد أن تغطية الخلافات بالشعارات، أو بالأشكال السياسية والأمنية، هي ماسيساعد على إلغاء العقل الايماني الطائفي، لصالح العقل الوطني أو القومي أو الانساني الواحد، إن معالجة ذلك يكون على مستوى الفكر والثقافة، إن تطوير ثقافة نقيضة للثقافة الطائفية الايمانية هي وحدها الكفيلة بالحلول محل الثقافة الطائفية القارة، ونقضها، وبالتالي إلغاء آثارها التخريبية، إن الثقافة الجديدة تحتاج الى التنوع والتعدد وعدم الاقصاء، لكنها في وحدتها وفي تنوعها ليست بحاجة الى الاطلاقية والواحدية، بالتالي أن تكون قادرة على إلغاء التناحر.

إن بعض القضايا التي يفرزها العصر وتحتاج الى حل ينهض بالمصلحة الاجتماعية، يظهر كم أن العقل الايماني المستند الى ميراثه الطائفي حاصر، ولقد برز ذلك عندما تم طرح الزواج المدني في لبنان، الذي من شأنه أن يلبي حاجة اجتماعية توحيدية، ويزيل عقبة ولو صغيرة، ففي الوقت الذي تدعو فيه كل الطوائف الى الوحدة المجتمعية، وتجاوز الخلافات، وارساء السلم الأهلي، فإن تمترسها بمواقعها الطائفية، وموروثها الايماني العقيدي، يمنعها، أو يمنع زعمائها المستفيدين من هذا الواقع، أن ينحازوا الى المصلحة الاجتماعية، حفاظاً على الموروث واحتماء به، فلقد أطل العقل الايماني الطائفي برأسه جلياً في مواجهة طرح الزواج المدني كمشروع للنقاش، الى الحد

الذي دعا فيه بعض الزعماء الطائفيين الى الاستشهاد لمنع انتهاك الموروث.
وقد يبلغ ضغط الموروث الطائفي الذي لا يحقق المصلحة الاجتماعية، حداً يدفع الى التمرد على القيادات الدينية المتمترسة بموروثها حفاظاً على إيمانها، فلقد ذكر أن هناك دعوة وعملاً حثيثاً وجدياً بين المسيحيين الأقباط في مصر لإنشاء كنيسة للمطلقين، لأن كنيستهم تتعامل معهم بالاقصاء والرفض، مما يدفع الى توالد طوائف جديدة، لمصالح يمكن أن تحققها فئات اجتماعية، حال بينها وبين هذه المصالح الموروث الجامد، وهذا الذي يتوهمه رعاة الموروث، أنه يحافظ على كيان الملة لن يؤدي إلا الى تمزيقها وتشزيمها، أو تخلفها وابتعادها عن العصر.

وإذا خطر بالبال معرفة مدى سيطرة الموروث على حياة اليهود، فإننا نصل الى ذروة الحضور لهذا الموروث في حياة الجماعة، فقد كان وراء انشاء الكيان الاسرائيلي الصهيوني بشكل أو بآخر، أو بالأصح فإن استغلال قوى البرجوازية اليهودية، المتلاحمة مع البرجوازية الغربية، لسيطرة الموروث كان أحد أبرز العوامل في إيجاد هذا الكيان، وقد تمثل حضور الموروث باسم «الصهيونية».

إن ظهور الصهيونية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أعاد الفكر اليهودي التعصبي والمنغلق، فقد اعتبر الصهاينة أن حركة التنوير اليهودية «الهسكالا» وتيار الاندماج والتحرر بين اليهود خطراً عليهم، ولذلك أعادوا الدور الى اليهودية بصورتها المنغلقة والقديمة، ومثلها مثل الحركات السلفية الاسلامية والمسيحية، تعتبر أنه ليس تحت الشمس من جديد، كل شيء مقرر مسبقاً، ووارد في الكتب المقدسة، وفي أقوال وأفعال السلف الصالح، وكل ما عداه انحراف وخطيئة.

ليس الموروث كله بمستوى واحد من حيث ضرورة الحفاظ عليه، كما أنه ليس بمستوى واحد من حيث ضرورة الخروج منه وتجاوزه، إلا أن العقل الايماني القار الذي تعود أن يقف ضد الجديد حفاظاً على القديم أوجد حالة تمكن للقديم في قناعات الناس وعقولهم، لما هم عليه من بساطة، وإلا ما الذي يدفع العامة من المؤمنين الى رشق الحجارة على رجال الشرطة الذين أرادوا دخول الأزهر للتأكد من تطبيق اجراءات النظافة التي اقتضاها تفشي مرض الطاعون عام ١٨٩٦م^(١٩). كل جديد يستحق العداء، هكذا تجلى العقل الايماني فيما مضى، لأن الجديد محكوم بمنطق البدعة.

والحقيقة أن حركة تنقي الموروث فتهمل مايربى قيم السحر والخرافة والتعصب واللاعقلانية، وتبعث مافيه من قيم الجمال والحق والتقدم والعقلانية، يجب أن تكون إحدى الضرورات لإعادة الاعتبار الحقيقي لهذا الموروث.

٧ - التخلف ومواجهة العقلانية

باستيضاحنا للنصوص نجد العقل الديني يحاول أن يبرز صورة تقديمية إيجابية للانسان، فقد خلقه الله على صورته، وكرمه وفضله عل كل مخلوقاته، وأورثه الكون، فأصبح خليفة الله على الأرض، وسخر له كل الموجودات في الطبيعة، وأرسل عدداً كبيراً من الأنبياء لتوجيهه وإرشاده والحفاظ عليه من الضلال والضياع، وسلّحه بأعز مخلوقاته عليه وهو العقل. كل هذا جميل، ويقع في اللحظة الايجابية للانسان، نستنبطه من النصوص (الوحي) وهي اسمى النصوص الدينية التي نقرأ العقل الديني فيها، فلماذا يحاول العقل الايماني، أن يطعن العقل الديني بتقديم الصورة النقيضة لهذه الصورة، فيحيل الانسان الى مخلوق عاجز عن فهم مايجري حوله إلا بتدخل حراس المقدس، وعن طريقهم، ويتم وضع الانسان في اللحظة السلبية، باخراجه من شروط العقل الذي قيده الله إليه، ليشل قدراته، فيصبح الفكر كفراً، واستخدام العقل مجلبة للانتقام، وتصبح محاولة الانسان، لارتداد الكون الذي سخره الله له، والتعرف على أجرامه وأسراره كفراً، واعتداء على القدرة الالهية ولو رأى الله في هذا اعتداء على ملكوته، لما أعطى الانسان القدرة على منافسته على هذا الملكوت، بالتالي اعتبر العقل الايماني الجرأة على ارتياد المجهول كفراً تجب معاقبة من يقارفه. ببساطة يظهر الانسان في تصوير العقل الايماني له قزماً وعاجزاً عن ادارة أبسط شؤونه، سلبياً، مقلداً، مشلول الارادة، ملاحقاً بجرائم لم يرتكبها، منذ خطيئة آدم الأولى الى اليوم، وهكذا. وأعتقد أن هذه المواصفات ليست مواصفات خليفة الله على عمارة هذا الكون!!.

تم السيادة للعقل الايماني عندما يقف الدين (أو يجعلونه يقف) من العلم والثقافة موقف العداء، فيحدث التباعد، فإذا ابتعد الدين عن العلم، ووقف منه موقف العداء، سادت اللاعقلانية، والغيبية، والطقوسية والسحر كنوع من التبرير في غياب

إمكانية التبرير العقلي الحقيقي.

لا يعني ذلك توقف حركة الثقافة، فهذا غير ممكن، لكنها تصبح ثقافة عرجاء راكدة وجامدة، بالتالي آسنة وفاقدة لروح التقدم، تعيد ذات المواضيع والمقولات، وتنشغل بقضايا بعيدة عن العصر والانسان، وبالتالي بعيدة عن الله، كتلك التي انشغلت بها الفلسفة المدرسية في القرون الوسطى، من مثل: كم ملاكاً يمكن أن يقف على رأس دبوس؟ وماذا يحدث لو أن فأراً أكل العشاء الرباني؟ وهل يستطيع الله خلق جبلين ليس بينهما واد؟. إنها تثير السخرية كتلك السفسطات التي سخر منها «أريستوفانز» في مسرحية «الضفادع»، والتي تشغل نفسها بمعرفة كم ضعفاً تبلغ المسافة التي يقطعها البرغوث في القفزة الواحدة بالنسبة لأحدى قوائمها؟ ومن أين ينبعث الطنين في جسم البعوضة؟.

حين يبتعد الدين عن الثقافة ولقاء الآخر تسود الواحدية، والاستبداد، وتصبح الأديان ديماغوجيات إيمانية، وايدولوجيات مسورة، فيفقد الدين مضمونه التقدمي الذي حمله عند نشأته، وعبر عنه وقت ظهوره وتسبده، وتفقد الحياة إحدى المقومات التي ساعدت الانسان عبر تاريخه على العبور الى الضفة الأخرى الأكثر ايجابية. إن العلم والثقافة ضمانا لعقلانية العقل، وعند انحسارهما، فالذي يملأ الفراغ هو الايمان الشكلائي والطقوسي، بما ينوء به من ثقل الماضي وتراكمات الأيام التي صنعتها مصالح الناس وعاداتهم وظروف حياتهم في جدل هذه الحياة مع الواقع.

إن الدعوة لإلغاء الموروث دعوة لاعقلانية، وغير متيسرة، ولما كان الأمر كذلك، فلقد كانت دعوتنا باستمرار لمحاولة إحياء ماهو عقلاني من التراث، وإهمال ماهو غيبي وتبجيلي واقصائي ولاعقلاني، ففي التراث قيم رفيعة تحتاج الى جهود كبيرة، لنبشها واحيائها ونفخ الروح فيها، نقيضاً لقيم الشعوذة والسحر والتفرقة والتخلف التي تجدد في كل لحظة من يستنهضها ويستحضرها، وهذا يظهر حتى على المستوى الأكاديمي، فكليات الشريعة، تعلن العداء على امتداد جامعاتنا لجهود المعتزلة، ولعلم الكلام الذي وجد له مكاناً في أقسام الفلسفة، وتاريخ الفكر، باعتباره تراثاً عقلانياً، والحاجة ماسة لدفع التراث العقلاني الى الواجهة الثقافية اليومية لعموم الناس لا لجماعات معزولة في زوايا الجامعات والمعاهد، لعلها تساعد في تحسين المناخ الفكري

العقيدى، فلا نجد أمثال (ضياء الحق) حاكم باكستان السابق يلغى الانتخابات المقررة في بلاده لأنه رأى في المنام أن الديمقراطية كفر وتناقض مع الدين. ولعلنا نؤمن أن الخلاص في الاسلام خلاص فردي فيساعدنا هذا على التخلص من سيطرة المشعوذين والرجعيين من ممثلي العقل الايماني، مديري الجماعات والجماعية، والمتحدثين باسمها، والمسيطرين على عقول أبنائها.

إن تبرئة الدين من كونه يشكل عامل إعاقة للتقدم في مجتمع ما، من بين عوامل أخرى، تستند الى أن الدين ذاته لم يشكل مثل هذه الإعاقة لتقدم مجتمعات أخرى تقدمت نسبياً مع انتمائها الى هذا الدين، وضعت نهضتها أو سارت في طريق النهضة الفعلية، دون أن يضار لا المجتمع، ولا الدين، وفي هذه الحالة فإن نفي التهمة عن الدين بقيمه الأساسية التي بشر بها لا تعني نفي التهمة عن العقل الايماني الذي وظفت سيطرته الدين كما تشاء، وحصرته ضمن حدود أسيجتها العقائدية الضيقة، هذه العقول التي توظف من الأديان ما ينسجم مع طبيعتها ومصالحها وتهمل الباقي عبر عملية انتقائية، وعلى العموم فإن الدين لا يحتاج الى من يدافع عنه، ولن يقدر أحد الدفاع عنه، إنما يدافع هو عن نفسه، بأن ينهج مديروه نهج الدفاع عن الانسان وقيمه الأساسية، ووضعها في الاستثمار اليومي.

إن أسلوب مواجهة الأحداث التي تسوقها الحياة يبرز مدى الالتزام بالعقلانية أو بغيرها، وليس بكثرة الكلام والاعلان عن ذلك وكثرة الدراسات والاشارات، فزعيم الجبهة الاسلامية في السودان، حسن الترابي، دعا الشعب السوداني لتكريس أسبوع كامل للدعاء على الامريكان تحت شعار أسبوع الدعاء المستجاب، بعد ضرب الولايات المتحدة الأمريكية لأهداف في السودان^(٢٠). إن مثل هذا العقل يتغافل ويبقي الناس في غفلة، إنها عقول في أعلى مستويات السلطة، والذي يثير الأسى هو خضوع الناس لمثل هذه العقول التي تعالج الأمور بهذه الطريقة. في زمن النبي كان يقول «أعقلها وتوكل» فيجعل العمل مقدمة لاستجابة الدعاء، أما هنا فيتم إلغاء العمل باعتبار أن المشكلة يحلها الدعاء الذي يهزم العدوان ويواجهه. يذكرنا هذا بحادثة نقل جبل المقطم من وسط القاهرة، والتي مرت سابقاً، كما يذكرنا بطلب الرئيس السوداني تقريراً عن مساهمة الجن المؤمن في عملية التنمية في السودان. ولا أدري إن كنت بحاجة الى

الإشارة إلى مستوى اللاعقلانية والإصرار على التخلف الكامن وراء هذه الأخبار.

إن الإيمان بالحسد في الأوساط المؤمنة وحمل الخرزة الزرقاء، أو وضع الكف في وسطها عين زرقاء، أو تعليق الحذاء على السيارة أو المنزل، وأساليب أخرى لابتعاد شر الحسد عن الإنسان، لاتزال متبعة، ليس آخرها فرقة رصاص ذائب من الحرارة في ماء بارد، لتفرقع عين الحسود الشريرة وتنشظى كما تشظت الرصاصة. وهذه الأساليب تشير إلى مستوى التخلف القار في بعض مجتمعاتنا ولا بأس أن نذكر حادثة تم الإطلاع عليها، تضمنت معالجة أحد المشعوذين الدجالين من أصحاب هذا العقل الإيماني لمريض بمرض عادي، إلا أن وهم أهله البسطاء صور لهم المرض بحاجة إلى قوى الغيب كي يشفى، فمن جزئيات العلاج بعد الإجراءات الاحترازية والايهامية الكثيرة، وبعد الأدعية وسلب جيوب أهل المريض، وفي جو يعبق بالبخور والظلام، يكتب المعالج عدة قوائم، كان عليهم أن يرموا الأولى في ماء نهر جارٍ من أعلى جسر، على أن يرميها الرامي وهو يدير ظهره للماء، وتفسد العملية ويفشل الدواء إذا خولفت التعليمات وتم النظر إلى التيممة وهي تسقط في ماء النهر، والثانية يجب أن تطعم لكلب أسود ليس في شعره شعرة غير سوداء، والثالثة تذاب في الماء الذي يشربه المريض، والرابعة توضع في فراشه، والخامسة يحملها في ثيابه، وهكذا لأن عدد التوائم سبع قوائم.

وهكذا يسمع صوت أمثال هذا الدجال، في حين يخفى ويغيب صوت رجل الدين المتنور والعقلاني الذي يحارب هذا النهج، مهما كانت درجة الاحترام والثقة التي يحوزها، ويلجأ الناس (المؤمنون) إلى الدجالين ويتجاوزون من يقول: (٢١)

أبا الأحراز تحفظني رويداً	فإن الله خير منك حفظاً
طلاسماً عرفت لهن معنى	فكيف وما قرأت لهن لفظاً

إن عجز العقل الإيماني وقصوره ومأساته، تكمن في خوفه من الآخر وعدم قدرته على مواجهة النور بعد أن نشأ وترعرع في الظلام. وهكذا يقضي هذا العقل بتحريم دخول المخالفين دينياً (أي الكفار) إلى الأماكن الدينية والمقدسة، ناسين أن النبي سمح لمسيحيي نجران بأداء صلواتهم في مسجده كما مر بنا، كما تم تحريم دراسة لاهوت الأديان الأخرى على المسلم خوف التأثير بها، مما يفسد الإيمان.

إن أسلوب التعاطي السلبي مع الاتجاه الذي يريد إخضاع الحياة بأبعادها المتعددة، بما فيها البعد الديني إلى العقل ومفاعليه استجابة لنداءات القرآن المتكررة في معظم سورته، وسم التاريخ الفكري العربي والإسلامي، منذ المعتزلة، مروراً بابن رشد وصولاً إلى أمثال نصر حامد أبو زيد، وكان أسلوب الأذية والرشق بالتهم والنفي والابعاد، بل والسم كما حصل لابن باجه، هو المسيطر، وذلك لصالح الاتجاه النقيض، الممتد من فقهاء السلطان زمن معاوية ومن جاء بعده مروراً بالغزالي وابن تيمية... وصولاً إلى الغزالي الحديث والشعراوي وسيد قطب والمودودي وسعيد حوا وآلاف غيرهم، ينتشرون على مساحة عالمنا المعاش.

واللاعقلانية ليست سمة اتجاه إيماني واحد دون غيره، كما أنها ليست محصورة في زمان أو مكان محددين، فظهور حركة التقوى أول الأمر في ألمانيا أواخر القرن السابع عشر، كرد فعل ضد المذهب العقلي المتطرف الذي كانت تعتنقه فرق المتألهين، التي أنكرت الوحي، بل أيضاً ضد المذهب العقلي المعتدل، الذي كانت تدعو إليه اللوثرية، ومجمل دعوات أنصار «التقوى» هؤلاء تتركز حول «ديانة القلب» وتأكيد عجز العقل، والتركيز على الإيمان باعتباره الطريق الوحيد للمعرفة الصحيحة^(٢٢).

ولقد لفت مدى التخلف واللاعقلانية عند موجهي العقل الإيماني وأنصاره، نظر المؤرخين في كثير من العصور، إلا أن عصور التخلف والانحطاط تكون أكثر خصوصية لنمو هذا العقل، واستبدال قيمه الإيجابية بالقيم السلبية. يروي ول ديورانت، أن قساً في العصور الوسطى، كلف بإحدى النساء وعندما عجز عن استمالتها، احتفظ بجسم المسيح الطاهر في فمه بعد القربان، لعله إذا قبلها والجسم في فمه تستجيب له بقوة القربان، وعندما أراد الخروج خيل إليه أن جسمه قد تضخم حتى لا يستطيع الخروج من الكنيسة، فدفن الخبز المقدس في ركن من أركانها، وذكر ذلك بعدئذٍ لقس آخر فأخرج الخبز فوجداه قد استحال إلى صورة رجل مصلوب يقطر منه الدم^(٢٣). ومن هذه المرويات أن إحدى النساء احتفظت بالخبز المقدس في فمها وهي في طريقها من الكنيسة إلى بيتها، ثم وضعت في قفير نحل للبركة، فبنى النحل له بالشهد معبداً صغيراً بديع الصنع. ولقد ملأ البابا جريجوري الأول مؤلفاته بقصص كالسابقتين، كما يخبر ديورانت^(٢٤).

وفي زمن اللاعقلانية والتخلف تجد الحلول السحرية لمشاكل الحياة طريقها الى واجهة الحياة، وأبرز مشاكل الحياة عند الانسان مايعانيه من أمراض، وهذه الأمراض غالباً ما يتم التعامل معها عن طريق ما يسمى «الشفاء العجائبي» أو «الشفاء عن طريق الايمان» ويتم تناقل حكاياته بشكل واسع، فما أن يضع المبشر الانجيلي يده على رأس المريض الذي يعاني من الآلام حتى يتم شفاؤه فيصرخ، وهذا دليل على خروج الشيطان والشفاء، كل ذلك يتم على شاشة التلفزيون أمام المشاهدين^(٢٥). ومن هذه الحكايات تطبيب الناس في الأحلام من قبل القوى الخارقة، وعن طريق الزيت المقدس الذي ينضج من أيدي فتاة مؤمنة، أو عن طريق حبس التوابع أو كتابة الأحراز والتمايم، ويضيع صوت المتنورين من المؤمنين مهما حازوا من مكانة علمية وإيمانية على قلوبهم. يقول الشاعر الشيخ سليمان الأحمد، الذي تم النقل عنه سابقاً في مجال محاربته للتخلف واللاعقلانية:

كلما انحطت المدارك تربو	بين أربابها فنون العرافة
إنما الجن والتوابع والتنجيم	في مذهبي حديث خرافة
غلب الجهل بافترائها على	العلم شيوعاً والجهل للعلم آفة

٨ - الموقف من المرأة

بالموقف من المرأة نصل الى أبرز تجليات العقل الايماني، لأن ذلك يشكل حالة صارخة، يصعب سترها أو الالتفاف عليها، إذ يبدو وضع المرأة في ظل هذا العقل المثقوب وضعاً مكتمل التراجيدية، ولم تستطع كل الاشارات أو التصحيحات الجزئية التي وردت في بعض النصوص الدينية الأساسية، أو تعليمات وتوجيهات الرسل أن تكون بديلاً لوضع موروث تراكم الأيام عليه ما هو سلبي وتبعد عنه ما هو إيجابي. لقد كان الوضع الذي ورثته الأديان السماوية عن المراحل التي سبقتها، يقدم المرأة بصورتها الجسدية (الكُتْلِيَّة والمساحية)، يقدمها كمادة، كأداة للانجاب والمتعة. ولما بدأت هذه الأديان تتوالى بمنظوماتها القيمية والاجتماعية والقانونية، كان التغيير في هذه الصورة جزئياً، فقد بقيت المرأة موضوعاً لسيطرة الرجل، والصورة النهائية التي يقدمها آخر الأديان السماوية وهو الإسلام، تبرز المرأة، حرثاً للرجل، والرجال قوامون

على النساء، والمرأة موضع للعيب والعار، وبالتالي اخفاؤها ضرورة دينية لما يمثلها مظهرها (مجرد مظهرها) من خطر على المجتمع (الرجال) في حين تبدو امكاناتها العقلية والاقتصادية باهتة وشبه مغيبة في إطار هذه الصورة. صحيح أن الأديان السماوية وأبرزها الاسلام في هذا المجال، حاولت أن تصحح بعض الأوضاع في مجال المرأة فأشركتها في الميراث وحملتها مسؤوليات ما، لكن كان الموروث أقوى وبقي مسيطراً حتى في النصوص، وأثبت التاريخ أن هذا الموروث السلبي هو الذي قد امتد عبر الأيام في تعامل الرجال المسيطرين مع النساء.

في أصل الموقف من المرأة إيمانياً، تكمن تلك الحكاية الاسطورية التي تقدم تبريراً لهذا الموقف، وهي حكاية الخطيئة الأولى، خروج آدم وحواء من الجنة. يعمل د. نصر حامد أبو زيد على تحليلها تحليلاً عقلانياً جميلاً^(٢٦). ما يهمننا من الحكاية وتحليلها، اعفاء آدم من المسؤولية فهو يبدو في الحكاية عاجزاً مستسلماً للغواية، تتلاعب به حواء المقرونة بالحية كيفما تشاء، وتدفعه ليفعل ما تشاء (الى المعصية) وهو مشلول الارادة والتفكير حتى يتم طرد الجميع من الجنة، وتقع تلك اللعنة الأبدية على المرأة في أن تدمى كل شهر لما اقترفته بحق آدم، وبقيت صورتها مقترنة بالحية وسميتها المميته، في حين أن آدم المشلول الارادة والتفكير لا يقع عليه لوم. وبقيت صورة المرأة إيمانياً عبر تاريخ الأديان السماوية، صورة إبليسية مقترنة بالغواية والخطيئة، واللوم والعقاب والتأبيد في اللعنة واقع عليها، في حين لا يلام الرجل على عدم تعلمه من اسلافه منذ آدم حتى الآن، ولا على قلة عقله، حيث يبدو وحسب الحكاية لعبة بيدها، ولا يعتبر شريكاً على الأقل فيما يجري، مما يوجب التصرف على هذا الأساس، وتقع العقوبات على الطرف الذي حملة المؤمنون المسؤولية الكاملة، ولا يزال الرجال يشتقون من هذا التراث (تراث اللعنة) كل ما يخطر ببالهم، من أساليب لإحكام السيطرة على هذا المخلوق الذي بهرهم جماله وسعوا إليه بلوعة.

حكاية آدم وحواء توراتية، برزت مفاعيلها في تاريخ بني اسرائيل وعلاقتهم بالمرأة، وعندما انحرف سليمان عن خط أبيه داود تم تحميل المسؤولية الى الكنعانيات والصيدونيات فمن ارتبط سليمان بهن، بالزواج أو التسري (أي بالنساء) فهن اللواتي أملن عقله وحرفنه عن الصواب، وهو لم يحمل أية مسؤولية، وهنا إخراج جديد لقصة آدم وحواء.

ومع أن السيد المسيح أظهر عطفه على المرأة وحتى وهي متلبسة بالخطيئة في قولته الشهيرة «من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر»، فإن أخلاقه ووارثي تعليماته لم يلتزموا بموقفه، وإذا تنازلنا عن كل مراحل تاريخ المسيحية في هذا المجال، فإن مرحلة العصور الوسطى، مرحلة «محاكم التفتيش» تقف لنا بالمرصاد، وتدفعنا الى عدم التنازل عنها في قدرتها على إعطاء صورة حقيقية للعقل في تحوله الى عقل إيماني في أجلى صورته، لأن الهيئات الاكليروسية المؤمنة هي التي كانت توجه وتقود الحملة المسعورة لمحاكم التفتيش، فهي تفتش في عقول الناس عن الأفكار الهرطوقية، كما يتم التفتيش عن المهربات. أوردت ذلك كل الكتب التي تحدثت عن تاريخ تلك المرحلة، بل إن هذا التاريخ، ارتبط بهذه الصورة المأساوية ومن أبرز هذه الكتب «قصة الحضارة» لـ «ول ديورانت». كما أن هذه المصادر أكدت على الحصة المميزة التي نالتها المرأة من تعسف هذه المحاكم. وقد أوردت الدكتورة نوال السعداوي في كتابها «الانثى هي الأصل» وفي أماكن متفرقة نماذج من هذا التعسف، نقلاً عن مصادرها الغربية، فقد كان يتم البحث عن الشيطان، لا في عقل المرأة بل في جسدها بواسطة إبرٍ طويلة، تجعل معظم دمها ينزف، وفي النهاية يصل البحث عن الشيطان الى المنطقة المحرمة في جسدها، عندما يكون مجمل دمها قد نزف تقريباً، وهنا لا يخرج الدم على إثر الابرة فيكون ذلك دليلاً عندهم على وجود الشيطان، فتحرق بطريقة توحى بالشار من هذا الجنس، لما فيها تفنن وترويع، ومن هذه الأساليب في البحث عن الشيطان لدى المرأة، أن تلقى في مياه الآبار أو البحيرات، فإذا هي طفت على سطح الماء يكون الشيطان هو الذي جعلها تطفو، وعندها تُخرج وتقتل، وإذا هي غاصت تكون خالية من الشيطان، لكن قد لا يتم انقاذها إلا بعد أن تكون قد ماتت غرقاً^(٢٧). ولاننس حكاية المرأة والسحر وملاحقة الساحرات وقتل النساء بدعوى تعاوي السحر، كل ذلك من مفاعيل العقل الايماني ذي المفاعيل المروعة.

وينقل ديورانت الكثير من الحكايات التي تدل على التعسف في التعامل مع المرأة، والنظرة السلبية إليها، ومن هذه الحكايات، الحكاية الطريفة التالية: «يروى قيصريوس الهيستريياخي قصة عن رئيس دير وراهب شاب خرجا راكبين معاً. ووقعت عينا الشاب على النساء للمرة الأولى فسأل رئيس الدير: «من هؤلاء» فأجابه:

«هؤلاء الشياطين» فرد عليه الراهب بقوله: «لقد كنت أظنهم أجمل من رأيت في حياتي كلها»^(٢٨).

وقد دفع موقف رجال الكنيسة من المرأة ول ديورانت الى القول: «كانت الفضيلة تبدو لبعض الرهبان كأنها صراع نفساني بين المرأة والمسيح»^(٢٩).

وفي الاسلام وبالرغم من محاولة تعديل الصورة السلبية لوضع المرأة كما مر سابقاً، فإن السلبية بقيت طاغية عليها، وبدل أن يتم التماشي مع تعاليم الاسلام والاستمرار بتعديل الصورة باتجاه ما هو ايجابي انسجماً مع الخطوة التي بدأها الاسلام في بدايته حتى يتم انقاذ المرأة واعطاؤها دورها الاجتماعي والحياتي كما يليق بها، بدأ العقل الايماني يحرف التوجه القائم باتجاه السيطرة والامتلاك، الى أن أورثنا هذا الموضع الذي لانزال ضمن مفاعيله، ولا يزال عالمنا يبذل جهوداً وأموالاً لا يعلم مداها إلا الله، لتصحيح هذه الصورة، دون كبير جدوى، فلا يزال حراس الايمان، المتمترسون بالموروق في صورته التي يزدونها سلبية يوماً بعد يوم، هم الفاعلون الأساسيون في هذا المجال، وما أظنني بحاجة الى كبير جهد لإبراز الصورة التي عليها المرأة في معظم البيئات الاسلامية الايمانية، الآن، فالمشهد واضح فاضح، يفتقر الأعين، ويقرع الأذهان، ولو بد أنا نعدد، لخرجنا بصورة لا تشبهها إلا صورة المرأة في أوربا «محاكم التفتيش»، ومن هذا البحر المتلاطم من الحكايات والتقارير والصور التي تبرز دونية المرأة في ظل العقل الايماني، وسلبية النظرة إليها، وما يلحقها من ظلم وتعسف منذ ولادتها وتربيتها وتعليمها الى زواجها وطلاقها وسجنها في بيت أهلها أو زوجها والحجر على عقلها وجسدها وعواطفها وطاقاتها، وهنا نشير الى تقرير لمنظمة العفو الدولية صدر مؤخراً^(٣٠)، يوصف بأنه تقرير مرعب عن المرأة الباكستانية على مشارف الألفية الثالثة، ويشير التقرير الى أن الأهل والدولة والقضاء تشجع على قتل الفتيات والنساء باسم الشرف، ولا تقوم السلطات المختصة بأي دور لمنع التصفية الجسدية للمرأة المتهمة، حتى لو لم يكن هناك دليل، وحتى لو ثبت أن الاتهام باطل. ويشير التقرير الى أن الرجال «يملكون» الإناث «كسلعة تباع وتشترى أو يمكن مبادلتها»، ولا ملجأ للمرأة حتى في أقسام الشرطة، لأن الشرطة متواطئون بفعل تأثير العقل الايماني على المجتمع، وهم يسهلون عمليات التصفية الجسدية مقابل مبلغ زهيد من المال أو دون

مقابل، فالقتل باسم الشرف مبرر، واختيار الزوج من قبل الفتاة جريمة عقابها الموت، وجرائم الطلاق مورعه قد تكون نهايتها الموت لأدنى تهمة توجه الى المرأة المطلقة، وجرائم الشرف ملفقة، وأماكن الاختباء من القتل مغلقة، أو غير متوفرة، والشرطة متحيزون والقضاء متحيز، والدولة ساكتة، والاعلان العالمي لحقوق الانسان، وحقوق المرأة في الاسلام، تنتظر التطبيق. والقابح خلف كل هذه الهمروجة المستمرة هو العقل الايماني. لقد وزعت منظمة العفو الدولية هذا التقرير بعد أقل من أسبوع على الانقلاب العسكري الذي أطاح بشريف وجاء بمشرف.

نكتفي للتدليل على وضع المرأة في الكثير من المجتمعات الاسلامية بهذا التقرير لأنه طازج ومعبر وصادر عن هيئة دولية انسانية، ليس من السهل اتهامها، لانتفاء المصلحة في الكذب، ثم إنه في الكثير من جزئياته معروف في مناطق مختلفة من عالم الاسلام الايماني، ومثل هذا الوضع لا يوجد في باكستان فقط، بل في كثير من الدول والمجتمعات، مما تصل إليه منظمة العفو الدولية ومما لاتصل، مما تم توصيف وضع المرأة فيه ومما لم يتم، ولو أردنا الاسترسال بتوصيف وضع المرأة في عالمنا الاسلامي لاحتاج ذلك الى كتاب ضخم لابل الى كتب.

٩ - الاهتمام بالمظاهر والشكليات

الايمان يحيل الى معنى غير ظاهري، الى فعل يجري في العمق، الى قناعه، والقناعة التي هي شرط الايمان، هي فعل قلبي وجداني أيضاً، يتمكن الايمان من الأعماق قبل أن يبرز على السطح، فعل فيه الكثير من التسليم والكثير من الانقياد، لكنه انقياد روحي، انقياد لما هو داخلي، وليس انقياداً لمؤسسات وهيئات وتخطيطات اكليروسية لاتخلو منها ديانة أو مذهب، سواء أعلن ذلك أو أنكره.

لذا فإن مايشوه الايمان الحقيقي، هو الخروج به عن هذه الحالة الوجدانية العميقة واختصاره لابل حبسه في اطار الشكليات. ومن هنا جاء الرد القرآني على من ادعوا الايمان ولم تتحقق عندهم شروط اليقين العمقي (أي بقوا في إطار الشكليات والمظاهر) بأن أمرهم الله أن يقولوا «أسلمنا» لأن الايمان لم يدخل الى قلوبهم.

وبهذا المعنى فإن كل خروج بالايمان عن إطار الفعل القلبي فهو نقض للايمان وعدم

التزام بشروطه كما حددها القرآن، ومن قبل كان السيد المسيح يجهد لاجراء تلك المعاني الدفينة، وتلك الطاقات العميقة الكامنة، لانتاج مؤمن مفعم بالقيم الجميلة التي تنزعه مما هو شر وقبيح وباطل لتدخله فيما هو خير وحق وجمال.

وبهذا المعنى وانطلاقاً منه نفهم مدى التشويه الذي أصاب الايمان، ليحيله الى مظاهر وشكليات، طقوسية خالية من بعدها الوجداني، وموجهة باتجاه التسطيع والايهام بالقيام بالواجبات، كي لايبقى الشعور بالتقصير مسيطراً، ولقد مر بنا سابقاً كيف أن محمد عبده شكى تحول الصلاة الى حركات لايفقه لها الناس معنى، إنما هي أشبه بحركات القروود. وقد دخل الاعلام الى ساحتها في العصر الحديث، ليبرز الجوانب الابهارية التي تم تزييفها في الطقوس اليمانية، وتاريخية هذه العملية تشير الى أنها كانت ولا تزال تلجأ الى التعويض عما تفتقده من العمق الوجداني ببعض المظاهر والشكليات، إيهاماً بعدم التفريط، وتقديم الأدلة الشكلية للتغطية، لقد كان كبار الطغاة في العالم الاسلامي وعلى امتداد تاريخه، أولئك الذين انتهكوا كل حرمانات المسلمين، ومارسوا الظلم والقهر، وتعسفوا في علاقتهم برعاياهم، حريصين على ارسال كسوة الكعبة سنوياً في موسم الحج في إطار من الاحتفالية التي ترافق المواكب الذاهبة الى الحج بأمرتهم أو بأمر من يكلفونه باسمهم، كما كانوا حريصين على المظاهر اللاتقة في المناسبات كالأعياد الدينية وغيرها، مما يجعل مواطنيهم يلهجون بالثناء على إيمانهم الذي لا تشويه شائبة، وعلى رأس هؤلاء فقهاء السلطة. ولقد كانت هناك قمرات وثورات كثيرة، جرت في إطار كل ديانة للتخلص مما هو شكلي والعودة الى ما اعتبرته هذه الثورات أصولاً، ومن هنا كانت الأصولية - كما توهمت - تعبيراً عن الدفع للعودة بالإيمان الى نقائه الأول، لكن كما فهمت هذه الأصولية وكما أرادته. لقد كانت اللوثرية حركة في هذا الإطار، بل ثورة على الجمود والركود والمظاهر التي ارتبطت بممارسات وطقوس الكنيسة، كما أن حركات في العالم الاسلامي جرت على الخط ذاته، كالحركة الوهابية التي قامت بدور بارز في هذا الاتجاه، زاعمة أنها تبغي تخليص الممارسة اليمانية (باعتبار النصوص مصانة) من شكلانياتها ومظاهرها التي أصبحت تشكل إعاقة. إلا أن هذه الحركات وقعت في الخطأ الذي أعلنت حربها عليه، وضعت كل منها سياجها العقيدي، وكرست عبر الأيام لشكلانياتها، ومظاهرها اليمانية، وكأن

هناك رابطاً لا فكاك منه بين الايمان والشكليات، بل إنها لجأت الى العنف لإجبار المؤمنين على مارأته هذه الأصوليات صواباً. وفي إطار اليهودية كانت حركة التنوير اليهودية رداً على الجمود والتحجر والشكلانية.

ما الرابط بين اليهودي المؤمن، أو الايمان اليهودي والشكليات التي يحافظ عليها؟ هل لغطاء الرأس الصغير أي ارتباط بوجودان لا يستقيم الايمان إلا به؟ وهل يزعزع خرق نظام السبت إيمان اليهودي المؤمن إذا كان هذا الايمان حقيقياً وصادقاً؟ إن الكثير من الأمثلة تطرح نفسها، عندما تتم الإشارة الى ما آل إليه التفريط بكنه الموسوية، وتحيل الإجابات الى أن العقل الايماني اليهودي المصلحي والمحافظ جعل من الشكليات والمظاهر مقوماً أساسياً من مقومات الايمان، بل المقوم الأساسي، وفي ذلك شيء من التعويض عما فاتته.

ولدى الطوائف المسيحية أيضاً، نجد مثل هذا الاتجاه الذي غلب على الناس عند تعبيرهم الايماني عما في وجدانهم، فرسم إشارة الصليب والطريقة المتبعة في ذلك تبعاً لكل مذهب، علاقة شكلية لا رابط بينها وبين الحالة الوجدانية، كما تناول الخمر والخبز (دم المسيح ولحمه) في المناسبات الدينية، وتلوين البيض وارتداء الأقنعة في مناسبات مقدسة، ثم هذه الاحتفالية في أداء الطقوس في الصلاة، وما يرافق ذلك من أزياء وأنشاد موسيقى وتبخير وغيرها، وارتباط بعض المناسبات بأطعمة معينة. وكثير من المظاهر والشكليات، يحيل الى العادات القارة والمتوارثة التي اكتسبت شيئاً من القداسة أكثر مما يحيل الى عقيدة.

والاسلام الذي يوصف بدين الفطرة، كما يوصف باليسر، والذي لم يرتبط في مرحلته التدشينية بزي معين، نرى أنه أصبح للزي عند المؤمنين المسلمين، ومن جميع الطوائف، دور لاغنى عنه في الحضور الايماني، بل كما أن كل طائفة مسيحية ارتبطت بزي أو بتحويلات عن زي الطوائف الأخرى، إحياء بالاستقلالية، تحديداً في ما يرتديه رجال الدين، فكذلك الطوائف الاسلامية التي تتمسك بهدي نبيها الذي لم يلتزم زياً واحداً كما تقول الأخبار، فالعمامة السنية غير العمامة الشيعية مثلاً، والزي في المغرب غيره في الشرق، إلا أنه لا يقبل في أغلب نواحي العالم الاسلامي أن يلبس رجل الدين كما يلبس بقية الناس، فهناك خصوصية يتميز بها لباس هؤلاء، أصبحت جزءاً

من شكلانيات الايمان من غير علاقة بالايمان.

تمثل زيارة القبور، ووضع الأغصان الخضراء عليها في الأعياد، عملاً يرتبط ببعث ايماني، في حين تحاربه جهات أو مذاهب إيمانية أخرى كالوهابية. وتعتبر علاقة الايمان باطالة اللحية وحف الشوارب علاقة وثيقة، عند جهات ايمانية متطرفة، علماً أنه شكل قد لا يوحى بمضمون ما بالضرورة. ولبس الجلباب وتقصيره علامة أيضاً. كذلك حركات أخرى توحى بخصوصية الانتماء المذهبي، كوضع اليدين أثناء الصلاة.

كثيرة هي المظاهر والشكلييات التي تسعف المؤمنين في صنع السياج الدوغمائي العقيدي، كما يسميه محمد أركون، وما هذا السياج سوى التعبيرات الايديولوجية التي رأينا فيما سبق من فصول، إنها سمة من سمات هذا العقل، إنه تقنين وتشبيت لكل المظاهر والشكلييات التي تضمن البقاء تحت السيطرة، والعبارة التي ترفعها بعض المحلات التجارية بأنها تبيع الزي الاسلامي، تربط بين الاسلام وزي محدد، علماً أن تاريخ الاسلام وتعاليمه لا يمدنا بما يؤيد وجود زي مرتبط بصحيح الحياة والممارسة الاسلامية، والخارج عليه خارج على ما لا يجوز الخروج عليه، ولكنه مزيد من القيود التي تفرض تحديداً على حياة المرأة وسلوكها، دون الاهتمام بجوهر عقلها ووجدانها. إن ارتباط الزي بالبيئة والعصر أكثر أصالة ومنطقية من ارتباطه بالايمان.

ومن مظاهر الشكلائية الايمانية، أساليب الخطاب الشفاهية والكتابية المتبعة في التواصل بين المؤمنين، فالترسيمات المتبعة في ديباجة الأحاديث، خاصة في بداياتها ونهاياتها تميز الخطاب الايماني الشفهي أو الكتابي، كما أن اللغة التبجيلية المشبعة بالجمل الدعائية، وجمل الثناء، والاشادة، والاتكاء على الموروث من التعابير المطعمة بالآيات والأحاديث والأدعية، والابتعاد عن المصطلحات المستجدة والدقيقة في إطار العلوم الانسانية، وعن أسلوب العصر السائد، كل ذلك يدخل في إطار الالتفات الشديد الى الشكلييات والمظاهر، وإيلائها دوراً أساسياً في إعادة انتاج العقل الايماني.

١٠ - الانقياد السهل

لقد أوضحنا فيما سبق أن العقل الايماني يستمد طاقته ومؤثراته من حقول أخرى أيضاً غير حقل الدين كالمصالح والعادات وغيرها، مما يترسخ في العقل الفردي

والجمعي للمؤمنين وتكسبه السنون مفعولاً سحرياً حتى يصبح الخروج عليه عملاً إجرامياً، وتزداد الأغلفة والقواقع، وباعتبار أن الايمان يحيل في ذهن العامة الى مفهوم ديني، وما هو ديني يحيل الى الارتباط بالله عز وجل، من هنا يبدو كل ما هو ايماني، هو إلهي في مآله، وما هو إلهي فهو مطلق، مطلق الصحة، ومطلق السيادة، ومطلق في وجوب الخضوع له أيضاً، إذاً لانبس في هذه الحالة أن ندخل داخل الحرم.

أرأيت كيف يصبح على الإنسان، على المؤمن أن ينقاد، أن يخضع؟ ويبدو أن هذا الانقياد يحقق الرضى والطمأنينة، وليس كالانقياد في مجالات أخرى، إن الانقياد لما هو إلهي يلغي كل الرواسب والبقايا والمخلفات والظنون والشكوك. طبعاً هذا الانقياد يتم بآلية ايمانية توجب التسليم وبالتالي توجب البعد عن الكثير من الاستفهامات والتساؤلات، لما يحمله الاستفهام من معاني التشكيك والمواربة، وما ينتمي الى أيديولوجيا المطلق، يحقق مطلق الخضوع الداخلي والخارجي، بحيث يبدو النقد والتحليل، وإخضاع المسائل للتمحيص والدرس ومناهج التفكيك، علامة سلبية تبقي صاحبها معلقاً بين الانتماء الى المقدس والوقوع في الخطيئة.

الأمر يتطلب تمحيصاً في أصل المادة موضوع الايمان، من حيث الانتماء الى ما هو إلهي، أي مقدس، أو الى غير ما هو إلهي، لقد اقتحمت الخرافة والدجل والسحر والخداع وغيرها من الأساليب أسوار القداسة منذ قديم الزمن، وربطت نفسها بها، ولم يحدث بينهما الافتراق المطلوب، كما أن العادات التي اكتسبت مع الزمن صفة الاجلال والتقدير والمحافظة عليها حتى الخشية من الخروج من أسارها، كذلك قد دخلت حرمة القداسة، كل ذلك يحقق مصالح مادية أو سياسية أو اجتماعية أو غيرها، لمن يتعاطون في هذا المجال.

قد يكون الانقياد فردياً، كما رأينا في حكاية الراهب ورئيس الدير التي مرت سابقاً من مرويّات ول ديورانت، وقد يكون جماعياً، ويبدو الانقياد الفردي في كل تصرفات وحياة المؤمنين، خاصة في مناسبات الكوارث والنكبات، وما يستتبعها من تفسيرات، الى الاهتراء الايماني والتراخي الحاصل عند الناس، كتفسير أسباب الزلزال الذي أصاب تركيا في شهر آب ١٩٩٩م، حيث سارع العقل الايماني الى إشاعة تفسيره الذي يتوقف عند تردي ايمان الناس، وابتعادهم عن الصراط المستقيم، وعدم أداء

واجباتهم الدينية، فهو انذار وعقاب إلهي، وتذكير وعبرة، وهذا التفسير من شأنه أن يشكل سوطاً يعيد القطيع الى الحظيرة. كما أن كسوف الشمس الذي حصل في الشهر ذاته الذي حصل فيه الزلزال التركي، ارتبط بتحليلات وتفسيرات مشابهة، فهو عقاب إلهي وهو انذار، وهو إشارة الى نهاية الزمان، أو القيامة، وقد نقلت وكالات الأنباء استجابات إيمانية مختلفة مع هذه التفسيرات التي لاتصدر إلا عن عقل إيماني سحري خرافي وغير علمي بالتالي غير ديني بالمفهوم الحق للدين، من هذه الاستجابات، أن يقيم أحدهم قيامته بنفسه غير منتظر، فيقوم بقتل أسرته والانتحار مستبقاً الحدث العظيم المنتظر وهو القيامة، فقد حاسب نفسه، وأزهق روحه وأرواح أسرته، وأخذ دور الآلهة، وهذا التفسير الإيماني لم ينحصر بطائفة معينة أو دين معين.

الملاحظ في كلا التفسيرين المرتبطين بحدثين طبيعيين، هو غياب العقل والعلم عن التفسير، أو تغييبهما عن سابق إصرار وتصميم. لأن الساحة لاتتسع لتفسير بتأثير العقل العلمي وتفسير آخر بتأثير العقل السحري اللاعلمي، فإما أن يقتنع الانسان بالتفسير العلمي، أو يدخل عالم المتاهة والمجهول، وبالتالي يبقى مغيباً مشدوهاً. لقد نقلت الأخبار في شهر تشرين الثاني ١٩٩٩ أن الحاخام (ديفيد...) قام بشفاء سيدة بإخراج عفريت منها أمام الناس المنقادين لهذا العمل الإيماني الجليل والمعجبين به، وقد كان هذا العفريت قد سيطر على عقلها لصالح زوجها الذي انفصل عنها، لقد حصل ذلك في اسرائيل وليدة المجتمع العلمي الغربي.

ويظهر الأثر السلبي للانقياد الإيماني في تلك الحركات التي يقال عنها إنها شيطانية تارة، وتارة يقال عنها أو عن بعضها إنها تنتمي الى حركات إحيائية في إطار دين سماوي ما، حيث الانتحارات الجماعية وحيث يظهر انقياد الأتباع الى رئيس الطائفة أو كاهنها، وقد برزت هذه الحوادث في الولايات المتحدة الأمريكية سابقاً أكثر من غيرها، حيث تم الحديث أكثر من مرة عن عشرات بل مئات المنتحرين في عملية جماعية لآبناء نحلة معينة، غالباً ما كانت توصف هذه النحل بأنها شيطانية، المهم في القضية، مدى الانقياد والتأثير الذي يدفع بهذه الجموع الى ممارسة طقس إيماني يتمثل بعملية انتحار جماعي. ومن الأخبار الطازجة التي تناقلتها وكالات الأنباء العالمية. كثيراً نبأ الانتحار الجماعي الذي تم في أوغندا وراح ضحيته عدد من الناس بدأ بـ

/ ٢٠٠ / ثم تم الحديث عن / ٤٠٠ / ضحية، تم تناقل الخبر في ١٩ / ٣ / ٢٠٠٠ ثم تبعه الحديث عن / ١٥٣ / ضحية أخرى وجدوا في منزل قرب مكان المجزرة الأساسية، وقد وجدت الجثث متفحمة بعد أن أضرموا النار بأنفسهم، وكان من الصعب على الشرطة فصل الجثث عن بعضها حيث شكلت كتلة متراسة، وقد ذكر أنهم أتباع نحلة تؤمن باعادة الاعتبار للوصابا العشر.

ويظهر الانقياد الجماعي (وكل انقياد جماعي هو فردي بالضرورة)، من خلال الحشود والجماهير المتدافعة التي تنقاد بدوافعها الايمانية الداخلية، وبالعدوى، وتأثير التجيش المتواصل. فالأعداد الغفيرة من الناس التي تحضر حفلات شفاء المرضى من قبل رجال الدين (القديسين) أو بتأثرهم، وحفلات الزار والموالد، والقدايس التي يحضرها مئات آلاف الناس حيث يحل بابا الكنيسة الكاثوليكية في كل أنحاء المعمورة (كما حدث في زيارته الى مصر شباط ٢٠٠٠ وزيارته الى الأردن وفلسطين آذار ٢٠٠٠ وكلا الزيارتين كانت حجاباً لأماكن التدشين المقدسة) وهي أعداد ملفتة للانتباه، والجماهيرية التي حققتها وتحققها الانتفاضات التي قادها رجال الدين الشيعة في ايران، كحركة المشروطة، وثورة التنباك، والثورة الاسلامية بقيادة الخميني، أيضاً تلفت الانتباه الى الانقياد الايماني، كما أن الحضور والمشهدية التي ترى في ليالي عاشوراء في جنوب لبنان وحيث يتواجد الشيعة، والممارسات الايمانية ظاهرة الفاعلية، بجماهيريتها الواسعة، وبالمشاركة بالطقوس الايمانية التطهيرية، مثال واضح على الانقياد السهل لقناعات داخلية أو لقادة إيمانيين. ومنه الالتفاف الواسع حول بعض الحركات الأصولية كجبهة الانقاذ في الجزائر وما حقته في الانتخابات التي افتتحت باب العنف المستمر.

من جهة أخرى لا يمكننا أن نصنف الانقياد تصنيفاً واحداً، فقد لا يكون بالاتجاه السلبي في كل الأحيان، فكما يكون لما هو سلبي قد يكون لما هو إيجابي. فكما أن بعض الجماعات الايمانية تمارس ما هو خارج عن القيم والعقل والدين، كتلك التي تتعاطى القتل الجماعي والترويع والتخريب في الجزائر ومصر أو في بلاد كايrolندا الشمالية، فإن هناك جماعات تضع امكاناتها وإيمانها المجيش في خدمة شعوبها، كتلك التي تقود نضالاً وطنياً ضد العدوان والاعتصاب، عجزت عنه أكثر الأحزاب

والاتجاهات الأخرى وطنية، مثلما يجري في جنوب لبنان وفلسطين وجماعات لاهوت التحرير في أمريكا اللاتينية، وفي بعض هذا رد على نكوص جهات كانت تحمل لواء الجهاد.

إن التحركات الايمانية علمتنا أن تكون في إطار تكريس ما هو سلبي من القيم، بدفاعها عن الموروث بما لحقه من تراكمات الأيام، وبما له من مردود تأخري على الجماعات، وهذا نراه مستمراً حتى يومنا هذا في الكثير من بقاع الدنيا، وتعتبر حركة طالبان الأفغانية مثلاً صارخاً عليه، لكن تحركات أدى إليها وقادها التجيش الايماني، قد لا تفسح لنا المجال أن نصنفها تاريخياً في إطار ما هو رجعي وسلبي، كالتحرك الايماني الذي أدى الى ما يعرف بثورة التنباك في ايران وحركة المشروطة بعد ذلك أيضاً، وهما حركتان تصنفان في إطار مصالح الجماهير الواسعة، قادهما وحركهما عقل إيماني تمثل في آيات الله.

نتبين إذاً أن الانقياد على المستوى الايماني حاصل، وهذا الانقياد قد يكون بتأثير القناعة أو قد يكون بتأثير التجيش المستمر. إذ من المعلوم أن الايمان هو قناعة أو مجموعة من القناعات تشكلت لدى صاحبها، فأصبح رهناً لها بتصرفاته وأفعاله، وهذه القناعات يحيل الكثير منها الى ما هو خرافي وسحري، وهنا يكمن خطر الانقياد، كالوقوع تحت تأثير الدجالين والمشعوذين ممن يمارسون الطب منتحلين صفات إيمانية، أو ممن يطلقون التفسيرات لكل ما يمر في الحياة من أحداث بعيداً عن حقل الحقيقة والعلم، ويهاجمون ويدعون الى الهجوم على أصحاب العقول المتسقة والتفكير العلمي السوي، وهو يتم في إطار رجال الدين في الكثير من الأحيان، ومن هذه التفسيرات والتجيش ما يساعد الناس على تخطي عقبات حياتهم ويدعوا الى القيم الايجابية، وهو مادعوناه بعقل الرحمة وصنفناه في بابها، كما أن منه ما يشل عقولهم ويتركهم فرائس منقاداً للنصب والاحتيال والجهل، وتفسير حدوث الزلازل مثلاً بغضب الله والبعد عن صحيح الدين، أو تفسير عدم حدوثها في منطقة أخرى بأن هناك أولياء ومؤمنين مدفونين في هذه المنطقة، وهذا ما يمسكها عن أن تهتز أو تنزل، بالتالي ينفي الخطر، كلا التفسيرين غير عقلاني وغير علمي وكلاهما يحرمان الناس من اتخاذ الاحتياطات في بناء بيوتهم، وتجهيزها ضد الأخطار المتوقعة.

١١ - إخضاع الطبيعة والسيطرة عليها

تعتبر الطبيعة وتغيراتها وإمكان التأثير فيها، أو الإيحاء بأن الكثير من الأحداث الطبيعية يجري وفق إيقاع إيماني، دليلاً على تجيير الطبيعة والعلاقة بها للتأثير على الناس إقناعاً واقتناعاً بالتوجهات الإيمانية، ويعتبر هذا الخط أبرز الطرق المعتمدة في إبراز مفاعيل العقل الإيماني وتجلياته، حيث لا يتأخر تفسير أية ظاهرة طبيعية كونية أن يأتي منسجماً مع معتقدات المؤمنين، ومتأثراً بها، ولا يستبعد أن يتم ذلك من قبل أكثر من اتجاه إيماني، ولهذا ماله من قوة التأثير في عقول الناس البسطاء خاصة حين لا يتيسر في كل لحظة إيراد التفسير العلمي للظاهرة، لعدم وجود من يمتلك القدرة على إبراز التفسير العلمي، ولأن التفاسير العلمية لا تقوم على العشوائية والارتجال فيكون السبق في تفسير الظواهر الطبيعية لمن تهيأوا لاستنفار القوى الماورائية والحديث عنها وباسمها، والسبق إلى إحداث التأثير في أذهان الناس يعني صعوبة إزالة هذا التأثير في المستقبل، لضعف المستوى العلمي أولاً ولمصادفة أذهان خالية يسهل التأثير فيها عند بسطاء الناس المؤمنين. ومع انتشار العلوم التجريبية الحديثة، والوسائل التكنولوجية المبتكرة لاكتشاف حقائق الكون، وجدت الكثير من الحقائق طريقها إلى أذهان الفئة المتنورة من الناس، حيث أصبح من الممكن الحصول على تفسيرات علمية مقنعة وربما أكيدة للكثير من الظواهر التي كان تفسيرها حكراً على اللاهوت، ومنطق قوى الإيمان. ومع ارتياد العلم لمجاهل هذا الحقل الطبيعي، فإن تفسيرات مناقضة لحقائق العلم والعقل العلمي لا تني تظهر كلما اقتضى الأمر، مخالفة لأي فكر علمي وموضوعي، ومنسجمة مع قوى ومفاعيل العقل الإيماني، وهذا دليل على استمرار هذا العقل في المنافسة على امتلاك الساحة الاجتماعية، باستدعائه التفسيرات الغيبية، وتأثير قوى الماوراء والسحر والخرافة، وذلك كأسلوب مواجهة لامتداد العلوم الحديثة، واستبعاداً لبسط هيمنتها الكاملة، مما يعني الكارثة على العقل الإيماني ومثليه، ومن هنا يظهر استنفاره للمواجهة كلما دعت الحاجة، أو كلما كان ذلك ممكناً ويخدم أيديولوجيته. نذكر هنا بما ذكرنا عن الزلزال في تركيا وعن كسوف الشمس، وعلى النسق ذاته تأتي التفسيرات لأبسط الظواهر، حتى أن احتباس المطر ونزوله مرتبط بقوى الغيب، برضى الآلهة وغضبها، بالتالي بانصياع المؤمنين للتوجيهات التي

يدبجها وكلاء الآلهة، أو من نصبوا أنفسهم لهذا الوكالة، إن في ذلك إخضاع السماء، لمنطق المزاجية والتأثر، وإبرازها على أن كل تعاليها، وكل جيروت آلهتها وسموهم واقتدارهم لا يستطيع أن يرتفع فوق هذه المزاجية، التي هي شأن انساني، وبذلك يتم تفريغ الأديان من هدفها الرئيسي الذي هو تربية مجتمعات فاضلة، وليس هدفها، استجداء آلهة تكون كل لحظة في شأن، لأن هذا التغير والتبدل في مزاج الآلهة، والتأثر بالناس وعلاقاتهم وسلوكهم ونذورهم، وخضوعهم أو عدم خضوعهم، يوحى بآلهة لا تبتعد في طريقة آدائها عن الناس وطرائقهم ولا ترتفع عن مستوى مزاجيتهم ناسين أن الله أبلغ الناس أنه غني عنهم، بالتالي عن خدماتهم، بالتالي لا ينتظرهم أن يستحشوه بما لديهم من اغراءات ليتمم رعايته لهذا الكون. وهم بهذه الطريقة من التفكير والأداء يسيئون لايمانهم، وإنني اعتقد أن الله لا يرضى عن ابرازه بمزاجية الانسان.

في هذا الإطار نصف مانسمعه ونراه من صلوات الاستسقاء التي يقوم بها المؤمنون طلباً للرحمة، ومواجهة حالة الجفاف التي تعانيها المنطقة، وفي ذلك محاولة لكسر جمود الطبيعة وتغيير قوانينها، بتأثير الكرامات والشفاعة والتوسلات، ولا شك أن هذا يعتمد على تراث غير منقطع من الأساليب التي تم بها استجلاب رحمة السماء وتعاطفها، لا بل إخضاعها، عن طريق التذلل والتصاغر الانساني أمام عظمتها وجبروتها. وفي تراث الطوائف، خاصة في المناطق الريفية، وحسب انتماء كل منطقة، دلائل على أن السماء قد استجابت لمثل هذا التضرع في مواقف مشابهة، حتى أن هطول المطر استجابة لصلاة وابتهاال ودعاء المؤمنين في منطقة ما، وطائفة ما، أصبح عقداً سنوياً يتكرر كل عام، حيث يهطل المطر في ذكرى الاستجابة الأولى، مما يعيد تذكير المؤمنين بضرورة عدم ابتعادهم عن حظيرة الايمان، لأن النفع والضرر مرتبط بمثل ذلك الخضوع الذي استجلب المطر، وينسب المؤمنون من طوائف مسيحية واسلامية في منطقة الشرق الأوسط الى رجال دينهم المتميزين بطهارتهم ونقايتهم الايماني، الحصول على هذه الهبة السماوية المتكررة كل عام ضدّاً أو تجاوزاً لقوانين الطبيعة وضروراتها. وفي هذا السياق نشرت وسائل الإعلام أن حاخامات يهود، قاموا بأداء صلاة استسقاء وهم يحلقون في الجو بإحدى الطائرات، لمواجهة الجفاف في شرق المتوسط، وذلك في تشرين الثاني ١٩٩٩م.

لقد تمت الإشارة الى أن العقل الايماني في هذه الناحية هو سليل تراث الايمان الذي اعتمد على المعجزات التي تخرق قوانين عمل الطبيعة والتي جاءت تأييداً للرسالات السماوية، ولأنبياء الله، ولكن وبعد انقضاء النبوات أغلق الباب على تجدد دلالاتها، ولكن العقل المولد للمعجزات الايمانية استمر في انتاج هذه الدلالات واستمر في كسره لمفاعيل القوانين التي تنظم عمل الكون بكرامات حازت الصفات الرسالية، فهي متولدة عنها وتنتمي الى حقلها، وتعيد انتاجها، وفي هذا تكريس للوظيفة الإخضاعية للعقل الايماني.

إن العقل الايماني يقدم الكتب السماوية على أنها كتب كليانية، شمولية، مغلقة، لكن انغلاقها تم على كل الاسرار الكونية، فلا شيء من هذه الاسرار حصل أو سيحصل خارج دفتيها، ولا شيء حدث أو سيحدث إلا ومبرراته موجودة فيها، وهي تنطوي على العلم به. هذا هو المنطق الناظم للايمان بالكتب السماوية والرسالات التي جاءت بها.

لقد آمن المسلمون بالقرآن ككتاب قيمى معجز للبشر، انطوى على أسرار كونية تتسم بالشمول والاحاطة، وقد فرض العصر الحديث بما قدمه من انجازات علمية هائلة الحجم والاتساع، أبهرت العقول، فأثارت فزع نواطير المقدس، ولما كان منطقهم ليس في مقدوره نفي أو مواجهة هذا الوافد الغربي الجديد من منجزات العلوم الكونية الحديثة، وبعد أن حاولوا نفيها ومواجهتها كما هو معلوم أسقط في أيديهم، فلدجأوا الى استنطاق القرآن بها، فجاءت الأبحاث كالتى قدمها «يوسف مروة» حول العلوم الطبيعية في القرآن، لتنفي كل جديد عن مستحدثات العلوم في هذا العصر، ولتجعل القرآن مخزناً ومصدراً لكل هذه العلوم وناطقاً بها، دون أن يبالي هذا العقل، أتعسف في تبريره أم لم يتعسف، المهم الايحاء بأن السيطرة على الطبيعة ملكية خاصة له، ولايجوز التخلي عن هذه الملكية لأنها ذات أثر كبير في التجيش الايماني، وإبراز القدرات الالهية التي هي مناط هذا التجيش، يكون من خلال آثارها في الطبيعة وتوجيهها.

وأنا لست بصدد تحليل مضمون هذه الكتابات، واستعراضها، ولكنى بصدد مساءلتها عن منطقها وغاياتها، والمصادقية التي يتحصل عليها المؤمنون من الخوض

فيها، أي مساءلة الجانب الايماني فيها لا الجانب العلمي، والتحقق من وجوده أولاً، وبالتالي تهافت المنطق الذي يحكمها، ويحكم العقل القابع في خلفية انتاجها.

أولاً: لم يستطع المسلمون وهم يقرأون كتابهم، ويدققون في كل حرف فيه أن يستنتجوا منه أي علم من هذه العلوم التي قالوا إنه يؤسس لها، أو ينطق بتفاصيلها منذ نزوله قبل أكثر من أربعة عشر قرناً. وكان الأولى بهم وهم يتعاطون دراسة القرآن والتعبد بتلاوته ويتفكرون في كل كلمة فيه، أن يكتشفوا بعض هذه العلوم أو كلها، وقد برز فيهم من العلماء الأفذاذ الكثير في كل مجالات العلوم!

ثانياً: لقد كان المسلمون وخلال تاريخهم يمثلون صورة من صور الغباء والغفلة المطلق (وهذا ما لا يقرون به) حسب مدلول هذه الاستنتاجات العلمية، حين لم يلحظوا أثناء تدارسهم للقرآن شيئاً من هذه العلوم، وكان دورهم انتظار علماء الغرب (الكافر) ليستخرجوا لهم وليطبقوا في الطبيعة مكنونات أقدس مقدساتهم!

ثالثاً: إن المسلم يتعبد ربه بتلاوة القرآن وفهمه والتعمق به (وهذا غاية ووسيلة في وقت واحد) فهل كان إيمان كل الرعيل السابق من المؤمنين، إيماناً ناقصاً، (وهؤلاء هم الذين لا ينقطع عن الثناء على علمهم وقدراتهم وإيمانهم)، لأنهم لم يعيشوا في زمن العلم الأمريكي الذي جاء لإنقاذهم، وليكشف لهم ماخفي من دينهم؟ فما ذنب هؤلاء الذين انطوى إيمانهم على كل هذا النقص لأنه لم يقيض الله لهم علماء أمريكا ليشرحوا لهم ما استغلق عليهم من دينهم؟!.

رابعاً: إن أصحاب مثل هذه الدراسات يبدون غير مقتنعين أن الله أكمل لهم دينهم حسب منطق الوحي، وغير مقتنعين أن النبي الكريم بلغ وأدى الأمانة حسبما أشهد عليه الله أمام المسلمين، ولذلك حرصوا أن يستمدوا من علماء الغرب الفهم الذي يكملون به إيمانهم، هذا بعض ماتوحي به هذه الدراسات، إذن تنطوي على موقف سلبي.

خامساً: إنهم يقدمون أدلة على أن العلم الحديث لم يستطع أن يستخرج كل ما في القرآن من أسرار علمية وهذا من أدلة إعجازه. وكمثال على هذا المنطق أشير الى نقاش شفوي حضرته، قال فيه أحد ممثلي هذا العقل الايماني ليدحض قدرة العلم على استكناه حقائق القرآن، إن أحد العلماء الأمريكيين قضى إحدى عشرة سنة يبحث في أسرار

الأجنة في الأرحام، وعجز عن معرفة جنس الجنين في فترات الحمل الأولى، وهذا رد على من قال إن الأجنة أصبحت معروفة الجنس، وبذلك ينتزع سراً من أسرار الألوهة، وقد ردّ عليه بسؤاله إن كان سيبطل إيمانه بالقرآن إذا جاء عالم آخر وقضى إحدى عشرة سنة ثانية أو أكثر في البحث، واستطاع إيجاد آلية يحدد من خلالها جنس الجنين؟ فما استغلق سابقاً من أسرار الكون على العلم ليس بالضرورة أن يبقى مستغلقاً، فهل علينا أن نعيد تقييم إيماننا في كل مرة يقدم فيها العلم كشفاً جديداً؟ وهل سينتهي كون القرآن معجزاً عند مثل هذه التخوم؟ أم أننا يجب أن ننتقل باستمرار من مازق الى مازق؟!.

سادساً: القرآن كتاب ينطوي على قيم ومثل ورموز متعالية، وليس كتاباً في الانجازات العلمية، ولا يضيره أن ينطوي على تفسير أو تبرير لكل حادث كوني ولكل حالة علمية أو لا ينطوي، ولن يكون إيمان المسلم باطلاً إذا لم يجد في كتابه شرحاً وتفسيراً وإشارة لكل مكتشف علمي، من كروية الأرض ودورانها حول الشمس الى أسرار المعلوماتية وأطفال الأنابيب والاستنساخ وعلم الذرة وفيزياء الكم... الخ.

سابعاً: إن في عدول المؤمنين عن الخوض في هذا المجال احتراماً لكتابهم، وضناً به عن إدخاله في معترك يتكرر كل يوم، أو عن الزج بمنطوقه في كل مناظرة، سواء كانت جليلة أو حقيرة، إنهم إذا أرادوا أن يبرهنوا عن احترامهم لهذا الكتاب، والحفاظ على هيئته وعظمته، يجب أن يترفعوا عن أن يجعلوه النقيض لما لا يعجبهم ولا ينسجم مع تفكيرهم، وأن يجعلوا منه مشجباً يعلقون عليه غفلتهم أو جهلهم وافتراءاتهم وأخطائهم. المعارك التي يخوضها هي معاركهم وحدهم لا معارك القرآن. وهذا الكتاب القيمي يترفع عن أن يكون له ند أو شبيه أو منافس، لأنه ليس من جنس كل هذه الأشياء، إنه كتاب إلهي. بهذا المنطق يمكن أن يخدم المؤمنون كتابهم، لا بزجه في كل موقع سواء خرج منه محترماً مهاباً أم لا، لأن معطيات العلوم الحديثة تتوالى والمعارك تبشر بالازدياد لا بالنقص. إن منطق المفاخرة والانتصار للآراء الشخصية، يجب أن يتم بعيداً عن الكتاب وزجه في معارك لا طائل منها.

هوامش الفصل الثالث

- (١) - علي مبروك ، النبوة ، من علم العقائد الى فلسفة التاريخ ، محاولة في إعادة بناء العقائد ، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ، طبعة أولى بيروت ١٩٩٢ ص ٢٢٧ - ٢٢٨ . نقلاً عن ، عالم الفكر ، عدد خاص عن السيرة النبوية والخيال الشعبي مجلد / ١٢ / عدد ٤ / الكويت ١٩٨٢ .
- (٢) - د . سيد محمود القمني - مجلة روز اليوسف ، العدد / ٣٦٨٢ / تاريخ ١٩٨٩ / ١ / ٣ .
- (٣) - د . صادق جلال العظم ، نقد الفكر الديني ، دار الطليعة ، بيروت ، ص ١١٠ .
- (٤) - د . محمد أركون ، العلمنة والدين ، دار الساقي . طبعة ثانية ١٩٩٢ ص ٧١ .
- (٥) - نقلاً عن مقال لعماد مصطفى ، مجلة الناقد ، أعيد نشره في كتاب ، الابداع من نوافذ جهنم / العنف الأصولي ، دار الناقد (رياض الرئيس للكتب والنشر) طبعة أولى ١٩٩٥ ص ٢٤١ وما بعدها .
- (٦) - ول ديورانت ، قصة الحضارة ، مجلد / ٤ / عصر الايمان جزء / ٢ / ترجمة محمد بدران - الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية ، طبعة ثانية ١٩٦٤ / ١٤ / ص ٨٧ وما بعدها .
- (٧) - أديب ديمتري ، نفي العقل ، دار كنعان للدراسات والنشر ، دمشق طبعة أولى ١٩٩٢ ص ٥٣ .
- (٨) - في مقالين للدكتور رفعت السعيد والدكتور فيصل دراج ، مجلة النهج العدد / ٢٠ / شتاء ١٩٩٩ .
- (٩) - رياض نجيب الريس ، مجلة الناقد ، العدد / ٧٤ / .
- (١٠) - سمير عبده ، المسيحيون السوريون خلال ألفي عام ، دار علاء الدين ، طبعة أولى ، كانون الثاني ٢٠٠٠ ص ١٠٨ .
- (١١) - أديب ديمتري - المرجع السابق ص ٥٣ .
- (١٢) - المرجع السابق ص ٥٤ .
- (١٣) - المرجع السابق ص ١٥ .
- (١٤) - ول ديورانت - قصة الحضارة ، مجلد / ٤ / جزء / ٤ / عصر الايمان / ١٤ / ترجمة محد بدران ، الادارة الثقافية في جامعة الدول العربية ، طبعة ثانية ١٩٦٥ ص ٦٧ .
- (١٥) - المرجع السابق ص ٢٢٧ .
- (١٦) - المرجع السابق ص ٩٧ .
- (١٧) - هذه الأحداث ذكرها ، محمد كرد علي في محاضرة له بجامعة القاهرة بتاريخ ١٧ / ١٢ / ١٩٩٣ نقلها عماد مصطفى - مرجع سابق ص ٢٤١ وما بعد .
- (١٨) - صحيفة المحرر نيوز ، عدد / ٢٢٨ / ٢٢ - ٢٨ كانون الثاني ٢٠٠٠ .
- (١٩) - د . عزيز العظمة ، العلمانية من منظور مختلف ، مركز دراسات الوحدة العربية ، طبعة أولى بيروت ١٩٩٢ ص ٩٨ .
- (٢٠) - د . سيد محمود القمني ، مجلة روز اليوسف ، العدد / ٣٦٧٤ / تاريخ ١٩٩٨ / ١١ / ٩ .
- (٢١) - المعني هو العلامة الشيخ سليمان الأحمد ، المتوفى عام ١٩٤٢ م . والأبيات في ديوانه المنشور ، مطبعة العرفان - صيدا ، ص ١٢٣ .
- (٢٢) - أديب ديمتري - المرجع السابق ص ٧٢ .

- (٢٣) - ول ديورانت المرجع السابق مجلد ٤ / جزء ٥ / ١٦ / ص ١٢ .
- (٢٤) - المرجع السابق ص ١٢ .
- (٢٥) - أديب ديمتري ص ٢٦ .
- (٢٦) - د . نصر حامد أبو زيد ، دوائر الخوف - قراءة في خطاب المرأة ، المركز الثقافي العربي ، الطبعة الأولى - الدار البيضاء ١٩٩٩ ص ١٧ .
- (٢٧) - د . نوال السعداوي ، المرأة والجنس - الانثى هي الأصل ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الأولى - تموز ١٩٧٤ ص ٤٠ .
- (٢٨) - ول ديورانت ، المرجع السابق مجلد ٤ / جزء ٥ / ص ١١١ .
- (٢٩) - المرجع السابق ص ١١١ .
- (٣٠) - صحيفة المحرر نيوز ، عدد ١٢٦ / ٢٠ تشرين الأول ، ٥ تشرين الثاني ١٩٩٩ .

الفصل الرابع

الخصور التاريخي للعقل
الإيماني

إن العمل الذي نقوم به هنا ليس عملاً تاريخياً، بمعنى أنه لا يقوم على تقصي ظاهرة ما باحثاً عن موضعها حسب تسلسل الأحقاب التاريخية المتتابعة، ولا إلى تقصي تأثيرها، أو فعلها وانفعالها. إنما هو عمل استدلالي، يطمح إلى زيادة التعرف على الظاهرة، وتسليط الضوء عليها ابستمولوجياً، كما يطمح إلى التمييز بين العقل الديني والعقل الايماني، على مستوى الدراسة كما على مستوى الواقع.

لكن نفي صفة التاريخ (بالهمزة) عن العمل باعتباره مشروعاً ثقافياً وفكرياً، لا يعني نفي صفة التاريخ عنه، أو اخراجه خارج تاريخية الفكر المعاصر وقضاياه التي تشغله، فالاحساس براهنية الهيمنة الايمانية على مساحة كبيرة من حيزنا الثقافي والسياسي والاجتماعي هو الهدف الضاغط الأول للحديث في الموضوع. إن حضور العقل الايماني، ذلك الحضور المهيمن، واستبداده بعقول الناس حتى في قضاياهم التي لا تمت إلى الدين بصلة، هدف ضاغط ولد الإحساس بضرورة معرفة أوسع، وكما أن حضوره المعاصر كان حضوراً استبدادياً، كذلك كان حضوره في التاريخ، فقد كان ضاغطاً على التاريخ بجميع جوانبه، السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية... الخ، ولا أدري إن كان من حقي أن أقول إن حضوره حضور إيماني، ومعنى أن يكون حضور العقل الايماني، حضوراً إيمانياً أي أن يكون متمكناً من وجدان الانسان، ومسيطرأ على حياة الفرد والمجتمع في أزمنة وأمكنة حضوره، بالتالي يكون بحث سيطرته على جوانب الحياة وحضوره فيها من قبيل تحصيل الحاصل.

إن حضور العقل الايماني في المجتمعات، ليس حضوراً على مستوى الماضي فقط، بل هو حضور معاصر بقوة، ثم إنه مرشح ليكون حضوراً مستقبلياً أيضاً.

إن المستوى الذي وصلت إليه الدراسات التاريخية ومستوى الفهم الذي تتيحه لحضور الماضي في الحاضر على المستوى الايماني، يؤكد حقائق كبيرة وكثيرة، لانزال

نتوارثها، وتشكل حضوراً لافتاً وحياءً على امتداد عشرات القرون. فالتقدم الذي أتاحتها الدراسات الأركيولوجية والميثولوجية والانتروبولوجية، كما الدراسات المقارنة، في علم الأديان، وعلم التاريخ، أتاح فهم الكثير من العناصر والتصرفات الحياتية التي لاتزال حية وتبحث عن تفسير يعلن عن انتمائها الحضاري والثقافي.

إن الكثير من العناصر التي تظهر في متضمنات العقل الايماني عند انبثاقه وتأثيره المباشر في حياة الناس اليومية، تنتمي الى موارث سابقة على الديانات التي ينتمي إليها الاتجاه الايماني الذي تظهر فيه هذه العناصر، ويجب ألا يكون مستغرباً أن نجد الكثير من العناصر الايمانية التي تنتمي في حقيقتها الى حضارات قديمة جداً، لأن الحضارات الأصيلة وعناصرها المكونة، لامتوت موتاً كاملاً، إنما قد تغور الى الأعماق، بفعل عوامل تغلب حضارات أقوى، وثقافات أقوى صاعدة، ولكن الثقافات والحضارات الصاعدة والوارثة لغيرها، لاتستطيع أن تحمي نفسها، من وراثة وحمل بعض العناصر من الثقافة المغلوبة، تجد لها متسعاً لدى الغالبة، بشكل عفوي، ويظهر هذا المحمول عندما تتاح له ظروف الحياة أن يظهر، ويعبر عن نفسه وعن انتمائه في المواضع والمناسبات التي يضعف فيها منافسه، أو لا يستطيع تغطيتها، أو يلتقي معه فيها.

إن الحضارات التي تلي، واثرة ثقافة ماقبلها، مما أزاحت يد التاريخ، سواء بمبرر أو دون مبرر (أي بجديد أو دون جديد)، لاتستطيع أن تمحي ماقبلها محواً كاملاً، إذا كان متجذراً، فتعمل على هضمه واستيعابه وإضافته الى مخزونها، لتصبح أكثر ثراءً، وذلك كلما كان العمق الحضاري الذي تستند إليه أكبر وأوسع، فالحضارات في النهاية تعبر عن عظمتها بمقدار ما تراكم من خبرات، وعناصرها ربما تتمظهر بمظهر العصور اللاحقة، ولكنها لاتستطيع إخفاء أصلها إخفاءً كاملاً، فيبقى هذا الأصل مقروءاً ودالاً على نفسه، مفصلاً عنها عبر ممارسات وتصرفات تنم عن اعتقاد من يقوم بها بالجدوى المتحصلة منها ربما. وفي الأعم الأغلب قد تظهر في البيئات الشعبية البسيطة التي لم يتعود الناي فيها أن يسألوا أنفسهم عن أصل كل عنصر أو معتقد في حياتهم، أو عن أي تصرف توارثوه، ويقومون بممارسته عبر طقوسهم. وعمليات الحفر والنقد التاريخيين، وتحليل عناصر الحياة المعاصرة، تحليلاً مقارناً، يجعل الدارس يهتدي الى

أصل الكثير من هذه التصرفات التي أصبحت جزءاً من عادات الناس ومسلما تهم الايمانية، كتلك التي يوردها الدكتور (طيب تيزيني) في كتابه (الفكر العربي في بواكيره وآفاقه الأولى) وهو جزء من مشروعه الكبير في قراءة التراث، فالمفكر تيزيني يورد في سياقات مختلفة، ما يذكّر بأصل الكثير من التصرفات التي تمارس في مجتمعاتنا الشرق أوسطية، والتي أخذت قوة الايماء ومفعوله (أي أصبحت راسخة رسوخ الايمان) بفعل الزمن، وتم توارثها من قبل أديان سماوية أو المنتمين الى هذه الأديان، ولو بحثنا عن أصلها لوجدناها تنتمي الى حضارات قديمة عاشت على أرضنا، كالمسح بالزيت، الذي وجد في حضارات وادي النيل وبلاد الرافدين وسوريا القديمة، واستمر كطقس له بعد ديني في بعض الديانات السماوية وكعادة شعبية في بيئات أخرى، كعادة دهن أجسام المواليد الجدد بالزيت، وكذلك في اعتقاد بعض الناس من أهالي المناطق الوسطى في سورية أن شرب بقايا الماء الذي تشرب منه فرس أصيلة، يجعل المرأة الحامل تلد ولداً قوياً كمهر الفرس، ومنها سقي المصاب بالشاهوق من حليب الحمير^(١)، وغير ذلك من الأمور التي قرّت في معتقدات الناس الشعبية والتي تساهم في تشكيل عقولهم، وهي في حقيقتها، عناصر موروثية من أديان وعادات الشعوب الغابرة، تظهر بشكل عفوي دون أن ينشغل ممارستها بأصلها.

ولاننسى هنا المظاهر الاحتفالية الكبيرة التي تتشح بغلالة إيمانية، وتحدث في الكثير من البيئات الشعبية، والتي تجري في أغلب الأحيان بالقرب من أضرحة الأولياء والصالحين، أو الأماكن التي تنطوي على رموز دينية، كما في الساحات العامة، وترتبط في أذهان الناس ببعد إيماني تم توارثه تلقائياً على المستوى الاجتماعي. هذه المظاهر يتبين عند البحث في جذورها أنها تنتمي الى ما هو بعيد وسحيق في تراث المنطقة الحضاري، كاحتفالات الربيع التي تأخذ أطراً وأشكالاً مختلفة، وقد نسي الناس المحتفلون أصلها الأول على الأغلب، فهي في مصر تسمى (شم النسيم) ويعيد الدارسون أصلها الى الاحتفالات بعودة «أوزيريس» الى الحياة، في الأسطورة المصرية القديمة، وهي في مناطق سورية ترتبط بعودة «قموز» أو «أدونيس» أو غيرهم من الآلهة الى الحياة، كما تقول الأساطير الآرامية والكنعانية الفينيقية، وقد أصبح غياب وحضور (موت وحياة) هؤلاء الآلهة رمزاً لتوقف الطبيعة عن ممارسة نشاطها في مجال

نحو النباتات وأخصاب الحيوانات، مما يشير الأسى والحزن، كما يرمز بعودتهم الى عودة الطبيعة الى ممارسة نشاطها النمائي والاخصابي، مما يعيد للانسان الأمل في حياة يغيب عنها شبح الجوع والخوف من العوز، مما يستدعي قيام الاحتفالات، وهذه الاحتفالات والأعياد تسمى بـ «النوروز» لدى الفرس والأكراد، وهي بالتأكيد تحمل شحنات إيمانية موروثية.

بعد هذه الاحتفالات لا يزال يحتفظ بجذره الديني الايماني الموروث من الحضارات القديمة، وهذه الاحتفالات، غالباً ماتجري أبان الانقلابين الخريفي والربيعي، ولها جذورها في حضارات عاشت على أرضنا، وفي ظروفنا البيئية (المناخية)، ومارس مؤمنوها هذه الطقوس والاحتفالات ثم استمرت في عادات الناس، لأنها كما يرون لا تشكل تعارضاً مع أديانهم الجديدة، بل قد تشكل رديفاً لها، وليس ببعيد أن تأخذ أشكالاً قدسية.

من هذه الاحتفالات ما يرتبط بشخصيات بقيت حية في المعتقدات، واكتسبت بعداً رمزياً، بكل مالها من تقدير وتبجيل، لدى أكثر من طائفة أو مذهب، كتلك المرتبطة بشخصية (الخضر) النبي الحي في كل زمان ومكان، وله مكانة شعبية عند الطوائف جميعاً اسلامية ومسيحية، لما يشكله في المعتقدات الشعبية من ضمان لمواسم الفلاحين وحماية للمزروعات، وكثيراً ما تتم النذور الزراعية له، وتقام الاحتفالات بالقرب من المقامات التي تحمل اسمه (مارجرجس - حسب التسمية المسيحية)، في مناطق من سورية، مثل منطقة تلكلخ، وتكون هذه الاحتفالات سنوية وريعية وتستقطب الناس من جميع الطوائف والأديان، كما تتم احتفالات أخرى لها رموزها وبعدها الثقافي في مناطق أخرى مثل صيدنايا أو معلولا ويتم ربطها بالمعتقدات الاجتماعية، وبعادات وتقاليد أبناء هذه المناطق^(٢).

ومن هذه المعتقدات والعناصر الايمانية، ما هو وارد الى بيئتنا من تراث حضارات بعيدة عن منطقتنا، ولكن فعل الثقافة وحوار الحضارات الذي شهدته المنطقة منذ قديم العصور، جعل مثل هذه المعتقدات تتسلل الى معتقدات أهل المنطقة وتستقر فيها، وهو ما أدى الى كل هذا الغنى والاختلاط الذي وسم المرحلة والمنطقة، ولانزال نجد أثره لدى بعض الطوائف أو الجماعات الايمانية كعنصر ايماني معتقدي، كالتقمص مثلاً، والذي

يدخل كمكون أساسي من مكونات عقائد بعض هذه الجماعات، حيث تشكل ازاحته عامل انهيار لهيكلية المعتقد، بالتالي لا يمكن إبعاد هذا العنصر منه، علماً أن عامة المسلمين على أن عقيدة التقمص لا تنتمي إلى الإسلام، من هنا يعتقد ورودها بالطريقة التي تم توصيفها سابقاً، وتشير المصادر إلى أن موطنها الأصلي الهند ومعتقداتها، وقد وفدت إلى منطقتنا مع ما وفد وأخذ العرب وبيئوه، حتى إذا تمت عملية التوالد المذهبي الواسع في الإسلام، وجد هذا المعتقد من بعده مرتكزاً من مرتكزاته الإيمانية.

وكما أن هناك عناصر إيمانية تنتمي إلى ديانات وثقافات غابرة وغائرة، بقيت تعبيراتها عن نفسها، على شكل عناصر جزئية في عادات الناس ومعتقداتهم، كذلك كانت هناك انبثاقات دينية وإيمانية في منطقتنا العربية أو جوارها، ربما حصلت في بعض حالات الفراغ، وقد تأثرت بغيرها من الديانات والاتجاهات الإيمانية وحوّت في مشاريعها الاعتقادية عناصر من الديانات السماوية ومن غيرها.

كانت المانوية مثلاً إحدى هذه الانبثاقات الإيمانية على أرضنا العربية، وقد كان ماني مؤسس هذا الاتجاه، أو المذهب: «يطمح إلى إنشاء دين جديد يجمع بين الزردشتية والبوذية والمسيحية ويعتمد الغنوصية»^(٢).

الصابئة أيضاً إحدى تلك الجماعات أو الطوائف التي تمارس نشاطها الإيماني في المنطقة، ومنهم صابئة حران والصابئة القدامى، كما أن منهم الطائفة المغتسلية الذين ينتمي إليهم والدماني وهم المندائيون^(٣).

ولقد كانت الزرداشتية المجوسية بثقافتها التي انتشرت في بلاد فارس، وبقي تأثيرها الثقافي واضحاً في ثقافتنا العربية الإسلامية، إحدى تلك الانبثاقات الإيمانية، وليس بالضرورة أن تكون جميع عناصر هذه الثقافات أو الانبثاقات الإيمانية قد امتحت تماماً، بل قد تحتاج إلى من يميّط اللثام عن تأثيرها وعناصرها فيما جاء بعدها من جماعات.

وإن أحد الأسباب التي تدعوني إلى الحث على دراسة هذه المراحل التاريخية، وهذه الديانات، هي محاولة تتبع العناصر الموروثة منها، أو تلك التي بقيت تدل عليها وتذكر بها، ولم تستطع الأيام أن تمحوه، ويمارسه الناس بعفوية، ودون كبير تعب لمعرفة أصله، من هذه العناصر مثلاً إشعال النيران في أماسي بعض المناسبات في الكثير من

البيئات الريفية التي لاتزال تتوارث هذه العادة (أو كانت تتوارثها حتى زمن قريب) دون أن تتوقف لنقد هذه الممارسة ومعرفة أصولها أو جذرها المعتقدية الايماني. إن العقل الايماني للناس استطاع أن يشكل منظومته بإدخال الكثير من العناصر الغريبة إليها دون أن تكون هذه العناصر تنتمي الى مصدر واحد. وعند نقاط التماس هذه نجد أنفسنا قد اقتربنا من مشاريع انبثاق العقل الايماني في إطار الديانات السماوية الحية (الابراهيمية) وهي الوارثة لما سبقها.

١ - في حقل اليهودية

لقد ظهر اليهود كجماعة بشرية ودينية في خضم البحر المتلاطم من الجماعات البشرية والدينية أيضاً، وكان لهذه الجماعة تماس مباشر وتأثر وتأثير مع غيرها من الجماعات، وتنتمي هذه الجماعة (بنو اسرائيل - العبرانيون - اليهود لاحقاً) الى ابراهيم جدها الأول كما تحدث التوراة، ويجمعها النسب مع جماعات أخرى كالعرب المنتمين الى ابراهيم أيضاً، والروايات كلها إيمانية، حيث تسعى كل جماعة أن تلتصق بالمتعالي أكثر وأكثر، والمصدر الوحيد للأخبار هذه، والذي كان أساساً للدراسات التاريخية لجماعات المنطقة وأحد أكبر المصادر لتاريخ الاجتماع البشري القديم - أو أكبرها على الإطلاق - هو التوراة، الكتاب الذي يروي السيرة الذاتية للجماعة الاسرائيلية اليهودية، ويسجل أحداث حياتها من وجهة نظر أبنائها، ويصور جوانب حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية والنفسية... الخ، وبالتأكيد انطلاقاً من قناعات ومواقف غير بريئة من الانحياز، مما أتاح للدارسين، ليس فقط المعرفة المباشرة التي ينتجها النص التوراتي، بل قراءة ما وراء السطور، عبر تحليلها واخضاعها لمناهج الدرس الحديثة، بعد أن سمحت الأحوال بذلك، لاكتشاف ما هو مزيف وما هو حقيقي، في مادة هذا الكتاب. وبهنا منه تأسيسه للتوجهات الايمانية التي هي في كثير من الأحيان مخالفة للتعاليم الدينية التي تشكل ما يعرف باليهودية، ويعتبر هذا الكتاب مصدرها الأول والوحيد، والغريب فيه أنه يؤسس القيم المتعالية ويؤسس الخروج على هذه القيم المتعالية فيما يرويه من أحداث وسلوكيات لاتحظى بالإدانة في أكثر الأحيان، ومن هنا قلنا إنه يؤسس لأشكال إيمانية تتنافى مع قيم الأديان التي عرفت

بالسماوية أو الابراهيمية.

التوراة يتحدث بصراحة لاحتياج الى حفر وتأويل عن التأثير الواضح للجماعة اليهودية الاسرائيلية، بثقافات ومعتقدات الشعوب التي كانت تملأ المنطقة، وكانت على تماس معها، وكانت هذه الجماعات متجذرة في المنطقة على كافة المستويات عندما وفدت الجماعة العبرانية (اليهود لاحقاً) إليها. فالتوراة يتحدث عن اللوم الشديد من قبل رب الجماعة الاسرائيلية (يهوه) لسليمان الملك الاسرائيلي (والنبي) الشهير، لأنه لم يسر على نهج أبيه داوود، فصنع الشر في عيني الرب باكثاره من الزيجات والتسري بنساء تقول عنهن التوراة إنهن (كنعانيات وصيدونيات) مما أثار الخوف على معتقد سليمان الذي انحرف عن خط والده الايماني، وتبع نساءه في معتقداتهن، مما أوجب لومه، فهؤلاء النسوة «أملن قلبه» الى ألتهن حسب تعبير التوراة.

فإذا كان التأثير والتأثر بين الديانات السماوية وأديان المنطقة الأخرى، يعود الى هذه الوقت المبكر من فجر هذه الديانات، التي لم تنج أي منها من مثل هذه المؤثرات، والتي نحن بصدد الحديث عنها في اليهودية، والتوراة صريحة في الحديث عن ذلك، فلا شك أن التأثير واستمراره أبقي العناصر الأجنبية من متضمنات الاتجاهات الايمانية المتوالدة نتيجة هذا الاحتكاك والتأثر، بارزاً في إطار هذه الديانات السماوية الكبرى. وقد ظهرت هذه الديانات الكبرى كأنها شجرة ضخمة، يمثل جذعها أصل هذه الديانة، وأساسها المعتقد يوم وجدت، وبدت المذاهب والطوائف والتأثرات الايمانية، كأنها أغصان هذه الشجرة التي تحمل أوراقاً وثماراً منها المتشابه ومنها غير المتشابه.

وقبل أن استغرق في الإشارة الى الطيف الايماني الذي أحدثه حقل اليهودية الكهرطيسي، وبمناسبة ذكر بعض شخصياتها الأساسية، كسليمان داوود، المثقلين بالخطيئة، واللذين يصورهما لنا القرآن غير ما هما في صورة التوراة لهما، إذ هما يتحولان من ملكين يرتكبان الأخطاء والجرائم والفظائع في التوراة وهما بين رضى الرب وغضبه إذ هما في القرآن، ينتميان الى المتعالي والعصمة، فهما نبيان، وهنا أود أن أشير الى أنه في كل دين، شكلت دعوته ديناً سماوياً واسع الانتشار، هناك شبكة من الأشخاص على شكل سلاسل تبدأ من المراكز ثم تبتعد فتمتد وتزداد تشعباً كلما ابتعدت، هذه الشبكات تألفت في البدايات من صدقوا الدعاة (الأنبياء) وآزروهم

وحموهم وحملوا تعاليمهم، وقد أظهر الأنبياء الاهتمام الشديد بهؤلاء الرهط أو الحواريين أو الصحابة المجتمعين حولهم، لأهداف إيمانية، وأولوهم ثقتهم، واعتمدوا عليهم في الكثير من المناسبات، مما أكسبهم سمعة طيبة في تاريخ الدين الذي ينتمون إليه، وربما الدين الذي تلاه، وصل هذا الاحترام وهذه السمعة الطيبة، حد التقديس عند من تلا من أجيال، متناسين أن هؤلاء ينتمون الى عالم البشر، ومع ذلك فقد تم التعاطي مع تميز هؤلاء وتقديسهم، بمنطق السكوت عنه، وتشجيعه أحياناً، لما لهم من مكانة سامية في نفوس المؤمنين في كل دين على حدة، وهذا الأمر أيضاً دفع الى تكوين طيوف إيمانية كان محورها إحدى هذه الشخصيات التي بالغ أتباعها والمعجبين بها بتقديسها، حتى أصبح ذلك ديناً داخل دين، أو مذهباً إيمانياً جديداً يقترب من الدين الأساسي أو يبتعد عنه درجات، كما أن الذي حدث، أن جل الشخصيات التي تعاطت مع الشأن الديني التقديسي، وبالتوارث والعدوى، بدأت تحظى بشيء من الاحترام بتدبير منها أو بفعل الأيام والمشاعر الإيمانية، بأسباع الاحترام والقداسة على كل ماهو قديم خاصة ما كان قريباً من التدشين، حتى أصبح تاريخ الأديان هو تاريخ قديسين، وبالتالي تاريخ شياطين، باعتبار أن القداسة تحصل ضداً على الشيطنة، وباعتبار أن من امتنع عن الترادف والانسجام مع منطق القداسة، لن يجد إطاراً يحتويه سوى إطار الشيطنة، والشيطان نقيض الرحمن، حسب منطق الحدية والاستقطاب الذي رعته الأديان، حيث أن الحد الثالث مرفوع.

هذه النظرة ظلمت الناس على مر العصور، وظلمت التاريخ حين جعلته رهناً بهذه الأحكام القاصرة عن رؤية الانسان داخل شرطه الانساني الفاعل، وفي طيف ألوانه المتماوجة بين الأبيض والأسود، بل جعلته محروماً من الفاعلية المضحي بها نتيجة الفهم القاصر الذي لم يستطع أن يرى أن الانسان لن يكون فالحاً عند الله ما لم يكن فالحاً في تعامله مع أخيه الانسان، فجوهر الأديان العمل على إيجاد مجتمعات بشرية تركز إنسانية الانسان، مما أحال هذه القيم الدينية الى إيمان قاصر، لم ير في الإنسان إلا هذا الصراع الأزلي بين الرحمن والشيطان على مستوى الروح، والذي هدفه استمالة بني الانسان، وساحته عقول وقلوب وضماير هذا المخلوق المضيع والمشتت، بالتالي فإن اختزال الانسان الى إنسان رحمانى أو إنسان شيطاني، ضيع إنسانيته وانتماءه الى

جذره، وأزاح من المعادلة الانسان الانساني الذي يختزن ميزات وقدراته فيه، لاف فيما يستمد من خارجه. وهذا ما نتج عنه الاتصال بالهرمسية التي لا تجد الالوهة خارج الإنسان، ثم الحلولية والمذاهب الصوفية: «إننا لانعمل إلا على تضليل أنفسنا حين نبحث خارجنا عما هو في الحقيقة داخلنا (الله)»^(٥). هذا النص الهرمسي الذي ينقله د. (محمد عابد الجابري)، يوحى باهتمام المؤمن بالبحث عما يعوض له ما افتقده.

إن الاصطفائية والتفضيلية التي كرسها ورثة الحواريين والصحابة والرهط المقربين، قد ضحت بأهم مبدأ من مبادئ الأديان السماوية، وهي مبدأ المساواة الذي بشرت به هذه الأديان وجاءت رداً على منتهكيه، من هنا تنبع انسانيته وجاذبيتها، ومن هنا أيضاً كان على المتعاطين في الشأن الديني أن يبرزوا هذه الصفة بالتخلي عن نظرة التعالي والايحاء بأن الله اصطفاهم وأنهم ورثة الحواريين والصحابة شهود التدشين جيلاً بعد جيل.

وبالعودة الى اليهود واليهودية، نجد أن العامل السياسي لعب دوراً مميزاً في حياة اليهود وانتشار اليهودية، أو تحولها الى اتجاهات إيمانية، بدا واضحاً وجلياً فيها أثر البيئات والشعوب التي عاش اليهود فيها في كل أنحاء العالم، والملاحظة الإيمانية المبدئية هي الانغلاق الذي تعيشه هذه الديانة، من حيث قبول الآخر والانفتاح عليه، والدخول والخروج إليها ومنها، وقد انعكس هذا الانغلاق على حياة اليهود الاجتماعية، فأدى الى عزلة كرس الانغلاق الإيماني، وكان تأثيرهم وتأثيرهم في البيئات، تكريس جو الشحناء، خاصة في المجتمعات الغربية.

لكن أثر السياسة والبيئة التي ينتشر فيها أي دين من الأديان، سيظهر بشكل أو بآخر من خلال العناصر العبادية والطقوسية التي تتسلل الى عبادات وطقوس ومعتقدات هذا الدين أو ذاك، والتي قد تتطور عبر الأيام لتصنع تياراً إيمانياً، وجماعة إيمانية لها شيء من التمايز عن غيرها، لكن هذه العوامل، تلعب أدواراً مختلفة بالتالي يكون تظهر تأثيراتها مختلفاً. وإذا كانت التوراة - كما أوضحنا - قد أسست لتأثير المؤثرات الخارجية، بإيرادها للإشارات المتعددة الى تأثير ديانات البيئة في الكثير من العناصر والشخصيات اليهودية العالية المستوى، ونوهت بمن انحرفت قلوبهم عن إلههم (يهوه)، فإن التوراة قد أغلقت وتم اكتمالها عبر صياغتها النهائية من قبل

أخبار اليهود، الذين لم يتخلوا عن مهامهم في حماية الأسيرة وزيادة متانتها لإحكام الانغلاق، فبقيت آراؤهم وتوجيهاتهم الايمانية والعقيدية تتوالى، وبقيت تفرض على شعبهم زيادة في التجيش، فيزداد التعصب وتشتد العزلة والانغلاق. يبرز ذلك واضحاً فيما سمي بعد ذلك بـ «التلمود» وكأن التوراة بما تحتويه لم تكف، والتلمود أيضاً تلمودان، تلمود فلسطيني، وتلمود بابلي^(٦). هذا الكتاب بصفحاته التي قد تربو على ستة آلاف صفحة، تضمنت مزيجاً هائلاً من العادات وتجارب الحياة والآراء والمصالح، التي أصبح اليهودي المؤمن يوظفها في تعصبه وانغلاقه وفي علاقاته التمييزية العنصرية مع الشعوب، وقد أصبح جزءاً لا يتجزأ من أقدس ما في التراث اليهودي، وبدخوله عالم القداسة ساهم مساهمة كبيرة في صياغة الشخصية الايمانية اليهودية. والتلمود نص ايماني بجدارة، لأنه كتاب وضعي يحاكي الكتب المقدسة، وقد اكتسب القداسة كما اكتسبها غيره من الكتب في جميع الديانات ولدى جميع التيارات الايمانية.

وهذا الكتاب بقي يستمد من التوراة أسلوبها في بناء الشخصية اليهودية المؤمنة، حتى كثرت علامات الاستفهام على هذه الشخصية، وقد عكف الدارسون على توضيح الشخصية الفضائية للكتابين من ذلك ما فعله د. (جيورجي كنعان) في كتابه «أمجاد اسرائيل» وغيره من الدراسات، ومن بحور الأمثلة التي استمدتها المؤلف من التوراة وناقشها مبيناً فضائحياتها على ما للكتاب من مكانة قدسية رفيعة، يشير الى استخدام ابراهيم (ابرام) زوجته (سارة) للحصول على مكاسب مادية، مضحياً بالجانب الأخلاقي أكثر من مرة، فقد قال عن زوجته أنها أخته وأوصاها أن تقول ذلك، ليحصل على رضا فرعون الذي أخذ سارة إليه^(٧). وكرر إبرام التجربة مع أبي مالك، ملك جرار الفلسطيني، حيث ادعى وطلب منها أن تدعي (سارة) أنها أخته، كي يحظى بخير أبي مالك، غير مبالٍ بالنتائج الأخلاقية^(٨). وتكرر الدرس ذاته ثالثة مع «رفقه» كنة سارة وزوجة اسحق، كذلك مع أبي مالك، ملك جرار حيث قال عنها اسحق إنها أخته مضحياً بالقيم الأخلاقية في سبيل المصالح النفعية^(٩).

والتوراة التي بين أيدينا تعج بالدروس المنتمية الى العقل النفعي (البراغماتي) الذي يوظف الايمان ولا يتورع عن الاقدام على أي عمل في سبيل المصالح، وهي دروس

تتعلم منها الأجيال المؤمنة، وقد تعلمت فعلاً، فيعقوب يخدع أخاه عيسو ويأخذ بكوريته في عملية خداعية سافرة، ومؤامرة واضحة أوردتها التوراة، ويعقوب (اسرائيل) يستولي على غنم خاله الذي كرمه وزوجه بنتيه، أيضاً بالخدعة، ورأوبين بكر يعقوب يضاجع بلهة زوجة أبيه، هذه الحكايات وآلاف غيرها توردتها التوراة، لتتعلم منها أجيال (شعب الله المختار) المؤمنة، وقد وثقتها التوراة ومن بعدها التلمود، لتكتسب أعلى درجات القدسية، وهذا السيل من الحكايات مفروضة على عقول الناس ووجدانهم، في كتاب تأسست الدراسات التاريخية وغيرها بناء على معطياته، فأى تاريخ تعتز به البشرية هذا؟! وأية مصداقية لمثل هذا التاريخ؟! وأية ميزات للشخصية المؤمنة سينتجها الاعتماد عليه؟.

لقد برز اليهودي في تاريخ المجتمعات البشرية التي عاش فيها مرابياً، وعلم ذلك لغيره من الشعوب كما سنرى، وإيمانه يسعفه في مثل هذا الاستغلال السافر، والإيمان اليهودي أيضاً إيمان عنصري سافر ارتبط بقبيلة بني اسرائيل التي احتكرت حتى إلهها (يهوه). إذاً كان الاعتماد على التراث اليهودي خير معين لليهود خلال التاريخ في الأشكال الإيمانية التي ظهرت بينهم.

من أبرز الحركات الإيمانية التي ظهرت في إطار الدين اليهودي هي الحركة الصوفية (القبالة) أو فلسفة القبالة، التي كانت فلسفة ونمط تفكير وإيمان يقول عنها د. (الصادق النيهوم)، إنها فلسفة تنتمي إلى الكنعانية وأن اليهود استحلوا لأنفسهم حروف الأبجدية الكنعانية، وأصبحوا الورثة غير الشرعيين لحضارة الكنعانيين وأراضيهم، وحولوا القبالة إلى نوع من السحر والشعوذة، وبقيت القبالة الحقيقية ضائعة، وقد تحولت على يد اليهود إلى مذهب صوفي في حين أنها في حقيقتها ليست صوفية، بل منهج يسعى لتنمية وعي المواطن بتدريبه على اكتشاف قدراته العقلية^(١٠). وهذه القبالة يصفها د. (عبد الوهاب المسيري) بالصوفية الحلولية «وجوهر حلولية القبالة قولها: إن الخالق يحل في المخلوقات، والمخلوقات هم أساساً الشعب اليهودي»^(١١).

وسواء كانت هذه القبالة كنعانية أو عبرية، وسواء كانت حلولية أو لا، فإنها تمثل أحد انبثاقات العقل الإيماني اليهودي وتجلياته، مثلها مثل إحياء البرجوازية اليهودية

للمشعور الديني وتحويله الى وسيلة للتحالف والسيطرة مع بقاء التمايز، بينها وبين البورجوازية الأوروبية، وقد جعلت هذه البورجوازية (الصهيونية) الدين غطاء لما هو خارج على الدين، ويندرج في سلم المصالح، كما علمتهم التوراة. ولاتزال المرتكزات الايمانية منطلقاً لاستغلال الآخرين (الغوييم) في أبشع عمليات استغلال ونهب للشعوب، ولقد برزت الصهيونية الدينية (الايمانية) قبل السياسية ومنطلقاً لها.

ويشير أديب ديمتري الى أن فرقة المتصوفة المعروفة بـ «الحصيدية» والتي هي فرقة أو اتجاه ايماني تحت لواء اليهودية، انتشرت على يد حاخامين متبحرين في الطرق الصوفية الباطنية، أو (القبالة)، وهي فرقة شابها الكثير من ضروب البدع والخرافات وادعاء الخوارق والمعجزات وعلم الغيب، مع أنها مثلت شكلاً من أشكال التمرد على الغيتو^(١٢)، وقد كان هذا في منتصف القرن الثامن عشر، وقد انتشرت في تلك الفترة بأوروبا فرق سبتية ومسيحانية وشاعت الفوضى والاحاد^(١٣).

هذه الحركات الايمانية كانت تأخذ اسمااء متعددة فتارة تنتشر تحت راية الاصلاح الديني اليهودي الذي تأثر بالاصلاح المسيحي السابق له، وإحدى أشهر حركات الاصلاح في إطار اليهودية الأوروبية كانت الحركة التي قادها «موسى مندلسون» ضد سلطة الحاخامات كما كانت ثورة لوثر وكالفن في المسيحية ضد الكنيسة^(١٤).

وقد سميت حركة الاصلاح اليهودية التنويرية (الهسكلية أو الهسكال) ومعناها الحكمة أو الفهم، وهي تستخدم بمعنى التنوير أو تثقيف العقل أو الليبرالية، وقد انتشرت في أوروبا بين ١٧٥٠ - ١٨٨٠م^(١٥). والملاحظ أن كل حركة اصلاح سواء في اطار اليهودية أو غيرها من الديانات، تدعي أنها تنويرية، وانها هي التي تمثل الخط الارثوذكسي وتحارب الانحراف والهرطقة أي إنها توجهات إيمانية.

هذه الحركة الدينية الاصلاحية اليهودية دعت الى اندماج اليهود بمجتمعاتهم الغربية، وهذه تعتبر فكرة ثورية تدعو الى هجر عقيدة الغيتو وعقلية الغيتو التي تشكلت عبر علاقة اليهود بالمجتمعات التي عاشوا فيها والتعصب الذي مارسوه هم ومارسه الآخرون عليهم حتى أصبحت الشخصية اليهودية رديفة للانغلاق والتعصب، بالتالي الحقد والكراهية، وقد شجعت هذه الحركة الاصلاحية الزواج المختلط مع طوائف أخرى واعتماد اللغات الوطنية في العبادة^(١٦).

في الوقت ذاته كانت هناك أصوات تثبت النظرة العنصرية، وتحفر مجاري التعصب، من أشهر هذه الأصوات، رائد الصهيونية العنصرية «موسى هس» الذي توفي عام ١٨٧٥م^(١٧). والذي كان يرى أن الفرقة الحصيدية هي الأشد والأكثر انغلاقاً ومحافظة في تاريخ اليهودية. ولاشك أن الصهيونية كانت دعوة خلاقة استطاعت كاتجاه إيماني تعصبي عنصري أن تخلق شعباً يفتقر للكثير من عناصر اللحمة، كما أنشأت دولة ومجتمعاً.

واليهودية لاتزال حتى يومنا هذا تفرّخ الكتل الإيمانية التي تقوم ككل السلفيات في الأديان الأخرى على أحياء ماضيها الإيماني التليد، لكنها تأخذ في اسرائيل، بعداً أكبر من حيث قدرتها على التأثير في المجتمع والسياسة، بشكل مباشر أكثر، ومن أمثلة ذلك، جماعة كاهانا وغوش إيمونيم، وحراس الهيكل، وكاخ وغيرها، وكل هذه الحركات تقوم على أساس التجيش الطائفي والديني التعصبي الذي يقوم على نفي الآخر.

وهذا العقل الإيماني اليهودي لايزال يستحضر من أعماق تاريخه كل مايسعفه في الاستنفار الإيماني وبقاء جذوته متقدة، فغذاؤه الروحي يقوم على أساس التمايز التعصبي مع الشعوب، ويستغل كل مناسبة لذلك، فلا يزال اليهودي يحتفل بأعياد ومناسبات دينية، ويبرز تشدده في إيلاء الجانب الإيماني في هذه الاحتفالات الأهمية الكبرى، ولا تزال الرموز تحفز الوجدان، وتثبت الايديولوجية الصهيونية، ويتم استحضارها في مناسباتها، فاليهودي يحتفل في /١٤/ نيسان ولمدة ثمانية أيام من كل عام، بعيد الفصح اليهودي الذي يسمونه عيد الخبز الفطير، لأنهم يحتفلون فيه بذكرى فرارهم من مصر، حيث يقولون إنهم لم يستطيعوا خبز عجينة فحملوه معهم فطيراً لم يتم تخمره، وقد تحول الى رمز إيماني يتم استحضاره باستمرار^(١٨). وقد اتهم المسيحيون الأوروبيون اليهود باختطاف الأطفال ليقدموهم قرباناً الى يهوه، أو ليتخذوا دماءهم دواء، أو ليستعملوها في صنع خبزهم الفطير في عيد فصحهم، كما اتهموا بتسميم الآبار التي يشرب منها المسيحيون، وهذا ما أدى الى قيام مذابح بشعة لليهود على يد المسيحيين في أواخر القرن الحادي عشر أو على امتداد التاريخ اليهودي والعلاقة مع العالم المسيحي^(١٩).

وقد كان اليهودي يلجأ الى الدهاء ليتقي الأذى الذي كان يلقاه من الأوربيين^(٢٠). ولما كان الهدف مما تقدم ليس التاريخ لدين ما ، ولتحولاته وتشعباته وانقساماته وعلاقاته المستحدثة مع غيره من الأديان، فإننا نتوقف هنا لنشير الى أن ما ذكرناه جاء للتدليل على أن الدين لم يحافظ على نفسه كما بدا عند اكتماله، كما لم يحافظ على خط تطوري واحد وثابت يطلق عليه خط الدين الفلاني، بل إن الصراعات وعلاقات الفرق الناشئة عن هذه الصراعات ببعضها وعلاقتها بأبناء الأديان الأخرى أوجدت خطوطاً تقترب وتبتعد عن الدين الأساس، حسب ما اقتضته مصالحها وظروف حياتها وعلاقاتها الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية وغيرها، وتتغير شدة التمسك بالدين ضعفاً أو قوة حسب ظروف الحياة، من الرخاء الى الشدة، ومن العداء الى الوفاق، ومن العلنية الى السرية، ومن البساطة الى التعقيد، وكل هذه المتغيرات تحمل جديدها الى الدين، هذا الجديد المتحصل من الاحتكاك الثقافي بالآخرين، ومن ظروف الحياة الأخرى، حتى ليكاد الجديد أو العناصر الدخيلة على مذهب من مذاهب أحد الأديان تغلب على ماهو أصيل ومنتمٍ الى هذا الدين، وكثيراً ما يتم اللجوء الى السرية والتهويل بعذاب الآخرة الذي ينتظر المخالفين لاختضاع الناس وجعلهم ينصاعون فـ «كثيراً ما يكون التهويل في القول ضرورياً لالقاء الهيبة في أذهان الشعب، فكلما قل إدراكه زاد عجبه» (هذه العبارة حفظتها بنصها منذ زمن طويل، وقد أوردتها مؤلف كتاب عن التقمص على مذهب الموحدين الدروز، وقد نسيت اسم مؤلفه كما نسيت العنوان الحقيقي للكتاب، والعبارة منسوبة الى القديس غريغوريوس النازياني).

لقد كانت حياة اليهود عرضة لكل المؤثرات بسبب تشتتهم واحتكاكهم بالشعوب والأديان والثقافات الأخرى وكان لها الغلبة العددية والسلطوية في مواقع الاحتكاك، مع ما كان هناك من تنوع مذهبي يفرض نفسه. هذا الاحتكاك أتاح لهم حركة تشاقت أدت الى تغيير في الايمان اليهودي الأساسي الأول، وتعددت مللهم وطوائفهم وتمايزت عن بعضها، وتمايزها لم يكن بالتعاليم الأساسية لأنها واحدة لا تتغير، بل تم التمايز بما دخل على قنوااتهم الايمانية الدينية من مؤثرات، وهذا التشاقت، وهذه المؤثرات ليست حكراً عليهم، ولم يخضعوا لها وحدهم، بل جرت على مستوى كل الشعوب والأديان، وسنرى أنه لم ينج منها دين أو مذهب، ولقد مر معنا كيف أن حركة الاصلاح الديني

اليهودي تأثرت بحركة الإصلاح الديني المسيحي في أوروبا، وقلدتها ربما في محاولة كسر الجمود، في مثل هذه الحركات يمكن أن تتسلل العناصر الخارجية الى إيمان الناس وتحصل خطوط إيمانية مشبعة بفكر آخر دخیل، لا يلبث أن يصبح جزءاً من اتجاهات حديثة تأخذ مجراها في الحياة، من ذلك ما هو متأصل يأخذ مداه في صياغة حياة الناس وقوانينها ونظمها ومنها ما هو شفهي متوارث ولكنه ذو تأثير لا ينكر.

٢ - في حقل المسيحية

إن انبثاق المسيحية من حضن اليهودية، يشير أنها جاءت في الأساس استجابة لدواعٍ استدعتها، في الوسط الذي ظهرت فيه، وكأن التجربة أثبتت أن اليهودية خلال القرون التي سبقت المسيحية لم تستطع سد حاجات المجتمع الذي انتشرت فيه. إذاً كانت المسيحية عملاً خارقاً، جاء لإصلاح خلل، ولتدارك ماتم إهماله من جزئيات في سياق الحياة. فاليهودية اتسمت بصرامة تشريعها، وقسوة عقوباتها، ومن هنا فقد أثبتت الحياة أنها بحاجة الى فسحة أكبر من الرحمة والمحبة والتسامح، وأن هذه القيم هي أقرب الى تركيب النفس الانسانية، بالتالي لها دورها الفاعل في الحياة الاجتماعية. وكانت سيرة السيد المسيح وحياته القصيرة، تجسيدا للمعاني التي تتوق إليها النفس البشرية، وتعتبرها من مقومات الحياة الحرة الكريمة، إذاً جاءت تركز السلوك النقيض، والخروج من عبودية الغرائز، جاءت نقيضاً للكرهية والحقْد والجشع وغيرها من القيم الرديئة التي بقيت سائدة في مجتمع سيطرت عليه اليهودية ردحاً طويلاً من الزمن. إذاً كان الخروج من عبودية التملك وشهوته الضاغطة على حياة الانسان الى رحابة الحياة الحرة حيث لاتضغط الشهوات والغرائز، فتحقق الحياة أكثر معاني الإنسانية إشراقاً. وقد أشرنا سابقاً كيف أراد السيد المسيح من خلال سلوكه أن يعلم الناس القيم الايجابية الرفيعة، فتخليه عن أملاكه التي كانت كوزاً يستخدمه في الشرب ومشطاً يمشط به لحيته، عندما وجد أن الحياة يمكن أن تستمر بدونهما، إنما هو عمل تعليمي، أراد أن يعلم الآخرين كيف يخرجون من عبودية المادة، الى رحاب حرية أعمق، وأقل استلاباً، وقد عزز هذا الموقف بتعاليم لاتزال الانسانية ترودها عندما تستعيد أجواء الرحمة مثل قوله: «إنه لأسهل أن يدخل الجمل في ثقب الابرة من أن

يدخل الغني ملكوت الله» متى ١٩: ٢٤. ويشير سمير عبده الى أن كلمة الجمل هي في الأصل (كملاً) بفتح الكاف وتعني جبل السفن، وهذا ما قصده الرسول متى، وهذا المعنى منطقي أكثر، إلا أن الذي راج لفظ (الجمل) حيث فهمت (كملاً) بضم الكاف بمعنى حيوان الجمل^(٢١).

لقد وجدت حياة المسيح وما جسده من معان الكثيرين ممن تحدثوا عنها واستخرجوا معاني ودلالات ودروساً من هذه الحياة، كما درست تعاليمه التي تأسست عليها الديانة المسيحية ذات الانتشار العالمي الواسع، والمسيحية الآن أصبحت مسيحيات، فمن أين جاءت هذه المسيحيات كلها؟ وكم بقي من المسيحية الحق فيها؟ إن هذا التشظي يحيلنا الى التفارق بين الممارسات وبين النظرية، وهو الأسّ في تعطيل فاعلية أعظم المبادئ في الكون سواء كانت المبادئ سماوية أو وضعية.

لقد جاءت كل هذه المسيحيات من الفهم المختلف الذي آلت إليه المسيحية الأم، هذا الفهم المتحصل من الفروق بين الشخصيات وقدراتها وميولها وثقافتها، كما هو آت من حياة الشعوب والمؤثرات الفاعلة فيها، كما من الموروث عندها، ومن الاحتكاك والثقاف، ومن العادات والمصالح والسياسات، كما هي حاصلة من نتائج صراع السيوف ومنطق الغلبة.

وماتقدم أدى الى هذا التنوع الشديد، والى وجود مذاهب شتى في إطار المسيحية، هذا التنوع يبرزه تنوع الكنائس وتعددتها، فالكنائس المسيحية تحمل خصائص قومية وعرقية ومناطقية، آيلة عن انتشارها، وطرق تلقي الشعوب لها وفهمهم إياها، بالتالي فإن الديانة الواحدة التي تفترض عبادة واحدة، أصبحت ديانات وعبادات، كلها لها شرعيتها التي ليست محل شك، ولكل منها نكهتها وخصوصيتها وثقافتها الشفهية والكتابية وعاداتها ورموزها، ويشير سمير عبده الى أن عدد الكنائس المتواجدة في سوريا، والتي يقدم لمحة موجزة عنها، (مع الأخذ بعين الاعتبار أن سورية ليست بلداً تغلب عليه الديانة المسيحية، بل يعتبر المسيحيون أقلية وطنية متجذرة) هو اثنتا عشرة كنيسة أصيلة^(٢٢)، غير مايتواجد من رعايا كنائس أخرى والكنيسة هنا قد تعني مذهباً، أو ملة، أو فهماً له خصوصيته، أي بمنطق بحثنا توجهاً إيمانياً يتشارك مع غيره بعناصر ما، ويحافظ على عناصر من تلك التي بشرت بها المسيحية في أولياتها بنسبة

ما، ولكنه يحافظ على قيم التغير التي كانت السبب في وجوده، ولولاها لفقد مبررات هذا الوجود، ولم يعد في مقدور أحد الاعتراض على ذلك أو انكاره.

الكنائس المتعددة هي قراءات متعددة لدين واحد هو المسيحية، قراءات مغرصة (بمعنى أنها تجري على ضوء ثقافة وظروف وقناعات من قاموا بها) إنها قراءات تلوينية (والمصطلح مأخوذ من كتاب نصر حامد أبو زيد «نقد الخطاب الديني» حيث يشير إلى القراءات ذات الطابع الخاص لنصوص الدين، تحديداً الاسلام)، هذه القراءات المغرصة أو التلوينية والتي ترتب عليها مذاهب أو كنائس لها طقوسها وحياتها الدينية المستقلة والتمايزة، والتمايز يبدأ من الأزياء حتى الأعياد والقديسين والقوانين الكنيسية والعادات وغير ذلك، هي التي نعنيتها بقولنا جماعات إيمانية قد تفصح عن خلافاتها برموز وتصرفات بسيطة، وعادات منها مايلفت الانتباه ومنها لا، ولكنها ذات فعل كبير في أرض الواقع وحياة الناس، فطريقة رسم الصليب بإشارة من اليد تحدد الانتماء الطائفي لشخص ما، وهذا ليس المهم، بل المهم أنها تحدد طريقة التعامل مع هذا الشخص، من هنا يبدو الأثر الحياتي للتوجه الايماني، فأثناء تواجدي في منزل مسيحي في لبنان، دخل شخص مسيحي آخر دل عليه اسمه المسيحي (جورج)، ولما لم يرغب أن يفصح عن مذهبه أو طائفته المسيحية بشكل فج، جاءت الفجاجة من زوجة المضيف (صاحبة المنزل)، عندما طلبت إلى الضيف أن يعرف على طائفته، ولما رفض طالبت أن يرسم إشارة صليب، وعندما تساءلتُ بعد ذلك عن الهدف، قيل لي إنها تعرف انتماءه الطائفي من طريقه رسمه للصليب بحركة من يده.

إن الحفاظ على التمايز في تاريخ الأديان ومذاهبها كان مكلفاً، فالمؤمنون الارثوذكس المتصلبون في كل دين، والذين يحسنون الترادف على مؤدجليهم، كانوا مستعدين للتضحية باستمرار في سبيل مبادئهم وقناعاتهم الايمانية، وخصوصياتهم الطائفية التي تحمل عناصر عدوانية، وإلا، كيف نشأت كل هذه الحروب في تاريخ الأديان؟! حروب داخلية في إطار الدين الواحد بين المذاهب، وحروب خارجية مع أديان أخرى. وكيف سالت كل هذه الدماء، وأتيح لكل هؤلاء الأبطال المؤمنين أن يحصلوا على الشهادة ويتحولوا إلى قديسين؟! إنه لشيء منفر أن يكلل المجد هامة من يقتل بني الانسان! وكل ذلك باسم الله أو نيابة عنه! وكلما أوغل الإنسان المؤمن في القتل

والحق، قيل له أو تخيل أنه أقرب الى الله. هكذا يقول التاريخ، تاريخ الشعوب المصطبغ بالحمرة! وإذا انطلقنا من تعاليم المسيح أو غيره من الأنبياء في التأسيس لتساؤل تضج به الرؤوس: كيف اجتمع الحق والكراهية ونفي الآخر وقتله مع القيم الإنسانية الرفيعة التي بشر بها الأنبياء لتكوين المؤمن؟ وهل المؤمنون وطرائقهم إلا صوراً بشكل أو آخر لهذه القيم الرديئة إذا وجدت لها مكاناً في قلوبهم وعقولهم؟.

هذه التشعبات الايمانية، وهذه المناخات الايمانية هي التي صنعت هذا العقل الايماني ذي الجبروت، وإطلاق العقل على هذه المنظومة يحمل معنى زائفاً من وجهة نظر ما، ومن المفهوم السائد للعقل اجتماعاً. في حين أن العقل بمفهومه المجرد محايد، وهو «يتمظهر بكونه فعل تطلع الى الحقيقة وإدراك لها، أي بكونه القوة الطبيعية السامية التي يمتلكها الانسان للقبض على الحقيقة، أو لانتاجها. والعقل يتعرف على نفسه بكونه طاقة حرة وسيدة في مجال الكشف عن الحقيقة وتكوين المعرفة الصحيحة»^(٢٣) إن التعريف السابق يندرج في إطار النظرة المعيارية للعقل، فنراه طاقة خلاقية. في حين أن الدكتور (محمد عابد الجابري) يرى العقل نظاماً معرفياً تقرأ على ضوءه الأحداث والأفكار، وإن الثقافة إطار يتجلى فيه العقل، وبالتالي هي المجال الأساس لمعرفة عقل ما^(٢٤)، وباعتبار العقل الايماني هو المنتج لثقافات شعبية متنوعة بتنوع الطوائف والملل، فإن الثقافة الشعبية شفهية أو كتابية هي الإطار الضابط لهذا العقل، مع قلة ضوابطه وضعفها.

من هنا - والحديث لا يعني الثقافة أو الثقافات المسيحية وحدها - كان لابد من القاء نظرة، أو إعطاء فكرة عن التمزقات والانقسامات التي حدثت في إطار الأديان، والتي أعطت كل هذا التنوع الثقافي الذي ينظمه عقل إيماني أو عقول إيمانية.

من هنا أيضاً تبدو الإشارة الى التمايزات الحاصلة في الثقافة المسيحية، منذ بدأت بالانقسام الى مسيحية شرقية ومسيحية غربية، لكل منها تلوناتها وتعرجاتها، بالتالي ثقافات وعقلها. ويعتبر عام /٤٥١م/ هو عام انقسام الكنائس المسيحية الأربع الكبرى الى مجموعتين على إثر انتهاء عمل المجمع الخلقيدوني في ذلك العام، ثم بدأ التفرع والانقسام بعد ذلك^(٢٥). ويشير سمير عبده قبل ذلك الى أن آراء واتجاهات مذهبية مسيحية ظهرت سابقاً، وأن النسطورية تعود الى أوائل القرن الخامس الميلادي^(٢٦).

والآن نحن أمام هذا الغنى والكم من الكنائس والمذاهب والاتجاهات التي تحمل معاني النعمة، مثلما قد تحمل معاني النعمة، كما لا يخفى. وإذا كان النساطرة قد اثبتوا للمسيح خصائص بشرية في الوجود والارادة والفعل، فإن اليعاقبة أكدوا على وحدة المسيح الالهية^(٢٧). وقد كانت هذه الانقسامات على أرضنا العربية، أو بعض هذه الانقسامات، وهنا تأثير الفيشاغورية المحدث في تكوين اتجاهات وتيارات إيمانية، ليس في إطار المسيحية فقط بل في إطار الإسلام أيضاً، تجلى في الحلولية والتصوف، وهذا ما جعل الجابري يدرسه تحت عنوان «العقل المستقيل»^(٢٨).

وقد أشرنا سابقاً الى المانوية كاتجاه إيماني كان يطمح الى إنشاء دين جديد، وقد حقق انتشاراً واسعاً، امتد من اسبانيا غرباً الى الصين شرقاً، وتشير الدراسات الحديثة الى هذا الانتشار، وقد تأثر هذا (الدين القديم الجديد)، بالمسيحية والبوذية والزرادشية واعتمد الغنوصية^(٢٩).

مع أن القرون الأولى لظهور المسيحية، كانت قرون الانتشار، وتثبيت العقيدة الجديدة ونشرها، ومع أن الكثير من الجهد بذل من قبل أجيال المؤمنين المتفانية لنشر المسيحية، مما استدعي طوابير الشهداء على هذا الطريق، فإن ذلك لم يمنع من انتشار آراء كثيرة أدت الى تكوين طوائف وطرق وأساليب إيمانية مجددة، وقد كانت كل طائفة أو جماعة تغير في طقوسها وعاداتها المرتبطة بالممارسة الدينية، وكل طائفة تخلق قديسيها، وتوجب احترامهم، وكل هذا أوجد المناخات الإيمانية الشعبية التي شكلت العقول الطائفية تشكيلاً إيمانياً يختلف بين طائفة وأخرى، وهذا ما يجعله يتفارق عن العقل الديني المنتمي فقط الى التعاليم الأساسية قبل الانقسام، أي قبل الطوائف والملل والشيخ، إن كان هناك ما قبلها.

في هذا المناخ كانت الظروف تقتضي التشدد أحياناً، خاصة في ظروف المواجهة، وتثبيت العقيدة في مواجهة العقائد الأخرى، وكانت إرادة التمايز تفرض ذلك، ولكن في أوقات الاستقرار يتم التراخي، وتتبدل القيم، فما لا يكون مقبولاً زمن الشدة، قد يصبح مقبولاً زمن الأمن والطمأنينة، وهذا ما يجعل التسامح يسود، ولا يلبس التسامح أن ينقلب الى التراخي فالتسيب، وفي هذه الظروف تكثر البدع والخرافات، هذه الخروجات، يرعاها العقل الإيماني، الذي يقطع مع العقل العلمي والنقدي، كما يقطع مع

الدين في نواح كثيرة، في ظل سيادة الجهل، بالرغم من انتمائه أساساً إليه، وتفرعه عنه، ولكن القطع بمعنى عدم انتماء كل وافد أو أي وافد الى التعاليم والقيم الأساسية للدين، بالاضافة الى البعد عن قيمه الأخلاقية.

فقد كان تقي وورع رجال الدين يشوبه الكثير من التراخي، ويقول ول ديورانت إنه يستطيع أن يثبت ذلك بما يضره من مثات الأمثلة^(٢٠). ويشير الى أن الكثير منهم انغمس بالدعارة واللواط والفسق والشره وبيع الوظائف وسموا «خدم الشيطان» وأن أديرة الرجال والنساء كانت قريبة حيث يسمح ذلك لمن فيها بالاشتراك من حين الى آخر في فراش واحد، ويثبت ذلك المجلدات العديدة التي تحوي المحاكمات بسبب الاتصال الجنسي بين الرهبان والراهبات والتي لاتزال محفوظة في الأديرة^(٢١).

مثل هذه الروايات عن واقع الدين والايان في أوربا كما أورثتها العصور الوسطى الى عصر النهضة، كثيرة حتى أن ديورانت يفرد باباً كاملاً أو أبواباً في كل مجلد من مجلدات سفره الضخم (قصة الحضارة) لما سماه «الانحلال الاخلاقي»، ففي الجزء الرابع من المجلد الخامس من الكتاب يشير كثيراً الى الأولاد غير الشرعيين المنتشرين في كافة طبقات المجتمع وخاصة الطبقة العليا، ورجال الدين أيضاً، حيث يرى بعضهم وصل الى كرسي البابوية وله أولاد غير شرعيين، وإذا كانت هذه أخلاق رجال الدين الذين وصل بهم إيمانهم الزائف الى هذا الادراك، فما بالك بعامّة المؤمنين؟! وماذا يبقى من الأديان عندما تتحول الى حقول إيمانية ترضى وتسكت عن وتسوغ الانحلال^{١٢}.

ولما كان أكبر وأعظم وأسمى الأهداف التي تسعى الأديان لتحقيقها هي إيجاد مجتمعات تسود فيها القيم الرفيعة، والأخلاق الحميدة في جميع النواحي، فإن ما وصلت إليه حالة المؤمنين في العصور الوسطى في أوربا كما يصورها ول ديورانت، توحي بأن هذه المجتمعات المؤمنة قد وضعت الدين (الأخلاق) جانباً، لتعيش إيمانها الخاص وأهواءها الخاصة التي تسوغ لها أسوأ ما سجلته البشرية في قواميسها الأخلاقية، فقد أصبح المسؤولون الدينيون مجبرين على غض النظر عن الزنا والدعارة واللواط والأبناء غير الشرعيين عند كافة الطبقات حتى رجال الدين أنفسهم، كما أصبحت السرقة والرشوة والفساد والتهريب والتحايل للوصول الى الأهداف بأي شكل، وبأي ثمن من أساسيات القاموس الأخلاقي للمجتمع، مجتمع المؤمنين الذين تقوم على

حراستهم السلطة الغاشمة للكنيسة مدعومة بأقذر محاكم عرفها التاريخ وهي: «محاكم التفتيش».

وفي مجال أخلاقي آخر هو المجال المالي يقول ديورانت إن الربا قد بلغ من الانتشار حداً جعل البابا «أنوسنت الثالث» يجهر عام ١٢٠٨م بأنه لو طرد جميع المرابين من الكنيسة كما يتطلب ذلك القانون الكنسي لوجب إغلاق الكنائس جميعها^(٢٢). هنا نتذكر الإشارة الى العقل الربوي اليهودي الذي كان منتشرًا في أوروبا، فلقد انتقلت العدوى وأصبحت شهية الملك لا بل شراهة هذه الشهية، قد لامست الكنيسة كمؤسسة، فقد أصبحت الكنيسة أعظم قوة مالية في العالم^(٢٣). وقد مر وقت كانت الكنيسة فيه تملك ربع أرض فرنسا^(٢٤). فأى انسجام حاصل بين تعاليم السيد المسيح وورثة تعاليمه؟! وأي انتماء الى المسيحية هذا؟.

لأنسى أن هذه المرحلة الايمانية التي مرت بها أوروبا قد شهدت أعظم مراحل التجيش الايماني وتوقد المشاعر الدينية، مما اقتضى تنظيم الحروب الصليبية (الايمانية) على المشرق العربي والتي استمرت قرنين من الزمن، وهي حروب استعمارية بجدارة، اكتسبت الاسم الايماني والسمعة والهدف الايمانين المعلنين لتغطية مضامين وأهداف حقيقية.

ومن الطبيعي جداً أن نجد صورة إيجابية للممارسة الدينية الايمانية، ينسجم فيها المبدأ والتطبيق ويعيشها الكثير ممن لاتزال مسيحيتهم نقية، ويحافظون على نقائها، وهذه هي الحالة الطبيعية، والتي لاتستوقف الباحث الذي يرصد الخروج على المبادئ الصراطية، ولاشك كما أنه لملكة الغرائز والشر من يشغلها، فكذلك لملكة الطوبى من يشغلها. إن رصد التوجهات الايمانية ينطلق من استخدام مملكة الطوبى والتعاليم الصراطية والقيم الايجابية التي تذر بها نصوص الأديان وتعاليمها، معبراً ومرتكزاً لتحقيق ما لاينتمي إليها ولاينسجم معها، ولا نستطيع إنكار وجوده أو تجاهل هذا الوجود في الواقع المعاش تاريخياً.

في هذه المرحلة ومن المظاهر الواضحة للعقل الايماني، كان التمييز الشديد الذي يمارس على اليهود في أوروبا العصور الوسطى، حتى أن الأعمال الدنيئة والمرفوضة من قبل الآخرين، كانت تسند إليهم وكان يتم احتقارهم في كل مجال من مجالات الحياة مما

دفعهم الى التوقع، ونشوء ما أصبح يعرف بـ «عقلية الغيتو»، حيث كان العمل في الجيوش أو الأعمال الشريفة والمحترمة محرماً على اليهود^(٢٥). هنا نشير الى تصادم العقول الإيمانية للجماعات المنتمية الى أديان مختلفة، في ظل العقائد المتصلبة وأجواء المشاحنة والبغضاء، فالعقل الإيماني للجماعات الإيمانية اليهودية، يصطدم بالعقل الإيماني للجماعات الإيمانية المسيحية في تلك المرحلة، وهذا التصادم هو الذي قاد عملية التمييز والاحتقار، وهنا يبدو واضحاً ما أشرنا إليه دائماً من أثر المصالح في تكوين قناعات إيمانية تشكل عناصر أساسية للعقل الموصوف.

ومن مظاهر العنف الموجه ضد اليهود كما أشرنا سابقاً، أنه قبل يوم واحد من رحيل كولومبس لاكتشاف أمريكا في ٣/ آب ١٤٩٢م تم طرد /٣٠٠.٠٠٠/ ثلاثمائة ألف يهودي من اسبانيا، وفي الأعوام ١٤٢٤ - ١٤٢٥م طرد من المدن التجارية الأكثر أهمية في ألمانيا اليهود الذين كانوا يعيشون فيها، وواجه اليهود المصير ذاته في إيطاليا في القرن السادس عشر^(٢٦). وكانت الادعاءات بأن اليهود يسممون مياه الشرب ويختطفون الأطفال وغيرها شائعة، وكلها للايقاع بهم وطردهم وقتلهم والتضييق عليهم.

ولما كنا لسنا بصدد الحديث عن التفرقة الدينية أو الطائفية، إلا بما يخدم إثبات فكرة وجود عقل إيماني قرأ الدين قراءة تلوينية مغرضة، فإننا ننصرف للإشارة الى بعض الانبثاقات التي حصلت لهذا العقل في التاريخ.

أدت الحركة الرومانسية التي نشأت في أوروبا على أثر الحركة الكلاسيكية الى تغيير النظرة للأمور في حياة الناس في أوروبا، ومع أنها حركة برزت أكثر ما برزت على مستوى الفنون، كما عرفها العالم، إلا أنها أشاعت جواً على مستوى العقل والحياة، فقد أدت دوراً كبيراً في إسقاط وتراجع دور العقل وتأثيره، وهي التي جاءت على أنقاض عصر العقل، الذي تم نقده ونقض مقولاته، وإشاعة الركون الى الغرائز، والثقة بالعواطف والأحاسيس المبهمة، مما أعطى الدور للشاعر والقديس، وسحبه من العالم والفيلسوف، وأعطى القيم الإيمانية فسحة كبيرة للنمو والتحريك، فقد كانت ثورة على المعايير الأخلاقية والجمالية الموروثة والجامدة، لقد كانت ثورة على جمود العقل الذي كان قد بدأ ثورته قبل ذلك، لقد أفسحت المجال لكثير من العادات والقيم الجديدة،

حتى الوثنية، بالعودة الى الحياة العامة وممارسة دورها^(٣٧). لقد وجدت هذه الدعوات الرافضة للعقل، والمبشرة بايمان القلب والعاطفة، دفعة قوية على يد المذهب الانجيلي الذي انتشر في انجلترا وأمريكا، إبان حركة الاحياء الديني في مستهل القرن التاسع عشر، وقد طرح الانجيليون المذهب العقلي (العقيم) جانباً، واستبدلوا بالبرهان العقلي التجربة الدينية المباشرة، تجربة الخلاص ونقاوة القلب^(٣٨). وتشكلت في عام ١٨٥٩ جمعيات منها «جمعية النهضة المسيحية» و «دكاكين الهداية» و «جيش الخلاص» البروتستانتية المقاتل في بريطانيا^(٣٩).

إن الجمعيات والمناخات الايمانية المذكورة فيما سبق، قد أفادت ولاشك بشكل كبير من حركة الاصلاح الديني على يد كالفن ولوثر في القرن السادس عشر، وقد كانت حركة الاصلاح هذه، حركة إيمانية عظيمة بكل معنى الكلمة، فيما أدت إليه من نتائج، وما أشاعته من مناخات، وما تولد في إطار مسيرتها من حركات إيمانية، أشاعت أجواء جديدة، ادعت فيها العودة الى الأصول والنقاء، لكنها فتحت الباب عريضاً لحركات إيمانية تتناسل دون انقطاع.

لقد أورثت حركة الاصلاح العصر الحديث مناخاً انتشر فيه العقل الايماني انتشاراً لا سابق له، أضيف الى ما كان موجوداً على الساحة الايمانية. فقد نمت الأصولية الانجيلية في أمريكا نمواً كبيراً، وهي حركات دينية ايمانية مسيّسة، فهي مساندة لاسرائيل مساندة مطلقة، وصهيونيتها تفوق الصهيونية اليهودية في كثير من الأحيان، وتعتبر أن اسرائيل تحقيق لارادة إلهية، واسرائيل الحالية، هي اسرائيل الواردة في العهد القديم. ويعمل الدكتور (يوسف الحسن) على إثبات الجذور الصهيونية في المسيحية الأصولية الأوروبية^(٤٠). كما يثبت التأصيل التاريخي للاتجاهات الصهيونية في المسيحية الأصولية الأمريكية^(٤١). وهذه الأصولية المسيحية مستمرة بقوة في أمريكا. فتحت عنوان (الكنيسة المريّة) يتحدث الدكتور الحسن عن استخدام البث الاذاعي والتلفزيوني لنشر أفكار الأصولية الأمريكية (البروتستانتية) لدعم الصهيونية واسرائيل، كما تسمى (الكنيسة الالكترونية)، ويثبت المؤلف سيطرة هذه الأصولية على الاعلام الديني الذي يشرف على البث التلفزيوني والاذاعي لآلاف المحطات الاذاعية والتلفزيونية، والسيطرة على شبكات من المجلات والصحف؛ كل ذلك يؤثر

على مئات الملايين من البشر، ويصنع الرأي العام الأمريكي والعالمي، ويدفعهما لمساندة الصهيونية واسرائيل، ويظهر ذلك من خلال الاحصائيات المذهلة للأعداد التي تتلقى البرامج الدينية الدعائية الموجهة لهذه الأصولية الايمانية^(٤٢). والى الفكرة ذاتها يشير (أديب ديمتري)، حيث يشير الى السيطرة الكبيرة للأصولية الانجيلية بالتنسيق مع الصهيونية، على محطات وشبكات البث المتلفز والمذاع، والتي تعد بالآلاف، والى زيادة عدد العاملين في هذه الشبكات، ومشاهديها^(٤٣). كما يشير ديمتري الى التعليم الديني الذي يزداد انتشاراً في أمريكا، وتشرف عليه كنائس وطوائف معينة، وهو تعليم مؤدلج وموجه، بعقلية إيمانية معينة من شأنها تصنيع عقل الأجيال بما يخدم توجه هذا العقل، وبمساعدة الأعلام والسياسة، والسيطرة على قطاعات اقتصادية تربية، ففي الولايات المتحدة كان عدد المدارس الدينية لايزيد عن ١٢٣ / مدرسة تضم ١٢ / ألف تلميذاً عام ١٩٥٤ - ١٩٥٥ م، أما الآن فقد تضاعف هذا العدد مئات المرات، إذ بلغ عام ١٩٨٠ م ١٨ / ألف مدرسة، تضم أكثر من مليوني تلميذ^(٤٤).

كل هذا سيؤدي الى نتيجة أخرى، هي زيادة التجيش الايماني ويظهر ذلك في زيادة عدد الملتحقين بالكنيسة للصلاة، وزيادة نشر الكتب الدينية (ذات الأغراض الايمانية المحددة) حيث بلغ عدد مشتري الكتب الدينية في أمريكا عام ١٩٨٤ م ٣٧ / مليون مشترٍ، دفعوا ثمنها ربما مايزيد على مليار دولار^(٤٥).

لقد كان أحد أبرز الأفكار التي ركزت عليها وأشارت إليها بشكل متواصل في هذا البحث، هي دور المصالح والظروف في تكوين ورعاية العقل الايماني، ونحن نفهم أن يسائر الانسان مصلحة عامة أو خاصة، لكن إذا كانت هذه المصلحة لا تتم إلا على حساب المبادئ والأخلاق، وضداً لهما، سيكون كارثة، تتمثل في استخدام القيم المتعالية للوصول الى أغراض قد يكون ضررها أكثر من منافعها الشخصية.

وإن تغيير انسان لدينه أو مذهبه، مضحياً بهما لتحقيق مصلحة شخصية، يعد بمقاييس الايمان الحق والمبادئ السليمة، كارثة وعملاً لا أخلاقياً، لأن الثمن المضحى به وبجميع المقاييس أغلى من الثمن المتحصل، لكن ماذا نفعل، هذا هو العقل الايماني.

يقول (سمير عبده): « كانت اهتمامات الدول الأوروبية القومية الناشئة بمنطقتنا اقتصادية بالدرجة الأولى، وبالتالي كانت تفتش في السلطنة العثمانية عن وكلاء

وزبائن لتوسعها الاقتصادي مع مايلازمه من زيادة في نفوذها السياسي. وقد قام المسيحيون بهذا الدور، ومن شروطه الضرورية التقارب الايديولوجي (الايماي - الشرح من قلبنا) وهذا ما حصل عن طريق انتشار الكثلركة التي شقت جميع الكنائس الشرقية دون المرور على الموارنة»^(٤٦).

وبعد فإن الاشارات السابقة الى انبثاقات معينة للعقل الايماي، والتي لا تشكل نقطة من بحر في مسيرة نشوئه وازدياد جماعاته، أدى الى تصنيع عقلية معينة لا تزال حاضرة حضوراً نسبياً، كما بينا سابقاً، في مناطق ومناسبات وطوائف أكثر من مناطق ومناسبات وطوائف أخرى، وهناك من يعمل لزيادة هذا الحضور في كافة الملل والجماعات، ولزيادة التجيش وبقاء الايمان متقدماً أو في حالة من الجاهزية.

وقبل أن أسوق وأحلل الحادثة التالية فإنني أؤكد أنه لايجوز لأي كان أن يتعاطى مع إيمان الناس وقناعاتهم باستخفاف، وليس ذلك من حق أحد، كما أنه ليس من علامات الرصانة الفكرية والعلمية، وهنا أرجو أن أكون قادراً على إيضاح شعوري باحترام مشاعر الناس وقناعاتهم، والرأي المختلف، مهما كان رأيي أو كانت قناعاتي، فليس الهدف الانتقاص وإنما تسليط الضوء والتحليل والدراسة التنويرية التي لا تقلل من احترام أي مجال تثير الأسئلة حوله.

الحادثة أو النبأ كما أوردته محطة تلفزيونية لبنانية في أوائل كانون الأول ١٩٩٩م يقول أنه لوحظ أن نوراً ينبعث من مدفن أحد القديسين المتوفى في أواخر القرن التاسع عشر، وذلك في أوائل الخمسينات من القرن العشرين، وعندما فتح المدفن، لوحظ دم طري تحت جثة القديس التي لم تتحلل.

سيقت الحادثة بالطبع للتدليل على قداسة الشخص موضوع الحديث، ولاستنفار إيمان الناس وتذكيرهم بعدم النسيان، وبضرورة الحفاظ على المشاعر الايمايية. وهنا يثير العقل أسئلته حول الدلالات التي يحملها خبر بقاء جسد إنسان متوفى منذ مايزيد على نصف قرن سليماً دون أن يتحلل كما تتحلل أجساد الآخرين بعد الوفاة، وما دلالة وجود دم طري نازف من جثة فقدت الحياة منذ عشرات السنين؟ وإذا كان النور المنتشر في المدفن نوراً إلهياً، فليس من الوارد باطراد في تاريخ هذه المادة التي يتكون منها جسم الإنسان أنها مادة إلهية مقدسة، وأن احتفاظها بسلامتها يجب البحث عنه بعد

ذلك في حقل لا إلهي، وإلا لماذا تحللت أجساد آلاف القديسين والأولياء والصالحين الآخرين، الذين آمنوا كما آمن هذا القديس؟ مما ألبأ المؤمنين بقداستهم الى الاحتفاظ بعظامهم أو بقاياهم الأخرى. هذا إذا لم نبحث عن الإجابة في حقل العلم ومعطياته.

إن الايمان سواء كان صادقاً أو كاذباً، موضوع يمس النفس أو الروح أي الجانب اللامادي في الإنسان، كما تشير الى ذلك كل الأديان، وإضفاء صفة البقاء دون تحلل على هذا الجسد كل هذه الفترة، لا يمكن فهم دلالاتها في حقل القداسة والارتباط بقوة فوق طبيعية، عملت على حفظ هذا الجسد دون غيره من أجساد القديسين، لأن المادة المكونة منها هذه الأجساد جميعاً واحدة، ولأن الجسد ليس الموضوع المخصوص بالايمان.

إن الجسد موقع الدنس والشهوة، والدنس والشهوة، منافيان لعالم الطهارة والنقاء والقدسية، وهي معان روحية، يستلزمها انتماء صاحبها الى عالم القداسة، وبالتالي فإن هذا التناقض يجعلنا نشير الى بقاء جسد دون تحلل لفترة من الزمن، طالت أو قصرت، لا تعتبر أو يجب ألا تعتبر دليلاً على القداسة، مع التأكيد أننا لسنا بصدد تأكيد القداسة أو نفيها فليس هذا من شأننا، لكن نشير الى أن هذه الأسباب في رأينا ليست هي الأسباب التي تحتم القداسة، باعتبار القداسة تمس القيم والقيم لامادية، فعلى المؤمنين أن يبحثوا عنها ويستحضروها إذا أرادوا تثبيت معتقدتهم بقدسية شيء ما أو شخص ما، حيث يفترض أن تكون.

إن تركيز الأديان السماوية على بقاء الروح وخلودها، كنقيض لفناء الجسد، يعتبر الركيزة الأساسية لعقيدة (المعاد) التي تعتبر أحد أسس الايمان ودوافعه ومنجزاته. ولكي تكون الطهارة ناجزة والمعاد غير مشكوك فيه، لابد من قيود المادة المدنسة الفانية، ومجيء هذا الدليل ببقاء الجسد دون تحلل، كدليل على الانتماء الى القداسة، يحمل في طياته نقضاً للعمارة الايمانية التي أرادت المذاهب بناءها، بالتالي فإن استبعاد هذا الدليل، ابتعاداً عن التناقض وانسجاماً مع المبادئ، يجب أن يكون محل اعتبار، وهو بالتالي لن يكون مفهوماً، أو ذا مصداقية في التدليل على قدسية كلما ابتعدت عن المادة كانت أقرب الى حقائق السماء.

إن ما أردت الإشارة إليه في هذا الموضوع، هو اسقاط الأسباب التي تجعل من مادة ما موضوع قدسية أو دليلاً على هذه القدسية، انطلاقاً من أن الايمان قيمة روحية

لامادية، والتقديس يكون للقيم، والايان قوة منبعثة في النفس، أشير إليها عبر التاريخ (تاريخ الأديان والايان) إشارة لامادية. وهنا تظهر مدلولات أخرى لمثل هذه الحكايات والأخبار، وما أكثرها، ولا يمكنني أن أصنفها إلا في إطار التجيش اليماني كما أشرت، وهذا الدور تقوم به كل المقامات اليمانية، مقدسة أو غير مقدسة على امتداد العالم، سواء تلك التي تشير إليها قبور الأولياء، أو تلك التي تشير إليها بيوت العبادة، والبنيات التي نصبت للتذكير والتبرك والتطهير، والجماهيرية التي تشير إليها وتنعم بها هذه المواقع وهذه الأخبار ورعاتها ونواطيرها ومؤدجوها، ليست موضع شك من أحد، ومن شك في ذلك فليقم بزيارات الى هذه المواقع، من حائط المبكى الى كنيسة القيامة الى مارجرس، ومن المشاهد المقدسة في ايران والعراق الى مقام السيدة زينب في دمشق الى قبر الشافعي في القاهرة ومقام سيدي خالد في حمص الى ضريح الأدرسي في المغرب، ومئات بل آلاف المواقع غيرها على امتداد العالم وبالأخص في الشرق موطن الديانات والقداسة، وكلها تستخدم للقبض على ناصية المؤمنين وتوجيه عقولهم، حيث لأرباب اليمان مأرب.

هكذا تظهر قدرة العقل اليماني على إعادة إنتاج نفسه، فهو بحاجة الى آلية توليد وتوالد، تمنع هذا العقل من الضعف والتلاشي، وقد أثبتت الأيام أنه من أجدر العقول، بل من أجدر الايديولوجيات، في صناعة الاستمرار والبقاء قيد الاستعمال المباشر وحشد الطاقات، كما أثبتت أن استثمار الناس في هذا الميدان يحقق ربحية عالية، حيث ينتج مؤمنين يتناسلون بخصوبة عالية وبأساليب محض إيمانية.

٣ - في حقل الاسلام

لم تكن الخريطة التي رسمها الاسلام عبر رحلته في الزمان والمكان، أقل غنى أو تشعباً من الخرائط التي رسمتها الديانتان السابقتان له، المسيحية واليهودية، فالعوامل التي صادفتها هاتان الديانتان والتي أدت الى كل هذا التلوين في لوحتهما المشهدية المعاصرة، ساهمت أيضاً هنا، فاختلاف البيئات التي انتشر فيها الاسلام أصبح كبيراً قبل نهاية القرن الأول على ظهوره، وما إن جاء القرن الثالث أو الرابع حتى كانت أقدام المسلمين قد حطت في أغلب مناطق العالم المعروف أيامذاك، واختلاف الشعوب التي

دخلت في الاسلام، أو كانت على تماس معه، كان كبيراً من حيث الأصل والمستوى الحضاري والثقافي، وبالتالي كانت المصالح مختلفة كما العادات والتقاليد والمطامح، غذى كل هذا الخلافات التي نشبت على الامامة في الاسلام بين المعنيين بها، مما أوجد الأسباب والذرائع والمناخات التي ينتعش التلوين فيها.

والتلوين كما يشير الى الغنى والقوة يشير الى الفقر والضعف أيضاً، فالتلوين يشير الى الغنى الثقافي والحضاري، ولكنه في الوقت ذاته يشير الى تشتت الجهود بالتالي ضياع الطاقات الخلاقة.

مشهد المنطقة التي ظهر فيها الاسلام كثير الغنى والخصوبة، والعناصر المكونة للمشهد كلها تحمل قابلية التشكل الايماني، فالعرب الذين ظهر الدين بينهم، كان لهم دياناتهم، والوثنية هي الغالبة مع ضحالة ثقافية شديدة في المناطق التي تسود فيها هذه الوثنية، واليهودية التي تحمل ثقافتها الخاصة منتشرة في منطقة الحجاز، وعلى أطراف شبه الجزيرة العربية، في اليمن وبلاد الشام، والمسيحية على تخوم شبه الجزيرة العربية في الشام وفي الحبشة، ومكونات هذه الديانات أو أجزاء من هذه المكونات، تشكل جزءاً من ثقافة جماعة ظهرت في المنطقة هي جماعة (الأحناف)، وكأنهم بانتمائهم الى هذه البيئة، وبثقافتهم التوحيدية، التي تشكل أو تحيل الى ما يسمى بـ «ملة ابراهيم»، أو الى مقتبسات من النصرانية أو غيرها، يؤكدون أهلية المنطقة للتشكل الايماني، ويردون من جهة ثانية على الأخطار المحدقة بمنطقتهم، فالرد على أطماع مسلحة بثقافات متطورة، وهي ثقافات يشكل الدين أهم محاورها، ويرفدها بقوة، سواء انتمت الى اليهودية أو الى المسيحية، لم يكن الرد عليها ممكناً من خارج حقلها أو منطقها (حقل الدين ومنطقه) لذلك جاء الاسلام الدين، والاسلام الحضارة، ليكون في رده ومواجهته للأخطار، مسلحاً بأسلحة لاتقل قوتها عن قوة الأسلحة التي يواجهها، وقد جاء يؤكد موقف الأحناف من هذه الزاوية، فقد كانت الحاجة ملحة قبل أن يتم ابتلاع المنطقة من خارجها. ولقد طالعنا سابقاً نشوء قوى للمواجهة حاولت أن تعزف على الوتر الديني، فحركة مانبي التي قلنا أنها استفادت من اليهودية والمسيحية والزرادشتية المجوسية، هي أيضاً محاولة للرد رداً مكافئاً بسلاح دفاعي لا يقل عن سلاح الهجوم، ولكن لم يكتب لها الانتشار الكافي في المنطقة، ربما لأنها بتعاليمها

ومنطلقاتها ليست بنت البيئة.

والسياسة التي كانت تقع في القلب من اليهودية، والتي لم تولها المسيحية المكانة الكبيرة، عادت الى الواجهة في الاسلام، فهناك دراسات تشير الى أن الإسلام كان الخطوة الحاسمة والأخيرة في بناء الدولة التي بدأت قريش ببنائها، ابتداءً بقصي، أحد أجداد النبي محمد^(١٧). وهذه تعتبر عاملاً إضافياً سنرى فيه أثره الكبير على التلوين الاسلامي منذ البداية وحتى اليوم.

وإذا كان الاسلام يعتبر الأخ الثالث لدينين سماويين سبقاه، واتصف بالسماوية مثلها، ويقال لها جميعاً (الأديان الابراهيمية)، ففي هذه الحالة من الطبيعي أن يأتي ساداً لجوانب قد يراها جوانب نقص، أو جوانب لم تعرها الديانات السابقة القدر الكافي من الاهتمام، من وجهة نظر الدين الجديد، ولاشك أن كل دين من هذه الأديان، جاء تلبية لحاجات كانت ماسة في مرحلته، وربما كان هذا سبب التركيز على جوانب دون أو أكثر من أخرى، كما أفاد الدين اللاحق من جوانب بدت ثغرات في سابقه، أو أن تجارب السابق أعطت ضوءاً للاحق، وهذه المعاني متضمنة في اعتراف الاسلام أنه جاء مكملًا لما سبقه من أديان سماوية لانقضاء أو ضدًا أو بديلاً لها.

كذلك، وفي الوقت الذي لم ينف ما سبقه من تعاليم الأديان الابراهيمية، بل التقى معها في أبرز أسسها، فإن الاسلام لم ينف ما وجده قاراً في البيئة الوثنية التي جاء خطاباً لها نفيًا مطلقاً، بل أقر وأبقى الكثير من العناصر التي توارثها الناس عبر الفترة التي دعيت بالجاهلية كمكونات أساسية من مكونات الدين الجديد، وفي مجالات متعددة^(١٨).

والمظهر السياسي الأبرز الذي كان له الدور الأساسي في الجانب الايماني في حقل الاسلام، هو الخلاف على الرئاسة أو الامامة بالتعبير الديني، وإذا كانت الأحداث تشير الى أن الخلاف قد بدأ جلياً في اللحظة التي توفي فيها النبي محمد، فإن البعض يعود بالخلاف، الى الوقت الذي كان لا يزال النبي فيه حياً، وبالتالي يتم تجذير الخلاف في التربة الخصبة للبيئة الدينية والثقافية والاجتماعية الصاعدة.

إن استقطاباً واضحاً قد جرى سواء سعى إليه أقطابه أم لم يسعوا، (ولا نستطيع القول إن فعلاً جرى بدون فاعل) وقد ساعدت الأحداث على نمو هذا الاستقطاب

وتبلوره، وأيضاً تحوله الى صيغ إيمانية واضحة.

وإذا كان الامام علي بن أبي طالب قد اضطر الى إتخاذ أقصى العقوبات بحق عبد الله ابن سبأ وجماعته، لسوء عقيدته به كما يقول المؤرخون مما ألجأه الى تحريقهم بالنار، فإن هذه العقوبة، وما قبلها من ارهاصات كانت ايداناً بتاريخ اسلامي أبرز وأكثر خلافاً هي التي دارت حول هذه الشخصية غير العادية (شخصية الامام علي) نقضاً أو تأييداً.

وإذا كان أول تلوين ايماني يتخذ صفة الالتفاف العقيدي حول شخصية أو مبدأ، كما فهم من السبئية فإن هذا التلوين سيصبح المحور الأبرز، الذي سيدور حوله الاختلاف في المستقبل، سواء على المستوى السياسي، أو على المستوى الديني، حيث تم الربط بينهما في تالي الزمن، حيث أصبح السياسي يحيل الى الايماني الديني، والايماني يحيل الى السياسي، ولافاصل بينهما، وهذا يشكل أساس العقيدة عند فرق الشيعة.

وتعتبر وقعة صفين بقيادة علي، الذي كان يقود جيش الشرعية، ضد جيش يقوده معاوية بن أبي سفيان، ويمثل الاغتصاب والخروج على الشرعية، هي نقطة تحول كبرى في تاريخنا العربي والاسلامي باتجاه بناء العقل الايماني في الاسلام. في هذه المعركة تبلورت ثلاثة اتجاهات، مثلت آراء ثلاث فرق أو ثلاث اتجاهات اسلامية، اختلفت فيما هو سياسي لينعكس الخلاف على ماهو عقيدي ديني، ولتنشأ مذاهب عقيدية امتدت الى ما هو لاهوتي، ودخل ذلك نظرتها للألوهة وعلاقة الانسان بها، وتمايزت عن بعضها تمايزاً واضحاً، ظهر جلياً في ممارساتها الطقسية، وعلاقاتها الاجتماعية، ونظرتها لتراثها.

هذه الاتجاهات كما هو معروف هي:

أولاً: الاتجاه الخارجي، ومعلوم أنه تعبير في بعض جوانبه عن ردة الفعل على سيطرة قريش على مقدرات المسلمين، وعدم إفساح المجال لقوى أخرى، بدأت تنامي في رحم المجتمع الاسلامي آنذاك، لتعبر عن وجودها، ولاشك أن التعبير المطلوب عن الوجود، كان سياسياً، وبالتالي فالسياسي تعبير عن الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، ولما فشلت في ذلك، شكلت حالة تمرد على امتداد التاريخ الاسلامي،

بدولتيه القويتين، الأموية والعباسية، بعد انتهاء الراشدية.

إن حالة التمرد الخارجية، كانت تحتوي تعبير الساخطين عن سخطهم، والناقمين عن نعمتهم، والرافضين عن رفضهم، وقد كان تعبيراً سياسياً، إلا أن الاسلام (التجربة) قارب بين السياسة والدين مقاربة لا انفصال فيها.

ولا يستطيع الفكر السياسي المعاصر إلا أن يثني على هذا الاتجاه فكرياً، لأنه أقرب الى التعبير السياسي المعاصر والمطالب بتداول السلطة، وبالديمقراطية كحل موروث يجد بعض تعبيره في هذا الاتجاه، إلا أنه لم يكن بعيداً عن التوجه الايماني الذي ينسجم في كل حين مع التوجه السياسي المعلن، إذ أن التعبير السياسي له عمق إيماني، وكان العنف أبرز اللغات التي خاطب بها مخالفه، بل قد تكون لغة التخاطب الوحيدة.

ثانياً: الاتجاه الشيعي، وهو ما يجعل أمر الخلافة (الحكم) أمراً إلهياً، ويشل إرادة الناس والمجتمع بربط الأمر بالسماء وإرادتها، وقد تناسلت فرق الشيعة التي مثلت هذا الاتجاه حتى تعددت وكثرت، وقد آمنت هذه الفرق بأن خلافة النبي محصورة في آل بيته، وكل خروج عن ذلك خروج عن الاسلام في صورته المثلى، وحددت معظم هذه الفرق تسلسلاً إمامياً انتهى مبكراً بالمهدي المنتظر المأمول رجعتته عند الشيعة الامامية، بينما استمر هذا التسلسل عند الشيعة الاسماعيلية، وقد أناب الأماميون الفقيه محل الامام الغائب. وبقيت فرق الشيعة الامامية والاسماعيلية وفيه لفكرها السياسي ونظرتها العقيدية، سواء أخطأت في سلوكها أو أصابت. ولم تكن السياسة مجردة عن العقائد، بل كانت العقائد الدينية تعضد الآراء السياسية، وتشكل عمقها الايماني، وكانت عرضة للمؤثرات التي أتنها مع المنتظمين في سلك التشيع من شعوب وحضارات أخرى.

ثالثاً: الاتجاه الثالث، هو اتجاه الاسلام السني الذي بقي محتفظاً بارثوذكسية الإسلام، وهو الاتجاه الذي شكل الأغلبية في تاريخنا العربي والاسلامي، لأنه الأكثر انتشاراً، إنه اتجاه مثلته مذاهب السنة الأربعة، فخلافتها بقيت بسيطة ومحصورة في قضايا لاتصنع انشقاقات كبرى وظهرت فقهياً وكلامياً أكثر منها سياسياً.

هذه المذاهب بفقهها وفقهائها بررت كل دولة على امتداد التاريخ الاسلامي،

وأعلنت أن طاعة الحاكم واجبة، سواء توصل الى الحكم بالرضا أو بالغلبة، بالجماهير أو بدونها، على الرقاب أو على الأكف، وطاعة الحاكم من طاعة الله، والخروج عليه شق لعصا الطاعة، ومخالفة للسماء، ثم هو بدعة، فضلالة، فلعنة، وما يلبث هذا الخارج الذي كان مبتدعاً، فضالاً، فملعوناً، أن يتغلب فيصبح شرعياً واجب الطاعة، ويخطب أئمة المساجد باسمه، وهكذا دواليك، وإما أن يكون انتقال الحكم بالوراثة، ولا يهتم من كان الوارث، فاسقاً، زنديقاً، خبيثاً، أو طاهراً حكيماً، والنصوص في خدمة الجميع، والباحث عن هذا الواقع في كتب التراث فإنه واجد منه الكثير، ولا شك أن الانحراف السياسي عضده انحراف إيماني، يعتبر الأخطر، لأن للسياسة أمداً وتنتهي، إنما لانهاية لما هو عقيدتي.

هذه اللوحة المشهدية للواقع الاسلامي في بواكيره، وهذه الخريطة للأرضية الفكرية والسياسية في الحقبة المبكرة، هي التي تناسلت، وخرجت من تحت عباءتها أغلب الاتجاهات الايمانية، وفي الاسلام كما في غيره من الديانات، كان التناسل شرعياً طالما انتمى الى النصوص الأساسية، ورجع إليها ولو شكلاً، والنصوص لا تبخل على أصحاب الآراء فهي تكسب شرعيتها لكل جديد عبر آليات كان من أهمها التأويل. وفي وقت مبكر نبه الامام علي، الى هذه النقطة عندما وصف القرآن بأنه «حمل أوجه»، ونصح بعدم محاجة الخصوم به، لأن كل فريق سيجد فيه ملاذاً، وقال «إنه لا يتكلم وإنما ينطق به الرجال». وبهذا تم إفساح المجال لكل أصحاب الآراء، موافقة كانت أو مخالفة. للاستناد الى قدسية النص وبالتالي اكتساب شرعية فقهية وفكرية حتى لو لم يكتسبوا الشرعية السياسية التي تحتكرها الدولة المتغلبة.

المرّة الأولى التي يكون فيها للعقل الايماني دور حاسم وكبير في توجيه التاريخ وصناعة الحدث على ضخامته، كانت في صفين، المناسبة التي أشرنا إليها، فقد أبرزت أحداث هذه الموقعة المفصلية، انبثاقاً إيمانياً حاداً، تمثل في فئة فرضت رأيها، وهذا الرأي وجه التاريخ اللاحق لشعوب المنطقة، فقد أصرت طائفة القراء - وهم الموصوفون بالتشدد والتمسك بصحيح الدين كما حاولوا أن يظهروا - على أن يخضع علي الى نداء الطرف الآخر باللجوء الى التحكيم، وهذه الطائفة ذاتها هي التي تحتل موقع الأبوة للثقافة المتشددة^(٤٩)، وتأتي المفارقة بأنها هي التي رفضت التحكيم ونتائج التحكيم،

وخرجت بالقول الذي لايزال يتوالد عنفاً ونفياً وتعصباً، ويتناسل على أيدي الخارجين من ممثلي الفكر الأصولي وهو «لاحكم إلا الله»، ومنه جاءت قاعدة الحاكمية التي يتمسك بها المتشددون الاسلاميون.

إذاً كل تطرف في مجال السياسة - ولابد للسياسة في الاسلام أن تؤسسها العقيدة - على امتداد التاريخ الاسلامي، هو من نسل هذا الاتجاه، الذي هو ايمان بطريقة ما وأسلوب ما، وكما أدى هذا الاتجاه، اتجاه الخروج على الحكومات المعتبرة شرعية، الى أن صبغ تاريخ الاسلام بلون الدماء، كذلك أدى في عصرنا الحاضر، أو كاد يؤدي الى النتيجة ذاتها، فكل من لا يروق لهؤلاء المتطرفين، متهم بأنه يعيش الجاهلية بأبعادها الفكرية والدينية والاجتماعية، وبالتالي فكل الطامحين الى بناء مجتمعات تسير التطور الحضاري للبشرية، والساعين الى الانعتاق من التخلف، هم جاهليون وكفرة، ولا يجوز التعاطي معهم إلا بالسيف.

لا بد من الإشارة هنا، الى أن التطرف في الآراء السياسية والعقيدية، كان وراء التطرف في المواجهة، وهذا التطرف، صنع عنفاً وعنفاً مضاداً، لم يكن أحدهما أرحم من الآخر، فعنف السلطات، وازى إن لم يفق عنف الخارجين عليها، ولما كان الخارجون قد اتجهوا الى العنف لترجمة قناعاتهم السياسية، فقد كان رد الحكومات، أكثر حدة لأن عنفها موصوف بالشرعية، والدفاع عن المجتمع، بالتالي فإن اعتماد أسلوب العنف مع الخصوم، انسحب على جميع من يختلفون مع الدولة، سواء اختلفوا معها في مشروعها الفكري أو في مشروعها السياسي، أي سواء كان الخلاف بالرأي أو باستخدام السلاح، وظهرت الدولة الموصوفة بالاسلامية، أنها لا تتسع إلا لأبناء جلدتها، ولا تحتل الرأي الآخر، إلا في القليل من تاريخها، وإنها لا تتعامل مع هذا الآخر تعاملًا ديمقراطياً، فالديمقراطية بعيدة عن تراثنا، وحاضرنا لم يفترق كثيراً عن ماضينا في هذا المجال، فرفض الآخر ونفيه لا يزال الأسلوب المحبب لمن كان في الحكم.

ولاشك أننا لدى البحث سنجد المصالح - وربما الضيق منها - في أساس هذه المواجهات، بين من يرى أنه حاصل على شرعيته الفكرية والدينية والسياسية من وجوده في الحكم، ومن يرى أن شرعيته الفكرية والدينية تستند الى فهمه للنص واستنطاقه وتأويله، في حين تعتبر الشرعية المستندة الى الناس غائبة. من هنا نرى أننا أمام

عقلين يلتقيان كثيراً ويفترقان كثيراً، كل منهما فهم النص على طريقته، وحسب مصلحته، وبما يتلاءم مع خطه السياسي، إذاً هو فهم تلويني، يلون النص حسب الحاجة والضرورة، وحسب المصلحة، إنها القراءة الايمانية التي صنعت على امتداد تاريخنا عقلاً إيمانياً سائداً، صنع التاريخ ووجهه وسيطر، خارج الكتب وداخلها أحياناً.

وإذا كان الاتجاه الخارجي الذي نشأ مبكراً في الاسلام، قد تناسل وامتد حتى أصبح جزءاً من مكونات المشهد الحياتي المعاصر، والذي يسلط الضوء عليه من خلال ممارسة العنف والعنف المضاد، في الرأي وفي المواجهة العسكرية، فإن الاتجاه الآخر، الاتجاه الشيعي، ربما كان أبرز وأقوى على امتداد التاريخ الاسلامي، وتاريخه لم يكن خالياً من العنف والعنف المضاد، بل إن عنفه والعنف الذي تمت مواجهته به، لخطورة مشروعه ومشروعيته على الحاكم، جعله يأخذ منحى وتوجهات أغنت المشهدية الاسلامية، في الأحداث التاريخية كما في التوجهات الفكرية الذي لم يتخيل تصور العقل الاسلامي والفكر الاسلامي بدونها.

إن الإبعاد الذي مورس على الإمام علي لوضعه خارج الفعل السياسي على رأس السلطة، قد زاد من تكتل من يثق به ويؤيده، وفي الأعم الأغلب كان هؤلاء هم أصحاب المبادئ الذين يشكل الفقر جامعهم، وقد كان لتبشير المبادئ بالانعتاق، المبشر الأساسي الذي دفعهم الى الاسلام عن قناعة، فكان الرابط بينهم وبين هذه المبادئ قوياً، وهم الذين وجدوا أنفسهم في مواجهة الأغنياء ورأس المال الناشئ أو العائد من جديد ممثلاً ببني أمية، فكانت جاهليتهم، كما كان إسلامهم، في مواجهة الاستغلال.

إن إبعاد هذه الفئات جعلها تتمسك بعلي مفكراً بعد موته، بعد أن تمسكت به قائداً في حياته وجعلها ترى في ذريته امتداداً له على المستويين كليهما، وقد حفر الإبعاد العنيف لهذا الاتجاه خلال حقبة الأمويين والعباسيين، مجرى إيمانياً، غذاه قتل هذه الأسرة قتلاً عنيفاً، وجعل الناس يتشبثون بقيم نادى بها علي، وعاشها سلوكياً، وحاول تطبيقها عندما آلت إليه الخلافة، فحيكت المؤامرات ضده، ومنع من وضع مبادئه موضع التطبيق الكامل، حتى وصل الأمر الى قتله، وفي كل هذه المجريات عنف واضح.

واستمرت ممارسة العنف في التعاطي مع أولاده وأحفاده الذين تيمن الناس بهم

خيراً، ثقة منهم أنهم سيكونون متابعين لنهجه، وقادرين على قيادة الجماعة الى الخلاص، فكان مصير ابنه الحسن الموت مسموماً كما يقال، وكان مصير الحسين بعد ذلك المصير المأساوي الذي لا يزال يطل علينا بكل ثقله التراجيدي المروع، من خلال الدماء التي لا تزال تراق، والدموع التي لا تزال تسيل، ولكن هذه المرة تكفيراً عن ذنب تاريخي لا يرى أصحابه أن الأيام قادرة على غفرانه، وذلك في واحد من أبرز مظاهر العقل الايماني قوة وتعبيراً، في الاحتفالات والتجمعات التي تجري في المجتمعات الشيعية، التي تستعيد كل جزئيات مأساة استشهاديه في ذكرى كربلاء التي تحولت الى رمز تجيشي.

ولما كان الفشل من نصيب الحسن والحسين بعد مقتل أبيهما في الوصول الى السلطة، وإقامة دولة العدل الذي يطمح إليه كل المطحونين تحت رحي الاستغلال والتسلط، وهو ما بشرت به قوى التشيع، فإن أنصارهم لم يتخلوا عن الحلم بالخلاص، بل بدأ هذا الحلم يتأدلج، وكلما تم قمع تحرك شيعي، سواء من قبل الأمويين أو من قبل العباسيين الذين رأوا في الحلم الشيعي والتحركات الشيعية وجماهيريتها خطراً سياسياً وايدولوجياً، لتسلحه بالقيم الثورية التي غذاها الاسلام، كان يتم حفر المجرى أعمق وأعمق في الوجدان والضمير الفردي والجمعي المؤيد للخلاص من ظلم الحكومات والحكام على يد أية جهة تقدم هذا الوعد، وفي أغلب الظروف كانت الحركات التي تنتمي الى التشيع تتقدم بمثل هذا الوعد مستندة الى تراثها.

هذا الواقع، واقع القمع المتكرر بعنف وقسوة لامثيل لهما لكل التحركات التي صنعها الشيعة بقيادة الطالبين أو أنصارهم، وما أدت إليه من فشل في أغلب الأحيان، جعلها، سواء، بتخطيط مسبق أو بدونه تأخذ منحى آخر، هذا المنحى، هو المنحى العقيدي الايماني، حيث لم يعد هذا الاتجاه يظهر باعتبار حركة سياسية أو ثورية تتطلب القمع، بل أصبح فكراً وعقيدة أي ثقافة، وأصبح حاملها الأدب والفكر أي النصوص بشكل عام، بدل السيوف والرماح، وهنا يبرز الغنى بالعقائد وتفرعاتها وتشعباتها، فطوائف الشيعة، بلغت من الكثرة والتنوع حداً أغنى الفكر والثقافة في الاسلام بما تم اكتسابه من ثقافات العالم وما عكسه من تلوينات. إذن أصبح البديل عن العنف والسياسة والسلطة في توجيه الحياة عند الاتجاهات الشيعية المتعددة هو

التغلغل العقائدي على كافة المستويات السرية والعلنية، وأصبحت السياسة تمارس بشكل بارد.

كثيرة هي الفرق الشيعية التي اتصلت عبر حركة الثقاف التي كانت حاصلة في المجتمع الاسلامي بشكل واسع، بثقافات وفلسفات واتجاهات فكرية تركت طابعها عليها، وظهرت آثارها فيما انتجته هذه الفرق من فكر ديني أساساً، تم على أساسه التمايز بين الفرق والمذاهب الاسلامية فيما بعد، لأن انفتاح المجتمع الاسلامي في القرون الأولى للإسلام على ثقافات الشعوب كان من أبرز العوامل التي ساهمت في الغنى الفكري، والتعدد في التوجهات الايمانية، والجماعات المرتبطة بأفكار وطقوس نجد جذورها فيما هو وافد، لأن البيئة لم تكن تمنع الوافد حتى لو كان هذا الوافد يمثل إلحاداً من وجهة النظر الإسلامية.

من المعروف أن معظم الديانات المنتشرة في جنوب وشرق آسيا، لا تقوم على أساس النبوات ولا تعترف بها، حتى أن بعضها لا تعترف بالآلهة (٥٠)، أو لا تهتم لتكريس سلطة إله. ومع التنافر الذي تشكله هذه العقائد مع الإسلام، فقد وجدت سبيلها الى الفكر العربي والاسلامي، وأصبح أمر الإسلام والنبوة يناقش على ضوء مثل هذه الأفكار التي تعتبر إلحاداً، وأفكار الرازي وابن الراوندي تعتبر في هذا المجال مثلاً للحرية الفكرية في تلك المرحلة، بعيداً عن السياسة، كما تعتبر تعبيراً عن غنى الحركات المصطرعة في بوتقة الفكر الإسلامي. هذه الأفكار، ينقل بعضاً منها أو كلها كل من (محمد عابد الجابري) «نقد العقل العربي - تكوين العقل العربي ... فصل العقل المستقيل» و(عادل ضاهر) «الأسس الفلسفية للعلمانية» و(صادق جلال العظم) «ذهنية التحريم...» و(أدونيس) «الثابت والمتحول» و(عبد الرحمن بدوي) «من تاريخ الإلحاد في الإسلام» وغيرهم، وكل هذه الكتب تناقش مسائل كإنكار النبوة كما وردت عند ابن الراوندي والرازي أو غيره. وكانت مثل هذه القضايا التي تتم مناقشتها من مكونات اللوحة الفكرية الثقافية الايمانية بكل غناها في المرحلة العباسية.

بعيداً عن هذا التوجه وبالضد منه، نجد اتجاهات أخرى مفرقة في روحانيتها واستلهاها بكل الفلسفات التي كرس هذا الاتجاه، سواء الهندية أو اليونانية أو غيرها، وقد أشرنا فيما سبق الى التقمص كعقيدة وجدت طريقها الى فكر وعقيدة

بعض الفرق الإسلامية، خاصة المتفرعة عن الشيعة. وهنا نشير الى تأثير الفيشاغورية والافلاطونية المحدثه اللتين يشير الى تأثيرهما د. (محمد عابد الجابري)^(٥١)، كأحد الأسس أو المرتكزات لانتشار موجات جديدة على الإسلام، وهي موجات إيمانية، كما يشير الى تأثير الأفكار الغنوصية والهرمسية ودورهما في انتشار التصوف الاسلامي بما جاء به من حلولية عند الحلاج واشراقية كما لدى السهروردي وحروفية كما لدى النسيمي، مثلما كان سابقاً أساساً في حركة الرهينة وازدياد فرقها في العالم المسيحي منذ بدأ التعرف على هذه الفلسفات.

ولقد أشرنا سابقاً الى أن فرق الشيعة تأثرت أكثر من غيرها بهذه الاتجاهات، وكان للقمع السياسي الذي واجهته، وعدم تركها تعبر عن نفسها سياسياً لافتقاد الاهتمام بالرأي الآخر، ولفقدان أي توجه نحو الديمقراطية، الدور البارز في وجود هذه التوجهات الفكرية لدى الشيعة أكثر من غيرهم. فالهرمسية نقلت الى الثقافة العربية الإسلامية عناصر الموروث القديم، وذلك عبر الكيمياء والتنجيم^(٥٢)، علماً أن الهرمسية قد: «حاربها أهل السنة... لأنها كانت الخلفية النظرية لآراء الشيعة والفرق الباطنية، الخصوم التاريخيين لأهل السنة»^(٥٣).

ظهرت آثار الفكر المغترب، أو كما يسميها الجابري «العقل المستقيل» مبكراً في عقائد الشيعة وفكرهم منذ السبئية، وصولاً الى فكرة المهدي المنتظر، هذه الفكرة التي كانت محاكاة لليهودية في فكرة ظهور المسيح، وللمسيحية في فكرة أو عقيدة عودة المسيح أو قيامته، وقد حاولت الفرق الأخرى وخاصة من السنة الرد على فكرة المهدي المنتظر فوجدت نفسها تستلهمها أو تحاكيها وتستنبطها، عبر فكرة المراوني المنتظر أو السفيناني المنتظر أو العباسي المنتظر.

ولم يوقف وصول بعض الفرق الشيعية الى الحكم وتكوين دول قوية، استمرار التوليد الايماني للاتجاهات والجماعات التي تجد خطها الايماني في مفارقتها لفرقتها الأم، هكذا نشأ مذهب الموحدين الدروز مثلاً في رحم الدولة الفاطمية الاسماعيلية، التي هي أيضاً فرقة نشأت في رحم الشيعة، حيث نشأ عن افتراقها أكبر شعبتين شيعيتين، هما الامامية والاسماعيلية، ولم تنقطع الفرقتان عن التكاثر وتوليد فرق أخرى، فقد انقسمت الاسماعيلية أيضاً الى فرق منها المستعلية والنزارية، وكلها

اتجاهات إيمانية تلعب السياسة دوراً بارزاً فيها، بالإضافة الى المصالح. والاسماعيلية، إحدى الفرق الباطنية التي أتيح لها ولفلسفتها وفكرها أن تنتشر انتشاراً واسعاً كما أتيح لها أن تعبر عن نفسها سياسياً وعنقياً.

فبالإضافة للدولة الفاطمية التي قامت في المغرب ثم في مصر، على المذهب الاسماعيلي، وكان لها دور بارز في تاريخ المنطقة، وحازت على السلطة والامتداد والقوة، فإن اتجاهات اسماعيلية أخرى عبرت عن نفسها في أماكن أخرى من العالم، كالحركة القرمطية، ذات الشهرة الكبيرة والتي درست في العصر الحديث، كتجربة اشتراكية في التاريخ العربي الاسلامي، كما ظهرت الدعوة الاسماعيلية في شكل جديد، عبر عن نفسه بالأسلوب الذي اتبعته حركة أطلق عليها حركة «الحشاشين» ربما للنيل من سمعتها، وإظهارها أنها خارجة عن القيم الرفيعة والأخلاق المحترمة، كل هذه التوجهات فهمت الاسلام على طريقتها، وطعمته بما حصّلته من ثقافات وعقائد وآراء الشعوب التي أطلع عليها الوسط الإسلامي وحركته الثقافية.

بالرغم من نعت البعض للمثقفين بقوله «هم صوت الشيطان»^(٥٤)، فقد كانوا هم الأساس في نقل فكر وفلسفات الشعوب، وذلك لأنهم الأقدر على التأثر بحركة الثقافت في العصر العباسي، أو هم أساس هذه الحركة، والتي كان أحد أسسها نقل الفلسفات عن طريق الترجمة التي قادها السريان الذين يعيشون في البلاد العربية تحت رعاية الدولة في أغلب الأحيان. ومثقفوا العصر امتداد لمثقفي العصور المنصرمة.

وبإطلاع المثقفين العرب على هذه الثقافات والعقائد والأفكار، أخذت طريقها الى الثقافة العربية الإسلامية، والى عقائد الفرق الإسلامية، وساهمت في تشكيل المشهد الايماني، حتى أصبح عدد الفرق في الاسلام عديداً، وكلها تقوم على المفارقات العقيدية الايمانية، فالدكتور (رفعت السعيد) ينقل عن «محمد اقبال» قوله: «لقد ظهرت في الاسلام ما بين سنة ٨٠٠م وسنة ١١٠٠م ما لا يقل عن مائة فرقة من الفرق الدينية، وهو أمر قاطع في دلالة على مرونة التفكير الإسلامي»^(٥٥). وعلى التشتت الايماني أيضاً. هذه المرونة التي يفترض أن تكون رحمة وأن نجني نتائجها انفتاحاً وديمقراطية وتواصلاً واعترافاً بالآخر وتعاوناً بين هذه الاتجاهات المختلفة عقيدياً، كان أثرها عكسياً فلم تحصد مجتمعاتنا إلا التناحر والتسلط والانغلاق والعنف والنفي بين هذه

الفرق، لأن الخلاف هنا يكون على مستوى العقيدة، ومتصل بالمقدس، والعقيدة حارسة المصلحة، إذاً لا يصح التنازل في هذا المجال، فأى تنازل من قبل جهة لصالح جهة أخرى، أو جهات أخرى، يعد تفريطاً فيما لا يملك أحد التفريط فيه، لأنه ليس من الأملاك الشخصية أولاً، ثم إن التفريط فيها تفريط بالآيمان يؤدي الى غضب الله ثم النار أيضاً.

إن حالة الغيبوبة التي عاشها العالم الاسلامي طيلة عصور الانحطاط والتي لا تزال آثارها ومفاعيلها مستمرة حتى يومنا هذا، تركت بصماتها البارزة على الواقع من جميع النواحي، إحدى هذه البصمات تجلت في غلبة الاتجاهات الايمانية، ففي مثل هذه المناخات تضعف الامكانيات العلمية والعقلية، وتتم الاستعاضة عنها بتنشيط المناخات السحرية والخرافية. فقد انحسرت موجة التشاؤم الكبيرة التي أوجدتها الحالة الإسلامية المتألمة حتى القرن الرابع والخامس الهجريين، وبعد ذلك بقليل، إذ أن الانحسار الفكري والثقافي لا يتم دفعة واحدة وبالحدة ذاتها التي يتم فيها الانحسار السياسي، وقد أحدث هذا الانحسار حالة ضعف وفراغ، وإذا كان لا بد من إملاء هذا الفراغ فقد تم الإملاء بالعملة الرديئة التي تترد العملة الجيدة من السوق كما يقول قانون جريشام.

من هنا وعلى المستوى العقيدي كان البديل للمبدعين الأول في مجال الفكر والفقه، نط آخر مشابه للعصر في جموده وانغلاقه، فكان من أبرز الوجوه البديلة ابن تيمية وتلميذه ابن القيم الجوزية وابن الصلاح وغيرهم، هذا في مجال الفقه والفكر العقيدي، وقد كان نتاجهم الفكري صورة لعصرهم في انغلاقه وضعفه، وقد طبع هذا النتاج الذي قدموه المرحلة التاريخية التي عاشوا فيها، ولا يزال يرين بثقله حتى يومنا هذا، ولا يزال كل المنغلقيين والمتعصبين والمتطرفين اللاعقلانيين، يجدون ملاذهم ومبرر سوكهم في نتاج فقهاء ومؤدجي ذلك العصر، والذي يعد ابن تيمية أحد أكبر ممثليه، حيث لا تزال فتاويه المتطرفة والمغلقة والداعية للعنف، مصدر امداد للمتشددين الاسلاميين على امتداد العصور التي تلت، والتي استلهمها أمثال المودودي وجماعة الأخوان المسلمين، ولا تزال أحكامه على فئات وطوائف إسلامية تخالفه الرأي، عنواناً لرفض الآخر، وللضيق بالرأي الجديد، كما لا يزال من يريد أن يبرهن على صحة إيمانه

وتمسكه بصحيح الدين، يعيد التمسك بهذه الفتاوي، كما فعل مفتي الديار المصرية د. (سيد محمد طنطاوي) منذ سنوات وقبل أن يصبح شيخ الأزهر، مما اقتضى الرد عليه من قبل الكثير من الجهات.

وليست العودة الى هذه المعارك في عصرنا دليل عافية فكرية، ولا اجتماعية، ولا بد لنا ونحن نجتاز عنق القارورة، من التخلي عن إعادة الاعتبار لها ولأمثالها. ولقد اتسمت هذه المرحلة بسيطرة الضيق والانغلاق الفكريين كما في مجال العقيدة، وبرز هذا الضيق في فتوى المشايخ لصالح الدين بقتل السهروردي بمخالفته لهم بالرأي، واتهامه بفساد العقيدة، من خلال الحيلة، هذه الحيلة تشير الى ما آل إليه الأمر في تلك المرحلة، فعندما طلب صلاح الدين امتحان السهروردي في عقيدته، وجه إليه المشايخ سؤالاً مضمونه: هل يستطيع الله إرسال نبي جديد؟ وواضح أن أي جواب يجيبه الفيلسوف سيؤدي حتماً الى الفتوى بقتله كما يريدون. والسهروردي الفيلسوف الاشراقي معروف بمنهج آخر ضاقت عنه عقولهم الضيقة. وكما كانت حال السهروردي كان حال الفيلسوف الحروفي (ياقوتة حلب) عماد الدين النسيمي الذي لاقى المصير ذاته، وكان أحد ضحايا الانغلاق والتعصب للرأي الواحد^(٥٦). ومع أن هؤلاء جميعاً يشكلون عناصر اللوحة الإيمانية بتنوع مضامينها، ومع أن المناخ السائد، مناخ الضعف والتخلف يساعد كثيراً على نمو الاتجاهات والجماعات الإيمانية، والآراء والعقائد الخرافية والسحرية، فقد كانت كل حالة إيمانية من هذه الحالات، تنفي الأخرى وتحاربها وتحاول تشويه صورتها.

لقد أورث هذا الوضع حالاً من أهم سماتها، سيادة الأخلاق الرديئة، التي كانت بواردها قد بدأت بالظهور قبل ذلك، حتى إذا جاء عصر أبي العلاء المعري في القرن الخامس الهجري، لم يكن قادراً على السكوت عن رداءة القيم الأخلاقية التي صور الكثير منها في شعره المتضمن وصف أحوال عصره، والذي هاله ودعاه الى الحدة في الهجاء الذي لم يكن يجرؤ عليه غيره، هو أن المسؤولين عن المجتمع من سياسيين ورجال دين، كما أنهم من طليعي المجتمع في الحياة الاجتماعية والدينية، كذلك هم طليعة في الفساد والسقوط الأخلاقيين.

لقد غرقت بلادنا في عصور الانحطاط في ظلام التخلف والجهل والطقوسية

الفارغة في كل مجال من مجالات الحياة، وهذا ما يوحى بثقل الميراث الذي كان على بلادنا أن تتخلص منه إذا أرادت النهوض، فكيف إذا كانت البلاد لم تمتلك بعد الإرادة الكافية للتخلص من ضغوط هذا الميراث، بل كيف الصنيع إذا كنا لانزال نعمل على إعادة إنتاج هذا الواقع المتخلف، بكل مفرداته الطقوسية التبجيلية، والخرافية والسحرية، ولا يزال يلاحقنا مئة هم وهم للخلاص مما أحالنا عصر الانحدار إليه، أو أورثنا إياه، فبأيها نبداً؟.

إن الوضع العقائدي والتعليمي الثقافي والاقتصادي والسياسي، والمجتمع ووضع المرأة وو... الخ كلها حقول تحتاج الى من يلامسها بعقلانية ليرفع عنها ظلامية العصور السابقة. وكيف نبداً ذلك ولا يزال بيننا أمثال الشيخ محمد متولي الشعراوي ممن يدعون الى العودة الى عصر الرق، فهو يقول: «أما معاشرتنا النساء الأسيرات معاشرتنا الأزواج ففي هذا تكريم لهن، إذ يفعل السيد ما يفعله مع زوجته»^(٥٧)، وأمثال الشيخ الغزالي الذي يحدد الكفار في شهادته أمام المحكمة في قضية اغتيال فرج فودة، بأنهم: «كل من قال بالقانون الوضعي»^(٥٨).

وتبدو صعوبة الأمر في أن هؤلاء وأمثالهم لهم الكلمة الأولى في السيطرة على الناس وعقولهم، وأوامرهم وآراؤهم لها صفة القداسة، ولا بد للمؤمن إذا أراد أن يكون مؤمناً أن يهتدي بها، طبعاً هذا في عرف العامة الذين يبدع الشعراوي والغزالي تلك الآراء الأكثر شذوذاً وهم يتوجهون إليهم لإنقاذ عقولهم من آراء التقدم لأنها بدع، وبالتالي انقاذ أرواحهم من النار، مما يبقوهم في نار التخلف والفقر في الحياة الدنيا.

كيف نتجاوز هذا الواقع ونحن لانزال نؤدلج كل شيء إيمانياً، حتى القبور والموتى الذين ينالون حظهم من العناية في كل مناسبة، خصوصاً المناسبات الدينية، حتى لو كانوا قد قضوا منذ وقت طويل، فلاتزال عادة زيارة القبور ووضع أغصان الآس الخضراء عليها عادة يمارسها الناس في صبيحة الأعياد، فتغدوا المقابر كأنها تعيش مهرجاناً، ولا يمكن عزل ذلك عن الحالات الايمانية للناس، ولا يفتقر هذا على اتجاه ايماني دون غيره. إن في انتماء المقابر الى عالم العقل الايماني دليل ترابط بينهما، إنه عقل تفوح منه في أكثر الأحيان رائحة الموت في أحد مظاهره وتجلياته، ويعبر عنا موت الخلايا المنتجة للجمال والمجددة لأشكاله في الحياة.

إن التجديد الإيماني قد برز في عصرنا باعتباره أحد العناصر التي وسمت الواقع بسمات واضحة، ولاننسى أن كل حركة تجديد للإيمان تقوم على أرضية الاعتقاد بفساد إيمان الناس وانحرافه عن الأصول المتبعة والنصوص المقدسة وتعاليم الآباء والأجداد. وتهم فساد العقيدة والتحلل من الواجبات، والتراخي في تطبيقها، وبالتالي الدخول في الضلال المؤدي إلى الهلاك، هو الحجة التي رفعها كل الساعين إلى تطويع الواقع لوجهات نظرهم الإيمانية، والذين لا يحتملون الرأي الآخر ولا يرون أن الإيمان يمكن أن يكون إلا كما يمارسون هم، وكما يرون هم، هذه الحركات بعضها ينتمي إلى الصوفية في الأخذ بطرائق معينة في أداء العبادات كالنقشبندية والشاذلية والقادرية وغيرها، وينضوي الناس في ظلها طواعية، بينما نجد غيرها تريد أن تفسر الواقع والناس وتجبرهم على اتباع ما تريد كما في الوهابية مثلاً.

وتكاد تكون الحركات الإسلامية المتشددة المعاصرة، والتي تكفر المجتمع وتسعى للوصول إلى أهدافها المصلحية والسياسية عبر القتل والترويع والتدمير، كل ذلك باسم الله وتحت راية الإيمان به كما يعلنون، هي اللون الطاغى على اللوحة المشهدة للإيمان بما مارسه من عنف وقتل في كثير من البلدان كالجزار ومصر وتركيا وباكستان وأفغانستان، ولا ينفي هذا وجود مثل هذه التنظيمات العنيفة في إطار أديان أخرى كالحاصل في أيرلندا مثلاً.

إن الكثير من مظاهر الحياة قد تحولت إلى موضوعات ومشاهد وحقوق لممارسة وإظهار مدى الالتزام الإيماني في معظم المذاهب أو النحل المتفرعة عن كل من الأديان، حيث تشكلت الكتل الإيمانية الصلبة، ويبرز الالتزام الإيماني في حضور التاريخ وأحداثه بشكل كبير، ولكن ذلك يتم بشكل انتقائي ويظهر في سلوك الناس وحياتهم اليومية، فالناس في البيئات الشيعية أو المتأثرة بالفكر الشيعي، أو المسلمون الذي لا يزالون يحفظون في أعماق وجدانهم مشاعر المحبة لآل البيت النبوي ويرون فيهم القدوة والمثال، يظهرون ذلك في ممارسات كالاكتحال يوم عاشوراء ذكرى مقتل الحسين ظناً منهم أو إيماناً بأن العين التي تكتحل في هذا اليوم لا يصيبها الرمد، كما كان الناس يمتنعون عن غسل ثيابهم يوم الاثنين لأن الحسين كما قيل قتل يوم الاثنين. أليس في مثل هذه التصرفات تعبير عن بقاء الموروث الإيماني عبر التاريخ؟.

من المظاهر أو الحقول التي يحضر فيه الايمان بشكل كبير، وتحمل تاريخيتها أشير الى حقل الأسماء (أسماء الأشخاص) التي لاتزال عن سابق إصرار وتصميم، أو بشكل لاشعوري، تستحضر الموضوع الايماني وتجعله متجلياً على سطح الحياة، وفي إطلالة على حقل الأسماء في الإسلام حسب طوائفه تبدو الظاهرة جلية، كما تبدو في حقل الأديان الأخرى، حيث تحيل الأسماء الى موضوع إيماني.

فالمسلم مثلاً ومن أية طائفة أو مذهب كان، يتبرك باسم محمد ويجعله لازمة تسبق أي اسم آخر يختاره لأولاده، ولهذا التبرك دلالة الايمانية، والأسماء التي ترد في حقل الإسلام السني قد لانراها منتشرة بكثرة في حقل الإسلام الشيعي الذي يتوارث أسماء أخرى لها مكانتها الايمانية في وجدانه، ويرى أن البركة والتطهر يتحققان من خلالها، فالشيعي يرى أسماء علي وحسن وحسين وغيرها من أسماء آل البيت خير ما يطلقه على أولاده، وهذا شعور قار في أعماق وجدانه، ونرى أن بعض أسماء هذه البيئة الشيعية تشير باتجاه الأدلجة أكثر وأكثر مثل عبد الحسين أو عبد الحسن أو عبد الزهراء أو فاطمة الزهراء، وإن كان بعضها يشيع في طوائف أو ملل أخرى. ونجد أثر الإيمان بالأسماء التي تبدأ بكلمة عبد مثلاً كعبد الله وعبد الكريم وعبد الرحمن وغيرها ولدى المسيحي عبد المسيح مثلاً، ونجد الأثر الإسلامي أيضاً في الأسماء المركبة مع كلمة الدين كعز الدين ونور الدين، فخر الدين... الخ، إذن لانزال نستحضر في أسمائنا وأسماء من نحب مشاعرنا وآراءنا الايمانية، ويبدو في تغييبنا لبعض الأسماء واستحضارنا لغيرها ثقل الموروث التاريخي، بل تبدو مساوئ التاريخ ويحمل أبناء المجتمع أوزاراً ليست أوزارهم بدون كبير جدوى، فما الذي يقدمه غياب اسم كعائشة في بعض الأوساط الايمانية لقضية الايمان من فائدة سوى إبقاء المشاعر الايمانية مشحونة ضد هذا الاسم مثلاً لأن شخصية ما حملته في يوم ما ومارست ما لم يرض بعض الناس، إنها عقدنا التي نستحضرها وننفخ فيها الحياة تاريخياً.

هكذا ندخل الايمان ونخرج منه في كل لحظة من حياتنا، دون الكثير من التفكير بما نعمل والى أين يوصلنا مانعمل، المهم أن نرضي مشاعر الموروث الذي لا يبدو كله جميلاً، وهكذا يبدو الأثر النفسي اللاشعوري والشعوري يستحضر القيم من دفاتر التاريخ كل لحظة، ويعيد نفث الغبار عنها وطلاءها بالألوان الزاهية. شكسبير يقول:

(فلان) كالقط يلحس المبرد فيتلذذ بطعم الدم الخارج من لسانه!!.

لايجوز للمسلم أن يوالي غير المسلمين فيتخذ من الكفار الذين يترصون بالمؤمنين السوء أولياء يصادقهم ويتودد إليهم أو يستعين بهم ويترك إخوانه المؤمنين فليس بين الايمان والكفر نسب وصله، فالآية الكريمة: «لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين...»^(٥٩)، «تحذر من موالاة الكافرين إلا في حالة الضرورة وهو حال اتقاء شرهم وتجنب ضررهم أو الخوف منهم فتجوز موالاتهم بشرط أن يقتصر ذلك على الظاهر مع إضمار الكراهية والبغض لهم في الباطن»^(٦٠). يشار الى أن صاحب هذا الرأي أستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة وقد نادى بتلك الفتوى علناً (محمد متولي الشعراوي) في حديثه الأسبوعي بالتلفزيون المصري فأهاج ثائرة البعض، كذلك (عمر عبد الكافي) الذي أعلن هذا الرأي من فوق منبر مسجد من أكبر مساجد القاهرة ثم قام بتعبثته في شريط كاسيت بيعت نسخه بالملايين^(٦١).

هكذا يبدو العقل الايماني قيد الاستثمار، وهو يتوالد عنفاً وكراهية ونفياً، ومجتمعات معاقة ينقصها التأهيل.

هوامش الفصل الرابع

- (١) - د . طيب تيزيني ، الفكر العربي في بواكيره وآفاقه الأولى ، صفحات متفرقة .
- (٢) - فراس السواح ، لغز عشتار - الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة ، دار الكندي ، طبعة ثالثة ١٩٨٨ ، صفحات متفرقة .
- (٣) - د . محمد عابد الجابري ، نقد العقل العربي - تكوين العقل العربي - مركز دراسات الوحدة العربية ، طبعة خامسة ١٩٩١ ص ١٤٩ .
- (٤) - المرجع السابق ص ١٥٢ .
- (٥) - المرجع السابق ص ١٨٣ .
- (٦) - ول ديورانت - قصة الحضارة ، مجلد ٤ / جزء ٣ / عصر الإيمان ، ترجمة محمد بدران ، الادارة الثقافية في جامعة الدول العربية ، طبعة ثانية ١٩٦٤ ص ١١ .
- (٧) - د . جيورجي كنعان ، أمجاد اسرائيل ، دار الطليعة - بيروت ، طبعة أولى ، أيلول ١٩٧٨ .
- نقلًا عن سفر التكوين ١٢ / . أيضاً كتابه ، العنصرية اليهودية ، توزيع دار النهار للنشر طبعة أولى ١٩٨٢ .
- (٨) - المرجع السابق نقلًا عن سفر التكوين ٢٠ / .
- (٩) - المرجع السابق نقلًا عن سفر التكوين ٢٦ - ٦ / .
- (١٠) - د . الصادق النيهوم ، إسلام ضد الإسلام ، كتاب الناقد - رياض الريس للكتب والنشر طبعة ثانية ، دمشق ، شباط/فبراير ١٩٩٥ ص ١٠٧ وما بعد .
- (١١) - علي العميم ، العلمانية والممانعة الإسلامية - محاورات في النهضة والحداثة ، دار الساقبي طبعة أولى ١٩٩٩ . من لقاء مع الدكتور : عبد الوهاب المسيري ، منشور في الكتاب .
- (١٢) - أديب ديمتري ، نفي العقل ، دار كنعان للدراسات والنشر ، دمشق ، طبعة أولى ١٩٩٣ ص ٢٨ - ٢٩ .
- (١٣) - المرجع السابق .
- (١٤) - المرجع السابق ص ٣٢ .
- (١٥) - المرجع السابق ص ٣٤ .
- (١٦) - المرجع السابق ص ٤٢ .
- (١٧) - المرجع السابق ص ١٠٦ .
- (١٨) - ول ديورانت ، المرجع السابق ص ٤٧ .
- (١٩) - المرجع السابق ص ٨٧ وما بعدها .
- (٢٠) - المرجع السابق ص ٦٨ .
- (٢١) - سمير عبده ، المسيحيون السوريون خلال ألفي عام ، منشورات دار علاء الدين ، طبعة أولى ، كانون الثاني ٢٠٠٠ ص ٤٠ .
- (٢٢) - المرجع السابق ص ٤٢ وما بعد .
- (٢٣) - د . ناصيف نصار ، الايديولوجيات على المحك - دار الطليعة - بيروت - طبعة أولى ١٩٩٤ ص ٧٤ .

- (٢٤) - د . محمد عابد الجابري ، المرجع السابق .
- (٢٥) - سمير عبده - المرجع السابق ص ٤٤ .
- (٢٦) - المرجع السابق ص ٤٣ .
- (٢٧) - د . محمد عابد الجابري - المرجع السابق ص ١٦٣ .
- (٢٨) - د . الجابري - المرجع السابق ص ١٦٢ وما بعدها .
- (٢٩) - مجلة الناقد ، مقال لـ سليم مطر كامل ، بعنوان : الديانة المنبوذة - المانوية حلقة مفقودة من التاريخ العربي ، العدد / ٧٠ / نيسان / أبريل ١٩٩٤ ص ٤٤ .
- (٣٠) - ول ديورانت ، مرجع سابق مجلد / ٥ / جزء / ٤ / ص ٨٤ .
- (٣١) - المرجع السابق ص ٨٤ .
- (٣٢) - المرجع السابق كجلد / ٤ / جزء / ٤ / ص ١٠٨ .
- (٣٣) - المرجع السابق ص ٩٧ .
- (٣٤) - المرجع السابق ص ٢٣٧ .
- (٣٥) - أديب ديمتري - المرجع السابق ص ٥٠ .
- (٣٦) - المرجع السابق ص ١٣٥ .
- (٣٧) - المرجع السابق ص ٦٦ - ٦٧ .
- (٣٨) - المرجع السابق ص ٧٢ .
- (٣٩) - المرجع السابق ص ٧٣ .
- (٤٠) - د . يوسف الحسن ، البعد الديني في السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربي الصهيوني - مركز دراسات الوحدة العربية ، سلسلة أطروحات الدكتوراه / ١٥ / بيروت ، شباط ، طبعة أولى ١٩٩٠ ص ١٩ وما بعدها .
- (٤١) - المرجع السابق ص ٣٧ وما بعدها .
- (٤٢) - المرجع السابق ص ٩١ وما بعدها .
- (٤٣) - أديب ديمتري ، مرجع سابق ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .
- (٤٤) - المرجع السابق ص ٢٥٥ .
- (٤٥) - المرجع السابق ص ٢٥٦ .
- (٤٦) - سمير عبده ، مرجع سابق ص ١١٨ .
- (٤٧) - انظر خليل عبد الكريم ، قریش من القبيلية الى الدولة ، سينا للنشر .
- (٤٨) - انظر خليل عبد الكريم ، الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية ، سينا للنشر + الانتشار العربي ، الطبعة الثانية ١٩٩٧ .
- (٤٩) - انظر بهذا الصدد . د . علي أومليل ، السلطة الثقافية والسلطة السياسية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، طبعة أولى - بيروت أيار ١٩٩٦ .
- (٥٠) - انظر بهذا الصدد ، فراس السواح ، دين الإنسان ، دار علاء الدين ، ط ١ ، دمشق ١٩٩٤ ص ٢٧٧ وما بعد .
- (٥١) - د . محمد عابد الجابري ، المرجع السابق ص ١٦٢ وما بعد .
- (٥٢) - المرجع السابق ص ١٩٥ .
- (٥٣) - المرجع السابق ص ١٩٤ .
- (٥٤) - نقلاً عن رفعت السعيد . المتأسلمون - الإرهاب والفتنة الطائفية ، دار الأهالي ، طبعة أولى ١٩٩٤ / ٦ . دمشق ص ٢١ ، نقلاً عن الأخبار القاهرية التي نقلتها بدورها عن النيويورك تايمز - من مقابلة مع راشد الغنوشي .
- (٥٥) - المرجع السابق ص ٣٩ .
- (٥٦) - انظر ، عبد الفتاح رؤاس قلعة جي ، ياقوتة حلب - عماد الدين النسيم - حياته - شعره - آراؤه الفلسفية ، اتحاد الكتاب العرب ١٩٩١ .
- (٥٧) - رفعت السعيد ، المرجع السابق ص ١١ ، وكتابه (ضد التأسلم) كتاب الأهالي يونيو / ٥٦ / ١٩٩٦ ص ١٢ .
- (٥٨) - المرجع السابق ص ١٥ .

- (٥٩) - قرآن كريم ، آل عمران / ٢٨ .
- (٦٠) - رشاد سلام ، تطبيق الشريعة بين القبول والرفض - سينا للنشر ، القاهرة + مؤسسة انتشار العربي ، بيروت، طبعة أولى ١٩٩٧
ص ١٦٥ - ١٦٦ نقلاً عن ، محمد علي الصابوني ، روائع البيان ج ١ ص ٣٩٩ مكتبة الغزالي ، دمشق .
- (٦١) - حاشية الصفحة المذكورة من كتاب رشاد سلام ، نقلاً عن روز اليوسف العدد ٢٣٨٢ ص ١٤ .

الفصل الخامس

العقل الإيماني وصراع الأزمنة*

* كان هذا الفصل قد نشر في مجلة النهج /١٨/ ربيع ١٩٩٩ . وقد جرى تعديله .

أردت الحديث عن العقل الإيماني، لا العقل الديني، مع مافي ذلك من صعوبة في الفرز، لما بينهما من تداخل. فالعقل الديني، يطالعنا في النتاج الثقافي - الكتابي، لدين أو طائفة أو ملة من حيث ارتباطها بالإله، ابتداء بالنص المقدس (الأساس، لأن جميع النصوص في هذا المجال تصبح مقدسة) وصولاً الى مدار حوله أو تفرع عنه من قضايا عقيدية وفقهية، ويمكن أن نستطلع في الأسفار والمجلدات التي لاحصر لها، والتي راكمتها الأيام والقرون في بداية ظهور التفكير الديني المتسق حتى اليوم.

أما العقل الإيماني، فقصدت به، ذاك العقل الذي نقرؤه في سلوك المؤمن، في ممارسته لطقوسه وشعائره، ويظهر في حياته اليومية بمعزل عن النصوص، دون أن يقطع معها قطعاً نهائياً، بل إن له نصوصه التي ينطلق منها، وله نصوصه التي ينتجها، وهو في جانبه الأهم سلوكي إجرائي.

ولاكتمال النظرة الى العقل الإيماني، لابد من الوقوف عند نظرتة الى الزمن تك النظرة المميزة، وكيف يتعاطى في مجاله، بل كيف يوظف الزمن في منظومته.

معروف ما للزمن وتطوراته من تأثير على الأفكار، وحقول المعرفة، وفي الأعم الأغلب ينظر الى الزمن في مفهومه التطوري التعاقبي، بينما نجد الحيز أو الإطار الذي يحتوي الأحداث والموضوعات والأفكار، بل أصبح بحد ذاته فكرة، يتم الصراع حول مفهومها، من هنا جاء تقسيم الزمن في إطاره الى زمن مقبول وزمن مرفوض.

والزمن محايد، لأن التحيز مرتبط بالإنسان وأفكاره، فعندما تضاف الأفكار الى الزمن يصبح متحيزاً، ويتراوح بين الرذالة والجودة، بين السلب والإيجاب، من هنا أصبح مفهوماً مراوفاً.

كثيراً مانعبر عن أن الأيام خدمت فلاناً من الناس، وأن الزمن خان فلاناً، والأيام والزمن براء من الخدمة والخيانة.

لا يتميز زمن عن زمن إلا بالأداء الإنساني أو بالأحداث التي تواجه الأفراد والمجتمعات، ولو أن الزمن بقي خارج الوعي الإنساني، لما كان له وجود. وعندما نتحدث عن الزمن، فليس القصد الزمن المجرد، إنما الزمن في علاقته بالناس، وعلاقة الناس به، يميزونه بإرادتهم أو بغير إرادتهم، عن طريق القيام بنشاطاتهم المتنوعة مادية كانت أو معنوية، أي بالدلالات التي أصبح يحملها، ويوحى بها.

نقصد الزمن بصفته ظرفاً، وتاريخاً، أو بصفته إطاراً لأفكار الناس وتطلعاتهم، لا الزمن باعتباره تاريخاً للطبيعة. الزمن في ارتباطه بالإنسان، وتحديداً في بعده الإيماني، لا الزمن في حالة تجرده عن العلاقات والأفكار البشرية.

الزمن فكرة مجردة وعشوائية وغائصة، تفقد معناها ووجودها إذا لم ترتبط بالأحداث، إذن، إن الأحداث هي التي تعطي الزمن بعده ومفهومه، بالتالي يتم التعاطي معه على أساس الأحداث التي تجري بين لحظتين زمنيتين، لا على أساس التجرد منها.

ما قيمة كل القرون التي خلت لولا ما جرى فيها من أحداث؟ إذاً لا وجود للزمن خارج هذا المفهوم الذي تقدمه الأحداث.

الزمن من وجهة النظر هذه ليس واحداً، فهو ملون بألوان الناس وتوجهاتهم وأعمالهم واختصاصاتهم وأفكارهم. فالزمن عند المؤرخ غيره عند ربة المنزل، والزمن عند الأديب والفنان غيره عند التاجر، والزمن عند الملحد غيره عند المؤمن.

وطريقة تعاطي الناس مع الزمن، لا يمكن فصلها عن اتجاهاتهم الحياتية، وقناعاتهم واختصاصاتهم وتوجهاتهم، إذ لا شك أن للفلكي وعالم الآثار والجيولوجي نظرة الى الزمن تختلف عن نظرة الصحفي الذي يلاحق اللحظة الحاضرة، وكل يعيش زمنه، الزمن الفكري.

من هنا كان رصد تبدي الزمن في سلوك الناس وقناعاتهم، وكيف ينعكس على الحياة الاجتماعية شيئاً ليس بالسهل، وكما أن حياة الناس تأثراً واضحاً في النظرة الى الزمن، كذلك لفهم الزمن تأثير في سلوك قطاعات كبيرة منهم، يتحركون بهدي فكرتهم عن الزمن، ويتوجهون بتأثير قناعاتهم، فقد تحول الزمن عندهم الى أيديولوجية، لا بل الى دوغما لا فكاك من أسرها.

هكذا يعيش المؤمن عقيدته، هكذا يتمظهر الزمن في قناعاته، علماً أنه ليس بالضرورة أن تنسجم تصرفاته مع قناعاته النظرية فيعيش التناقض. فلنتوقف عند طريقة المؤمن في التعاطي مع الزمن.

ينقسم الزمن عند المؤمن الى ثلاثة، اثنان مقدسان، والآخر دنس فاسد ملوث، مفسد بالرغم من كونه معبراً الى غيره، ويقرر العلاقة بغيره المقدس.

تتداخل هذه الأزمنة جداً عند المؤمن، ولا يمكن الفصل بينها إلا للدراسة، فالمؤمن الذي يستحضر فعلاً مرّ منذ قرون، أملاً بثواب مستقبلي لا يعرف توقيتته، يعيش الأزمنة الثلاثة في لحظة واحدة، ولا أظن أنه لكل زمن من هذه الأزمنة بعده الفكري وتمايزه في ذهن المؤمن، إنه زمن إيماني واحد ضارب الجذور في الماضي، مستمر الى أن يرث الله الأرض.

ليس الدور هنا للحدث التاريخي، بل لتجلي القدرة الإلهية التي هي أساس شعور المؤمن بالزمن، فالتاريخ وأحداثه لقيمة لها، القيمة لتجلي المطلق في الزمن. والمطلق هنا هو المطلق الخاص، مطلق الفئة الإيمانية التي ينتمي إليها المؤمن، فلو كان المطلق واحداً لأدى الى شكل من أشكال الوحدة التي لم يعرفها المؤمنون، ولن يعرفوها، لتمسكهم بالخصوصيات التي تصنع الطوائف والاتجاهات.

١ - الحاضر فاسد مفسد

المؤمن لا يتصالح مع زمنه في الأعم الأغلب، فزمنه مدان، لأن ولائه لأزمة أخرى تتسم بالنقاء. فالنقاء وراءه والخلاص أمامه وهو في مرحلة مخاض. الحاضر نهر متدفق يخوضه الإنسان، كانت صفته الأولى تحمل الهدوء والطمأنينة والمثال المحتذى، وصفته الأخرى تعد بالخلاص الأبدي، ولا يجد الإنسان نفسه إلا وهو يصارع المياه بما تحمله من مخاطر، وكل زلة أو خطأ يجلب له الهلاك، فلا هو عائد الى الضفة الأولى، ولا هو واصل الثانية وكلاهما حلم منشود.

كيف يتصالح المؤمن مع زمنه وهو زمن الشهوات القاتلة؟! لو أقرّ أنه هو الزمن الذي يجب أن يعيشه لما كان له أن يطلب غيره، وهو لا يرضى بأقل من الكمال المبشر به، إذاً هو لا يستطيع أن يسبغ عليه الرضى، لأنه يسعى الى الخلاص منه عبر طلب

غيره، إنه لا يستطيع طلب الخلاص من زمنه لأن زمنه لا يمتلك مثل هذا الموعد، ولا يستطيع تحقيقه، لأن له زمناً آخر قادم، الوصول إليه يكون بمكابدة ومجاهدة الحاضر الفاسد، إنه مشتت بين الزمن الواقع، الذي تصعب مواجهته، وبين الزمن الحلم، الذي يحتاج للوصول إليه إلى عناء كبير ومجاهدة ومشقة لا يقدر عليها إلا من رحم الله.

المؤمن يعيش الماضي في الحاضر، يستحضره كلما شعر بالضيق، وكلما شعر بالانتماء، كلما شعر أنه معلق ولا رابط بينه وبين الواقع، إنه يستحضره لينقذ نفسه من هذا الضيق، والضيق هو الحاضر، وهو لا يشعر بالانتماء إلى الحاضر، ولو شعر أنه ينتمي إليه، لما استدعى الماضي ليخرجه منه، هذا الماضي المحمل بعق الإيمان والمؤمنين، إذاً فرار المؤمن من الحاضر أو محاولة فراره منه ليلوذ بالماضي، دليل على عدم انتمائه إليه، وعدم رضاه عنه، بل ورفضه، واستبداله بغيره ولو في حالة من الوهم.

إن هذا الشعور بالخوف من اقتلاع الجذور من أرض الواقع، يدفع المؤمن إلى محاولة غرس جذوره حيث تعلق هواه، وهذا تعلق زائف، إنه انبتات من الواقع، وما لم يتجذر في الواقع فمن الصعب أن يحقق التجذر في الماضي.

المؤمن يجمد الزمن فلا يؤمن بالتطور سنة للحياة، لأن تفكيره مرهون باعتبار لحظة التدشين (تدشين دينه أو مذهبه أو ملته أو نحلته) هي لحظة النقاء الأولى، وربما الوحيدة، وكل ما جاء بعدها لم يستطع أن يستحضر درجة نقائها.

إذاً هاجسه في حياته الحصول على لحظة النقاء هذه، ولما كان الأمر شاقاً بل يكاد يكون من المحال، لأنه ألغى من تفكيره قدرة البشر على أن يعيشوا لحظة مشابهة لتلك اللحظة بارتباطها بالأشخاص الذين صنعوها، من هنا عمل خياله على خلق البدائل للقبض على الزمن الحلم، فلما كان الأصل محالاً، أي لما كانت النبوة محالاً مثلاً، تعلق بالقيامة، أو بالمهدي المنتظر، وهنا نجد من الجدير بالذكر أن نشير إلى أن كل جماعة إيمانية لها مهديها، فالأمور معلقة لم تحسم، والإنسان لا يستطيع أن يحسمها، إذا لا بد من قوة تفوق قدرتها قدرة الإنسان، قوة فوق بشرية تسعى لحسم الموقف، ووضع الأمور في نصابها، بعد أن عم الجور، ويكون ذلك باستعادة الصالح الطيب، والقضاء على الطالح الخبيث، وهنا يتجلى خوف المؤمن من المواجهة مع قوى الشر والخبيث، لا يستطيع أن يواجهها، لا يستطيع أن يقضي على عدوه، لأنه قد سلم بامتداده وانتشاره وهو

ينتظر أن يستولي الشر على كل شيء في الحياة، حتى يكون ذلك إيذاناً بقدوم الفرج الممثل بالقيامة، بالمسيح، بالمهدي، أو غيرها من قوى الفوق.

المؤمن يحيل المهمة الى تلك القدرة الإلهية الخارقة المتمثلة بهذا القادم في لحظة ما، لحظة مستترة، غائمة المعالم، هذا القادم القادر على كل شيء، المعوض عن فشل المؤمنين في إنجاز مهمة الاستخلاف، لإقرارهم بضعفهم وهزيمتهم، وهذا ما يجعلهم عاجزين عن المواجهة عجزاً بنسبياً، فعندما لا يصح الإيمان إلا بأن يؤمن المؤمن بأن الخلاص لا يتم إلا بقوة ربانية، فإنه في ذات الوقت يقر بعجزه عن زحزحة الشر المؤبد، فمتى تمتلئ الأرض جوراً وظلماً، وينتهي الخير من هذا الكون ليكون على المهدي أو المخلص أن يظهر؟! يا الله كم على البشرية أن تنتظر، وكم عليها أن تتحمل من الآلام أكثر مما تحملت!!.

هل من المنطق أن نحلم ونتمنى أن ينتهي الحق والخير والعدل، ويعم الفساد والباطل والجور، لنحقق حلمنا بقدوم المخلص؟! أليس هذا الحلم حلماً مريضاً؟!

إنها إحالة الى المجهول، المجهول الذي هو المسيح المنتظر عند اليهود، وعودة المسيح عند المسيحيين، والمهدي (سفيانياً أو مروانياً أو عباسياً أو طالبياً) عند فئات المسلمين، هو الذي سيحارب عن الجميع، وهو الذي سيقول وسيفعل ما لا يتجرأ المؤمن أن يقوله ويفعله في الحياة. كل شيء انهزم المؤمن اتجاهه أحاله الى فكرة المهدي المنتظر أو القادم الذي لا يواجه. إنه التعويض عن الخور والضعف وتبرير الهزيمة. وليس بالغريب أو المجهول ما تحمله هذه الفكرة معها من الركون الى الكسل، والاستسلام لفكرة ردائة الواقع، وعبث محاولات تصحيحه، لأن التصحيح لا يتم بواسطة قوة بشرية عاجزة، إنه تثبيت لمنطق الفساد في الحياة. إذن فكرة المهدي أو المخلص تحمل مرارة الخيبة، والدور الناقص للمؤمن في هذه الحياة، والتبرير للتقصير والعجز وعدم المحاولة لتدارك الأخطاء والأخطار، فهناك من سيأتي ويقوم بهذه المهمة، فلماذا التعب؟!

وكما ينتظر المؤمن مخلصه، فإنه يتوسل الى هدفه بالصالحين والقديسين، ريثما يحدث المطلوب، وبالنظر الى استحالة إحضار لحظة التدشين، بعمقها وظروفها ومضامينها، اكتفى باستحضار، بعض الشكليات، ظناً منه أنه يعوض عما فاتته من حقيقة تلك اللحظة.

ربما كان بروز الماضي المقدس في حاضر اليهودي المتدين أو المؤمن للتعويض عن رداءة الواقع وفساده، أكثر وضوحاً، وعلى الحلم بهذا الماضي ووعوده، برزت ضرورة إحيائه واستعادة مناخاته، وعلى ذلك عاش المؤمنون اليهود كغيرهم من المؤمنين، باستغراق أقل أو أكثر في هذا الماضي المستعاد. وهذا مادفع الشكليات الى البروز في عملية الاستعادة والاستحضار الى الواجهة لأن استعادة الحقائق والمضامين الفعلية صعب إن لم يكن محالاً.

لم يغفل اليهودي المتمسك بأهداب دينية (المؤمن) عن أن الزي الذي يلبسه له علاقة بالحضور الإيماني، والالتزام بعطلة السبت بكل مافيها من تفاصيل والتزامات هي جزء من تلك الدوغما الاعتقادية، وهذه الدوغما هي التي تدفع رجال الدين اليهود لتفحص شعر بقرة حمراء اللون بالعدسات المكبرة بحثاً عن أية إشارة أو شعرة فارقة تنقض الإيمان اليهودي بأن المسيح المنتظر سيظهر عقب ظهور بقرة حمراء نقية الحمرة^(١). ولا يغيب عن بالنا مدى استغلال الحركة الصهيونية للشكليات التي استحضرتها اليهود من الحفريات التوراتية والتلمودية، ليصنعوا منها زمنهم الإيماني، وغيتواتهم العقيدية، وهذا مادفع المفكر الفرنسي «روجيه غارودي» للكتابة عن الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية.

إن الماضي المقياس الذي باستحضار جزئياته الشكلية حتى يقيس المؤمن مدى التزامه بعقيدته، وبالتالي مدى رضى ربه الذي يعتبر معبراً لزمن اللامسؤولية، يستحضر السياج الذي يصون وجوداً وعقيدة ويطرد الشياطين والأبالسة، ويمنعها من أن ترتع في عقول المؤمنين، وهذا مايدفع المسيحي الى القيام بالكثير من الطقوس، لا بل العادات المكتسبة التي يتوخى من خلالها استحضار الجو الإيماني للمؤمنين الأول، وللمقدسات التي لاغنى عنها.

لنأخذ مثلاً طقس غسل أرجل الناس في بعض المناسبات الدينية من قبل رجل الدين، تعبيراً عن التواضع الذي يميز المؤمن المخلص؛ هذا الطقس لايعطي الثقة بأن هذا الكاهن قد تخلى عن تكبره وأبدل به التواضع، لأكثر من الثواني التي يستغرقها غسل رجل إنسان آخر في طقس رمزي شكلي قد يكون بعيداً عن عمقه الإيماني المبدئي المرتبط بفكرة التواضع عند المؤمن.

أليست شجرة الميلاد إحدى تلك الرموز التي يتم إحيائها على نطاق واسع، ومغارة الميلاد رمز ثانٍ، يأمل المتدين المؤمن أن يساهم في شحن النفوس بقيم ارتبطت بهذه الرموز الموحية، بأن ذلك الزمن الموهل في القدم، وبالتالي الموهل في القداسة، لا يزال مستمراً، فلماذا لا يستمر ما يوازيه من الشعور بالرهبة والإيمان والالتزام، وغير هذه الرموز مما يتم استحضاره في الأعياد والمناسبات الدينية كثير ومتنوع، وكله يقصد منه إحياء الشعور بأننا في عصر الرهبة والقداسة، كتناول الخمر والخبز في الطقوس المسيحية، كما أنه إشارة إلى إدانة الواقع باستبدال أحداثه ومكوناته بأحداث ومكونات مستمدة من عصور النقاء.

إن التركيز على العقل الإيماني الشكلي الموروث، أكثر حضوراً، وأكثر تأثيراً، في مجال الأيديولوجيا الدينية الإيمانية، على حساب الإيمان الشعوري القلبي، فقد توقف المسلمون عند الوضوء كإجراء شكلي له طقوسه، وهي في الأصل طقوس تطهير الجسد الذي يجب أن ينطوي على طهارة جوانبه، أكثر مما توقفوا للتأكد والتأكيد على وجود هذه الطهارة فعلاً، وأن الطهارة الخارجية لا تساوي شيئاً تجاه الطهارة القلبية، وكذلك أحييت الصلوات إلى حركات خاوية فارغة من مضامينها التطهيرية إلى حركات تشبه حركات القروود كما رأينا في تعبير الشيخ محمد عبده عن ذلك، ووضعية الأيدي أثناء الصلاة في العقائد الموروثة من الماضي الإيماني، أكثر ثباتاً ودلالة من حضور النية الصادقة، ويحاسب عليها المؤمن في مجتمعه أكثر باعتبارها قضايا خلافية شديدة بين طوائف المسلمين، ودليل إيمان أو كفر كما صورتها الأيام، وهي في حقيقتها لا تنطوي على أي بعد قيمى لترجيح وضعية على أخرى ترجيحاً حقيقياً، مثلما كانت قضية رسم إشارة الصليب، وقضية إجرائها بحركة من اليد، مشار خلاف بين الطوائف المسيحية، وكل ذلك تكريساً لموروثات زمنية حفرت مجراها، وعمقت أثرها إستناداً إلى الآراء الضيقة الأفق للفقهاء واللاهوتيين.

أما كيف يتعامل المسلم مع الحاضر؟ فالصورة لا تختلف كثيراً عن غيره من أبناء الديانات الأخرى. المؤمن المسلم لم يتصالح مع زمنه الحاضر، ويسعى لإدانة هذا الحاضر، حتى لو لم يصرح بذلك، فتصرفاته وأفكاره توحى بما في أعماقه. وإدانته للحاضر واضحة، في أنه يعيش قيم الماضي وعلاقاته وأسلوبه، في هذا الحاضر، لصالح المستقبل.

إن حلم المسلم الذي لم يستطع أن يستبعده لصالح حلم آخر، يظهر بمحاولة استعادة المشروع النبوي والراشدي، حتى وهو مقتنع باستحالة ذلك، ولما كان عاجزاً عنه في العمق، استعاده على مستوى السطح، أي استعاد بعض الشكليات التي كانت تنسب إلى ذلك العصر الغابر والتي فرضتها ظروف الحياة والطبيعة، فإطالة اللحية وحف الشوارب ولبس القصير من الثياب، والإفطار على تمرات في رمضان، وغيرها، قضايا لا تحيل إلى إيمان في العمق، كما لا تحول المؤمن كافرًا ولا الكافر مؤمنًا، والكثير من المؤمنين يستعيضون بهذه الشكليات عما يعتبر من عناصر الإيمان المنطلق من عقل المؤمن وشعوره، ولما عجز هذا المؤمن عن الإيمان باعتباره فعلاً قلبياً إيمانياً استحضر هذه الشكليات كبدائل توهم بما افتقده، والمؤمن في هذا المجال يعيش تناقضاً داخلياً، فهو في الوقت الذي يصر على استخدام السيف مثلاً في إيقاع عقوبة الإعدام، ولا يلبس إلا القصير والخشن من الثياب، تشبهاً بعصر النبي وخلفائه الراشدين، وهي أدوات وألبسة تنتمي إلى ما هو بدوي بدائي، وتثبت الواقع عند لحظة رسمتها الأيام في مجرى التاريخ، لا يتورع هذا المؤمن عن استخدام آخر ما ابتكرته تكنولوجيا الإجرام من أدوات القتل والترويع لمن يختلفون معه في هذه الشكليات، كما أنه لا يتورع عن استخدام أرقى ما وصلت إليه تكنولوجيا الصوت والإضاءة في المساجد والأماكن المقدسة، غير عابئ بأن هذه الأدوات لم تكن على عهد النبي، كما أن استخدام أرقى ما توصلت إليه تكنولوجيا الكمبيوتر والمعلوماتية في دراسات النص المقدس الذي نزل شفهاً، يبرز تناقضاً آخر بين حياة المؤمن المعاصرة وارتباطه بالماضي في طريقة تعاطيه مع القضايا الإيمانية، فكيف يعيش على هذا المستوى الحياتي، أسلوباً عصرياً متقدماً، ويعيش على مستوى الإيمان وفي القطاع ذاته أسلوب وأفكار أربعة عشر قرناً خلت؟.

من هنا يبدأ تناقضه مع نفسه، ومن هنا لم يستطع أن يحيي إلا أكثر الأفكار رجعية وانغلاقاً في تجربة الحياة الإسلامية الماضية، بدل أن يحيي أكثر قيم العقلانية التي برزت جلية في القرون التي اتسمت بالإسلامية فيما مضى.

ليس من السهولة بمكان فهم طريقة المؤمن في ترجمة أفكاره إلى أسلوب معاش، وإلى حياة يومية يريد أن يعيشها دون أن يفرط بالإيمان، إلا بوضع صورة هذه الحياة المعاشة أمام نقيضها، الماضي المثالي، والمستقبل الحلم، مما جعلها تبدو مضخمة في

جانب ومقزومة في جانب آخر، أي صورة شوهاء كاريكاتورية تبرزها مرآة محدّبة، وهذه الصورة الشوهاء لاتصنع استقراراً، إنها تكرر القلق بدل الطمأنينة التي يتوخاها المؤمن من إيمانه، ومظاهر القلق عند المتدينين في عصرنا بارزة بحده، وكأن هناك ضياعاً، وكأن أربعة عشر قرناً عند المسلم وأكثر منها بكثير عند اليهودي والمسيحي، لم تكن كافية لإرساء تقاليد إيمانية، ولفهم المقدس والتعامل معه. يظهر هذا في الاختلافات الحادة بين مؤمن ومؤمن، حيث يبدو كل منهما كافراً في نظر الآخر، مع ما يستتبعه هذا الوصف من إجراءات لمحاربة الكفر.

أليس هذا قلقاً وعدم استقرار على مستوى عقيدة المؤمن وممارسته؟. من هنا كان المؤمن كثير الاتهام لعصره، ولأبناء عصره، غير قادر على التسامح الذي حاولت الأديان أن ترعاه وتطوره كجزء من الأخلاق الإيمانية، فظهر القلق اضطراباً وعنفاً. المؤمن مشتت، لا يريد التفريط بقيم آمن بها وخاف من التخلي عنها، كما أنه لا يريد أن يخسر الحياة المعاصرة بما تقدمه من مغريات، ولما لم يستطع أن يزاوج بين الأفقين كان ضحيتهما وكانا ضحيته.

يقول د. نصر حامد أبو زيد مؤكداً عدم تصالح المؤمن مع عصره واتهامه له: «إن الخطأ الجوهرى في موقف «أهل السنة» قديماً وحديثاً هو النظر الى حركة التاريخ وتطور الزمن بوصفها حركة نحو «الأسوأ» على جميع المستويات، ولذلك يحاولون ربط معنى النص ودلالته بالعصر الذهبي، عصر النبوة والرسالة ونزول الوحي، متناسين أنهم في ذلك يؤكدون زمانية الوحي لا من حيث تكون النص وتشكله فقط، بل من حيث دلالاته ومغزاه»^(٢). إن إساءة المؤمن الى النص بربط دلالاته ومعناه وتحقيق هذه الدلالة وهذا المعنى في زمن مضى، لا يوازئها إلا إساءته للنص وللواقع معاً عندما جعل الواقع المعاصر يستبعد عن النص وليس بقادر على أن يجسد معانيه، بل يشكل الحالة النقيض، لارتباط النص بالزمن، وغياب الجدلية عن ارتباطهما ببعضهما.

والسؤال المطروح الآن، هل بمقدور هذا النمط من المؤمنين النهوض بمجتمعاتهم بالمعنى الحضاري للنهضة؟ وفي الإجابة، أقول لا أظن، لأن أول المبادئ التي تحكم عملية النهوض الحضاري هو القناعة بضرورة ذلك، قناعة تولد إرادة، والإيمان بتفعيل قوى الواقع لإحداث التغيير المطلوب، فمن كان يرى أن الواقع فاسد ولاخير فيه، ولا

يعيشه الانسان إلا لتجاوزه، إذ لا مصلحة له فيه، وأن سبيل النهوض ليس أرضياً، وأنه لا يمكن الاعتماد على هذا الواقع لإحداث النهوض المرتجى، لا يمكن أن يكون سعيه لغير ما يؤمن به، أو لغير ماله فيه مصلحة، صادقاً. وبالتالي نفهم سبب الإعاقة التي عانت منها مشاريعنا النهوضية، من أيام محمد علي حتى يومنا هذا. إن هذه الإعاقة مرتبطة بالعقل الإيماني السائد الى حد كبير، والفعل الحضاري يفترض أن يعيش صاحبه حالة تلبس حضاري تشمل كيانه جميعاً، عقلاً وإرادة وروحاً، لا يستطيع الفكك منها إلا باتجاه تفعيلها وإخراجها الى حيز الوجود.

لا قيمة للحاضر عند المؤمن إلا بمقدار شبهه بالماضي، ولا يخلصه من الدنس والفساد إلا قدرات المؤمنين على نفيه وإزاحته من حياة المجتمع والأفراد لصالح غيره.

٢ - الماضي والحنين الى التدشين

لا أظن أن المرء يحتاج الى كبير عناء لإبراز دور الماضي في العقل الإيماني وأثره في حياة المؤمن وقلقه الروحي.

أن يحيل المؤمن قلقه واضطرابه الى طمأنينة، لم يكن بالإمكان إلا بتلبس الماضي، حيث ظهر الإيمان فعلاً جامداً، شيئاً ينتقل عبر الأيام والعصور، وينداح بين الناس بكتلته التي صنعتها الأيام، وبكل ما أضيف الى المقدس من خارجه، حتى كأنه من هذه الكتلة التي بدت عصية الاستيعاب على العصر كما هي بدون رتوش، والعصر عصي عليها بما امتلك من إمكانات لم تكن في حساباتها،

حمل المؤمن الماضي كتلة واحدة في قلبه وعقله دون أن يحاول تفكيكها ليعرف ما ينتمي منها الى الثابت وما ينتمي الى المتغير، وبما أن الثابت ليس بحاجة الى التثبيت، ثبت المتغير، فأحال نفسه وعقيدته الى دوغما.

الماضي زمن التدشين، حيث الدين في أوج حضوره، وشخصياته الأولى تصنع الإنسجام، وتبعد الاختلاف، والمبادئ لاتزال تحتفظ بطزاجتها وبريقها الأسر، والدهشة لاتزال تسيطر على الناس، والشحنة الانفعالية الايمانية الأولى لم تخل مكانها لا للمال ولا للجاه، ولم يحن الوقت للحاق التغير والتبدل على عناصرها، فالتعاليم والنصوص لاتزال في أول أطوار اختمارها، لم تتفتق بعد عن خلاقات في الفهم، واختلاف في

المصالح. وعندما أدلهمت الخطوب، وكثرت الخلافات، وفسدت الأخلاق، ولحق التغيير كل شيء كان اللجوء الى استحضار هذا المشهد في غير زمانه أو في غير مكانه هو المنقذ الوحيد من الضلال، وربما كان شكلاً من أشكال التعويض.

إن إظهار الواقع قزماً لا يثبت في وجهه ومواجهة الماضي العملاق، تفرغ هذا الواقع من شحنته الإيجابية الدافعة الى الأمام، وتجعل من ادانته شرطاً مسبقاً لتجاوزه، بل شرطاً لاغنى عنه للانسجام مع صحيح الدين، كما يفهمه حراسه، وصحته مرتبطة بتحقيقه على أكمل وجه في الماضي.

ببساطة، يريد المؤمن أن يخضع ما تلحقه الصيرورة الى ما لا تلحقه هذه الصيرورة من نصوص يؤمن بأزليتها وأبديتها، فصنع هذه المفارقة بينه وبين الواقع.

إن اليهودي يقوم باستحضار ابراهيم واسحق ويعقوب وموسى ويوشع وسليمان وداؤود وغيرهم متى كان في استحضارهم مصلحة. ومتى أراد أن يحاكم عصره حاكمه بالمقارنة بما فعلوه باعتبارهم ممثلي السماء في الأرض، والقمم الشوامخ الذين لا يطاقولهم عاقل، ومتى أراد أن يجيش ملته في سبيل قضية ما، ألحق عصره بعصورهم، للاقتداء بها، ولكنه لا يرى ضيراً أن ينسأهم عندما يكون في النسيان مصلحة أيضاً.

إن صورة الماضي كما دشنتها التوراة في سفر التكوين، هي الصورة المعتمدة رسمياً في الأديان الابراهيمية، والجزء الذي ألحقه بالقدس من هذا الماضي، حمل قدسيته معه حتى يومنا هذا، كما أن الجزء الذي ألحقه بالدنس والفساد لا يزال في أذهان حاملي هذا التراث من المؤمنين في الديانات المشار إليها دنساً وفاسداً، وكما أن هذا الجزء من الماضي هو جزء مشترك بين هذه الديانات، فقد كان لكل ديانة ماضيها الذي صنعه مناخها الفكري وظروفها الحياتية، وهنا أصبح ماضي كل ديانة ماضيين، واحد مشترك موحد مع غيرها، وماضٍ ذاتي مستقل مفرد يحمل نكهتها الخاصة، وكلاهما يتمايز فيه المقدس عن الدنس.

إن حضور العقل اليهودي الذي أثر فيه الأسر البابلي وانعكس هذا الأسر في دليله التوراتي بقوة، لا يزال يقود تفكير اليهود وطرق معاملتهم لشعوب العالم (الغوييم). إن الحنين الى صهيون وربط حلم الشعب اليهودي بالصهيونية، واستحضار نجمة داؤود لتكون شعاراً لليهود العالم أمثلة حية للحنين الى الماضي، بالإضافة الى كونها رموزاً

تاريخية يعيشها اليهودي المتدين في هذا العصر بعد العديد من القرون، حيث يظهر اليهودي أن الهدف من حياته ونضاله وسعيه وجمعه للمال ومؤامراته وأحقاده وصلواته، وكل نشاط يتصل بكيانه فرداً أو جماعة على المستوى الديني الإيماني، متصل بالحلم في إعادة بناء الهيكل كبيت للرب، رب هذه القبيلة، والذي يرتكز وجوده والايان به على أساس استغلال الآخرين واستعبادهم أو إبادةهم على يدميليشياه التي يرعاها. إن الإله القبلي (يهوه)، وعلاقة اليهود بغيرهم من الشعوب، والوصايا، والتحريمات المتعددة، ويوم استراحة الرب، والعلاقة بحائط المبكى وغيره، والأراضي المقدسة، والحدود الممتدة، وما توافق عليه التوراة وما لاتوافق، كل هذه وغيرها الكثير شواهد صارخة على أن اليهودي المؤمن لا يزال يعيش في عقله وقلبه عصرراً سحيقاً، راکمت الأيام والأحداث الكثير من المقدسات وأضافتها إليه، وإن ماضيه مستمر فيه بشكل سلبي. إنه زمن العقل الإيماني اليهودي العنصري، الذي صنع كل مايؤمن به على صورته ومقاسه، وربطها بالاله، بالتالي أصبحت نهجاً إيمانياً لكل يهودي مؤمن. وما لاشك فيه أن أي مؤمن من أي دين لا يعيش قيم عصر مضى إلا على حساب قيم عصر حاضر، يضطر للتنكر له ولو شكلاً، لأن من يراقب هذه الشريحة يراها تتناقض مع ماتعلن ايمانها به قولاً وعملاً.

لا يزال اليهودي في استحضاره الدوري لأحداث الماضي وتمثيلها أو تحويلها الى رموز، يريد أن يرسخ فكرة التمايز عن الآخرين، حتى ولو حملت معها معاني التفرقة والحقد والعنصرية، وأن اختيار العقل الإيماني اليهودي لرموز محددة مستمدة من تاريخه وأبقائها حية، يشير الى ضرورة التمسك بمنطق التمايز، فالرمز الذي يمثله الخبز الفطير (فطير صهيون) في حياة اليهود الإيمانية، يستحضر جو العداء، وشحن النفوس ضد الشعوب الأخرى، بالتالي الحقد عليها، متجاهلاً الأخطاء التي مارسها الجماعة الإيمانية التي ينتسب إليها والتي ساهمت في الوصول الى الحدث التاريخي الذي يترجم دورياً بضرورة التمسك بالتمايز، فالرمز الذي يمثله الخبز الفطير في حياة اليهود الإيمانية، هو استحضار اللحظة تاريخية اضطر فيها اليهود للخروج من مصر بأقصى سرعة ممكنة خوف العقوبة التي أراد فرعون ايقاعها بهم بسبب تصرفاتهم وإساءاتهم للمصريين، مما اضطرهم الى حمل عجين خبزهم قبل أن يتخمر أو خبزه قبل تخمره طلباً

للنجاة من المصريين، إن العقل الايماني اليهودي يبرز بذلك مدى الظلم الذي حاق بالجماعة (بني اسرائيل) لكنه يتغافل عن الإساءات التي صنعها الاسرائيليون مع المصريين. إن استحضار هذا الرمز وتكراره، هو وغيره لدى الجماعات الإيمانية، لن يسمح بانتشار مبدأ التسامح والتعايش الذي تحتاجه الشعوب، ويبدو الضرر الذي تحدثه مثل هذه الرموز والاشارات بما تدفع إليه من تجييش ضد الآخر، وهنا يبدو ضرر هذا العقل، وعدم قدرته على إحداث التنمية على أسس سليمة، كيف ولا تزال الاحتفالات تجري في ذكرى الأحداث التي تجعل الأحقاد والعنصرية تستفيق كاحتفال بذكرى الخبز الفطير سنوياً / ١٤ / نيسان، ويستمر التعبير فيه عن المعاني والقيم والدلالات (والكثير منها سلبي) لمدة ثمانية أيام وتسمى، عيد الخبز الفطير^(٣).

ولا يقل حضور الماضي وطريقة عيشه في حياة المسيحي عما هو عند اليهود، فقد زرع المسيحيون التاريخ بالقدسين وأعيادهم والمناسبات الإيمانية والتذكير بها، وأثر إعادة إنتاج الماضي يظهر في كل عيد، وفي كل مناسبة، وعند تطويب كل قديس، ومع كل أيقونة، أو مشهد ديني على جدار، أو مع كل كومة عظام لقديس ماتزال تحتفظ بقداسة صاحبها، أو عند كل مزار.

يتحدث ول ديورانت عن حمى اقتناء آثار القديسين وبقاياهم للتبرك واستحضار لحظات النقاء الايماني التي تفعل فعلها في نفوس المؤمنين، فقد كانت عظام القديسين تنقل وتباع للكنائس وللأفراد، وكانت هذه الأعمال الإيمانية العبادية مليئة بالغش والخداع، والهدف منها جني الأموال الطائلة، وكانت الكنائس تتكسب من ذلك، وكان شر هذه المساوئ هو تقطيع الأولياء والأصوات ليتيسر لعدد كبير من الأماكن أن تحظى بقطع منهم، بالتالي برعاية هؤلاء القديسين وقوتهم^(٤).

إن في مثل هذه الأعمال تغافل عن أن القداسة لا ترتبط في شرطها الصحيح بالأشياء المادية، إنها ترتبط بالقيم، واستحضار العظام أو الأغراض الشخصية والمقتنيات التي كانت لقديس ما لا يمكنها أن تصنع المعجزات، إنها لم تمنع من انتشار الاتحاد في العالم المسيحي في الزمن ذاته حيث انتشرت موجة الارتباط بالقدسيين من خلال اقتناء عظامهم أو بقايا تخصصهم، فلقد كان الاتحاد موجات عبرت عن نفسها وأفكارها بشكل صارخ في هذا العصر الذي اصطبغ بصبغة الإيمان، وسمي عصر الإيمان^(٥).

الماضي حا ضر عند المسيحي فيما يتم إحياءه واستحضاره في كل مناسبة، كاستحضار عذابات المسيح على الصليب، واستحضار رمز أكل لحمه وشرب دمه، وتعاليم الحواريين والقديسين الذين تم على أيديهم تدشين المسيحية كدين وماتفرع عنها من مذاهب، وطقس العمام، والزواج الكنسي... الخ، إنها شهادات حية وماثلة على أن المسيحي المؤمن لا يعيش عصره فقط، بل يعيش عصوراً متعددة، راكمت تجارب لاحصر لها، وعادات لاحصر لها، وقيماً لاحصر لها في حياته. ومن هنا يبرز تعدد الانتماءات وتنازعها.

لقد كان بروز الانتماء الى الزمن الماضي بما يحمله من تجارب وقيم أكثر وضوحاً عند المؤمن المسلم في بيئة اسلامية، وازداد بروزاً وحدة خلال العقدين أو الثلاثة الماضية، وجاهرت الاتجاهات الاسلامية الأكثر تشدداً، يجمع فئاتها وأحزابها برفضها للواقع المعاش وكل مفرزاته الحديثة، وعاشت تناقضاً مع نفسها ومع عصرها، بالولاء للماضي فكراً وعقيدة وأسلوب حياة، وطالبت بالعودة الى أسلوب ونمط الدولة الإسلامية الراشدية، وعمر قلبها الحنين الى عصر الرسول، فحاولت استعادته مجاهرة بذلك من خلال مشروعها السياسي. ولكن مانود الإشارة إليه هو الحياة الفردية والقناعة التي يعيشها المؤمن الذي لا يزال يرى أن الزمن الماضي بأشخاصه وأحداثه عنوان الكمال، ومصدر الالهام، وذروة الكمال، التي لا يحلم أحد بالوصول إليها، ويدعم ذلك بأحاديث نبوية تؤكد انتماء المؤمن الصالح الى هذا الماضي، «أصحابي كالنجوم الزهر بأيهم اقتديتم اهتديتم»، «خير القرون قرني ثم الذي يليه...»، «بدأ الاسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ...»، كما يظهر هذا الانتماء بالدعوة الى ملة ابراهيم التي تعود الى ما قبل الاسلام بكثير، والدعوة الى ملة ابراهيم تكريس لاعتبار الماضي دائماً يزخر بالتجارب التي إذا اقتدى المؤمن بها وصل الى ما يصبو إليه، وليس بعيداً عن ذلك ارتباط المؤمنين كل في إطار دينه بالحج الى أماكن التدشين وذكريات الأوائل ممن اكتسبوا القداسة بارتباطهم بمنظومة قيم جديدة، بقي للفاعلين الأوائل في ظهور هذه المنظومة كل الاحترام الذي تحول الى قداسة فطقوس، يرتبط بهذه الشخصيات التي كان لها دور فاعل في نشوء مذاهب ونحل جديدة (نشير هنا بالإضافة الى الحج السنوي الدوري الذي يقوم به المؤمنون الى أماكنهم المقدسة، الى

الزيارتين اللتين قام بهما (البابا) رأس الكنيسة الكاثوليكية في نهاية الألفية الثانية، الى أماكن التدشين المقدسة وقد ظهر الالتفاف الايماني حول تقديس الماضي وتبجيله وتأكيد حضوره من خلال هاتين الزيارتين اللتين تجمع خلالهما عشرات الآلاف بل مئات الآلاف من المؤمنين حول البابا في الطقوس والمراسيم التي أقامها سواء في زيارته الأولى الى مصر وما تحويه من أماكن مقدسة خاصة تلك التي في سيناء حيث أشارت التوراة الى أن هذه المناطق شهدت معاناة اليهود بقيادة موسى، كما شهدت تجلي الرب لموسى، أو في زيارته الثانية التي عرج فيها على ما في وادي الأردن والقدس وطبريا من أماكن الذكريات التي شهدت الخطوات الأولى التدشينية للمسيحية)، إذاً لا يزال المؤمن في لحظات صدقه الإيماني يحاول استعادة الماضي والتشبث به واستلهام المدد والذخيرة المعنوية منه.

وكما في الديانات السابقة كذلك في الإسلام، فقد أضافت كل طائفة وكل مذهب الى التراث المقدس للدين من أماكن وشخصيات وأحداث ومعاني، تلك الذكريات والشخصيات والأحداث والأماكن والمعاني التي ارتبطت بنشوء المذهب أو الطائفة، وربما حلت بعض هذه الشخصيات والمناسبات مكان شخصيات ورموز أساسية. فالشيعي له تراثه المقدس الذي يرتبط به، وهو مختلف عن تراث السني وزمنه، والشيعي الاسماعيلي مختلف في هذا عن الشيعي الإمامي، والزيدي غير الاسماعيلي وغير الإمامي، وهكذا بقية الفرق التي تنتمي الى الشيعة مثلاً، كما أن مذاهب السنة الأربعة وما تفرع عنها، كل منها تفرز مقدساتها وماضيها وأزمانها وشخصياتها، والجميع في هذا متشابهون، وما أكثر الطوائف والنحل.

إن الإصرار على اعتبار اللحظات النقاء الايماني قد عبرت مع عبور اللحظات التدشين (ظهور الأديان أو المذاهب في غابر الأيام) يعني تثبيت الزمن وحرمانه من مفهومه التطوري ومعطيات سيرورته بالمعنى الايجابي، هذا المعنى الذي يقصد منه لا الزمن الذي يحسب بالدقائق والساعات والأيام والسنين، بل الزمن باعتباره لحظة تجلي العقل، كما يحرم هذا المفهوم التاريخ من معناه الحقيقي، فالتاريخ يفهم منه أنه حركة تطور الحياة بكافة جوانبها، ونحن عندما نعلن أن هذا التاريخ قد بلغ ذروته في لحظة معينة، وأنه بدأ بالانحدار عن هذه الذروة، ولا سبيل للوصول الى مثلها ثانية، باعتبار أن

العمل الالهي هو الذي أوصل الى هذه الذروة، وتم إغلاق الباب دون المحاولة، فإن الإنسان يفتقد الحافز، حافز التطور وتغيير الواقع، وهنا نرى أن المؤمنين قد سبقوا في هذا المجال كل من قال بنهاية التاريخ، سواء ماركس أو فوكوياما أو غيرهما، وأحالوه الى التراجع والاضمحلال تحقيقاً لمشروع القيامة.

إن الحوافز تبدو خير محرك للتاريخ، والمانع له من التآييد على حالة واحدة، وما يحرك التاريخ ويجدده، أي يعلن مبدأ التطور فيه، هي الحوافز التي تسعى لتجاوز الماضي، فالأعمال لا تكون عظيمة إذا كانت تقليداً لما مضى، والانجازات لا تكون في المنظور الإنساني جديرة بالاحترام، إلا إذا قدمت للبشرية شيئاً جديداً، وهذا لا يصح في إطار العقل الإيماني الذي أعلن أن التاريخ بلغ ذروة تطوره ولا مطمح له في بلوغ هذه الذروة ثانية، وإن هذا قد جرى بقدرات إلهية لبشرية منذ قرون مرت، إذاً ما معنى السعي لتجديد حياة الشعوب انطلاقاً من الاستنارة بالعقل الإيماني الذي أقفل الباب في وجه أي تطور؟^{١٢}

إن لحظة اكتمال الدين التي أعلن عنها النبي محمد هي الذروة، ذروة ما بلغته الأديان والتشريعات والحضارة البشرية، يقول (ابراهيم بشير الغويل): «ومعيارنا أو إطارنا المرجعي هو ما شرع من الدين مما وصى به نوحاً... ومروراً بأبي الأنبياء: ابراهيم.. وموسى وعيسى.. وانتهاءً بمحمد (ص)»^(٦). ويقول: «فيوم أن أكمل ربنا الدين باختتام الرسالة التي بلغها محمد (ص) كانت البشرية قد امتحنت كل طاقاتها»^(٧)، ويقول في ذروة تعبيره عن الفكرة التي نطرحها: «إذ كان رسول الله (ص) قمة الكمال.. وقمة الكمال لا يأتي بعدها إلا النقص»^(٨).

إذاً، أي هدف نبغيه في أن يقودنا العقل الإيماني باتجاه تطوري يتجاوز الواقع؟ وإذاً، زماننا وكل زمان يأتي بعده، أي بعد القمة هو في اتجاه الانحدار، ومحكوم بالنقص، إنه نقص مؤبد.

ما أردت قوله، هو ما يبدو واضحاً وجلياً في حياة المؤمنين الذين يعيشون ماضيهم في حاضرهم، ولا يرون للحاضر فضيلة إلا بمقدار يشبهه بالماضي الذي تراه كل ملة، كل طائفة، كل دين، بشكل مختلف، سواء كان ذلك في الأديان السماوية الإبراهيمية أو في غيرها من الأديان، وهذا ما أحال حياة المؤمنين الى مفارقات وفي أحيان كثيرة الى

ضباع، نتيجة تنوع الولاء وتنازعه، وعدم القدرة على تحديد الانتماء أحياناً، ولا يغيب عن بالنا الصراعات التي حصلت فيما مضى بين الطوائف وما هو حاصل بينها الآن، لا بل ما هو حاصل بين من ينتمي الى الزمن الإيماني وبين من ينتمي الى العصر.

٣ - المستقبل والوعد بالخلود

لم تشغل بال الإنسان على امتداد الحياة البشرية فكرة كما شغلته فكرة الخلود، ففي سبيلها كان مستعداً لكل تضحية، وقد أربعه منطق الفناء، وبعد أن جرب حظه في المعارك التي خاضها من أجل الاستمرار (أسطورة جلجامش) اقتنع ربما بأن قضايا كهذه لا تؤخذ غلاباً، وهذا مادفعه الى أن يحيا فكرة الخلود على مستوى آخر، وكانت الأديان هي التي مهدت له الطريق ليحيا هذه الفكرة حتى الآن على المستوى النظري وهو لا يدري إن كان يحياها على المستوى العملي، فسلفه الأول آدم، عاش التجربة مغايرة، ووعد أخلاقه - حسب منطق التوراة - بحياة مثل حياته في الجنة إذا هم ناضلوا وقدموا الفروض المطلوبة.

لقد أخرج الله آدم من الجنة عقاباً له على تلك الخطيئة القاتلة، واستمرت العقوبة تتوارثها ذريته، ويحملون وزرها، ويعاقبون من أجلها، مما أحال حياة الإنسان الى نضال مثير لا انقطاع فيه، في سبيل العودة والقبض على اللحظة المضيعة، التي دفع الناس ثمناً غالياً لها، صبغ التاريخ باللون الأحمر. وبدأت الأديان كل بدوره يضع شروطه على الإنسان ليحصل على جواز المرور من دار الفناء الى دار البقاء، وهذا الجواز يحتاج بصمات وتواقيع أكثر، أين منها معاملات زماننا الراهن وبيروقراطيتنا المتخلفة، لكنها معاملات ومجاهدات على مستوى آخر، لا يجتازها أصحابها إلا بأداء الفروض، وإلغاء الآخرين، وتكفيرهم، والطعن بهم، والإيمان بأن الحقيقة ملكية خاصة للسيطرين على الواقع والموجهين له.

إنها طريق وعرة من أجل حلم جميل. إنها الجنة، والخلود الأبدي، المستقبل، المستوى الثالث من المستويات الزمنية التي تتنازع عقل المؤمن وقلبه.

لكل دين جنته، بل لكل طائفة أو جماعة دينية، وبالتالي له طريقه المحدد الى هذه الجنة، وهو طريق عبده الصالحون بعد أن رسموا معاملة وأحاطوه بالأسيجة والتخوم،

التي يعني تجاوزها أو الاقتراب منها فقدان هذا الطريق، بالتالي فقدان الجنة، إنه طريق له لون الرغبات والمصالح، بل لون البشرة، ورائحة الانفاس اللاهثة، إنه طريق مرسوم بدقة، وبالتالي فإن المؤمن يعيش حلمه المستقبلي، وينتعث هذا الحلم في داخله أكثر، كلما كان أداؤه على مستوى احترام الزمن الماضي في حاضره وطريقة عيشه وعلاقاته أكثر حرصاً ودقة؛ أي كلما كان المؤمن أميناً على عقل الاسلاف، ملتزماً نهجهم حتى في أبسط القضايا الشكلية، ما ضوي التفكير والرؤية، كان حظه من الزمن المستقبل، الزمن الحلم، أكثر، لمقدرته على تحقيق الشروط وفك الطلسمات والشفرات الموضوعة للانس والجن.

الزمن الثالث، زمن الحلم، جميل، ربما كان مرتبطاً عند اليهودي بظهور المسيح الذي يرى أنه لم يظهر حتى الآن، وعند المسيحي، ربما كان مرتبطاً بالقيامة، أي بعودة أخرى للمسيح، وعند المسلم بالنفخ في الصور، وعند المسلم الشيعي بظهور المهدي المنتظر، إنها علاقات تبدل الزمن، إنها أشكال من الإحالة للفقراء بأن زمن خلاصهم قادم، لينسوا عذاباتهم، وليتحملوا القهر والحرمان، وهم يرون غيرهم مؤيداً بالجاه والمال مع أنه نسي فروضه الدينية، وليتقاضوا أجورهم طالما أن غيرهم قد تقاضى أجره في الحياة الدنيا، وربما تمنوا ذلك، وهناك بعض الملل التي تؤمن بأن هذا الجزاء لا يكون إلا في الحياة الدنيا ويتخذ أشكالاً أخرى كالتقمص أو غيره.

المهم أن المؤمن يعيش هذا الحلم، وموقع الحلم هو المستقبل، إذاً فالمستقبل هو الزمن الثالث الذي على المؤمن أن يعيشه إضافة الى الحاضر والماضي.

إن منطق الاغراءات التي استخدمتها الأديان كحوافز للمؤمنين، بقي الكثير منها يدور في إطار الحسيات التي تخاطب الغرائز، وهذا دليل على دنيوية الحلم الذي لم يجد السبيل الى التحقق في الحياة الدنيا، فأحيل الى الآخرة، وطلب من المؤمن أن يجاهد في سبيله أكثر وأكثر وينتظره أكثر وأكثر، فالطعام والشراب والمغريات الجنسية كانت في صلب الخطاب الديني الدافع للناس باتجاه الإيمان، منهم من حقق هذا الحلم، وعاش هذه المغريات في حياته الدنيا، ومن لم يستطع ذلك فلا بأس أن ينتظر، المهم أن يبقى مطمئناً، فسيتم تبادل المواقع بين الفقراء والأغنياء في الآخرة، ولا شك أن الخطاب الديني، فيه مافيه من الإشارة الى صغر الاهتمامات التي تشغل بال الانسان الذي يعبر

وصوله الى الجنة عن أن علاقته بربه كانت فوق مستوى القيم المادية، والملذات الدنيوية، وهذا المنطق هو الذي حدا بالمتصوفة وبعض الفرق الإسلامية وغير الإسلامية الى القفز فوق هذه اللذة المادية أو العلاقة الحسية، وأظن أنهم اعتبروا من ضمن اعتباراتهم أن المكافأة المادية تتناقض مع الهدف المعلن للمهمة العبادية التي تقطع مع ماهو مادي، متجاوزة المادة الى ماهو أسمى. كما عبرت بعض الأديان عن ضرورة وصول المؤمن الى زمن الخلاص الروحي (النيرفانا) عبر المكابدة، لارتباط المادة بالدنس وعالم الشهوات التي تمنع المؤمن من الترقى، وبالتالي كلما اقترب منها ابتعد عن عالم الروح اللامادي، والعكس صحيح أيضاً.

إن الاعتماد على ما بين أيدينا من نصوص لايسعفنا في رسم صورة ليست المادة إحدى عناصرها لعلاقة المؤمن بربه طالما أن أجره سيحصل عليه من الحور العين والولدان المخلدين والكثير من الخمر والعسل واللبن.

ولم يكن الوجه السلبي (الآخر) للزمن المستقبلي (النار - جهنم) يبتعد عن منطق الحسيات، فجهنم تشكل الوجه الآخر من صورة المستقبل كزمن يعيشه المؤمن على مستوى هواجسه وتفكيره، والعذاب الجسدي الحسي هو المعطى الأساس لذلك الوعيد الالهي، ولا ننس أن الإنسان لا يستحق العذاب الجسدي إلا إذا عاش حاضره بعيداً عن منطق الرعب من النار، وإلا إذا فشل في الامتحان، امتحان ضبط الغرائز والشهوات المادية، وبالتالي عندما لا يستطيع أن يعمل في الزمن الحاضر لصالح زمن آخر قادم ربما.

إنه الضرر الذي يحقق بالجسد في حالة السلبية (الكفر) مقابلطمأنينة هذا الجسد ودوام شبابه وتمتعه بالملذات في الحالة الإيجابية (الإيمان) والصورة (الوعد) لاتنفذ الى المستوى العقلي أو الروحي إلا جزئياً وعند بعض الطوائف أو الفئات.

إن الزمن المستقبل عند المؤمن بما حمله من صور النقيضين، اللذين شكلا طرفي المعادلة، الجحيم - النعيم، الجنة - النار، كانت صياغته لهذين النقيضين، وتصويرهما من قبل النصوص الدينية، لها فعل السحر، ومع كل مالها من تأثير، فقد راكم الخيال الشعبي على مدى القرون، مايزيد هذه الصورة حدة وبروزاً، وشرح الشراح، ما كان مبهماً أو غير واضح في رسمه لصورة المستقبل، حتى بدا هذا الزمن الحلم على مقاس

الناس، وأقرب الى صورهم الإنسانية المليئة بانفعالاتهم أكثر مما هي قريبة من صورة زمن إلهي.

إذن، كلما اقترب المؤمن من الزمن الديني الايماني ابتعد عن الزمن الدنيوي (الواقع) ومن ابتعد عن الواقع، لن يكون فاعلاً فيه، ويصح عكسه.

بالعودة الى منطق الحافز المباشر نجد أن تفرغ الحياة من حوافزها المباشرة يتناقض مع منطق الثواب والعقاب الذي يعتبر أحد ركائز العقل الإيماني، فكيف يمكننا أن نعرف فيما إذا كان هذا الإنسان قد قام بفعل الخير ويجب أن يثاب عليه، أو قام بفعل الشر ويجب أن يعاقب عليه، إذا انعدمت حوافز العمل الإنساني في الحياة التي يحيها الإنسان؟.

لقد علمنا الدين أنه بناء على هذه الحياة وفعل الإنسان فيها يكون حسابه الأخروي، هذا بالمنطق الايماني، فإذا تم تفرغ الواقع من حوافز الإبداع والعمل في الحياة الدنيا، وركن الإنسان الى الكسل، وعدم تقديم الانجازات الجديدة فعلام سيحاسب؟ إذن، إن العمل على إحياء الماضي وعدم تجاوزه يحمل في طياته نقضاً لمبدأ الحساب والعقاب كحصىلة للإحسان أو الإساءة، والإحسان والإساءة لا يكونان في الثبات على قيم تمت معرفتها واختبارها ومدى انسجامها مع الإيمان، بل يكون في الاتيان بما هو جديد، ومعرفة مدى انسجامه مع هذه القيم الإيمانية.

ثم إن هناك تناقضاً آخر مع تاريخية الفعل الإيماني المتسم بالتطورية، فالمسيحية جاءت نقضاً لليهودية، والإسلام جاء نقضاً لهما معاً، إن هذا الخط التطوري يقطع مع تكريس قدسية الماضي، باعتبار أن هذا الماضي ينقض جديده قديمه، كما أن تكريس قدسية الماضي والعودة إليه كمدخل للإيمان الصحيح يقطع مع دعوة الأديان الى التطور والعمل الصالح.

لقد اتسم حديثنا بالتعميم، ولاشك أن التعميم يحتمل الخطأ، لكن الغلبة دفعت الى ذلك، والغلبة لاتعني الإطلاق، والواقع يقدم لنا حالات كثيرة كانت مثلاً لمحافظة أصحابها على روح إيمانية نقية وإيجابية، فهم يعمقون تجربة العصر علمياً وفكرياً في حياتهم ومجتمعاتهم بكثير من العقلانية، وبعيداً عن الشعور بالتناقض بين الاتجاهين، ولاشك أن غلبة هذا التيار وانتشاره، ينحو بنا باتجاه العصر، ويحافظ على الهوية

المهددة.

متى سيكون الإنسان في حياته الأولى هدف العقل الإيماني، بدل الإنسان في حياته الأخرى البعيدة؟!.

هوامش الفصل الخامس

- (١) - الخبر تناقلته وسائل الإعلام عام ١٩٩٨ . وقد ذكرت الأنباء أن البقرة الحمراء كانت في حيفا حيث أسرع حاخامات لفحص شعرها بالعدسات المكبرة كل بدوره ليتأكد أنها البقرة الموعودة ، أيداناً بظهور المسيح .
- (٢) - د . نصر حامد أبو زيد . مفهوم النص - دراسة في علوم القرآن ، المركز الثقافي العربي ، طبعة أولى ، حزيران ١٩٩٠ ص ٢٢٣ .
- (٣) - ول ديورانت ، قصة الحضارة ، مجلد ٤ / جزء ٢ / عصر الإيمان ، الادارة الثقافية في جامعة الدول العربية ، ترجمة محمد بدران . طبعة ثانية ١٩٦٤ ص ٢٧ .
- (٤) - المرجع السابق مجلد ٤ / جزء ٥ / ص ٢٥ .
- (٥) - المرجع السابق ص ٨ - ٩ .
- (٦) - ابراهيم بشير الغويل ، نحو « أو مشروع » الطريق الثالث ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت طبعة أولى ١٩٩٩ ص ٦١ .
- (٧) - المرجع السابق ص ٦١ .
- (٨) - المرجع السابق ص ٦٤ .

الفصل السادس

العقل الإيماني والتنمية

الأسئلة الكثيرة التي تثيرها دراسة العقل الايماني، يفتتحها ويأني في مقدمتها السؤال الأهم، والذي تعتبر الإجابة عليه مدار البحث والهدف الأساسي منه: لماذا ندرس العقل الإيماني؟ ما الغاية من إثارة الموضوع الشائك؟ وهل لانزال بحاجة الى مثل هذه الدراسات التي تجعلنا نلتصق بقضايا نجد في واقعنا ما هو أهم وأكثر إلحاحاً وأقرب الى روح العصر ومنطق العصر منها؟.

لا أظن أن دراسة العقل الإيماني خارجة عن منطق العصر، لشدة حضوره في العصر، ولا مانعة من التفكير والانشغال بغيرها، كما لا أظن أننا وصلنا الى الحد الذي نشعر فيه أننا تخلصنا من تبعات هذا العقل وسيطرته على التفكير وأسلوب الحياة، خاصة بين القوى التي تؤلف الكتلة الشعبية الأكثر انتشاراً أو تأثيراً.

لانزال نجد هذا العقل يشكل أكبر إعاقة في كل مستويات ومناحي حياتنا، وهذا مايولد الإصرار على محاولة معرفته أكثر، ولن تتم معرفته دون تحليله والإحاطة بالقضايا التي يفرزها أو يقع على تماس معها، في ساحة الحياة. من هنا جاءت أهمية علاقته بموضوع التنمية، وموضوع التنمية، هدفاً ووسيلة هو الإنسان، والعقل الإيماني هو طاقة ومفاعيل إنسانية، لا يمكنها أن تتبدى في الطبيعة إلا من خلال الإنسان، وبه.

لقد فهمت التنمية مذ فكرت فيها، أي منذ ألحت على ذهني، كإنسان مشغول بقضايا الثقافة والواقع، وباعتبارها تشغل عقل هذا الجيل، فهمتها أنها «تجاوز الواقع» وهذا الفهم يحمل مفهوم عدم الاقرار بما هو موجود، إلا بمقدار السعي الى تجاوزه، وإلا لكان فهمي فهماً إيمانياً، لقد كنت أصر على هذا الفهم للتنمية، ولا أزال أراه فهماً صالحاً للمناقشة، مناقشة، ما التنمية؟ وما متطلباتها؟ وماذا أريد منها؟.

بأي معنى أفهم تجاوز الواقع؟ إذا كنت أفهمه أو نفهمه على أنه الواقع المادي والحياة المادية معرأة عن بعدها الآخر الأكثر التصاقاً بالإنسان، فربما كنا في طريقنا الى

هذا التجاوز، أو ربما سرنا في مساره شوطاً، إذا كنت أفهم أن التنمية عمارات وشوارع وسيارات وأزياء وكهرباء فقط، فقد نعمنا بها جزئياً، ولكن هذا الفهم يغفل أننا امتلكنها هذه المنتجات امتلاكاً استثمارياً، ولم نمتلكها امتلاكاً حضارياً، أي فكراً وإنتاجاً، كما أنه يغفل البعد الإنساني فيها، حتى لو كانت كل هذه التنمية التي تطل المادة وأسلوب الحياة الاقتصادية هي من أجل الإنسان.

يقول تعريف للتنمية، إنها «العلم حين يصبح ثقافة» والتعريف على ما فيه من قيمة فكرية، يحيل الى العلوم التطبيقية، ويعطيها السيادة، والواقع يحتاج لتجاوز مشاكله لا الى العلم فقط، بل أيضاً لاستثمار العلم استثماراً عقلياً، لا استثماراً إيمانياً، فعند إخضاع هذا التعريف للنقد وجدناه قد قصر عن إدراك دور التنمية ومتطلباتها، ووجدنا أن الأحداث برهنت على سقوط هذا الفهم أمام التجربة، فالجماعات التي فهمت الدين فهماً إيمانياً تسليمياً لا عقلياً، خضعت للدراسة مرات ومرات، وقد جاءت الدراسات التي أجريت على هذه الجماعات المتطرفة في مصر لتشير الى أن الغالبية من عناصرها، حازت على مستوى علمي جيد وتحديداً في العلوم التطبيقية (الرياضيات، الهندسة، الطب، الصيدلة...) بل الكثير منهم تتمتع بأسرهم بهذه الصفة، صفة الانتماء الى العلوم الحديثة. من جهة الأب أو الأم أو الأخ الأكبر أو معظمهم^(١).

لقد حصلنا على خيبة الأمل من هذه العلوم، حين تحولت الى ثقافة لكنها لم تستطع أن تحصن أصحابها، ولم تستطع أن تصنع الأفق الحضاري الذي صنعتته هذه العلوم ربما في مجتمعات أخرى، إذاً بانتشار هذه العلوم بشكل واسع اجتماعياً، لم نستطع تجاوز الواقع الذي نعيشه، أي لم تحصل التنمية، لأن العقل الذي تلقى هذه العلوم المعاصرة لم يتلقها تلقياً تغييرياً، فبنيت الأساسيات استاتيكية قارة تغلبت على السمة التغييرية التي تنطوي عليها هذه العلوم، وربما كان تحولها الى ثقافة تحولاً سطحياً.

إن فكرة تجاوز الواقع، كمفهوم تهدف إليه التنمية، لا يمكن فهمه فهماً تغييرياً تنموياً إلا محكوماً بطاقة إيجابية، وتوجه الى الأمام، الى انعتاق الإنسان وتحقيق إنسانيته أكثر وأكثر، والحلم والطموح، أي عدم الركون الى مستوى معين وصلناه، لقد

نقل عن المفكر والأديب المسرحي الألماني برتولد بريخت ما معناه أنه لن يكون مسروراً إذا علم أن مسرحياته لا تزال تمثل بعد عشرين عاماً - وهو موضوع يحلم به أي مؤلف مسرحي - لأنه عند ذلك سيعلم أن المجتمع الذي جهد لتغييره لم يتغير بعد، وهنا ندرك عمق الإدراك لدور الأدب والفكر، ونعرف أنهما من منطلقات التغيير التي يجب أن تثمر تغييراً أي تنمية وإلا عدت الثقافة فاشلة.

التجاوز ليس محكوماً أو محدوداً بحد معين أو بدرجة معينة، وليس له مقياس يشير إلى الامتلاء أو الانتهاء أو الاكتفاء، فالتغيير يحكمه ويضبطه جدل العقل مع الواقع، إنها عملية صيرورة مستمرة.

١ - التنمية وعقدة الإغلاق

لقد تتالى ظهور الأديان عبر التاريخ المديد للبشرية، وقد كان الهدف المعلن، والمتضمن في أدبيات وفكر ورؤى هذه الأديان، تغيير الواقع، تجاوزه تجاوزاً إيجابياً، إلى ما هو أفضل، إلى أفق يفصح عما هو أكثر إنسانية وانعتاقاً.

حتى في المفهوم الذي يطرحه الإسلام باعتباره آخر الأديان السماوية، وتطرحه قبله المسيحية، فلقد جاءت المسيحية لتتجاوز وتغير ما أصبح يعيق حركة تقدم الإنسان في اليهودية السابقة لها، لقد كانت حركة من شأنها إنجاز تغيير يتجاوز ما ظهر أنه يعيق حركة تقدم الإنسان وخير البشرية، وجاء الإسلام في مرحلة تالية، جاء يحمل مفهوم الاكتمال والاختتام، فهو يعلن أنه حركة من شأنها تجاوز ما لا ينسجم مع تغير الواقع من الأديان التي سبقت، وإن التجاوز والتغيير باتجاه ما هو أفضل حتماً، لكنه وبحزم أعلن إغلاق الباب في وجه أية محاولة قادمة للتغيير على هذا المستوى، المستوى الديني.

هنا لا يخفى أن الإسلام تم إغلاقه وإعلان اكتماله (نهاية تاريخ متقدمة) بما تضمنته نصوصه الأساسية (القرآن والحديث) وما ينسجم معهما، ويعتبر هذا الفهم أو هذا الإغلاق، مثار نقد، من زاوية أن ما يتناهى (النص) لا يحكم ما لا يتناهى (الواقع)، فالحياة متغيرة متطورة، ديناميكية، والنص ثابت قار لا يمكن التغيير والتبديل فيه. من هنا أصبحت النصوص بمثابة عامل تجميد للحياة والواقع اللذين يحتاجان إلى استمرار التغيير.

ليس في مقدور الأديان أن تعلن أنها لاتعني فيما طرحته مفهوم الاكتمال، ليس في مقدورها لأن ذلك يعني أنها محكومة بالنقص، وما هو محكوم بالنقص لا ينتمي الى المتعالي، بالتالي لاتكون أدياناً إذا هي قبلت الاتهام بالنقص أو أعلنته، لأن النقص من ميزات البشري لا مما ينتمي الى المقدس، الى المكتمل والمتعالي، ولهذا كان إعلان كل دين أنه الغاية، غاية مايمكن أن يصل إليه التطور والتفاعل بين الدوني والمتعالي.

لقد أفتتح كل دين من الأديان بل كل مذهب من المذاهب المتفرعة عنها (باعتبارها صيغ إيمانية لهذه الأديان)، أفتتح كل منها منظومته الفكرية والعقائدية، حتى إذا اكتملت، وضم إليها ما انسجم أو ما لم ينسجم، تم إغلاقها، تم الإغلاق على ما هو مقدس، أي إغلاقاً محكماً، لايمكّن من الاختراق دخولاً أو خروجاً، باعتبار إلهية المنظومة، ولكن قد تتم بعض الاضافات والتحويلات التي تصنعها الأيام في إطار المنظومة، وتدخل الى كتلتها بالاكتساب، وهنا تظهر لعبة المصالح والتقاليد وأثر الاحتكاك. ما يهم من كل ذلك أن التنمية من الصعب أن تفعل فعلها في إطار الحالات الاستاتيكية المتصلبة، إنها لكي تحقق الاختراق وتفعل فعلها، يجب أن يتم ذلك في إطار منظومات ديناميكية، تفسح المجال للحركة والتغير، من هنا نجد أن هذه المنظومات الإيمانية تفتقد الأرضية، أي الإطار العقائدي والمنطقي والمفاهيمي الذي يصح اعتباره أساساً يمكّن من الانتقال الى حالة تنموية.

أليس في هذا مفهوم الانغلاق وقطع الطريق لكل تطوير؟ أليس في هذا تناقضاً ما؟ فإن كانت الأديان قد جاءت مبشرة بتجاوز الواقع وتغييره الى ما هو أفضل، بما لا يقاس، لأن هذا التغيير يبعد الإنسان عما هو دنس لالصاقة بما هو مقدس ومطهر، بما لايجوز تجاوزه مستقبلاً، ففي تجاوزه خروج على الإرادة الإلهية، وهذا يدخل عالم المحرمات. من هذه الزاوية نفهم كيف أن الأديان خاصة عندما تتحول الى إيمان قار، قد سمرت الحياة عند وضع معين بعد ما أعلنت أنها جاءت في الأصل لتغييرها، والتسمير أو التثبيت هنا محكوم بالقداسة، هل يقر يهودي أو مسيحي أو مسلم مؤمن أن هناك ما هو أفضل من دينه وعقيدته؟ كيف يمكن أن يبرر التمسك بهذه العقيدة إذا هو أقر وآمن أن هناك ما هو أفضل منها، ألا يكون ذلك طعناً وانتقاصاً من قداسة إيمانه المعلن؟.

إن إقرار المؤمن - كل مؤمن - في إطار كل الأديان، أن دينه هو الأفضل والأكثر اكتمالاً، وتجاوزه غير ممكن، واكتماله ونهائيته جاءت بتوقيع إلهي، لا حيلة لبشر في تجاوزه، يحمل في طياته القطع مع أي تطور، أي مع أي تجاوز قادم، ومفهوم التنمية مرتبط كما أشرنا بمنطق التجاوز، إذ أن تكون هناك تنمية، على الأقل حسب منطق الأديان التي صنع كل منها أو كل فئة إيمانية طائفية في إطار أي دين منها سياجه العقيدي الدوغمائي (حسب التعبير أو المصطلح الأركوني)، أي غير القابل للاختراق والتغيير والتبديل.

إن الحلم بتنمية لا تنطوي على تغيير أمر غير ممكن، لقد رأينا كيف أن مفهوم التنمية يحمل في طياته مفهوم الزيادة، والزيادة تعني التغيير أيضاً، إنها الإضافة على الواقع، والأديان أو المذاهب والاتجاهات الإيمانية المغلقة لا تحتمل الإضافات، إذا لا تحتمل التغيير والتجاوز، وبالتالي لا تنسجم مع التنمية بمفهوم التنمية الأكثر ديناميكية.

ربما لن يوافق المؤمنون على هذا الاستنتاج، لأنه مربك لهم، وفيه إدانة، ولن ألومهم على عدم موافقتهم، لعلمي أن كل شيء في قناعاتهم قد تم تثبيته، إن المؤمنين يرون أن الحياة في ظل مفاهيمهم ستزدهر، وستتطور وتتغير، ناسين أن كل تطور، كل تغيير، بالتالي كل ازدهار، يحتاج إلى تغيير في التفكير، وفي النهج وفي المفاهيم العقلية القارة، يحتاج إلى الأرضية الفكرية التغييرية التي يستند إليها وينطلق منها، أي إلى القاعدة، وهذا ما لا يمتلكونه ولا يستطيعون إعطاءه، إنه محكوم بالاستحالة.

قد يقول قائل لقد حملت الثورة اللوثرية البروتستانتية معها رياح التغيير لأوروبا، أو ربما كانت نتاج رياح التغيير التي بدأت تتولد وتهب في تلك البيئة، واللوثرية وغيرها من حركات الإصلاح الديني كالكالفينية هي في الأساس حركات مسيحية إيمانية أصولية بحتة، ولا يقل تزمته وانغلاقها عن غيرها من المذاهب والاتجاهات الإيمانية، إلا أن الادعاء بأنها حملت رياح التغيير وقادته ليس دقيقاً، الأصح أن نقول أنها ساهمت في صنع مناخ أفادت منه قوى التغيير التي بدأت تتخلق وتتطور وتتفاعل في أحشاء المجتمعات الأوروبية، لقد شجعت على ذلك بعد أن قادت التمرد على السلطة البابوية الجبارة، والتغيير اللوثيري ضمن إطار البوتقة الإيمانية لا خارجه،

لم يكن هو فاعل التغيير، بل ربما أعطى المؤشر أن التغيير ممكن، فقامت قوى التغيير الرأسمالية المتخلقة خارج الإطار الإيماني بتحريكها، وحصرها بالضد لما يعتمل داخل هذه البوتقة، وبالنقض لقناعاتها وأدواتها، ففي الوقت الذي جاءت البروتستانتية فيه تبشر بالتغيير على المستوى الروحي المعنوي، أو يمكن أن نقول أن تغييرها كان في جزء من البنية الفوقية، فإن قوى التغيير في المجتمعات الأوربية بدأت تتجاوز واقعها بالتغيير في إطار البنية التحتية المادية بتوظيف رأس المال، وتحكيم العلم بإدارة دفة التغيير. بهذا المنطق نرى أن التغيير جاء من خارج العقل الإيماني، وبالضد منه، وإن يكن المناخ واحداً، وإن من يحاول إلصاق عملية التغيير به لاشك سيكون مغالطاً للحقيقة وواهماً. من هنا وعند المفصل الهام، يمكن أن نشير إلى أن القوى التي أثبتت أنها مستعدة وقادرة على قيادة عملية تغيير أو تنمية حقيقية هي قوى دنيوية، إنها الأحزاب وقوى المجتمع المدني الأخرى، التي عرفت كيف توظف وتستثمر الطاقات الخلاقة. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الكثير من هذه القوى جربت أن تحول برنامجها ورؤيتها إلى عقيدة، إلى أيديولوجيا، فأوقعها ذلك في إطار الإيمانية والسياس العقيدي الدوغمائي، متشبهة بالأديان بشكل عفوي أو عن سابق إصرار وتصميم، بالتالي لاقت الفشل في تجربتها، ويعتبر فشل التجربة الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي وبلدان ما كان يدعى المعسكر الاشتراكي الأخرى مثلاً حياً وواضحاً لذلك، بالرغم من البراغماتية التي يفترض أنها حكمت وتحكم أسلوب عمل الأحزاب التي تصارع وتعمل جاهدة لتغيير الواقع بقوى الواقع لا بقوى الغيب أو الفوق أو الماوراء.

٢ - التنمية وهينة النظرة إلى الزمن

إن تتبع عوامل أعاققة التنمية من قبل العقل الإيماني لايتأتى من الجانب الذي سبقت الإشارة إليه فقط، على ماله من أهمية في مجال هذه الإعاقه. إن أسساً أخرى من أسس هذا العقل ومرتكزاته تندرج في إطار المعوقات التي تعوق التنمية والتغيير، فنحن عندما سلطنا الضوء على علاقة العقل الإيماني بالزمن، وصلنا إلى النتيجة التي تشير إلى أن المؤمن يدين الزمن المعاش (المعاصر أو الحاضر)، وهو لا يراه إلا فاسداً ومفسداً، ليسعى إلى تغييره، ولكن أي تغيير؟ إنه ينظر إليه

ويتعامل معه باعتباره الظرف الذي يجب أن يحسم الصراع فيه على ضوء الماضي، ولصالح استحضاره والتشبه به، أي إن إدانة الحاضر قائمة في أساس النظرة إليه، لأن الكمال قد تم في زمن مضى، زمن موغل في القدم، زمن التدشين، زمن ظهور الدين أو المذهب الذي ينتمي إليه المؤمن ويتمترس به، ولا يمكن لأحد النجاة أي الوصول إلى الجنة، أي العودة إلى ما قبل الخطيئة التي ارتكبها آدم، إلا بالتمسك بالقيم التي تم انتاجها في عصر التدشين، والتمسك بتقليد سلوكيات أولئك الأقدمين، الحواريين أو الصحابة، وبمقدار ما يتم ذلك، وبمقدار ما يكون الاستحضار يخلق حالة شبيهة بهذا الماضي، موضع الحلم، بمقدار ما يكون ذلك ضماناً أكيدة للخلاص والنجاة.

الزمن الماضي هو الذروة، التي لا مطمح بعدها (كما رأينا ذلك في مقتطفات لابراهيم بشير الغويل)، وكلما تم التشبه به كان ذلك إشارة إلى الفلاح؛ والزمن القادم هو الحلم، هو الفردوس المضيع الذي فرط به آدم عندما تمت غوايته، إذن هذا النضال الشاق الذي تخوضه البشرية (ذرية آدم وورثته) غايته العودة إلى الزمن الحلم، والعودة تحمل مفهوماً رجعياً، ولا تكون العودة حقيقية وأصيلة ومكتملة تؤدي إلى النجاة، إلا على هدي الماضي وبمقدار تطابقها معه، إذن طريق المستقبل عودة إلى الماضي (ماضي التدشين)، طريق رجعه، وطريق الرجوع غير طريق التقدم بل هو نقيضه.

لقد مر بنا سابقاً عند مناقشة مفهوم الزمن الإيماني، أن اقتراب المؤمن من الزمن الديني الإيماني (زمن الأوائل من أنبياء وسلف صالح)، يبعده عن الزمن الدنيوي (الواقع)، ومن ابتعد عن الواقع، لن يكون فاعلاً فيه. وهو عندما يهزمه الواقع في أي أمر، يحيل المواجهة إلى مخلصه القادم الذي لا يهزم، وإن خوف المؤمن من مواجهة الشر دفعه إلى استحضار القوى الإلهية لهذه المواجهة (المسيح - المهدي) وقد غاب عن باله أن من يخاف المواجهة لن يكون قادراً على التنمية.

إن عدم امتلاك المؤمن لزمام السيطرة على الزمن الحاضر، يجعله غير قادر على إحداث التغيير (التنمية) فيه، وعدم امتلاكه لزمام السيطرة عليه ظاهر في إدانته له، وحرصه على الخلاص منه (باعتبار فساد) إلى زمن أحلامه، وهذا يحيل الخلاص والتنمية إلى المستقبل وقواه الغيبية، أي بهزيمة الواقع ونفيه. لأن الواقع يعني تأييد الشر، فما الفائدة من تطوير واقع لا تنتظر منه إلا أن يعم الشر فيه كي يكون ذلك

معبراً الى المستقبل أي إيداناً بقدوم المخلص والشفيع.

إن الإقرار بأن التغيير وإنهاء الشر مرهون بقوى الغيب، إقرار بالعجز المؤبد وهذا يتنافى مع منطق التنمية، إن العاجز لا يستطيع إحداث تنمية (تغيير)، إذا لا يستطيع إنجاز مهمات الاستخلاف.

لقد أشرنا الى أن التنمية تحمل مفهوم التجاوز وتفتح له أفقاً، والتجاوز حالة إيجابية، اتجأها الى الأمام دائماً، إذاً، هي تحمل المشروع النقيض لمشروع العودة الى الزمن الحلم، زمن التدشين، زمن الإيمان النقي الذي لا تشوبه شائبة، فكيف نستطيع أن نوفق بين المشروعين، بين النقيضين؟ وإذا كان التوفيق محالاً ولا بد من التضحية بأحدهما لصالح الآخر، فأيهما يمكن أن يتبناه العقل الإيماني؟ وأيهما الذي يرفضه؟ أيهما الذي تتبناه التنمية وأيهما الذي ترفضه؟.

ألم يصبح واضحاً الآن أن عملية توفيقية أو تلفيقية لن تكون قادرة على إنهاء الصراع؟ ولن تكون ناجحة فيما أرى في التخلص من المأزق؛ إن التوفيق من الصعب أن يصح بين النقيضين، ومجال التوفيق أن يكون بين المختلفين، ويصح بمقدار ما يكون الاختلاف قليلاً، أي بمقدار ما يتمكن الموفق من إيجاد متشابهات، أو قواسم مشتركة، على أن تنحصر الخلافات فيما هو هامشي، أما عندما يكون الخلاف على أساس الفكرة والمنطلق، أي يكون الافتراق على مئة وثمانين درجة، فإنني أعتقد عندها أن يكون الفشل الذي ينتج عن عملية التوفيق فشلاً كاملاً.

كيف يمكن أن يركن المؤمن الى تطور هو يعرف أنه مهما جهد لن يصل الى الغاية المرجوة؟ كيف يمكن أن يقبل المؤمن على المستقبل آملاً أن يصنع منه شيئاً ذا أهمية وكيف يجده حلماً إذا كان يرى أن غايته ليست في هذا المستقبل؟ إن المستقبل كالحاضر مرفوض عند المؤمن إلا على طريقته، وهذه الطريقة تتضمن استحضر الماضي والتشبه به، وهذا كفيل بإيصاله الى مستقبله (الجنة)، إن عدم الإيمان بجدوى التوجه نحو المستقبل يعد سبباً كافياً ومباشراً لاقتناع المؤمن بعدم جدوى، أو استحالة التنمية التي تعني فيما تعنيه تجاوز الحاضر وصولاً الى المستقبل، بما يحمله من جديد، لا بما يخرزونه من قدرة التشبه بالماضي وتلبسه، إن توليد الجديد هو غاية التنمية، وترقيع القديم والحفاظ عليه هو غاية الايمان، فكيف يتم الانسجام والتوفيق، بل أين تكمن التنمية؟.

لا يزال المسلم الشيعي يدفع ثمن تقصيره في نصرته الحسين دورياً، وكل عام منذ أربعة عشر قرناً، والمدفوع دم ودموع وآلام، وبطريقة مروعة، تشير الهلع من هذا الشعور المسيطر الذي يدفع الى كل هذا العنف تجاه الذات، إنه الشعور بضرورة دفع دين مستحق وبالندم، وهو شعور إيماني جماعي مستمر ما تنالت الأيام، يعيد أصحابه الى أجواء ماضٍ سحيق ويذهلهم عن حاضريهم ومستقبلهم.

كما لا يزال المسلم في بيئات يسيطر عليها الايمان المتفرع أو المرتبط أساساً بقيم دينية، لكنه نسي ارتباطه بما يتطلبه التدين الحق، والايمان الحق، من عقلانية ووعي، لا يزال هذا المسلم يستحضر من الشكليات التي أوجدها الإنسان خلال مسيرته الإيمانية منذ القديم ما يشعره بأن أصرته بالماضي لا تزال قوية لم تنقطع، حتى ولو كانت هذه الأصرة بعيدة عن المنطق كما ذكرت، فحركة الطالبان الحاكمة بأمرها وباسم الله التي فرضت نفسها بالدم والنار وبقدرات الأجنبية على الشعب الأفغاني، وهي حركة مؤمنة جداً تحكم شعباً مؤمناً، فرضت مؤخراً عقوبة السجن بمن يحلق لحيته، تمسكاً بتراث تليد، هكذا تناقلت وكالات الأنباء الخبر، وهذا ليس غريباً عن مثل هذه الحركة التي قامت في إحدى الهبات الإيمانية بمنع عمل المرأة، ومنعها من الخروج من منزلها، ومن هباتها الإيمانية تنفيذ أحكام الإعدام بالسيف في الساحات العامة وملاعب كرة القدم، بينما تحارب خصومها بأحدث الأسلحة، وحجتها أن الرسول كان يستخدم السيف في قتل أعدائه، ومن هباتها الإيمانية منع ارتداء الجوارب البيض، ومرجعية وكالات الأنباء في أخبار الطالبان، يبدو فيها التقصير في نقل كل ما تنضح به عقول هذه الحركة، وتكفي مثل هذه الأخبار التي تشير الى التمسك بالشكليات وترك الجوهر، لإعلان انتماء ممارسيها الى الايمان في أكثر صورته تخلفاً، هذا التخلف الذي لا يخطئه مراقب الحياة العامة في أفغانستان.

ولا يفوتنا أن نشير الى أن الانتماء للماضي، والتعويض عن التنمية بالتمترس في زوايا هذا الماضي المعتمدة، وفي استحضاره لمواجهة كل جديد، ليس محصوراً في الاتجاهات الإسلامية المؤمنة، بل في غيرها أيضاً، فالمراقب للصلوات والتمنيات التي يؤديها اليهودي أمام حائط المبكى، وطلب تحقيق الأمناني، يؤكد حضور الايمان حضوراً لامراً فيه، وهو حضور يؤكد سيطرة الماضي وبقاء تأثير شكلياته:

كذلك في استعادة المسيحي لهذا الماضي عبر مجموعة من الإشارات والرموز، كشجرة الميلاد ومغارة الميلاد، وأكل القمح في بعض المناسبات والذكريات، وأكل البيض وتلوينه في مناسبات أخرى.

إن القيام بمثل هذه الممارسات التي مر بنا الكثير منها في سياق البحث، في مجتمعات نالت حظاً من التنمية والتطور المادي والعلمي، يعني عدم غياب العقل الإيماني، كما يعني عدم حضوره بالطريقة ذاتها التي يحضر بها في المجتمعات التي لا تزال على حالها من التخلف بالضرورة، كما قد يعني أن هذه الرموز قد تم تفريغها من الشحنات الإيمانية التي كانت تكتنزها، لتتحول إلى مجرد تقاليد، تعبر عن كمون المشاعر الإيمانية، لكن هذه المشاعر تحمل إمكانية بروزها وانتعاشها كما تتحول الأحداث المنسية في طفولة الإنسان من ساحة اللاشعور إلى ساحة الشعور والفعل، أو أنها لا تزال التخوم بين عقلين، أحدهما إيماني متزمت، والآخر علمي عقلاني لم يعترف أحدهما للآخر بالاستسلام والانسحاب من ساحة الفعل والتأثير.

إن في التعويض عن اللجوء إلى الحلول العلمية لمشاكل تعترض المؤمن كالتعويض عن اللجوء إلى الأطباء في حالات المرض، باللجوء إلى الحلول السحرية اللاعقلانية من موحيات العقل الإيماني، كالتمايم والأحجبة والأدعية والتوسل بالأولياء حضوراً أو بالمراسلة، كالرسائل التي ترسل إلى ضريح الشافعي في مصر، إشارة كافية إلى مدى الإعاقة التي يشكلها العقل الإيماني للتنمية التي أصبحت من المطالب الملحة للشعوب، ويزداد إلحاحها كلما تقدم الزمن، كما تبرز دور الزمن في تفعيل الإعاقة، من خلال إعطائه أبعاداً مشحونة بمشاعر المؤمنين.

٣ - جدلية العلم والتنمية

مناطق التفكير في مجال التنمية، سواء في بيئة إيمانية مغلقة أو في غيرها من البيئات متعلق بالعلوم الحديثة في عصرنا، وتعاطيها بشكل عقلاني، فلقد أظهرت التجارب والمراحل التي مرت بها البشرية، تحديداً منذ عصر النهضة في أوروبا إلى يومنا هذا، أن مقدرة الشعوب على إدراك تنمية مأمولة، مرهونة بمدى الإمكانيات العلمية التي استطاع أي شعب توظيفها في رحلته باتجاه المستقبل، والإمكانيات العلمية هنا

لا تحمل مضموناً كمياً فقط، بل يفترض أن تحمل مضموناً كيفياً، فليست كمية المعلومات ولا أعداد المتعلمين مع مالهما من تأثير، العامل الحاسم في إحداث التنمية. ولا شك أن أية دولة من دول العالم الموصوف بالثالث قد تحتوي على أعداد من حاملي الشهادات والمتعلمين تفوق الأعداد التي كانت توجد في بريطانيا مثلاً أو في غيرها من الدول، عندما بدأت مجتمعات هذه البلدان نهضتها الصناعية العلمية، مع ذلك فإن هذه المجموعة من الدول، التي هي أحياناً دول عالم ثالث أو أكثر، وأحياناً دول نامية أو متخلفة أو غير ذلك، لم تستطع أن تمتلك طريقها الخاص لخوض معركة التنمية على أساسه.

إن تحويل العلوم الى تكنولوجيا يحتاج الى التعاطي معها بمستوى عالٍ من العقلانية والمسؤولية، ولا شك أن العقلانية تقطع من العقل الإيماني الاستسلامي الغيبي، الذي يغلب الحلول السحرية والخرافية أي اللاعلمية على الحلول التي ينظمها العقل العلمي الذي لا يخضع إلا لمعايير الحقيقة ومتطلباتها.

إذا أنطلقنا من مسلمة علمية وعقلية تشير الى أنه لا يمكن الركون الى تنمية تحدث نقلة في حياة الشعوب، أو البدء بها إلا على أساس من العلوم التطبيقية التي كانت الأساس في وصول بعض شعوب البشرية الى مستوى حياة رفيع، فإنه لن يكون من الصعب أن نبرهن أو نفهم أن حظ العقل الإيماني والمتمسكين به من هذه المسألة ليس بالكثير.

إن مجتمعاً كمجتمع دولة الصهاينة (اسرائيل) يوصف بأنه مجتمع عصري، ومجتمع علمي استطاعت الصهيونية العالمية أن تحشد فيه أعداداً كبيرة من الكوادر العلمية اليهودية، وبما كانت من أرقى العقول العلمية في العالم، وأفادت من خبرات الشعوب وتجاربها في مجال العلوم التطبيقية، بالاتفاق أو بالسرقة، ويبدو إن هذه الإمكانيات العلمية استطاعت أن تصنع أساساً مادياً لصناعات حربية أو غيرها، لكن لنلاحظ أنها في جو بعيد عن المناخات الانسانية، لقد جرى ذلك في مناخات منغلقة، متنكرة لحقوق الإنسان، إلا المرتبط بالعقل الإيماني الصهيوني، بالانتماء العنصري الشوفيني، ولا تلبث هذه التنمية وهذا المستوى العلمي المتقدم، أن تعرف على نفسها كشكل من أشكال التوحش والهمجية، والحقد واللصوصية، عندما يتم التعامل مع

الآخر سواء كان هذا الآخر هو العربي الذي يتم تكسير أطرافه أو قتله أو تشريده وإنكار حقوقه، أو كان هذا الآخر هو الأوربي الذي يتم ابتزازه باسم المحرقة (الهولوكوست) وتتم سرقة الزوارق الحربية من فرنسا في يوم من الأيام من قبل إسرائيل التي تقوم على أساس استحضر العقل الإيماني لليهودية والمتمثل بالصهيونية التي لاتراعي حرمة لعدو ولا لصديق في سبيل تحقيق مصالحها، وإلا لما تم التجسس حتى على راعي الصهيونية الأول، الولايات المتحدة الأمريكية في سبيل الحصول على أسرار عسكرية.

وقد تتعدى هذه الأعمال التي تنم عن أخلاقية متردية، قد تتعدى أذية الشعوب الأخرى (الغوييم) لتصيب اليهودي الصهيوني إذا وجد العقل الإيماني الصهيوني الذي وظف سياسياً، أية مصلحة له في ذلك فكم شخصية يهودية تم اعتقالها أو اختطافها كـ «إسرائيل فانونو» لمصلحة تحقيقها الصهيونية، بل قد تصل بها الأمور الى حد اغتيال زعمائها الكبار الذين قدموا الخدمات التي سجلها تاريخ هذه الحركة وتاريخ العالم، كما حدث باغتيال «اسحق رابين» من قبل العقل الإيماني اليهودي الصهيوني المتعصب الى حد العمى، وكم عمل راح ضحيته عدد من اليهود إذا وجدوا أن ذلك يسمح لهم بالصاق تهمة (اللاسامية) بجهة معينة، كما جرى حين تم إغراق سفينة فيها عدد كبير من المهاجرين اليهود القادمين الى فلسطين في عرض البحر والادعاء بأن أعداء السامية أو اللساميين هم الذين قاموا بتلك الجريمة، وذلك لتجيش إيمان اليهود وأنصارهم، والرأي العام العالمي، ولابتزاز جهات عالمية معينة من جهة أخرى.

وقد أشرنا الى أن العقل الإيماني الصهيوني يقود عمليات التجسس للحصول على المعلومات والخطط التي تسمح لإسرائيل بالتطور التكنولوجي، هذا العقل يبرر لنفسه كل عمل في سبيل مصالحه، كأنه لا يزال يعيش أجواء التوراة، وما ذكرته من خدع قام بها كبار رجالها وأكثرهم قدسية في سبيل تحقيق مصالح الجماعة، كما مر بنا.

قد يقول قائل إن هذه الاشكاليات والقضايا ليست موجودة في إسرائيل فقط بل في جهات كثيرة من العالم، وقد يكون ذلك صحيحاً، لكن يبقى أن نعلم أن ذلك يجري في إسرائيل على نطاق واسع أولاً، وبترتيب ورعاية وقيادة من عقل إيماني، يتم تظهره تظهراً قيمياً، وينشد الأخلاقيات الرفيعة.

بهذا العقل لاتزال القوى الإيمانية في اسرائيل، وبين اليهود تنتظر قدوم المخلص الذي يرتبط قدومه بميلاد بقرة حمراء ليس فيها شعرة مفارقة للحمرة، الشيء الذي استدعى قيام حاخامات اليهود أو الكثير منهم بفحص بقرة حمراء اللون في حيفا بالعدسات المكبرة كما مر سابقاً، مؤكدين بذلك بقاء انتمائهم الى كل ماهو خرافي وسحري ولاعقلاني، وتناقض إيمانهم مع قيم العلم القادر على صنع تنميه. ولا بأس هنا، وتأكيداً للفكرة مثار البحث أن نشير الى ماذكرته وسائل الإعلام في شهر تشرين الثاني ١٩٩٩م من أن حاخاماً اسمه (ديفيد...) قام باخراج عفريت من سيدة أمام الناس، كان هذا العفريت يعمل لصالح زوجها الذي انفصل عنها منذ مدة. في الفترة ذاتها نقلت وسائل الإعلام أيضاً، في حمأة الصلوات التي أقيمت للاستسقاء سواء في المعابد أو في العراء من قبل الكثير من الطوائف الدينية في شرق المتوسط، هذه الصلوات المصحوبة بالأدعية والتوسلات، لاحداث التغيرات المطلوبة في قوانين الطبيعة وعملها، لانهاء حالة الجفاف، نقلت أن المؤمنين اليهود قاموا بعمل متقدم إذ أدوا صلواتهم على متن طائرة تحلق بهم في أجواء فلسطين المحتلة، وربما لتكون صلاة استسقاؤهم أقوى وأكثر تأكيداً وتمايزاً.

لقد مررنا في سياق هذا البحث بكثير من الأمثلة على إطلاق العنان للاعقلانية من قبل جماهير المؤمنين ومروجي العقل الإيماني في إطار الأديان السماوية جميعها، يساعدهم في ذلك حرص الكثير من رجال الدين على توظيف هذه الخوارق والحلول السحرية في إذكاء شعلة الإيمان وابقائها متقدة الجذوة، علماً أن الأديان التي ينتمي إليها الكثيرون من هؤلاء، تجعل من العقل محدداً أساسياً لايمانها وسلوكها، كما تنطق بذلك النصوص.

لكن دعوة النصوص الى تحكيم العقل، نحيّت جانباً ليتم تحكيم الهوى والعناصر الأخرى التي تؤيد وجهات نظر سحرية ولا علمية، استبدلت بالنصوص الأساسية. لقد أنكرت فئات إيمانية كثيرة، أن تكون قدرات البشر العلمية والتقنية قد استطاعت أن ترود الفضاء وتكتشف الكثير من مجاهله، أو تحط على بعض أجرامه، التي نسبت إليها قدسية لا أعلم من أين مصدرها، باعتبار القدسية للقيم. إن اعتبار بعض القوى الإيمانية أن النزول البشري أو الآلي على بعض الأجرام السماوية وهم

ولاشك، وأن محاولة اكتشاف أسرار الفضاء الكوني هو عمل من أعمال الكفر، باعتبار الفضاء يدخل في الاختصاصات الإلهية فقط، ومعرفة الفضاء انتهاك لحرمان ومقدسات الألوهة، وما أدري لماذا؟ وماذا يفيدهم إذا نجحوا في إبعاد الإنسان عن ارتياد الفضاء؟ وماذا يحصل لهم من ضرر إذا نجح الإنسان في التعرف على الكون وتسخير مصلحته.

إن التنكر للعلم وبعض معطياته وتطبيقاته التي أثبتت وجودها وجدواها، ويمكن التأكد من دقتها وصحتها وفائدتها، خاصة من قبل ذوي الاختصاص، ومن قبل الناس الذين ينعمون بنتائجها، أمر يدخل في باب المعاندة، ولا يقوم على أساس معتمد في محاولات الدحض والتكذيب للكثير من نتائج العلوم في كثير من نواحي الحياة الطبيعية، ولا يكون ذلك على أيدي العقلاء أو المثقفين؛ كما لا يكون على يد رجال الدين المتمكنين من المعرفة الدينية والذين يرفدون هذه المعرفة بثقافة عامة مقبولة، بل قد يتم الدحض والتكذيب والموقف السلبي من العلوم وتطبيقاتها، ومن اكتشاف الفضاء من قبل بسطاء المؤمنين وقادتهم، قادة العقل اليماني الذين لا يعرفون من شؤون العلم الحديث شيئاً وقد حكموا عليه وعلى نتائجه بالسلبية دون إطلاع أو دراية، وليس فهمهم للعلوم أفضل أو أكثر تألقاً من فهمهم للأديان، وهؤلاء هم الغالبية، وأتباعهم هم أكثر الفئات الاجتماعية، والكتلة الجماهيرية ذات الوعي (القطيعي).

إن هؤلاء يخوضون النقاشات لمواجهة الكثير من النتائج التي تعلن العلوم الحديثة التوصل إليها، بحماس شديد، خاصة تلك التي يجدون لها ذكراً في نصوصهم، فالإعلان عن أن معرفة جنس الجنين هي قضية إلهية وسر من أسرار الربوبية، يكفي أن يدفع المؤمنين لتكذيب ما قدمه الطب وأبحاثه والعلوم الحديثة من معطيات تشير إلى إمكانية معرفة جنس الجنين، والتطبيق العملي لذلك، ومثل هذه النقاشات التي تنفي ماتشاً وتثبت ماتشاً مما يؤيد إيمان المؤمن، لا تنم عن معرفة حتى ولو بسيطة بمبادئ العلم الذي يخوض فيه المؤمن، ولا تنم عن فهم لمبادئ الدين وما يقدم من إمكانيات المعرفة العلمية، أو المبادئ القيمية التي لا تدخل في صراع مع العلم لأن كل جهة منهما تنتمي إلى حقل مختلف لا يجوز إشهار التقابل والتضاد بينهما، وهذه النقاشات قد تكون تكراراً لأقوال وآراء بعض المجتهدين عن غير علم من المشايخ، بشكل محرف أو

سليم، وهم يوحون بأنهم يقدمون خدمة جليلة للدين والايمان، ويزعمون أو يتوهمون أنهم يقومون بحماية حدود المملكة السماوية، كما يقوم الجنود المخلصون المدربون والمتحمسون بحماية حدود دولهم والدفاع عنها، وكما يقوم المزارع بحماية تخوم أرضه. ما أريد الوصول إليه من خلال ذلك هو أن عقلاً يتمترس بمثل هذه المفاهيم، ويقف من العلم هذه المواقف، ويغلب قيم السحر والخرافة، لا يمكنه بحال من الأحوال أن يكون مع التنمية التي تحتاج الى عقل منفتح مجرب، يؤمن بأن العقل بخطئ ويصيب، وليس مصيباً دائماً، بالتالي فإن غيره مخطئ دائماً، ثم إن عليه أن يخضع الأشياء لمنطق التجربة، ويؤمن بها كأسلوب من أساليب الوصول الى الحقائق.

هنا يبدو التناقض في حالته العلمية، بين اتجاهين عقليين أحدهما يؤمن بقدرة العقل البشري، ويشق بالنتائج التي يتوصل إليها باتباع الأساليب العلمية، والمناهج العلمية، والآخر الذي ينطلق من التسليم وأن كل شيء مقرر سابقاً، وأن البشر عاجزون عن المعرفة، وإن العلم إما أن يكون إلهياً أو لا يكون أبداً، وأن قدرة العقل البشري المحدودة ليس لها دور إلا معرفة حدود الله، ناسين أن وضع حدود للملكة الالهية هو اعتداء عليها، والمصيبة أن هذه الحدود المنتشرة في عصرنا هي في أغلبها من صنع الإنسان المؤمن، وتنتمي الى مفاهيم عالمه الإنساني، وهو يتصور أنه يقوم بعمل جليل. إذن إن استحالة الركون الى أن العقل الايماني يمكن أن يقود عملية تنمية، أو يساعد عليها أو يسلم بنتائجها، أمر في غاية الوضوح، انطلاقاً من المسلمات والمعطيات المتوفرة، وهذا دليل آخر على أن انتظار الفرج من غير محله، كانتظار شروق الشمس من الغرب.

٤ - التنمية ومقومات النهضة الحديثة

على المستوى العالمي، ومن خلال تجارب الشعوب التي يمكن الركون إليها لأنها أصبحت حقائق علمية وتاريخية لا يمكن إنكارها والقفز عليها، تبين أن التنمية تحتاج الى مناخات مجتمعية ترافق التقدم العلمي وتطبيقات العلوم، وأن الشذوذ عن هذه المناخات لا يمكن الركون إليه، ولا يمكن أن يعتبر قاعدة. وإذا كانت عدوى التنمية هي عدوى غربية، باعتبار أن شعوب الغرب خاضت تجربتها في هذا المجال، وحصلت على

نتائج باهرة، وأن مطامح الشعوب أن تلحق بها لعدم توفر نموذج آخر يتم تقليده، أو صرف النظر إليه، فمما لاشك فيه أن أي متطلع الى التنمية، الى الغد الأفضل، سيجد أمامه المثال الغربي الذي يبهر بريقه العيون، ويظهر أن كل مثال للتنمية سواء تحقق أو كان مشروعاً منطقياً لا يزال في الذهن، هو عالية على هذا النموذج ومقلد له في المنطلقات النظرية أو في التطبيق.

إن الاعتداد بأن هناك حضارات نمت في الشرق أو في الغرب، في الشمال أو في الجنوب، لا يعفينا من الإقرار بأن هذا التقدم وهذه التنمية تسير بهدي النموذج الغربي، وعلى مثاله الكوني المعمم، وتبقى المشاريع الأخرى تعاني من كونها وهمية أو غير حقيقية، وإمكانية تحقيقها على أرض الواقع موضع شك.

وهنا أتوقف لأشير الى أن كل تنمية تسعى لنسخ النموذج الغربي، لن تكون تنمية حقيقية لشعبها إذا عملت على النسخ دون الابتكار، فالغرب صنع تنميته المرتبطة ببيئته، ولا بأس أن تكون حافزاً لجميع الشعوب، لأن البداية من نموذج غير موجود أي من اللاشيء أو من الصفر، أصبح أمراً غير ممكن في هذا العصر لأن النموذج الغربي ملء البصر والسمع والعقل، وقد أصبحت البشرية مسكونة به، ومن المحال التخلص من تأثيره نهائياً، وتصور غيره دون تأثيره سلباً أو إيجاباً، وهذا النموذج ربما كان مساعداً لنا، في إحداث حوافز وتصورات ومستندات، وإيجاد مناخات، وفي حقائق علمية توفر مئات السنين، إلا أن تنميتنا يجب أن تكون بنت بيئتنا، تحمل بصماتنا ولها لون بشرتنا، ونبض عقولنا وقلوبنا، وتفوح منها رائحة عرقنا ودمائنا، لتكون راسخة وذات فائدة، يجب أن تكون بأيدينا وعقولنا لنقول إنها ليست تنمية الآخر على أرضنا، مع أن الآخر موجود في حقائقها، من هنا نقول إن تبني التنمية يحتاج الى المناخات التي نحن بصدددها، وهي تنتمي الى ماهو فكري، يؤمن الظروف المناسبة للتنمية ويدخل في صلبها.

في الفضاء الممتد لتجربة التنمية الغربية، تبرز مجموعة من العناصر، التي تحولت الى مفاهيم لاغنى عنها لأية تجربة تنمية جادة. لأن تجربة الغرب قد وظفت هذه المفاهيم وأفادت من حضورها، حتى أصبحت من مقومات كل نهضة، لثبوت مفاعيلها وجدية الدور الذي تقوم به.

كان من أبرز هذه المرتكزات والمفاهيم توظيف العلم الذي لولاه لما كان لتجربة الغرب أن تنطلق، وقد حوى العالم الغربي من البحاثة الجادين والذين وجد لديهم الاستعداد للتضحية بالوقت والجهد، ما على أساسه قامت نهضة بلدانهم، ابتداء باختراع المطبعة في الأراضي الواطئة وصولاً الى الآلة البخارية التي أحدثت انقلاباً في الصناعة الحديثة. كما كان لتوظيف أفكار العلماء والمبدعين، واعتبارها ميراثاً علمياً للبشرية بالرغم من معاداة الكنيسة لها بداية، ما يمكن اعتباره عملية مراكمة هامة وتطور لا بد منه، فكوير نيكوس وغاليلو ولافوازييه وباستور وماركوني وانيشتاين والآلاف غيرهم، ليسوا آخر القائمة في رحلة العلوم الطويلة.

ومن هذه المفاهيم والمنطلقات العلمانية، فقد استطاعت القوى الصاعدة والمتولدة في أحشاء المجتمعات الغربية، أن تلزم الكنيسة ورجال الدين بالبقاء في حيزهم، والابتعاد عن الإمساك بخيوط التحكم بمسار الحياة فيما هو من اختصاص الكنيسة، وفيما هو من غير اختصاصها، وهنا يبدو ليس صحيحاً ذلك الاتهام الذي يوجه للعلمانية، أنها تريد أن تقضي على الدين، وأنها تحاربه، بل الصحيح إنها تضبطه في حيزه، وتمنعه من التسلط على حيزات أخرى، بمعنى آخر إبعاد الدين عن أن يكون إحدى المعوقات التي تمنع الحياة من التمدد عبر مجالاتها الحاصلة والممكنة.

منها أيضاً العقلانية، حيث أنه من المعلوم أن المجتمعات الغربية كانت غارقة في ظلام القرون الوسطى، أي أنها لم تكن في حال أفضل من حالنا، وهنا تبدو أهمية وعظمة الحركة التي قامت في تلك البلاد والتي حصلت على ثلاث خطوات أو ثلاثة مسارات. ففي الخطوة الأولى تمت مراجعة تراث الغرب وإحياء الدروس العقلانية في تجربته التراثية، وهنا نرى امتداد أثر تلك المراجعة الى التراث اليوناني الغني. وفي الخطوة الثانية تم توظيف ما أمكن توظيفه من تجارب الشعوب ونتائجها في إطار هذه الحركة، والمثال البارز في هذا المجال، هو توظيف نتاج ابن رشد العقلاني. أما الخطوة الثالثة فقد تضمنت الانطلاق من الخطوتين السابقتين والبناء عليهما في إيجاد العقلانية الغربية التي حمل لواءها فلاسفة كبار كديكارت وكانت وصولاً الى هيغل وماركس وغيرهم.

من المفاهيم التي نحن بصدددها أيضاً، الحرية والديمقراطية والمجتمع المدني، إن

الحرية حتى في إطارها الفردي، كانت ذلك المقدس الذي تمت التضحية في سبيله بمقدسات أخرى، إذ لا يمكن العزل بين المفاهيم السابقة وبين الحرية، كما لا يمكن العزل بين الحرية والديمقراطية، فهي في صلبها، وقطب الرحى منها، وإذا كانت الديمقراطية قد قامت على إحياء تجارب سابقة، مضافاً إليها مكتسبات العصر وتجاربه، كما أوضحت في مكان آخر^(٢).

وإذا كانت الحرية هي قرينة الديمقراطية وشرطها، فإن المجتمع المدني ومنظّماته ومقتضياته، هي شرط الديمقراطية الثاني، حيث لا يمكن تصورهما مفترقين، فمنظمات المجتمع المدني هي وليدة مناخ الديمقراطية، والديمقراطية هي بدورها تعتبر من هبات المجتمع المدني الذي بدأت منظّماته تتولد في أحشاء مجتمعات الغرب.

أما الحداثة فإنها تعتبر تحصيل حاصل لكل تلك المفاهيم ومفاعيلها في حياة الغرب وفضائه، ومفهوم الحداثة هو هذا المتحصل من ممارسة وتطبيقات العلم والعلمانية والعقلانية والديمقراطية، وتبقى الحداثة شيئاً متحركاً ومواكباً للحياة على مر العصور، وهو هلامي يصعب القبض عليه وتثبيته، أي إخضاعه لمفاهيم قارة، لأنه مولد لمفاهيمه وقيمه وإحداثياته كل لحظة، الحداثة حركة سيروية مستمرة مواكبة لكل ما تحصل عليه الحياة من تطور ومستجدات في مجال الاكتشافات العلمية وتطبيقاتها، والرؤى الفكرية والفنية، وبالمضد ممن يرى أن مجالها الفنون والآداب، فإننا نرى أن مجالها كل شؤون الحياة وعبر كل مساراتها.

والآن، إذا كانت هذه الحقول والمفاهيم هي مرتكزات التطور والبناء العصري الذي اعتمدت عليها الحضارة الغربية الحديثة، فهل يمكن توظيفها في إطار المجتمعات التي يسيطر عليها العقل الإيماني لإحداث النقلة الحضارية المرجوة، والتي لا خلاص لهذه المجتمعات إلا بالإفادة من مناخاتها وترسيخها في بيئاتها؟.

إن كيفية تعاطي العقل الإيماني مع هذه المفاهيم والمرتكزات، وإيجاد البنية الفكرية شيء هام جداً، وهنا أود أن أشير إلى أن بنية فكرية جاهزة ومسبقة يتم توظيفها أو تطبيقها تكنولوجياً لإحداث نقلة ما، أمر غير ممكن وليس الإقرار بهذه الفكرة وتوظيفها في مصلحة التطور الحقيقي والتنمية؛ كل ما يمكن أن يطلب هو ألا يكون العقل الإيماني عائقاً ومعرقلاً، ألا يعترض مسيرة الحياة في توجيهها الجميل

والانعتاق، أن يبتعد بتأبواته عن حقل تدمره التأبوات وتمنع زرعه من الإضرار والنمو، وبالطبع لا نرى أن هذا حاصل بهذه السهولة والبساطة، بل أن يزحف العقل العقلاني والنقدي للاستيلاء على ما من حقه أن يكون له في مسيرة الحضارة الإنسانية، وأن تكون المواجهة بينهما عقلانية، وأن تأخذ وقتها كي تكون راسخة، عليها أن تثبت أنها الأقوى الذي يقتلع الضعيف المعرقل للحياة وتقدمها دون نفي أو إلغاء قسري من خارج قوانين اللعبة الديمقراطية والعقلانية.

إذاً، هذه المفاهيم ليست نظرية علمية تسعى لتطبيقها عملياً بعد أن تم إنجازها مخبرياً، إنها مناخ وأفق.

فأين موقعها في منظومة ما نحن بصددده؟

لقد حاول العقل الإيماني أن يوجد حالة من العدائية والتضاد لا تستند إلى حقيقة أو واقع، كما لا تستند إلى نص محترم، وقد حاول أن يوظف هذه العدائية وينشرها على التخوم بينه وبين العلم، بينه وبين الحياة، ثم بين العلم والحياة. وهنا أريد أن أشير إلى براءة الأديان في كثير من الحالات من هذه التوظيفات، لأن حقل الدين القيمي لا يسمح بزجه في مثل هذه المعارك إنها لاتعنيه وليست من شأنه طالما أنه معني بتحسين الإنسان من الداخل، وإيجاد المناعة المطلوبة لديه، وإنما تم الزج باسم الدين وسمعته من قبل تلك العقول الإيمانية التي اعتبرت نفسها هي الدين أو وريثته والمتحدثة باسمه.

ليس معقولاً أن يكون دين، الكثير من منطوقه يشير إلى أهمية العلم والعقل، والعلماء والعقلاء، مصراً على اعتراض العلوم ونتائجها، إنه حينها يناقض نفسه. ولكن ما سقناه من أمثلة على موقف المؤمنين بعقلهم الإيماني ضد العلم وتطبيقاته، يؤكد الابتعاد ولو نسبياً وفي بعض الحقول عما نسميه صحيح الدين.

إن هؤلاء يرون أن العلم هو ما أدى إلى الله كما بينا سابقاً، أما ما أدى لغير الله، وهو كل علم مادي أو نظري غير علوم الدين، أولاً ينسجم مع قناعاتهم الفردية، فهو مؤدٍ إلى الشيطان، إذاً هو ليس علماً، إنه الجهل بعينه.

لم يقم العقل الإيماني الذي يعتبر نفسه حارساً للأخلاق والقيم الإنسانية بالاحتجاج الكافي على خرق العلم لمبادئ الأخلاق، وتهديد البشرية، إن الاحتجاج الفاعل الذي يقوم به العقل الإيماني ضد زي، أو فكرة، أو كتاب أو لوحة، يبرز قوته وسيطرته، وما

يتمتع به من امكانات أمضينا كل هذا البحث في إبراز قوتها، فلماذا لم يبق احتجاجه فاعلاً في مواجهة هذا المخزون الهائل من أسلحة التدمير الشامل التي أنتجتها البشرية، أو كل هذه الحروب المدمرة.

إن الاحتجاج وإنكار دور العلم وقدراته، يتم في قطاع ما يمكن اعتباره من حقول السماء وحكراً عليها، فالمطر شأن إلهي لأن الله ينزل الغيث، من هنا يتم الاحتجاج على المتنبي الجوي الذي يتوقع المطر إذا لم يردف توقعه بقوله: بإذن الله أو إن شاء الله، أو أية عبارة أخرى توحى أن هذا المجال بقي في الحيز الإلهي ولم يتم سلبه أو توظيفه في المملكة الأخرى النقيضة لمملكة الإيمان.

يشير د. صادق جلال العظم^(٢)، الى رأي بعض ممثلي هذا العقل الإيماني بالعلم، فينقل عن شكري مصطفى أحد قادة المنظمات المتأسلمة، المتطرفة في مصر قوله: «ثم دعوت فريقين الى العلم الذي أجاز الله تعلمه وهو عبادته وحده تعالى... ونقول إن ذرة تعلم خارجة عن ذلك لا تجوز...» ويتابع «لقد أراد الله أن يختار خير أمة أخرجت للناس، أمة أمية لا تكتب... لقد كان بمقدور النبي أن يتعلم لو كان في ذلك خير من العبادة... وما وجدنا الرسول والصحابة يعنون بتعلم الفلسفة والطبيعات».

اعتقد أن الاشارات السابقة واضحة في إعلان العداء للعلوم العصرية الحديثة أولاً، وفي الفهم الخاص والمتخلف للعلم ولتطور الحياة ثانياً. وأظن أن رسول الله بريء من جهل هذا الجاهل، ومما ينسبه إليه، ولا يجوز أن ننسب التنكر لأول نداء إلهي للرسول (اقرأ) الى الدين والرسول الذي هو المتلقي لهذا النداء، وهو نداء علم. إن إقامة التناقض والتضاد بين الدين والعلم، ورعاية هذا التناقض من عمل العقل الإيماني المتخلف الذي أراد عن سابق إصرار وتخطيط أن يكون حقله الجهل، فلا غرابة أن يعادي العلم، وعلى العاملين في حقل الدين قبل غيرهم، التصدي لأمثال هؤلاء الجهلة، بما يحدثونه من تشويه للدين في عقول الناس.

لقد مر معنا الكثير من الأمثلة التي توضح العلاقة غير الحميمة بين العقل الإيماني والعلوم التي لا يرضى عنها سواء كانت تطبيقية أو نظرية، مع توجه شره من قبل ممثلي هذا العقل للإفادة من نتائج هذه العلوم التطبيقية، والصحيح أن الخوف ليس من كل العلوم بمقدار ما هو من المناهج التي تشيعها بعضها، ومن المناخات التي تخلقها، مما

يشير الى إلغاء مفاعيل التعاويذ والأحجية والتمائم والغيلان والجن والعفاريت والأدعية وغيرها من أسلحة وأدوات السيطرة الإيمانية، والتبريرات الزائفة، ولقد تمت الإشارة الى طلب الرئيس السوداني الى وضع دراسة تبين مدى مساهمة الجن السوداني المؤمن في عملية التنمية في السودان، وطلب الزعيم السوداني الآخر (الترابي) تكريس أسبوع الدعاء المستجاب على أمريكا لقصفها السودان.

لأننى أن تراثنا القديم والقروسطي، مليء بما يشجع على انتشار أساليب التبرير الخرافية واللاعقلانية، فعمر بن الخطاب رأى الغول في سفره الى الشام قبل الإسلام فضربه بالسيف^(٤). وذكر أبو أيوب الأنصاري أنه كان في سهوة (طاق) وكانت الغول تجيء فتأخذ^(٥). ويورد خليل عبد الكريم الكثير من الأخبار التي تتضمن هذه الحكايات في كتابه «شدو الرابة بأحوال مجتمع الصحابة» وهو عمل علمي نقدي متميز، والحكايات التي ينقلها تنتمي في معظمها الى عصر الصحابة الأول ذلك العصر المتألق برجاله الأفذاذ، وهو العصر المثال، والمنقولات عن الصحابة الأجلاء، فقد ذكرت «عائشة بنت طلحة أمها أم كلثوم بنت أبي بكر قالت: كان جان يطلع على أم المؤمنين (خالتها)، عائشة (رض) فحرّجت عليه، أنذرتة مرة بعد مرة فأبى إلا أن يظهر فعدت عليه بحديدة فقتلته، فأتيت في منامها، فقيل لها: أتقتل فلاناً وقد شهد بدرأ، وكان لا يطلع عليك لاحاسراً ولا متجرداً إلا أنه كان يسمع حديث رسول الله (ص) فأصبحت فزعة فأمرت باثني عشر ألف درهم فجعلتها في سبيل الله»^(٦).

فإذا كان السيل من الحكايات - وهذه من أطفها - ينتقل من عصر الصحابة وعن مجريات حياتهم، واحتكاكهم بالجان والمخلوقات الخرافية، فإن ماسنجدته في عصور الانحطاط، التي يبلغ فيها العقل الايماني ذروة تطوره، أكثر هولاً وبعداً عن كل عقلانية، بالتالي عن كل تنمية.

برز الترابط وثيقاً بين النزعة العلمية والعقلانية، وبدت ضرورة كل منهما للأخرى، من هنا بدا أن عداً إحداهما يعني عداً للثانية. والذي لاشك في أن تنمية بدون علم غير ممكنة، وعلم بدون عقلانية غير ممكن، إذاً، العداً للعلم والعقلانية، يعني العداً للتنمية ورفضاً مطلقاً لها، مهما كانت الادعاءات. إن العقل الذي يسعى الى تجاوز واقعه الرازح تحت سيطرة الخرافة والدجل، وبالتالي التخلف بكل أشكاله، سيشير الى

أنه عقل مستقيل إذا لم يكن العلم والعقلانية رائدة.

أما العلمانية فقد وجدت مناخها في الظروف التي شجعت على العلم والعقلانية، والعلمانية في أحد تعابيرها الأكثر بروزاً، هي رد واضح على العقل الإيماني وسيطرته، وعدم صلاحيته لقيادة حركة تنوير لواقع التخلف الذي أنتجه، والذي كانت أوروبا غارقة فيه. ولو كان العقل الإيماني الذي تم التخلص من سيطرته صالحاً لقيادة النهضة في تلك البلاد لما كان هناك مبرر للبحث عن إطار آخر لنمو الحضارة الحديثة وتقديمها بعيداً عنه، وها هي الثمار تبدو ناضجة وتفصح عن أن التنمية في الغرب وصلت إلى غايتها، أقول هذا مع التحفظ على الكثير مما أبدعته تلك البلاد.

لقد عبر المسلمون عن وجهات نظر متناقضة حول العلمانية تتراوح بين اعتبارها كفراً، وهذا منطق العقل الإيماني، وبين اعتبارها مطلباً ومناخاً لأمحيص لنا من الأخذ به إذا أردنا الخروج من التخلف.

من أبرز التوجهات التي أخذت الدين أخذاً إيمانياً واعتبرته دوغماً مغلقة كانت جماعة «الأخوان المسلمين» في مصر وامتداداتها منذ أواخر عشرينات القرن العشرين، ويعد أبرز منظري هؤلاء «سيد قطب»، الذي ينقل عنه محمد جمال باروت بعض آرائه في المجتمعات التي تأخذ بنصيب من العلمانية، يقول قطب^(٧): «جميع المجتمعات القائمة اليوم في الأرض فعلاً! تدخل فيه المجتمعات الشيوعية... وتدخل فيه المجتمعات الوثنية... وتدخل فيه المجتمعات اليهودية والنصرانية في أرجاء الأرض جميعاً... وأخيراً تدخل في إطار المجتمع الجاهلي تلك المجتمعات التي تزعم لنفسها أنها مسلمة» وينقل باورت أيضاً عن سيد قطب: «ليس المجتمع الإسلامي هو الذي يضم أناساً ممن يسمون أنفسهم «مسلمين» بينما شريعة الإسلام ليست هي قانون هذا المجتمع، وإن صلى وصام وحج البيت الحرام! وليس المجتمع الإسلامي هو الذي يبتدع لنفسه إسلاماً من عند نفسه - غير ماقرره الله سبحانه وفصله رسوله صلى الله عليه وسلم - ويسميه مثلاً «الإسلام المتطور» وبذلك يكون مجتمعاً جاهلياً ولو أقر بوجود الله سبحانه ولو ترك الناس يقدمون الشعائر لله في البيع والكنائس والمساجد»^(٨).

إن المجتمعات التي عمل سيد قطب على توصيفها في المقتطفات السابقة هي مجتمعات علمانية، أو آخذة بطريق العلمانية، ولم يكن موارباً في إيضاح رأيه فيها،

بالتالي ما كان على أتباعه وورثته الذين أخذوا آراءه مأخذ التقديس، وأضيف كلامه الى التراث الممتد من فقهاء السلطان الى ابن تيمية الى المودودي وتم إسناده الى النصوص الأساس (قرآن وسنة)، وقد ترجم هؤلاء الأتباع كلامه قتلاً ودماراً واستباحة للأعراض والحرمات.

في هذا الوقت كان مفكرون متنورون يبرزون ماتعنيه العلمانية، وأية آفاق تفتح. وهم مفكرون لم يتهمهم أحد بالخروج على الدين إلا أمثال سيد قطب الذي أخرج الجميع، ولم يترك أحداً إلا اتهمه، ومن أبرز هذه الآراء. تقول د. أنيسة الأمين: «والعلمنة لاتعني الإلحاد وإنما تعني حرية الاختيار واتخاذ موقف فلسفي أمام مشكلة المعرفة»^(٩).

ويقول محمد عابد الجابري: «إن علمانية حقوق الانسان في الفكر الأوربي الحديث لم تكن تعني لدى فلاسفة هذا الفكر الاستغناء عن الدين كدين، بل فقط التحرر من سلطة الكنيسة وطقوسها. لقد بنوا «معقولية» حقوق الإنسان باعتماد العقل وحده فعلاً، ولكن لاضداً على الدين بل ضداً على الفهم الذي تفرضه الكنيسة وما يرافقه من طقوس»^(١٠).

وينقل د. عبد الرزاق عبيد عن د. سمير أمين في دراسة الدكتور عبيد لكتاب «يشرب الجديدة» لمحمد جمال باروت قول أمين: «والعلمانية لم تلغ الإيمان بل لعلها قوته وحررته من إشكاليات وعنصر الغرض وصفته من الأبعاد الخرافية التي صحبتها في الماضي»^(١١).

ويقول د. نصر حامد أبو زيد: «وليست العلمانية في جوهرها سوى التأويل الحقيقي والفهم العلمي للدين، وليست ما يروج له المبطلون من أنها الإلحاد الذي يفصل الدين عن المجتمع والحياة»^(١٢).

ويقول د. عزيز العظمة: «إن جل مانطمح إليه هو بروز المثقف الجديد الذي استبعد الفكر والخطاب الدينيين عن مجال الحياة العامة، دون أن يكون هذا الاستبعاد قائماً بفعل النية في استبعاد الدين أو صادراً عن موقف عدائي من الدين أو عن الإلحاد، بل قام هذا الاستبعاد على كونية فرضت نفسها على الماضي القريب لمجتمعاتنا، تحولت فيها الجهة المحتكرة للثقافة والمعرفة من المؤسسة الدينية الى مؤسسة علمانية هي

الدولة وأجهزتها الثقافية ونمطها التنظيمي»^(١٣).

كما يقول العظمة: «إن العلمانية ليست بالظاهرة التي يمكن توصيفها ببساطة ويسر، بل هي جملة من التحولات التاريخية السياسية والاجتماعية والثقافية والفكرية والأيدولوجية، وإنها تندرج في أطر أوسع من تضاد الدين والدنيا، بل إنها تابعة لتحولات سابقة عليها في مجالات الحياة المختلفة»^(١٤).

هذا يعني أن الوقوف ضد العلمانية يعني الوقوف ضد التحولات التاريخية التي يتحدث عنها العظمة، والتي تلمح من المقتطفات الماضية، فكيف يكون مع التنمية وتجاوز الواقع من كان ضد هذه التحولات؟.

ولاننسى أن الكثير من المفكرين الذين انطلقوا، وتحديثوا، من داخل المنظومة الدينية أشاروا الى الانسجام بين العلمانية والفكر الديني، ولكنهم جوبهوا بالرفض والتكفير، من أبرز هؤلاء علي عبد الرزاق والذي جرى له بعد نشر كتابه «الإسلام وأصول الحكم» مشهور جداً.

في التوصيفات السابقة للعلمانية، والتحديد لحقلها، والآراء الواردة فيها، تظهر مدى جدية التعاطي معها كمناخ لا بد منه لعملية تنمية حقيقية، من شأنها أن تتجاوز مساوئ الواقع وعقباته، وهذه الآراء لمفكرين لم يطلعوا على مناخ التنوير الغربي فقط، مع ما انتجه من فكر وثقافة، بل هم أبناء بيئة لا يزال يسيطر عليها العقل الإيماني، وليس منهم من هو متهم في صدق انتمائه لشعبه ووطنه ودينه - إذا استبعدنا رأي أمثال سيد قطب وتلاميذه وحاملي فكره بهم - وتشغلهم مشاكل أمتهم وهمومها، والبحث عن طرق لتخطي واقعها المأساوي.

والوقوف ضد العلمانية لا يكتمل إذا لم تتم إبانة موقف العقل الإيماني من الديمقراطية التي اتفقت شعوب الغرب والشرق على ضرورتها لبناء مجتمعات متطورة، لا بل تطالب بها جهات اسلامية دينية متعددة كـ «حركة النهضة الإسلامية» في تونس^(١٥).

والديمقراطية تمارسها جهات إسلامية تمثلت في أحزاب كثيرة تصر على أن تصف نفسها بالإسلامية في الأردن وتركيا وغيرها، وأعتقد أن المسلمين وأصحاب العقل الإيماني لا يشكون في أن حزب جبهة الانقاذ الإسلامية الذي تحول الى رمز للتطرف،

وكان قد نادى بالديمقراطية ومارسها وألغى نتائجها عقل إيماني مشابه ونقيض، حيث أظهروا أن لا أحد يؤمن بالديمقراطية وإنها ضحية الجهات المتناقضة، وهذا الكلام ليس تزكية أو تبرئة لجهة الإنقاذ التي أولغت بدماء شعب الجزائر ولكن تقرير حقيقة.

ومع ورود هذه الأمثلة التي تشير الى تناقض العقل الايماني وقلقه وعدم وجود موقف ثابت له من هذه القضايا ، وبالتالي توحى بعدم الركون الى النتائج التي يتقدم بها ، فإن ماثبت هذا التناقض، الكثير من الآراء الواردة عن المؤمنين في مراكز قيادته. ويورد د. صادق جلال العظم بعضاً من هذه الآراء:

جاء في البرنامج السياسي لقلب الدين حكمتيار، زعيم الحرب الأفغاني: «إن الإسلام والديمقراطية لا يتوافقان مع بعضهما. وستكون أفغانستان دولة إسلامية متشددة.. تحظر فيها المشروبات وتعود المرأة الى البيت ويستلم الملاوات السلطة»^(١٦). ويبدو أنه جاء من أرباب العقل الايماني من زاود على حكمتيار وأثبت استغراقه في التخلف أكثر منه، وفي تبني مؤشرات ومفاعيل هذا العقل، فاستلم السلطة في أفغانستان وهم حركة (الطالبان).

أما ضياء الحق، حاكم باكستان العسكري السابق فقد قال: «إن هاتفاً جاء في نومه، أن الإسلام والديمقراطية يتعارضان تعارضاً تاماً»، وبناء على ذلك ألغى الانتخابات العامة التي كان قد وعد باجرائها^(١٧).

أما صالح سرية وهو من قادة الحركات المتأسلمة في مصر ومن أصحاب العقل الإيماني المتشدد فيقول: «إن الديمقراطية على سبيل المثال منهاج مخالف للإسلام ففيه الشعب صالح للسلطة، في حين أن الشعب لا دور له في التشريع، والجمع بين الاسلام والديمقراطية كالجمع بين الاسلام واليهودية»^(١٨).

والآراء السابقة هي لقادة إيمانيين ميدانيين على رأس جيوش أو حركات أو دول، وكانوا فاعلين في واقعهم ومجتمعاتهم وحركاتهم، وهذه الأقوال ناضجة بصورة واضحة بآرائهم، ولاشك أن من يرى الديمقراطية هذه الرؤية، سيعمم رأيه هذا ليشمل المجتمع المدني ومنظّماته، ويشمل الحرية أيضاً، لأن الحرية (طبعاً بمفهومها العصري، سياسياً واجتماعياً وفكرياً...) مفهوم متلازم مع مفهوم الديمقراطية، ولن تكون هناك ديمقراطية ليست الحرية منها قطب الرحي، كما لن تكون هناك ديمقراطية صحيحة لا تأخذ

منظمات المجتمع المدني فيها دورها الفاعل.

ويبقى الموقف من الحداثة على سبيل تحصيل الحاصل، وقد تكون إدانة العقل الإيماني للحداثة أقوى وأصرم من إدانته لغيرها من المفاهيم السابقة، فقد وقف هذا العقل ضد المرتكزات والمفاهيم التي لا بد منها لإحداث تنمية فاعلة هدفها تحديث المجتمع، ونقله من حالة التخلف الى حالة نقیضة، تسمح في أن يتخلق عنها المجتمع الموعود. ولاشك أن الموقف من الديمقراطية والعلمانية والعقلانية هو موقف لامراء فيه من الحداثة وتعبير صريح عن رفضها. لقد ورد في كتاب «الابداع من نوافذ جهنم» وهو أحد ثلاثة كتب صدرت تحت عنوان عام هو «العنف الأصولي» كانت قد نشرت نصوصها في مجلة «الناقد» سابقاً، ورد نص يقول الكتاب إنه منقول بأمانة عن شريطي كاسيت من دون أي تعديل أو حذف، والأشخاص الذين أعدوا هذين الشريطين وغيرهما من الأشرطة، في إطار حملة واسعة لايزالون مجهولين، إلا أنهم على حظ جيد من الثقافة، ومن المعلوم أن أرباب العقل الإيماني استخدموا الكاسيت في نشر أفكارهم وقيمهم التي تملأ البيئات التي تأخذ هذه الأفكار مأخذ الجد، وأصبحنا نسمع أصواتهم وآراءهم وتحريضهم وأدعيتهم في السيارات والبيوت والمقاهي والشوارع، للتأثير في عقول الناس، لقرب وسهولة تناول الكاسيت، ولما يحمله من تلوين صوتي وخطابية وأدعية ووسائل إقناع.

ومضمون الشريطين الذي شكل النص المنشور، يصب جام غضبه، أي غضب كتابه (المثقفين) على رموز الفكر والأدب والثقافة العربية الرفيعة، والذين هم موضع فخر واعتزاز الأمة، ويكيل لهم شتى التهم، وذنبتهم أنهم خرجوا على النهج الإيماني وعُقد أصحابه، وحلموا أن يروا أمتهم في موقع يليق بأية أمة تطمح للبقاء، ومن هؤلاء: غالي شكري، أدونيس، محمود درويش، صلاح عبد الصبور، أحمد عبد المعطي حجازي، عبد الوهاب البياتي، محمد عابد الجابري، عبد الرحمن الشرقاوي، محمود أمين العالم، جبر ابراهيم جبرا، أحمد سليمان الأحمد، كمال أبو ديب، نجيب محفوظ، وعشرات غيرهم، بل المعني بهذا الهجوم كل مثقف يطمح الى تحديث وطنه فكراً أو عملاً، على امتداد هذا الوطن العربي، وكل رموز النهضة الفكرية والأدبية والفنية، مع قرائهم ومعجبيهم وأتباعهم ومروجي أعمالهم ومن يتعاطى معهم^(١٩).

كل ذلك حفاظاً على القيم والدين كما يراها هؤلاء، لا كما يتوجب أن يكون الحفاظ عليها، ومنعاً من انتهاك مقدسات، يتم انتهاكها من قبل المدعين الحفاظ عليها، فالحفاظ عليها يمر عبر ملاءمتها لتطور المجتمع لا عبر جمودها عند قوالب لا يمكن تجاوزها لأن الثبات عند وضعية واحدة يعني الموت، وما أظن أحداً من هؤلاء الحداثيين المعنيين بالهجوم كان يحمل نوايا تحطيم ما يجلب العزة والمكانة والرفعة لأمتهم، فهم مجددو هويتها والمحافظون عليها، والذين يرون أنه إذا كان عليك أن تحافظ على خط يحمي الأمة من الدمار والانتهاك والتخلف، فإن ذلك يمر عبر إيمانك بأن ذلك لا يكون بمنطق (وراء سر) وقد وضعت على جانبي وجهك واقتيتين تمنعانك من الالتفات الى ما يجري حولك وتبقيانك على صراط مروجي العقل الإيماني.

لقد أفضت في الحديث قليلاً في هذا الجانب لجلاء حقيقة أعتقد أن الجميع يعرفون عنها الكثير، لكن لكي نساهم في إزالة بعض الشك من أذهان الناس، ولإقناعهم بأن العقل الإيماني ليس الإطار الصالح لاحتضان تنمية ونهضة تعمل على تجاوز الواقع المتخلف.

الحقيقة التي أردت الإشارة إليها والوقوف عندها، هي أن عدااء العقل الإيماني للتنمية الإنسانية ولتجاوز الواقع، مع أن أربابه لا يصرحون بذلك، ويدعون أنهم القادرون على التغيير بإيجاد (دولة العلم والإيمان) على طريقتهم، لكن منطق الأحداث يكذبهم، هذا العدااء يستمد قدرته على الاستمرار، ومرجعيته، من تشويه ومهاجمة كل فكر عقلاني حدائي وفاعل ومن انغلاق الفكر الآخر وظلاميته وانكفائه على نفسه.

وبالتالي، أرجو أن يكون فيما تقدم من نصوص ومواقف وشهادات ما يؤكد ويثبت أن العقل الإيماني غير مؤهل لإحداث تنمية، وأن التنمية تنتمي الى حقل ومنظومة مفاهيم نقيضة لحقل العقل الإيماني ومنظومته المفاهيمية، فالذين تم استنطاقهم في معسكر العقل الإيماني هم من مهندسي ومصنعي هذا العقل وحراسه والمشرفين على استمراريته وغوه، والآراء الأخرى من الاتجاه المعاكس توضح تهافت هذا العقل. وما يجب التنبيه إليه هو ضرورة رفع سلطة هذا العقل ومؤدلجيه عن العامة، فهو فاعل في أوساطهم الى الحد الذي تنتفي مع فاعليته أية فاعلية لأية جهة أخرى، فلو حاول كل أطباء الدنيا مثلاً اقناع امرأة ريفية مؤمنة بأن من ضرورات الحياة الحرة الكريمة عدم

إنجاب الكثير من الأولاد لضمان تربية القلة في إطار أسرة منظمة تربية أفضل، لما أفلحوا في إقناعها طالما أن شيخ القرية يربط العملية بالقدرة الإلهية وبالإيمان ويوحي إليها بأنه حرام أن تعمل على الوقوف في وجه قدرة الله تعالى وما يرسله لعباده، وإن الله لا يقطع الرزق عن أحد، وعنده ما يكفي الجميع. إن أبرز أسلحة هذا العقل الجهل والخرافة والخوف وغيرها مما يمكن توظيفه في إطار من التقديس.

٥ - دور الفكر المخلق والفكر المنفتح في التنمية

نعود الى طرح الأسئلة. والسؤال الملح، ما الذي أحال الأديان ذات الأفق الإيجابي والفاعلية الكونية، والمبشرة بالانعتاق الى دوغمائيات مغلقة؟ بالتالي كيف حولت هذه الدوغمائيات المجتمع الى غيتوات أو كانتونات؟.

السؤال ينطوي على المفارقة بين النظرية والتطبيق، هذه المفارقة التي فرضت نفسها حديثاً من خلال فشل الكثير من الأحزاب ذات الأفق الانساني التقدمي في ترجمة نظرياتها وبرامجها الطموحة الى عمل حسب الخطوط التي رسمتها لنفسها. والأجوبة تأتي متباينة ومعبرة عن رؤية الانساق والاتجاهات الفكرية، وهي بالتالي أنساق واتجاهات آيلة عن الانتماء الى المعسكرات الفكرية.

عندما يكون الإنسان أمام نظريات كبرى ومبادئ عظيمة، عليه أن يكون شديد التحفظ في التعامل معها، وعليه أن يكون حذراً خصوصاً في أمر تطبيقها واستحضارها لكل صغيرة وكبيرة، فهي عندما تستخدم للتبرير ولقياس الاتجاه في صحته وعدم صحته، يبدأ التعسف في استخدامها، وعندها يبرز دور المصالح الخاصة، والآراء الخاصة، والمبادئ الخاصة، وتمتزج بالمبدأ والعقيدة، قد يكون هذا الخاص ملكاً لفرد أو جماعة، وتكثر الخصوصيات ويبدأ التشردم، وتزداد الشروح والتفسيرات التي يحتاجها التبرير، ثم تبدأ هذه الشروح والتفسيرات والخصوصيات تنغلق، وكلها تستمد قدسيته من المبدأ أو العقيدة، وبمرور الأيام يصبح المبدأ مبادئ والدين أديان وتصبح أبشع السرقات إراثاً مقدساً في نظر أحفاد اللص لا يجوز الاعتداء عليه (حسب تعبير ول ديورانت في قصة الحضارة).

هكذا يصبح التشردم سمة من سمات الفكر، ويصبح التقدم لدى كل فئة قليلة أو

كثيرة مشروطاً بتحقيق رؤيتها أو خطها وعقيدتها، ويظهر دور الأفراد والعقل الفردي المتمسك بالخصوصية أكثر، ثم يبدأ الاستبداد وعبادة القادة والأشخاص.

حدث هذا في كل دين من الأديان السماوية، كما حدث في الفلسفات الاجتماعية والمشاريع الكبرى في مجال السياسة والفكر، فتحكمت سياسة ومصالح القادة دينيين ودينيين، وكثرت المذاهب والنحل، وأصبح لكل منها سياجها العقيدي المقدس، الذي التنازل عنه يعني التنازل عن الهوية والشخصية والكيان بالتالي عن الشرف والكرامة، ومن أجله ترخص الأرواح، ويحلوا الاستشهاد والتضحيات، ويفسر كل تراجع يحصل في حياة الأمة على أنه ناتج عن التفريط بحق الله والتراخي في تطبيق الشرائع، وعدم الحفاظ على النصوص والمقدسات، وليصبح مقياس التقدم، التمسك بالعقيدة، والعض بالنواخذ على ما بين يدي الإنسان منها، وتبدأ اللعنات تصب على المفرطين، وتأخذ المزاوَدات أبعادها، ويظهر استغلال المواقف والانتهازية، ويصبح النفاق متبادلاً بين أقطاب هذا الاتجاه.

كان التفريط، والابتعاد عن صحيح المعتقد والتقرب من الشيوعية سبباً في هزيمة عام ١٩٦٧م حسب رأي الشيخ محمد متولي الشعراوي أحد مؤدجلي العقل الايماني، وهو الذي دفعه إيمانه الذي لم يفسده التقرب من الشيوعية (الايمان الصحيح) أن يصلي لله ركعتين شكراً له على هذه الهزيمة التي تعني مفاعيلها عنده غير ماتعنيه عند مجموع الأمة، فهي عند مجموع الأمة هزيمة بينما هي عنده نصر لأنها تعني العودة عن الكفر والتفريط وانتهاء زمنهما بفصم عرى العلاقة بالشيوعية الملحدة، هكذا، وبكل وضوح، بل بكل صفاقه عبر العقل الايماني عن دوره، وأفصح عن وجهه في وسط الآلام التي تعانيها أمة ذاقت مرارة الهزيمة لتوها، فيكون دور هذا العقل تصعيد الشماتة بدل بلسمة الجرح، وهكذا تعود المؤمنون البحث عن أسباب مآسيهم ومصائبهم، لدى شيوخ الضرب بالمندل، وكتاب الأحجية، وقراء الفال، والمنجمين والمبصرين، ولدى الأبراج والمقامات والعتبات والأضرحة وعظام القديسين والتماثيل، المؤدية الى التحكم بالغيب، عوضاً عن البحث عن الأسباب الحقيقية وسلبيات الواقع، والتقصير والاستبداد، وإصلاح الواقع الفاسد إن أمكن، وتجاوز أنظمة الاعاقة، وإبعاد المتراخي والمفرط والفاسد والمتآمر واللص والمستبد والانتهازي والوصولي والمرتشي والكسول...

الخ بدل مباركتهم والحصول على هباتهم.

هكذا تبتسر الأمور، وهكذا تتوالى التبريرات اللاعقلانية، فتتألق قوى السحر والخرافة وتنتفخ، بينما تضمر قوى العقل والعلم، وتزداد أسطرة الشخصيات، وتبدأ كراماتها بالظهور، ويصبح المصير معلقاً بشطط أفكارها.

وضمن هذا الواقع يتم لعن الخارجين، وغير المترادفين، وتتم محاولات أعادتهم الى القطيع كي لا يبقوا مخالفين للنسق، لأن نُسبهم يجب ألا تقل عن مئة في المئة، للانسجام مع المطلق، ويصبح الأكثر اغراقاً في لاعقلانيته معيار التقدم والنجاح، وفي هذا المناخ الذي يجب أن يسود فيه كل مايقوم على النقد الموضوعي البناء، يمنع النقد، وتتم الدعوة الى التكتل أكثر، والى الانغلاق في وجه الآخر أكثر، أي الى التوقع وإغلاق الأبواب ونبذ الثقاف والتفاعل.

وإذا كانت سمة التفريط بالعقيدة، وعدم التمسك بصحيح الخط الارثوذكسي للطائفة أو الملة، والتحذير من الاغراق في ذلك، وضرورة التوبة، هي السائدة أيام المحن، فإن العون الإلهي وزوال الغمة برضى الآلهة، يعتبر التفسير الأكثر رواجاً في أيام الطمأنينة والرخاء، عند مؤدجلي هذا الاتجاه . ومن الواضح أن الإنسان هو نفسه لم يتغير وأن التمسك بالعقائد صحيحها وزائفها لم تتغير، فحصول ما هو إيجابي يعاد الى رضى الإله، حتى لو لم يتغير قيم الناس وسلوكياتهم وحتى لو لم يقوموا بأي عمل لنيل هذا الرضى، وهذا يلغي القراءة الدقيقة للواقع، ومعرفة المقدمات التي أدت الى نتائج، أي تغييب منطق العلية والسببية.

إن نسبة النجاحات والانتصارات الى الرضى الإلهي، والهزائم والفشل الى الغضب الإلهي، هو تفسير دائم، قديم ومستمر، فالناس لم يكونوا أكثر تديناً، ولاتدينهم كان أكثر صحة والتزاماً عام ١٩٧٣ حيث انتصر العرب نسبياً في حربهم مع اسرائيل، منه عام ١٩٦٧ حيث انهزموا، مع ذلك، فقد رأينا كيف يبرر العقل الايماني الهزيمة بغضب الله الآيل عن العلاقة مع الشيوعية والارتباط بها، كما رأينا العقل ذاته يشير الى الرضى الإلهي الذي يعتبر سبب الانتصار حتى أن الله أرسل ملائكته للقتال مع المؤمنين على جبهة قناة السويس، وقد رآهم شيخ الأزهر بثيابهم البيض، والله لا يرسلهم إلا لنصرة الإيمان، علماً أن العلاقة مع الشيوعية لم تكن قد تبدلت بما يرضي هذا

العقل، والعلاقة مع نقيضها الرأسمالية ليس انحيازاً كاملاً الى الإيمان. لقد نسي شيخ الأزهر الذي رأى الملائكة بعينيه الايمانيتين كل الجهود والتدريبات والتضحيات التي قدمها الجندي المصري والانسان المصري، الذين ضحوا بأغلى ما يملكون، الدماء والأنفس والأموال، ونسب النصر للملائكة، ألبست هي محرزة النصر على كل الجبهات الإيمانية التي افتتحت؟ أليست كل معركة من هذا القبيل عندهم بدماء لا أحداً؟.

هذا هو العقل الإيماني ورجاله وتبريراته!!.

إذا كان هناك تقصير أو فعل سلبي، يعبر عن عجز وضعف أو هزيمة في مواجهة من أي شكل أو لون كانت، فالمسؤولية يتحملها الانسان، فهو ابن الخطيئة، وهو العاجز، وهو المقصر، دون التفكير بانسجام هذا النمط من التبرير مع فكرة الاستخلاف، التي جاءت بإرادة إلهية لعمارة الكون وصيانتها، وإن العمارة والصيانة تصنعهما القوة لا الضعف. العجز مرتبط بالعاجز والعاجز هو الإنسان، إذن ما يدور في فلك السلبية، وساحة العجز هو إنساني. والقدرة من سمات القادر، وإظهار القدرة يوحى بوجود صاحبها في ساحة الفعل، وكل ما يدور في فلك الإيجابية، فلا دور للإنسان فيه، إنه فعل ينتمي الى قوى فوقية، بتدخل الأرواح أو المقامات أو الكرامات.

إن الاعتقاد بشلل الفاعلية الإنسانية، هو رهان يعمل على تثبيتته من كان له مصلحة في ذلك، ولاشك أن هؤلاء ينتمون الى العقل الإيماني، لأن شلل الفاعلية البشرية يبقوهم أسياد الساحة، وهنا سأعود الى سؤالي الرئيسي في هذا البحث، كيف يصنع تنمية من لا يستطيع مواجهة عجزه والخروج منه وتجاوزه؟.

ستتم مهاجمة من يشكك بمواقف العقل الإيماني، لأن أصحابه ربطوه بالآلهة، ولا تجوز المساواة أو المقارنة بين القدرتين الالهية والبشرية، ولأنه يشكك بإمكانية القيام بتنمية تحتاج الى قوة بواسطة انسان لا ينسب إليه إلا العجز، إن الانسان العاجز، أو الذي تم تعجيزه عنوة، لا يمكنه اجترار التنمية.

٦ - التنمية في علاقتها بالسياسة

من الطبيعي أن تنتقل الأفكار من الحقل الديني والايماي الى الحقل السياسي،

لارتباط الحقلين تاريخياً ببعضهما، وهذا ما بدا جلياً عبر الحقب التاريخية، لما بين الدين والسياسة من أواصر تم توارثها والحفاظ عليها منذ فجر البشرية، ولا شك أن كلا الجانبين يحصلان على الربح في هذا المجال إذا بقيت الأواصر بينهما قوية. وتحول العقل الإيماني الديني الى عقل إيماني سياسي أمر واضح وجلي، وإعاقة هذا العقل لعملية تنمية حقيقية وواسعة أمر جلي أيضاً.

ففي أقدم الحضارات التي وصلتنا أخبارها كان الكاهن (رجل الدين والايان) والملك (رجل السياسة)، إما شخصاً واحداً أو يتناغمان في وحدة مصلحة لا تنقسم عراها، وتتناقل الأدبيات السياسية وصية أحد ملوك الفرس لابنه والتي ينصحه فيها بتوثيق عرى العلاقة بينه كملك (سياسي) وبين الدين فـ «الملك والدين توأمان، فالدين أصل، والسلطان حارس»^(٢٠)، وتستمر الوصية لتؤكد أن ما لا أصل له فزائل، وما لا حارس له فمفقود.

والعلاقة بين السياسة والدين وبالتالي الإيماني في تاريخ بني اسرائيل ممثلي اليهودية والمؤمنين بها، ليست بحاجة الى كبير عناء لاستجلائها، فكثير من الملوك والمديرين لشؤون هذه المجموعة البشرية (بني اسرائيل) ومن قادتها الزمانيين كانوا أنبياء، من ابراهيم واسحق ويعقوب وصولاً الى موسى وهارون ويوشع، الى داود وسليمان وغيرهم. وكان أمر الإيمان موظفاً في خدمة السياسة والعكس.

وفي المسيحية، فإن خير معبر عن انتماء السلطتين الدينية والدنيوية الى مصدر واحد هو المصدر الالهي، هي نظرية السيفين، والتي مؤداها أن لله سيفين مسلولين، أحدهما يمثل سلطانه على الأرواح، والثاني يمثل سلطانه على الأبدان، وقد تسلم القديس بطرس السيفين، فأعطى سيف الأرواح للبابا وسيف الأبدان للامبراطور.

وصحيح أن السلطة قد افترقت هنا إلا أنها ذات مرجعية واحدة، وهذه المرجعية ليست الإنسان ولا من حقله، فمصدر السلطة هو صاحبها والمسؤول عنها وهو هنا الله. هذا إذا سلمنا بأن كلا الجهتين قد التزمت بحدود دورها الموكل إليها، والتاريخ لا يصادق على هذا فقد كان تسلط الكنيسة في بعض المراحل من تاريخها على الناس واضحاً ومطلقاً، كما أن الملوك أيضاً جمعوا بين السلطتين في آن واحد، وهذا دليل على وحدة الايمان والسياسة عبر الحقب التاريخية.

وفي الإسلام، فإن قراءة التاريخ الإسلامي تبرز نتيجة جلية، وهي تلازم الدين والسياسة، بالتالي الايمان والسياسة، وتوثق العلاقة بينهما - لما فيه خير الأمة؟ - وبما أن الغلبة للسياسي بما يملك من قوى مادية ومقدرات، فقد الحق الديني فصار تابعاً له، دوره ينحصر في التبرير، وطمأنة نفوس العامة الى أن كل مايجري هو في إطار ما هو إيماني، وليس هناك أي شذوذ أو خروج على التعاليم المقدسة، بالتالي فالطاعة للأمراء البر منهم والفاجر واجبة، والخارج على الأمير خارج على إرادة الهية، فقد قال أحمد بن حنبل: «السمع والطاعة للأئمة: البر منهم والفاجر، فمن ولي الخلافة فاجتمع عليه الناس ورضوا به، ومن غلبهم بالسيف فليس لأحد أن يطعن عليه ولا ينازعه، وصلاة الجمعة خلفه وخلف كل والٍ جائزة، ومن أعادها فهو مبتدع خرج على إمام من أئمة المسلمين»^(٢١).

وليس الفكر المعبر عن العقل الإيماني الإسلامي عند السنة أقل استغراقاً في تضييع دور الإنسان من العقل الإيماني عند الفئة الإسلامية الأخرى، الشيعة، إذ أن السلطة عند هؤلاء مرتبطة بتسلسل أسري، ذي مضمون إلهي، لا دور للبشر فيه، بالتالي فهي أكثر استغراقاً في التماهي بين السياسي والديني الإيماني، وهي أدعى بالتالي لسيادة الاستبداد، كما أنها أدعى لتغيب دور الإنسان المحكوم، وإبعاده عن أن يكون له شأن في أمر السلطة التي تحكمه، فهي مفروضة عليه لابقوة الغلبة فقط، بل بقوة إلهية أيضاً.

لقد أوردت ما أوردته عن علاقة الدين بالسياسة، لأن مفهوم الايمان والعقل الإيماني، يحيل الى الدين مباشرة، علماً أن هذا المفهوم فعل فعله في السياسة وعن طريقها، كما في الدين وعن طريقه، والسلطة التي يتمتع بها الحاكم هي سليفة السلطة الإلهية وقدرتها، فالسلطة التي تنتقل عن طريق الشرعية الإلهية، عبر الرسل والشرائع، الى الورثة من ممثلي الايمان ونوابطيره والمتحدثين باسم هذه الشرعية ووارثيها، تؤول الى الحكام السياسيين الدنيويين، الذين بينا فيما سبق الوحدة بينهم وبين حراس الايمان الارثوذكسي. ومن كان يجمع الشرعيتين الإيمانية الدينية والسياسية، فلا شك أنه سيستخدمها بالشكل الذي يؤمن له الحفاظ عليهما تحقيقاً لمصالحه، كل ذلك باسم الحفاظ على حق الله وحق الشعب، وهذا ماسيؤول الى

الاستبداد وقمع المعارضين، بالتالي التوحيد والحكم الفردي، وهذا ما أظهره التاريخ جلياً، وهذا أيضاً ما ورثته الحكومات في العصر الحديث، خصوصاً تلك التي كانت مسلحة بالنصوص الاطلاقية (النظريات الثورية)، والتي كانت حتميتها تتمثل الحتمية الالهية، فقد قرنت هذه الحكومات سلطتها على الناس والحياة المادية وإدارتها، بسلطتها على النصوص (نظرياتها الثورية) والتحكم بانتاجها ومنطوقها ومدلولها وشروحها وإدارتها، إذ لها في التاريخ قدوة.

هذه السلطة المتحكمة بكل قنوات الحياة، والمالكة لمصير البشر ومقدراتهم المادية، لن تفسح المجال لبروز فعالية بشرية تنموية تتجاوز الواقع الى ما فيه مصلحة الناس، لأن ذلك سيفضي الى التقليل من هيبة وسلطة الدولة المتمترسة بالجيوش والنصوص، وليس في تراثنا البشري الكثير من المتنازلين عن سلطة منحت لهم أو اغتصبوها، كما ليس في هذا التراث من صنع تنمية حسب رأيه الفردي، إلا خرجت هذه التنمية المزعومة عرجاء وخادمة له، والتنمية الخادمة للحكام المتسلطين، ليس بالضرورة أن تكون خادمة للشعب المحكوم، فكل تنمية لا تتجاوز التسلط والاستبداد، هي ليست في خدمة الانسان، وما لم تكن في خدمة الانسان فليست تنمية، ولن تنتج إلا إعادة انتاج التسلط عبر تغييب الديمقراطية، المشروع البديل لمشروع الاستبداد.

هكذا يفعل العقل الايماني فعله. ففعله لدى الفئات الحاكمة هو الاتجاه الى السيطرة المطلقة، فكما لا يجوز أن يكون هناك انتقاص من قدرة الله في الكون الذي هو إلهه، كذلك لا يجوز أن يكون هناك انتقاص من قدرة الحاكم في كونه الصغير الذي هو إلهه، والسيطرة لا تتم إلا بالتحكم بتسيير الحياة المادية للناس والإمساك بها وبمفاعيلها من خلال الإمساك بالنصوص والتحكم بها وتوجيهها. أما فعله بالنسبة لفئات الشعب، فهو الامتثال والرضوخ، وتأمين دوام هذا الرضوخ، أليس الخروج على الإرادة الإلهية كفراً؟ كذلك الخروج على إرادة الحكام باعتبارها آيلة عن إرادة الله، إن ذلك يعني الشلل، شلل الإرادة، خاصة عندما يصور الإنسان أن خروجه على إرادة الحاكم السياسي سيعني ولاشك خروجه على إرادة الله، لأن الحاكم يستمد مبررات حكمه من تمثيله لإرادة علوية.

إن إحداث التغيير المطلوب، يقتضي رفع سيف التسلط على عقول الناس

وإرادتهم، والمتسلط على عقول الناس وإرادتهم، هو ذلك العقل الإيماني الذي لا علاقة له بالآلهة، إنما هو عقل صنعه الحكام ورجال الدين وحاشيتهم، لخدمة مصالح هي ليست بالتأكيد مصالح الله، بل هي مصالحهم، لأن مصالح الله لا يمكن أن تكون لغير مصلحة الانسان، فحيثما وجدنا انتهاكاً لمصلحة الإنسان فهناك انتهاك لمصلحة الله، وحيثما كان ذلك فعلينا أولاً أن نبحث عن العقل الإيماني الذي تسلل الى السياسة عن سابق إصرار وتصميم، بل بتخطيط من أصحاب المصلحة.

وهنا أريد أن أشير الى أن خوف الناس المؤمنين من الإرادة الإلهية المانعة للتغيير لما فيه مصلحتهم، لا مبرر له، إذ لا يمكن أن تكون هذه الإرادة إلا لصالح البشر، لكن جهات ذات مصلحة، ربت في عقول الناس مفاهيم تشير إليهم بأن لله مصالح خارج مصالح عباده، والله بعيد في مفهومه المتعالي عن أية مصلحة خاصة، فمصلحته هي إيجاد كون خالٍ من كل ما يشين انسانية الانسان أو يعرقل نموها، لأن ذلك سيعني عدم فهم الألوهة فهمها الصحيح.

الله مع الإنسان عندما يكون صادقاً في انتمائه لنفسه، لأن انتماء الانسان لنفسه، يعني انتماءه لإنسانيته بالتالي للألوهة، أليست الإنسانية تجلٍ من تجليات الألوهة وقدراتها.

إن خوض غمار التنمية والتغيير يتجاوز الواقع باتجاه ما هو أفضل، هو انسجام مع هذه المعاني لانقضاء لها، مهما كان في ذلك من تجاوز في المفاهيم القارة التي وضعت لخدمة مصالح فردية، وهذا مانصر على أن العقل الإيماني ليس الإطار الصالح له كما بينا.

٧ - الرؤية الايمانية للمجتمع والتنمية

لا يتبادرن الى الذهن أن حياة الناس في أطرها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية هي خارج امتدادات العقل الإيماني، وأنه لا علاقة له في هذه المجالات، إنها الحقول التي يمارس الناس فيها حياتهم، وتخومها هي امتدادات هذا العقل، فمنذ القديم تم التأكد من أن السيطرة على مقدرات الناس الاقتصادية، تمر عبر طريقين. الطريق الأول، هو التسلط على حياة الناس الاجتماعية، والطريق الثاني، الإمساك بالجانب

الايديولوجي، أي بقاء حركة الفكر والثقافة في أيدٍ أمينة، وذلك ضماناً للسيطرة، والطريقان يلتقيان ويتفاعلان ولا يتنافران.

حياة الناس الاجتماعية تحت السيطرة، طالما تم ربط تفصيلاتها ومفاصلها وضبطها، بمفاهيم التحريم والتحليل، ومايجوز وما لا يجوز، والامساك بجوانب العملية، فالتحريم والتحليل ليس من اختصاص الناس العاديين، فهو فعل إلهي، وتحريم ما حرّمته السماء وتحليل ما حلّته، هو أس الإيمان وعموده الفقري، وما لم تحلله السماء أو تحرّمه، فعله وكلاء السماء المعقدين، لأن ما يخص السماء هو حقّ نشاطهم. فمؤسسة الزواج، جرى ربطها بالمؤسسات الدينية الايمانية في الأديان السماوية، وهي أهم المؤسسات الاجتماعية منذ القديم حتى اليوم، لعلاقتها بحياة الفرد والأسرة والمجتمع، ورجال المؤسسات الايمانية الدينية هم الذين يرون مايجوز وما لايجوز بامتلاكهم زمام النصوص، فالتزاوج بين أبناء الملة الواحدة يمر عبر ترسيماتهم، والتزاوج بين أبناء الأديان والطوائف والمذاهب والنحل، يخضع لمراقبتهم الأشد ويقررونه هم ولا تقرره قلوب الناس وأهوائهم وإرادتهم ومصالحهم، حتى ولو كانوا هم المعنيون الذين سيتزوجون أو هم الضحايا، ولا يكون الزواج على سنن الله، كما لا يكون الطلاق في حال حصوله، ولو كان العلم به حاصلاً للجميع وبموافقة هؤلاء الجميع، إلا أن يتم إعلانه وترسيمه عن طريق الكهنة أو من يقوم مقامهم، وعبر سيطرة النصوص والكليشيات الجاهزة الموروثة والمحفوظة، ومن خرج عن هذا الطريق خرج من ربة الإيمان. وما يستتبع الزواج من جنس وحمل وأجنة وولادة ورضاع وفطام وتربية ونسب وانتماء، كلها وضعت لها النصوص والترسيمات. وحياة الإنسان العاطفية والجنسية كذلك وضعت لها القواعد والقوانين الصارمة التي لم تشهد الأديان ولا الدنيا تشديداً يفوق التشديد الذي شهدته هذه الجوانب.

ونستبق الحديث للإشارة الى أن أبرز مظاهر تسلط العقل الإيماني على الحياة الاجتماعية للناس، هو التعامل مع المرأة والحياة التي عاشتها وتعيشها في ظل الأديان السماوية أو ماورثته من الحضارات التي سبقتها، والتي لم تسع الى تغيير الكثير منه، مما بدا متعسفاً وغير صالح لمسايرة انسانية الكائن البشري الذي هو المرأة. فقد بقي هذا العقل يصنف المرأة في خانة البضاعة المادية، ويعتبرها مصدراً من مصادر

الخطر والشر والغواية، ويحدد الخطر أكثر فأكثر في مفاعيلها الجسدية القادرة على تفجير المجتمع، ولذا بقيت المرأة خاضعة للنظرة المادية، التي يجب الحفاظ عليها كما يحافظ اليوم على المعادن المشعة خوف انتشار اشعاعاتها التي تفتك بالناس، حتى نفاياتها هي مصدر خطر، وكذلك المرأة، فبروزها للعيان مصدر خطر وغواية، والرجل أمام هذا الأمر قزم ضعيف، لا حول له ولا طول، أليس جده القديم آدم أحد ضحايا هذه الغواية؟! حتى المرأة النفاية (العجوز) لا تخلو من خطر.

هذا الواقع الذي قزم المرأة قزم الرجل أيضاً، فهو في مواجهتها عاجز مستسلم فاقد العقل والإرادة لمجرد رؤيته أي جزء منها، لهذا جهد فقهاء العقل الايماني وفقهاء الأديان، على وضع الضوابط الصارمة، والأحراز المكيئة، كي لا نصل الى حافة الخطر، كأنظمة الرقابة على الأشياء الخطرة، وكأننا أمام جماعات من الحيوانات شديدة الافتراس، والتي لا يقودها سوى غريزتها، وضحاياها شديدة الضعف، وشدة فتكها كامنة في ضعفها.

لقد وضعت الأديان ضوابط لذلك كله، إلا أن العقل الإيماني الذي أنتجه بشر وقاده بشر، قد اشتط في وضع القيود والعراقيل حتى أضحت حياة المرأة الاجتماعية سجنًا متنقلًا، وساحة حياتها دائمة التوتر كساحات الحروب.

أي فعل فعله العقل الإيماني بإحالة الرجل والمرأة الى مفاعيل غرائزهما لا الى مفاعيل عقلهما؟ وأية تنمية يمكن للانسان القيام بها وهو مقيد الى هذا المفهوم الغريزي الشهواني، الذي يكمن الخطر على المجتمع من انفلات شهواته. وهو الإنسان الضعيف أمام هذه الشهوات؟ وهل للإنسان الضعيف من القوة ما يصنع تنمية؟.

لقد تجلّى خط الحياة الاجتماعية، والزيادة والنقص في تعليمات الأديان فيها، خاضعاً للحدود الصارمة وتطبيقاتها، تلك الحدود التي حافظت على الضوابط خوف القصاص. وهذه الحدود طالت مناحي الحياة الاجتماعية معظمها، لكن هذا العقل ترك لنفسه حرية التحرك والاختيار بين العقوبة وغير العقوبة، بإيجاد ما يسمى بالشبهات المانعة أو المشككة بضرورة تطبيق الحدود أولاً، وهو بالتالي إذا أراد طبق ولديه مايسعفه على التطبيق، من مبررات ونصوص، وإن شاء عفا متذرعاً بالشبهة.

بقي أن نعود الى طرح السؤال الذي نحن بصدد، وهو امكانية حصول تنمية في

واقع يسيطر عليه هذا العقل، فالمعطيات والمؤشرات التي بحوزتنا لاتبشر بامكانية حدوث مثل هذه التنمية. لقد أشرنا سابقاً الى أن التنمية تعني تجاوز الراهن الى ما هو أفضل، خاصة عندما يكون الواقع متخلفاً، فهل هذا ممكن؟.

عندما تم طرح الزواج المدني في لبنان من قبل رئيس الجمهورية، انتفض زعماء الطوائف والكتل الإيمانية ضد هذا الطرح، الى درجة أن دعا بعضهم للاستشهاد وأنه مستعد له في سبيل اسقاط هذا الطرح الذي لم يكن قد تجاوز الكلام الاعلامي. التصدي لهذا المشروع لم يأخذ مصالح الناس وإرادتهم في الحسبان، بل ضرب بها عرض الحائط، متناسياً أن الأديان بسماحتها جاءت لتنظيم حياة الناس وتسهيل عيشها وجعلها أكثر كرامة وأقل تعقيداً. إن السماح بمرور مثل هذا المشروع يفقد أرباب العقل الايماني إمكانية من امكانيات الضغط والسيطرة على المجتمع وتوجيهه، بالتالي تصبح سلطتهم عليه غير ذات مضمون، فهل تنسجم التنمية المأمولة مع متطلبات هذا العقل.

كما أن القيود على المرأة لاتبشر بالزوال سريعاً، وهي القيود التي تصل الى حد اعتبار قتلها أمراً مشروعاً وجلياً ومتماشياً مع إيمان المؤمنين، إذا كان في ذلك حماية للشرف، ولن تكون المرأة في هذه الحالة قادرة على إيجاد ملجأ للرحمة من سلطة غاشمة، أو من خطأ وقعت فيه، أو من تهمة باطلة وجهت إليها، مع أن أبرز ما تدعو إليه الأديان هو التوادم والتراحم، الذين افتقدتهما العقل الايماني في ترجمة الأديان الى سلوكيات ومذاهب ومصالح وعادات وتقاليد. هل يكون قادراً على ايقاع التنمية في حياة الانسان ما لايعتبر لهذه الحياة قيمة بحد ذاتها تدفعه الى الدفاع عنها؟!

من جهة أخرى، إن تعدد الطوائف والفئات الايمانية والجماعات المؤدلجة، يؤدي الى التكتل بالتالي تعصب الكتل الاجتماعية الايمانية لنفسها، والتعصب والتكتل يدفع الى التناحر لتحقيق فوائد للكتل، والتناحر كما هو معلوم من موانع التقدم والتنمية، فانعدام اللحمة يؤدي أو ينتج عن انعدام الثقة كما يؤدي الى انعدام الاستقرار وتضارب المصالح، وكل هذا من موانع التنمية الحقيقية، وهو حاصل في مناطق كثيرة من العالم.

التنمية امكانيات بشرية واعدة، توظف لإحداث نقلة في واقع قار، ضمن شروط

موضوعية ولا تأتي من عالم الغيب، بالتالي فمن غير الممكن لعقل يسعى لإلغاء
الامكانيات البشرية وسد الطرق أمامها، أن يكون قادراً على توظيف الامكانيات
لإحداث النقلة. لا يستطيع أن يكون الشيء ونقيضه، بالتالي ليس عقل تنمية.

٨ - الثقافة والايمان والتنمية

في المجتمعات الإيمانية تكون السيطرة الثقافية أحد هموم قادة العقل الإيماني،
فالامساك بالنصوص يتيح فرصاً أكبر للإمساك بزمام المجتمع وتوجيه عقول الناس،
فهم يحرصون ألا تكون النصوص مشاعاً، كي يؤول إليهم وحدهم أمر الشرح والتفسير
والتحكم بالتوجيه، فالنصوص دساتير تضبط حركة الناس، ومتى تم التراخي حدث
الانفلاش في الجماعة المؤمنة، سواء كان إيمان هذه الجماعة سياسياً، والنصوص دنيوية،
أو كان الايمان دينياً ونصوصه تنتمي الى عالم السماء.

إن التحكم بالنصوص وتفسيرها، يتيح المجال لتوجيه سلطة المتعالي، وامتلاك
الرأس مال الرمزي الذي تولده وتبشر به هذه النصوص، ومن خلال ذلك تمنح الشرعية أو
تجلب، والتحكم بثقافة المجتمع، يعني الإمساك به من الرأس، كما تعني احتكار هذه
الثقافة وتوارثها عبر تسلسل عائلي وعشائري أي أهلي، أو ما يساير هذا النمط أو
الشكل، وعدم إشاعتها إلا لمن يثبت ترادفه وولاءه، وفي إطار استثمار هذه الثقافة
يفسح المجال لكل أساليب الاحتيال من التبجيل والتفخيم، الى التذلل والتصاغر، الى
الاستقواء والإلغاء، كل ذلك بمسحة من القدسية، وتسود الحيلة والنصب على بسطاء
الناس، فتصبح الأحرار والتمائم والتعاويد والأحجية من أهم الأسلحة في مواجهة
المستجدات والنوازل، واحتياطاً لكل قارعة، وتمنح النصوص ملاذها ودفئها لكل
صاحب حيلة يريد أن يجعل منها شركاً لاصطياد الآخرين، في الوقت ذاته، تصب
الويلات واللعنات حتى تصل حد الاغتيال المادي أو المعنوي، لكل من يبشر، بثقافة
نقدية، ثقافة الانعتاق، وتكون العقوبة أشد لمن يجربون أن يمدوا سلطة عقولهم المنفتحة
والمستنيرة الى خزان النصوص الإيمانية ليرى فيها رأيه، وليخضعها لفهم يأخذ فيه
العقل العلمي والنقدي أي دور، ومعارك المثقفين العرب المتنورين والنقديين أصبحت
مشهورة وعلى كل لسان، فقد خاض هؤلاء حروباً مع العقل الإيماني المتخلف، وأعلن

عليهم الحرم والتكفير، وأفتى بقتلهم، ونفذ القتل ببعضهم، وشردوا، وذنبهم محاولة رفع الوصاية عن حقول تم احتكارها من قبل المؤمنين المزيفين.

لن ينسى المثقفون العرب ماجرى لطفه حسين وعلى عبد الرزاق ومحمد أحمد خلف الله ونجيب محفوظ وفرج فوده ونصر حامد أبو زيد وسيد محمود القمني وصادق جلال العظم وعبد الرحمن الشهبندر، وغيرهم كثير على أيدي أناس لبسوا الدين، وحولوه الى حقول إيمانية ضيقة ضيق أفقهم وضيق فهمهم للدين، بدأوا يتحركون ضمن هذه الحقول واهمين أنهم بذلك يتحركون في إطار ديني رحب.

وامتدت أيدي هؤلاء الى الفنون باعتبارها حقول ثقافية تساهم في تنوير العقول، فأصلوا المسرح والسينما والموسيقا والرقص والفنون التشكيلية والعاملين في هذه القطاعات شواظاً من نار حقدتهم وانغلاقهم، فالعمل في هذه المجالات خروج على الأخلاق واستباحة للحرمان.

لقد تمت مهاجمة المسارح ومنع الأفلام السينمائية واقامة الدعاوى ضدها، ومنع الأغاني ومحاكمة أصحابها، واعتبرت الموسيقى صوت الشيطان، بل كل هذه الفنون اعتبرت شيطانية، والمهاجمون من أصحاب العقل الايماني المتخلف لا يفرقون في كل ذلك بين فن هابط مسف يقف جميع العقلاء ضده، وبين فن يسمو بالنفس الانسانية ويهذب الفكر ويدخلها آفاق الانتصار على كل ما يعوق تقدم البشرية، وينشد كل ما هو جميل وجليل.

هكذا يتم الانتصار الرديء، وتتم مصادرة الثقافة الجادة، ومحاصرة العقول المستنيرة وثقافة الانعتاق التي تنشد الأبحار بأشعة الحرية.

وإذا كانت التنمية فعلاً ثقافياً أولاً، لأنه لا يمكن تصور تنمية لا تنشأ منشأ فكرياً وتتأصل في النفوس حتى تتمكن الارادة من إخراجها فعلاً وحركة، إذاً، لابد من مناخ وتأصيل ثقافي، لإكسابها الطابع الشعبي والانساني الضروري، فكيف تنجو الثقافة من أنظمة الحجر والخطر والاعتقال الايماني؟ كيف تصنع أفقها الانساني في ظل الكبت والظلامية؟

لاشك أن هناك اختراقات وتضحيات وثقافة جادة يغامر أصحابها للافلات من لعنات السماء وخناجر المجرمين، لكن الثقافة لن تكون ثقافة تنمية إلا إذا استطاعت

أن تكون ثقافة شعبية متأصلة في البنية الاجتماعية، نكرر (التنمية هي العلم عندما يصبح ثقافة)، ومفهوم العلم هنا سواء كان في العلوم النظرية أو في العلوم التطبيقية، هو مفهوم العقلنة، مع تنحية الفهم الضيق لكلمة علم جانباً، فمتى سادت قيم العقل العلمي والنقدي وقيم الحرية الفكرية في الانتاج الثقافي بكل أشكاله وألوانه نقول إن مناخنا أصبح مهياً للتنمية.

إذاً، العقل الايماني لا يتيح المجال لتنمية ثقافية هي شرط مسبق لكل تنمية أخرى والتنمية الثقافية تحتاج الى تجاوز العقول المستقبلية، والعقول المعيقة، والعقول المثقوبة هكذا جرى لدى شعوب أخرى، فلم تستطع أوربا أن تبني نهضتها وتقوم بفعل تنموي إلا عندما حدثت من تأثير هذه العقول القاصرة على ساحاتها الثقافية.

وإذا كان تحليلنا للعقل الايماني قد جرى في إطار الأديان السماوية بشكل عام، فإننا نشير الى أن الواقع أتاح للثقافة أن تنمو، بالتالي للتنمية أن تتلمس طريقها في إطار المجتمعات الأخرى مسيحية ويهودية وبعض المجتمعات الإسلامية، بالقدر الذي تم به تهميش العقل الايماني وحصره وليس تهميش الأديان، بما فيها من قوة خلق وتجديد، وقوة ضبط استطاعت أن تسير الحياة وتطوراتها، ولقد انحصر دور الدين والايان في كثير من المجتمعات بين الانسان وخالفه دون وصاية، وبقي الانسان حراً في أن تسير روحه نحو النجاة الأخروية أولاً، وانحسر تأثيرهما عن علاقة الانسان ولقمته، أو الانسان وحاكمه الدنيوي، أو الانسان والطبيعة، وهذا ما أفسح المجال لحرية التفكير والإبداع، وأتاح للناس أن يكافئوا أو يعاقبوا المبدعين على قدر إجادتهم، لأن العقوبات والمكافآت لم تعد تأتي عن طريق السماء وبصكوك الغفران.

الثقافة في المنظور الايماني فعل منغلق وتعصبي، لا يفسح المجال للآخر ويعترف به، بينما الثقافة في المنظور العقلاني فعل منفتح ومتسامح وديمقراطي، إنه فعل تمهيدي ورائز من روائز النهضة والتقدم، ولا تنمية حقيقية بدون ثقافة حقيقية، حرة ومبدعة وسيدة وإنسانية.

٩ - علاقة الايمان بالتنمية الاقتصادية

تظهر آثار التنمية في الحقل الاقتصادي أكثر مما تظهر في حقول أخرى بشكل

مباشر، وذلك عندما تتحول ثمار التنمية الى قيم مادية، والناس ينظرون الى مايرون، ويقدرّون مايقع تحت مداركهم، علماً أن حجم التنمية في القطاعات الإنسانية والمعنوية يجب أن يكون أضعافاً مضاعفة، لكي تثمر ويتولد عنها نتاج مادي مدرك ومقنع. إن عشرات لابل مئات السنين قد تفصل بين التطور العلمي والفكري الذي يظهر في المجتمع، ثقافة، قبل أن تظهر آثاره المادية نتاجاً تكنولوجياً مادياً.

هنا يبدو دور العلوم التطبيقية وتحويلها الى تكنولوجيا، ومدى تقبل المجتمعات لها فعندما تحارب هذه العلوم باعتبارها مادية، أي تنتمي الى الشيطان، ويكفر أربابها لأنها لا تؤدي الى الله كما يقولون، وتلاقي العداء والقطيعة من جمهور المؤمنين، وإذا تم التعامل معها بمنطق السحر والخرافة، فلن يكون دورها دوراً تنموياً في الوقت الذي أثبتت الشعوب التي أفسحت المجال لهذه العلوم أنه لا حدود لقدرتها على التنمية الاجتماعية والإنسانية، علماً أن العقل الايماني ينظر الى سلبياتها دون أن يدرك إيجابياتها. فالتنمية والتطور وتجاوز الواقع مرتبطة ارتباطاً وثيقاً باستثمار تطور العلوم الطبيعية والتطبيقية.

وفي مجالات أخرى مما أتاحه التطور الاقتصادي العالمي خاصة في ظل مرحلة العولمة، كمجال الاستثمارات المالية، وتوظيف الفضاء وغيرها، نجد أن للعقل الايماني تحفظات كبيرة، ففي مجال الاستثمارات المالية، نجد هذا العقل يدور في فلك الربا تحريماً وتحليلاً وتتباين المواقف من هذا المفهوم الذي يتم التحايل عليه من قبل أرباب هذا العقل عن طريق إنشاء الشركات والبنوك الإسلامية، وهي لا تحمل من الاسلام وقيمه سوى الاسم، بينما تعمل حسب منطق المصلحة والربح.

يبدو التناقض بين الجماعات المنخرطة في إطار هذا العقل، من خلال قبولها ورفضها لمسألة الفائدة (الربا) التي تعد من أعمدة الاقتصاد العالمي الحديث، فالصهيونية التي تعد إحدى الجماعات المتمتعة بالعقل الايماني بجداره، هي وريثة العقل الربوي اليهودي، وهي تطور الاقتصاد الصهيوني عن طريق الاستثمارات المالية غير النظيفة، فمسألة تبييض الأموال يقال أن الحاخامات الصهاينة يشرفون عليها، ولا يجدون في ذلك بأساً لأن تراثهم في هذا المجال حافل، ويبدو أن مستقبلهم واعد، فالأموال سواء كانت ناتجة عن المخدرات أو تجارة الجنس أو مسروقة من قوت الشعوب،

لا يدقق في مصادرها التي تتنافى مع القيم الدينية قبل دخولها الى البنوك الصهيونية. لاننسى أن أحد الركائز الأساسية للعقل الايماني بشكل عام احتقار المادة لصالح إعلاء شأن الروح، فالمادة موقع الخطيئة والدنس، والمال وسخ الروح، ولا يبقى الإيمان نقياً وصاحبه يتقلب في النعيم، إذ لا يدخل غني ملكوت الله حتى يلج الجمل في سم الخياط، والفقر أحد المرتكزات الايمانية، والفقراء أول المؤمنين المصدقين بالأنبياء، لذلك كان تمجيد الفقر أحد أشهر الأدبيات الايمانية والدينية، وزيادة ثروة المؤمن المادية يتناقض مع صحيح إيمانه وصادقه، والتنمية في هذا العصر تقوم على أساس مادي، بل على أساس الزيادة المادية في ثروة الأفراد كافراد، فكيف يمكن أن يزال هذا التناقض؟. بالنسبة لأكثر المؤمنين عبر التاريخ، حلوا هذه المشكلة بالتفريق بين الفكر والممارسة، بين المعتقد وتطبيقه، إذ آمنوا بشرور المادة وما تؤدي اليه من خبائث إيماناً نظرياً وأفرطوا في حيازتها وتنميتها والتنعم بها، مالاً وممتلكات وطعاماً وجنساً، وعملوا على مراكمة الثروة والتجارة بالمال، أي الاعتماد على تنمية الثروة عن طريق الربا.

حتى يومنا هذا نجد الدعوة الى البعد عن الدنيا وملذاتها والتقشف، وشراء الآخرة بالدنيا ومتاعها الفاني، لكن الثمن في المحصلة يجب أن يصل الى مؤدجى العقل الايماني ونواطيره. وهنا يبرز التناقض بين العقيدة والسلوك مجدداً.

إن التوجهات الايمانية بتركيزها على الجانب اللامادي في طرحها الفكري، قد ساهمت في إيجاد حلقات إيمانية زهدية ترغب عن الدنيا أو تدعو لنبذها، وتلتزم جانب الزهد والتصوف، وتبرز دور التخلص من عفن المادة في الخلاص الروحي الأخروي، وكان هذا هو البلسم الذي تداوى به جراح المقهورين والمغلوبين والجائعين، وقد أفسح هذا في المجال لاستغلال هؤلاء، فهروب بعض الناس من المادة، وزهدهم وتركهم السعي الحثيث إليها واقتناعهم بأن هذه قسمتهم ونصيبهم في الدنيا، وأن الآخرة خير وأبقى، وهي التي ستعوض عن كل القهر والحرمان، وستكون بلسم الجراح، كل هذا سيفسح المجال لمزيد من الاستغلال، إذ أن ركون البعض الى النصيب الضئيل من الدنيا، الذي هو نصيب مقدر سلفاً سوق لن يدفعهم نحو المزيد من الجهد والعمل، إذأ سوف لن يدفعهم نحو المزيد من دفع الظلم والحيف ومواجهته، بالتالي سيدفع البعض الآخر لاستغلال

الفرص وضعف الآخرين وعجزهم، وإلى استثمار الأجواء النفسية المهيأة للانصراف عن الدنيا، سيدفعهم لزيادة ثرواتهم وتحقيق أطماعهم بتكديس الثروات، مما يجعلهم يملكون مقدرات المجتمع المادية، والسيطرة على ثرواته، بالتالي التحكم بوجهة سيره وقيادته وتوجيهه لأنهم الأقوى، وهذا يتنافى مع قيام تنمية اجتماعية حقيقية. كل ذلك تحت نظر حراس الايمان ومباركتهم، فهم غالباً مايتلقون نصيبهم من هذه الثروات التي يكدها الأغنياء مستغلين جهد البائسين، إذ من بعض الاعتراف الذي يقدمه الأغنياء للقادة الإيمانيين بما يشيرون من أجواء الرضا والقبول والقسمة بين الدنيا والآخرة، أي تأمين الأرضية الصالحة للاستغلال فكرياً وعقيدياً، أن يقيموا لهم الولائم ويقدموا لهم الأعطيات ليصبحوا شركاء الاستغلال للطبقات الكادحة وتكديس الثروات واختلال الموازين الاجتماعية، دون أن يكون هناك نقص في التبرير السمائي، فكل شيء مقسوم والله يرزق من يشاء بغير حساب.

مرة أخرى وليست أخيرة تضاف الى كل ماتقدم، نتأكد بأن العقل الايماني عاجز عن قيادة أو مواكبة عملية تنمية حقيقية، لأن ذلك قابع في أعماق بنية هذا العقل وتركيبته الفكرية، وأسلوب عمله بين الجماهير. وما يجب أن يكون واضحاً لا لبس فيه هو أن التنمية في أي مجتمع وجدت، هي بنى فكرية وفلسفة حياة تخضع لها شؤون الحياة كبيرها وصغيرها في البيئة موضع التنمية، وهي بنى وفلسفات منفتحة على قيم الحياة المتغيرة، وموضوعاتها المتناوبة والمتعددة، تقبل التعاطي مع الجديد قبولاً أو رفضاً، كما تعمل على استمرار ماهو جدير بالبقاء من عناصر التراث، أي ماهو عقلاني، وتنحي جانباً ماهو غير جدير بما يعوق تقدم المجتمع وتنميته.

هذه البنى الفكرية والفلسفات تنعكس في البناء المادي والتنمية بمستوياتها الأخرى، فتكون بمثابة الناظم للتطور والتغيير، والضابط للانتقال من وضع الى وضع آخر، محافظة على التوجه الى الأمام والتقدم، مانعة من العودة الى الوراء، مع الاحتفاظ بإمكانية المناورة. أما أن نفهم التنمية أنها مانلحظه من زيادة استحواذ قيم الاستهلاك المادي والاستثمار في مجاله فقط، فإنها تكون كمن يبني بدون أساس ثابت، وعلى غير خطة وقاعدة ملحوظة. وما أود الإشارة إليه، هو أن الانسان بقيمه وحقوقه التي أقرتها الشرائع، السماوي منها والوضعي أيضاً، وكما تعارفت عليها

الشعوب وتعاهدت على احترامها، يجب أن يكون العمود الفقري لأية تنمية محتملة ومخطط لها.

من هنا نرى أن ما سبق وأشرنا إليه من أن الرحمة سمة من سمات العقل الإيماني، وهو يتجلى بها تجلياً واضحاً، لكنها لا تسعفنا في تلمس طريق الخلاص والتنمية، فمنطق الرحمة المتبع يقطع مع حل المشاكل الحل الجذري المطلوب، إذ ليس المطلوب تأمين بعض متطلبات الحياة الضرورية بين حين وآخر لفقير أو مجموعة فقراء، وليس الحل إيجاد المأوى لنسبة ضئيلة من العجزة أو الأيتام والمشردين، أو المصحات لبعض المرضى، فهذه تقع في باب المواساة المؤقتة، وأحياناً في باب الدعاية الإعلامية، أو إسكات بعض الموسرين لنداء بقايا الضمير بتقديم بعض المعونات لمحتاج ما، وهي لا تنهي مشكلة، بل تعمل عمل المخدر الذي ينسي الألم ويبعده فترة وجيزة، ليعود أشد وأشرس. هذا ليس معناه الدعوة لتغيب منطق التراحم من الحياة الاجتماعية، إنما القصد أن الكثير من المشاكل يعجز هذا المنطق عن حلها، وتدخله يوحى بأنها وجدت طريقها إلى الحل وبذلك نخدع أنفسنا.

الحل يكون بإيجاد الأرضية الصلبة والمتينة لحياة اجتماعية مستقرة تراعى فيها حقوق الإنسان بشكل يفسح المجال لتحقيق إنسانية الإنسان وحريته، بإيجاد العمل للقادر مهمة التشريعات والدول على أن يكون عملاً شريفاً وكرماً، وإيجاد أرضية مناسبة لتطبيق ضمان اجتماعي فاعل لا يمين به أحد على أحد، ولا يجد فيه أحد نفسه أنه يقف موقف المستجدي لحقوقه، متناسين كرامة هذا الإنسان وكبرياءه، ومفسحين المجال لبعض المتباهين ممن أثروا على حساب المجتمع للتباهي والادلال بجليل أخلاقهم، واستغلال هذا المنطق لتحقيق المزيد من الأرباح. لذا يجب أن نشير إلى أن عقل الرحمة لا يتطابق مع عقل التنمية، قد لا يتوافقان بنفس القدر الذي نتخيله من التوافق، وفي الكثير من الأحيان يقطعان مع بعضهما، لن يكون عقل الرحمة بديلاً لعقل التنمية ومنطقه. وهذه محطة أخرى تضاف إلى ما سبق نؤكد من خلالها أن العقل الإيماني بمنطقه السائد، ليس القادر على تخليق عملية تنمية فاعلة.

١٠ - الرؤية الایمانیة للمرأة فی علاقتها بالتنمية

تمت الإشارة فیما سبق الى الوضع الاجتماعی الذي وضعت المرأة فیہ تحت تأثير العقل الایمانی، والبارز أن هذا الوضع مختلف باختلاف البیئات الایمانیة، كما باختلاف الأزمنة، إلا أنه من الواضح تماماً ارتباط وضع المرأة بقناعات الناس المتأتیة من إیمانهم الدینی. ولا أظن أن موضوعاً من الموضوعات التي ارتبط بها هذا الایمان قد حافظ على درجات تخلفه المسیئة للمجتمع، وبالتالي المؤخرة له كما حافظ موضوع المرأة.

فعلى مستوى المرأة كشخص وکیان لا على المستوى الاجتماعی الذي تمت مناقشته سابقاً، نرى أن صورتها فی العقل الإیمانی مقرونة الى الشیطان الذي هو نقیض الرحمن، یعنی أنها تحیل الى الشر المطلق الذي یعبر عنه الشیطان - المرأة. إن الربط بین الشیطان والمرأة فی الفكر الایمانی والأدبیات الموروثة عنه كما مر سابقاً، یحیل الى سلبیة مطلقة، باعتبار أن الشیطان هو الممثل المعتمد للشر المطلق فی الفكر الدینی والایمانی، وهذا ما یشكل عائقاً بین المرأة والتنمية باعتبار التنمية تحیل الى معنی إیجابی.

المرأة مصدر الغواية منذ حواء، إذاً، هي مصدر تعطیل إمكانات النمو والانطلاق عند الرجل لأنها تغويه وتحرفه عن طریق الصواب، وتشل قدراته، وتمنعه من أداء دوره، وعندما یجتمع الرجل والمرأة یكون الشیطان ثالثهما، لأن المرأة ربیبة الشیطان، فهو مرافقها، وهو ساكنها، وهنا نذكر بالإشارة السابقة، حیث كانت محاکم التفتیش تبحث عن الشیطان فی جسد المرأة حتی تجده، ثم إن القدرة الإلهیة تعطّلها المرأة وتصادرها بتعاطيها السحر، ومشهورة عملیات ملاحقة الساحرات فی الفكر الایمانی المسیحي فی العصور الوسطی، ولا یزال بعض هذا الموروث یعشش فی أذهان الكثير من المؤمنین. إن صورتها كانت تجعل الناس یرون وكأن الفضیلة نزاع وصراع بین المرأة والمسیح كما عبر ول دیورانت، ولا تزال بقایا هذه الصورة مسمترة الى یومنا هذا.

النظرة الایمانیة فی عمقها وفي أساس وجودها إذاً لاتتصلح مع المرأة، ولا تعطیها أي دور إیجابی إلا فی كونها الأداة التي تحفظ استمرار النسل ووجود النوع من جهة، وعامل استقرار وكبح للرجل، كونها عامل تفریغ للشحنات فی الحالات التي یحتاج

الرجل الى ذلك، من هنا كان زواج الرجل غير المحدود بحد، لأن آلية الطلاق قد أتاحت له ذلك، يتزوج ثم يطلق ثم يتزوج ثم يطلق... وهكذا، كما أن نظام التسري من الآليات التي تجعل الرجل صاحب الحق في اعتبار المرأة موضوع المتعة وتفريغ الشحنات، وقد تفاوت وجود مثل هذه الآليات بين الأنظمة الإيمانية في الأديان، لكن من سمح له دينه، وشروحات وتفسيرات الرجال لهذا الدين، بهذا المكسب، حافظ عليه أكثر من أي موضوع ديني آخر بل وطوره.

المرأة كما لا يخفي في بعض الأنظمة الإيمانية السائدة في بيئاتنا، يجب أن تحبس في منزلها وإذا اضطرت للخروج، فإنها يجب أن تنتقل داخل سجنها الذي هو الحجاب والقواعد الصارمة للحركة والسلوك، فكل شيء محسوب ومراقب من النظرة الى الكلمة الى الخطوة... وغير ذلك، طبعاً كل ذلك لاخوفاً عليها كما يبدو للوهلة الأولى بل خوفاً على الرجل من خطر غوايتها، وما يمثله وجودها أو منظرها من شر وأذى للرجل.

إذن القيمة المصونة، التي يحافظ عليها الحجاب، ليست المرأة، وإنما الرجل الذي يخاف عليه من الغواية، فيبرزه هذا العقل ضعيفاً (يشارك في حالة الضعف مع المرأة) تمكن غوايته وحرفه عن جادة الصواب عن طريق رؤيته للمرأة سافرة، وهذه النظرة تنطوي على سلبية واضحة في الرجل وعدم ثقة به، مثلما تنطوي على النظرة السلبية للمرأة التي لا بأس أن يضحى بها حماية للرجل من الغواية، فالقيمة الأساسية ليست لها. ألم تفعل بجده آدم الأفاعيل فتخرجه من الجنة التي أسكنه الله فيها، بتأمرها عليه مع الحية؟.

هنا نصل الى إشارة أساسية من الإشارات التي توحى بتنمية معاقة انطلاقاً من اعاقة أدواتها، فلا تنمية بدون الإنسان، ولاتنمية خارج إطار الإنسان ومتطلبات حياته التي هي الغاية في أساس كل تحرك لتطوير الحياة. هذه الإشارة تكمن في شلل المجتمع، فنصفه الذي هو المرأة في نظر المؤمنين الذين يعتمدون الخط الارثوذكسي (الصراط)، ضعيف وهو الى ضعفه يجب أن يبقى حبيس المنزل، وجبيس الحجاب، والنصف الآخر، موضع الغواية وإرادته مشلولة، إذا كانت في مقابل جسد المرأة، هذه هي الصورة الإيمانية.

هل يمكن لمجتمع على مثل هذه الدرجة من الشلل أن يصنع تنميته؟! .
الوضع المشار إليه يؤدي الى أخطار كبيرة على عملية التنمية، باعتبار وضع
المرأة، منها:

١ - حرمان الحياة والمجتمع من الطاقات الخلاقة للمرأة، ومن لمستها وذوقها في
بناء وتطوير وجود إنساني مشترك للجنسين ومغتنٍ بنظرتيها معاً وجهدهما معاً.

٢ - الخطر الأكبر يتمثل في التأثير السلبي على الأجيال التي هي مناط التنمية
وأمل المستقبل، فالكائن النسوي المستبعد والمستبعد والسجين لن يكون قادراً على
تربية جيل حر باعتبار أن فاقد الشيء لا يعطيه، وبما أن الأطفال يتلقون الحياة أول
ما يتلقونها، ويأخذون مبادئها عن أمهاتهم لوجودهن معهم في البيت باستمرار، ولقرب
التلقي وسهولته عن الأم، لذا فإن الأجيال التي تترى على يد مثل تلك الأمهات
اللواتي لا ينعمن بالحرية، لا جسدياً ولا فكرياً ولا اقتصادياً، ستعاني من إعاقة ليس
من السهل تجاوزها، كما أن الأمهات لن يكن قادات على تربية أجيال تستطيع تجاوز
شروط إعاقتها المادية والمعنوية، وإنسانية الإنسان لا تفتح خارج أجواء الحرية، إذاً
سيتم نقل العبودية من الأم الى أطفالها، وتكون بذلك قد فشلت في الحقل الأساسي
الذي قصرت جهود المرأة وقُشرت عليه وهو التزام بيتها وتربية أطفالها، ويكون الضرر
الحاصل من إصرار هذا العقل الايماني على انقطاع المرأة عن الخارج، وركونها الى بيتها
جاء بنتائج سلبية وأعاد إنتاج الإعاقة.

٣ - الحفاظ على نفسية الصغار والذل والخضوع للرجل خوف الطلاق وما يحمله
المستقبل من عوز، أو اتهامات، بالتالي فإن هذه الاستكانة تفعل فعلها السلبي في
الحياة، حيث تدفع المرأة الى التبرج للتعويض عما تفتقده، ولتبقى حيويتها وشبابها
عنوان وجودها كما تتطلب رجولة الرجل ونزواته وهذا ما يدفعها الى الإغراق في وسائل
الزينة وهي في سجنها، على ما في ذلك من خطر على إمكانات زوجها وبيتها المادية،
وعلى صحتها الجسدية والنفسية، كما أنه تثبت لدونيتها، وهو بالنسبة للفتاة التي
تنتظر الزواج أو المرأة المتزوجة التي تخاف الطلاق تغيب لعقلها في الموقع الذي يتم
فيه إبراز جسدها، وملاحظ ما في كل هذا من إعاقة التنمية الحقيقية.

٤ - هذا الوضع يعطي مبدأ القوامة بعداً أكثر خطراً فالمرأة تشارك في الاستهلاك

بشكل واسع ولا تشارك في الانتاج كما يريدونها المؤمنون، وحاجتها الى الرعاية والإعالة يذهب بجزء كبير من جهود الرجل، هذه الجهود كان يمكن توفيرها لو أتيح للمرأة إعالة نفسها، ويمكنها رفد جهود الرجل في التنمية من خلال مشاركة فاعلة في العمل والانتاج.

٥ - إن شخصية المجتمع هي محصلة طبيعية لشخصيات أبنائه (الرجال والنساء)، وسيبقى المجتمع مهزوزاً وقاصراً وعاجزاً، ما لم تتحقق له شروط نمو حقيقي لا تغيب فيه جهود أية فئة ولا تشعر فيه بعض خلاياه بقلّة الجدوى، فالتنمية عملية تكاملية، من هنا كانت ضرورة إطلاق امكانيات المرأة وتأمين المناخ الملائم لتحقيق شخصيتها الفاعلة.

هذه الأخطار وغيرها ناجمة عن الوضع غير الطبيعي الذي وضعت فيه المرأة، وطبقت عليها القواعد الصارمة في الحفظ والحراسة من قبل عقل إيماني مغلق، وهذه العراقيل وغيرها ذات أخطار واضحة على النهوض والتنمية، لقد تبين أن التنمية من مفاعيل الانسان (الرجل والمرأة) في المجتمعات التي حققت مثل هذه التنمية، كما أثبتت أن تغيب أي جهد ممكن يعني عرقلة التنمية بالتالي عرقلة نهوض المجتمع.

هنا نشير الى التراجع الكبير عما أتاحته الأديان للمرأة، علماً أنها بقيت بعد الكثير من عطاء هذه الأديان لها بحاجة الى الكثير، وبدل أن تطمح الى المزيد من الحرية في إطار هذه الأديان، فإن العقل الإيماني سعى ليفقدها بعض المكتسبات التي حققتها، وقد نجح ذلك الى حد ما، فالأخبار تشير الى أن المرأة المسلمة كانت تستطيع في المراحل الإسلامية الأولى أن تقبل الزواج أو ترفضه، كما كانت تستطيع أن تشترط الشروط التي تناسبها للزواج من رجل ما، ومع افتقار السجلات لذلك وعدم نقل أخبار الناس إلا من كان من الشريحة الاجتماعية العليا، فإن أخباراً معينة كافية لإطلاعنا على المناخات المتوفرة. فالخليفة عمر بن الخطاب عندما طلب الزواج بأم كلثوم ابنة علي بن أبي طالب، لم يقدم أبوها على تزويجها (والزوج هنا هو الخليفة) إلا بعد موافقتها ورؤيتها لعمر^(٢٢)، وسكينة بنت الحسين إحدى حفيدات الرسول، كانت تشترط في زواجها، فقد شرطت عند زواجها من زيد بن عمر بن الخطاب «أن لا يغيرها ولا يمنعها شيئاً تريده وأن يقيمها حيث خالتها أم منظور ولا يخالفها في أمر تريده»^(٢٣). وكانت

قد تزوجت عدة مرات وانفصلت عن الأزواج الذين لم ينالوا إعجابها. كيف تم التراجع عن هذه المكتسبات التي حققتها المرأة المسلمة في عصر لا تشوبه الشوائب في نظر المؤمنين، ولا يشار إلى نقص أو انحراف يعتريه. أنه زمنهم المثال؟!.

إن إعطاء المرأة دورها الاقتصادي الفاعل، وإزالة العقبات والقيود التي تكبل حريتها وتخرجها من شرطها الانساني، ولتسهيل أمر تعليمها بقدر ما تتيح إمكاناتها العقلية اسوة بالذكر، وإزالة القيود الاجتماعية من طريق زواجها، وحريتها في اختيار الزوج وطريقة وشروط الزواج، والتحرر من قيود المهر المرهقة، ومخاطبة عقل المرأة وذوقها وأحاسيسها، وليس جسدها وشهواتها وغرائزها، كل ذلك من شأنه أن يصنع المناخ الذي تستطيع المرأة فيه أن تساهم في التنمية بمعناها الايجابي الذي يتوقف عليه تطور المجتمع.

وإذا علمنا أن الكثير من القيود التي نطالب بكسرها مرتبطة بشكل أو بآخر بقناعات وعادات ومصالح العقل الايماني، وأصبحت جزءاً من بنيته سواء كان أصلها الأديان أو غيرها، فإننا نعود للتأكيد إن هذا العقل يشكل إعاقة كبيرة للتنمية، ويبدو أن تجاوز الواقع الموصوف، هذا التجاوز الذي ربطنا حدوث التنمية به غير واقع في المدى المنظور وبالسريعة الكافية لإنجاز اللحاق بشعوب نطالب باللاحاق بها باللاحاق.

١١ - غياب البرامج التنموية للعقل الايماني

في النهاية لو استسلمنا لمقولات المؤمنين ودعواتهم وتأكيداتهم، والتي تشير إلى أنه لا تنمية خارج إطار الأديان، وكل تنمية تقوم على أسس وضعية هي تنمية فاشلة، لن تؤدي إلا إلى مزيد من الضياع والتشتت، لأنها تغفل عوامل كثيرة تقوم على أساسها بنية المجتمعات، وأهم تلك العوامل ما يتعلق بالجانب الروحي الذي أبعدته عن الساحة، السيطرة المادية، والربحية التي تقاس بكميات الأموال المتحصلة، بالتالي تقاس بها نجاحات التنمية. لكان علينا أن نبقى حيث نحن.

هذه الادعاءات تأتي في إطار الرد على السيطرة المادية والجشع الذي لا يراعي قيوداً مما يؤدي إلى العنف والسيطرة على مقدرات الشعوب وإغفال الكثير من الجوانب الإنسانية في الحضارة الحديثة، ولا شك أن هذه الانحرافات موضع الادانة، ونضم في

هذا صوتنا الى صوت العقل الايماني، ونرى أن لاتنمية خارج الشرط الإنساني. لكن الحل لاتجلبه الادانة، والبديل لما هو حاصل ومدان لاتجلبه النصائح والارشادات الى ضرورة التمسك بالقيم، وهي قيم متغيرة ومتبدلة حسب الظروف، وهي ليست محل اتفاق من قبل جميع المجموعات الإيمانية. إن المطلوب طرق عملية تنطلق من الواقع لا من النصوص (مع الإشارة إلى احترامنا للنصوص والدعوة إلى الحفاظ عليها وعلى كرامتها) التي تزجها حيث يمكنها أن تقدم شيئاً وحيث لا يمكنها، مما يفقدها مصداقيتها.

وبالعودة إلى طروحات وتنظيرات مؤدجلي هذا العقل، نجد أنها تفتقد البرامج الواقعية البديلة للبرامج التي تتم إدانتها باستمرار، وما تتضمنه الكتب السماوية ينضوي تحت المبادئ العامة وأخلاقيات التعامل، وهي لاتعدو أن تكون نواظم للعمل لايضير الأخذ بها لكنه لا يقدم الحلول الكافية.

أما التنمية المعاصرة فإنها تحتاج الى مبادئ وخطوط عامة، كما تحتاج الى برامج تفصيلية لاتغفل شاردة ولا واردة، كما تحتاج الى مزيد من البرامج لتطور برامجها وحمايتها وزجها في ميدان المنافسة.

إن إعلان كافة الاتجاهات العلمانية عن برامجها التنموية، ماجرب منها وما لم يجرب، وحرصها على الزج بها في سوق المنافسة، يفرض على الاتجاهات الايمانية أن تكون حاضرة في هذا السياق إن كانت صادقة في توجهها نحو التنمية، وعليها أن تحضر بشروط السوق لابتساق النصوص. فالاشتراكية لها برامجها، والليبرالية وورثها العولة لها برامجها، وغيرهما كذلك، وهي برامج تجدد من يسهر عليها ويطورها باستمرار مراعاة لتطور الحياة وتجدها، دون الالتفات كثيراً الى مقدساتها التي يجب ألا تنتهك، وقد أثبتت الأيام أن البرامج الجامدة الباردة، لا مكان لها في سوق المنافسة، وهذه مبادئ تم تأكيدها بسقوط التجربة الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية، لأن السوق لاتعترف بالمقدسات، ولا تحرسها الأخلاق.

إذن، إن وجود مبادئ عامة لا يكفي، ووجود مبادئ وأفكار مقدسة لا يمكن التغيير والتطوير فيها لايصح، لسقوط المقدس والثابت من عالم المنافسة.

هل نعود الى القول أن الأطر الإيمانية الموروثة، المقدسة والجامدة، والجزئية أيضاً

ليست سبيلنا الى المستقبل إذا أردنا العبور إليه، على الأقل في الظروف الحالية وشكلها الراهن؟!.

الناس لا ينطلقون من العداء المسبق للعقل الإيماني، لكنهم غير جاهزين للاستسلام الى ما لا يعرفون أين يقودهم.

كيف تتخلق البرامج التنموية إذا كنا لانزال نخلق ونستحضر برامج التعصب والفرقة؟ «فبعض الحنفية يفتي بأن الحنفي لا يجوز له أن يتزوج بالشافعية أو بنت الشافعي، لأن إيمانها مشكوك فيه، وبعضهم أجاز على أنها بمثابة كتابية أو قياساً عليها!!!».

وسئل الشافعي عن طعام وقعت عليه قطرة نبيذ، فقال: يرمى لكلب أو حنفي... وكان من أثر ذلك، أن أقيمت في الماضي أربعة محارِب في المسجد الحرام لصلاة الجماعة للشافعي، والحنفي، والمالكي، والحنبلي... ليصلي أتباع كل مذهب خلف إمام منهم»^(٢٤).

هوامش الفصل السادس

- (١) - د . فاطمة المرئيسي ، ما وراء الحجاب ، دار حوران للطباعة والنشر والتوزيع ، طبعة أولى ١٩٩٧ ص/ ٣٢ وما بعدها .
- (٢) - حسن إبراهيم أحمد ، مجلة الطريق ، مقال بعنوان : الطريق إلى الديمقراطية . مسار تاريخي . ممارسة نضالية . . آفاق . العدد / ٢ / أيار حزيران ١٩٩٦ .
- (٣) - د . صادق جلال العظم ، مقال بعنوان : الإسلام والعلمانية ، محاضرة أقيمت في الأسبوع الثقافي لقسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية في كلية الآداب - جامعة دمشق - نيسان ١٩٩٥ ، نشرت في مجلة النهج عدد / ٤ / صيف ١٩٩٥ ، كما نشرت في مجلة الطريق عدد / ٤ / تموز + آب / ١٩٩٥ . ونشرت جريدة الثورة السورية مقتطفات منها في عدد رقم / ٩٧٠٤ / تاريخ ٧ / ٥ / ١٩٩٠ .
- (٤) - خليل عبد الكريم ، شدو الرابية بأحوال مجتمع الصحابة - السفر الثالث - الصحابة والمجتمع - دار سينا للنشر ، طبعة أولى / ١٩٩٧ ص ١٩٤ نقلاً عن كتاب من عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقزويني ص ١٢٤ ، دار الشروق العربي - بيروت .
- (٥) - خليل عبد الكريم ، المرجع السابق ص ١٩٥ نقلاً عن تفسير ابن كثير جزء ١ / ١ ص ٤٥١ طبعة دار الشعب بمصر .
- (٦) - المرجع السابق ص ٢٠٠ نقلاً عن أعلام النبلاء للحافظ الذهبي ١٩٦ / ٢ ، وحلية الأولياء لأبي نعيم ٤٩ / ٢ .
- (٧) - محمد جمال باروت ، يثرب الجديدة ، رياض الريس للكتب والنشر طبعة أولى ص ٤٠ نقلاً عن كتاب سيد قطب ، معالم في الطريق ص ٨٠ .
- (٨) - المرجع السابق ص ٤١ .
- (٩) - د . أنيسة الأمين ، سلسلة « قضايا وشهادات » ، الحداثة / ١ / دار عييال صيف ١٩٩٠ ص ١٠٣ .
- (١٠) - د . محمد عابد الجابري ، الديمقراطية وحقوق الإنسان ، سلسلة الثقافة القومية - قضايا الفكر العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، طبعة أولى . بيروت ، تشرين الثاني / ١٩٩٤ ص ١٧١ .
- (١١) - د . عبد الرزاق عيد ، مجلة النهج ، عدد / ٤ / ٣٩ / صيف ١٩٩٥ ص ١٤٣ .
- (١٢) - د . نصر حامد أبو زيد ، نقد الخطاب الديني - سينا للنشر ، طبعة أولى / ١٩٩٢ ص ٩ .
- (١٣) - د . عزيز العظمة ، العلمانية من منظور مختلف ، مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت طبعة أولى ١٩٩٢ ص ٩٨ .
- (١٤) - المرجع السابق ص ٣٧ .
- (١٥) - انظر ، حوارات قصي صالح الدرويش مع راشد الغنوشي - لندن ١٩٩٢ .
- (١٦) - د . صادق جلال العظم ، المرجع السابق .
- (١٧) - المرجع السابق .
- (١٨) - المرجع السابق .
- (١٩) - الإبداع من نوافذ جهنم ، كتاب الناقد ، رياض الريس للكتب والنشر طبعة أولى تشرين الأول ١٩٩٥ ص ١٢٣ ، وما بعدها .
- (٢٠) - د . علي أوميل ، السلطة الثقافية والسلطة السياسية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت طبعة أولى ١٩٩٦ ص ١٧ . أيضاً ه . محمد عابد الجابري ، مجلة المستقبل العربي عدد ٢١٩ ، ٥ / ١٩٩٧ .
- (٢١) - مجلة عالم الفكر ، المجلد / ٢٢ / العدد / ٢ / من مقال للدكتور ، أحمد صبحي .
- (٢٢) - أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي القاسم التجاني ، تحفة العروس ونزهة النفوس ، دار الجيل ، بيروت / ١٩٨٩ ص ٧٥ .

- (٢٣) - د . فاطمة المرئيسي ، الجنس كهندسة اجتماعية بين الواقع والنص ، نشر الفنك طبعة ثانية / ١٩٩٦ ص ٥٢ .
- (٢٤) - رشاد سلام ، تطبيق الشريعة بين القبول والرفض - سينا للنشر - القاهرة + مؤسسة الانتشار العربي بيروت . طبعة أولى / ١٩٩٧ ص ١٥٩ . نقلاً عن : عبد المنعم النمر ، الاجتهاد ، الهيئة المصرية للكتاب ص ١٩٢ .

فهرس

5	- إهداء
7	- مقدمة
15	- تمهيد
57	الفصل الأول: سمات العقل الإيماني
65	١- الاتهامية
68	٢- هو عقل تسليمي
70	٣- فقدان الشرعية
73	٤- ضيق الأفق والأحادية
75	٥- التسلط والشمولية
78	٦- لا يعرف العالم معرفة علمية
80	٧- التلون والتقلب
83	٨- الجماعية
85	٩- اللاتاريخية
87	١٠- الرحمة
93	الفصل الثاني: آليات العقل الإيماني
100	١- استغلال المقدس
103	٢- الأدلجة
106	٣- توظيف الخوارق والخرافة
110	٤- توظيف السلطة ومهاجمة الخصوم واستبعادهم

١١٤	٥- المواجهة مع العلم
١١٧	٦- الانتقائية والانتقال من الخاص إلى العام وبالعكس
١١٩	٧- الانخراط في الموروث
١٢٢	٨- المحافظة على الشكليات.....
١٢٥	٩- الرحمة والتسامح والأمل.....
١٢٧	١٠- الجهاد.....
١٣٣	الفصل الثالث: تجليات العقل الإيماني.....
١٣٨	١- التعالي.....
١٤١	٢- العنف.....
١٤٦	٣- الدروشة والتراحم
١٥٠	٤- الموقف من الفنون
١٥٣	٥- التناقض
١٥٧	٦- المحافظة على الموروث.....
١٦٠	٧- التخلف ومواجهة العقلانية
١٦٥	٨- الموقف من المرأة
١٦٩	٩- الاهتمام بالمظاهر والشكليات
١٧٢	١٠- الانقياد السهل
١٧٧	١١- إخضاع الطبيعة والسيطرة عليها
١٨٥	الفصل الرابع: الحضور التاريخي للعقل الإيماني
١٩٢	١- في حقل اليهودية
٢٠١	٢- في حقل المسيحية
٢١٣	٣- في حقل الإسلام
٢٣٥	الفصل الخامس: العقل الإيماني وصراع الأزمنة.....
٢٣٩	١- الحاضر فاسد مفسد.....
٢٤٦	٢- الماضي والحنين إلى التدشين.....
٢٥٣	٣- المستقبل والوعد بالخلود.....

261 الفصل السادس: العقل الإيماني والتنمية
265 ١- التنمية وعقدة الإغلاق
268 ٢- التنمية رهينة النظرة إلى الزمن
272 ٣- جدلية العلم والتنمية
277 ٤- التنمية ومقومات النهضة الحديثة
290 ٥- دور الفكر المغلق والفكر المنفتح في التنمية
293 ٦- التنمية في علاقتها بالسياسة
297 ٧- الرؤية الإيمانية للمجتمع والتنمية
301 ٨- الثقافة والإيمان والتنمية
303 ٩- علاقة الإيمان بالتنمية الاقتصادية
308 ١٠- الرؤية الإيمانية للمرأة في علاقتها بالتنمية
312 ١١- غياب البرامج التنموية للعقل الإيماني

لقد فتحت الأديان السماوية على آفاق رحبة، وكانت ثورات أصيلة، عبرت عن حراك اجتماعي ما كان له أن يقر، تلبية لمتطلبات الحياة. وكانت الارهاصات تعبيراً أصيلاً عن الحاجة الى التغيير، ثم إن الولادة كانت طبيعية، واستغرقت الوقت الكافي واللازم ليخرج المولود معافى وقادراً على الاستمرار.

كان انبثاقها وصعودها مبشراً بقدراتها على أن تضم الى منظومتها كل ماهو جميل وتقدمي، وتدرجه في حركتها المتجهة صعوداً والى الأمام، والقادرة على أن تتجاوز كل المعوقات، وتبطل مفعول كل العراقيل. لكن، وما إن كتبت لها الغلبة، حتى انقلب العقل الثوري التغييري، الى عقل قارٍّ ومحافظ ومعاد لكل إمكانيات التغيير ودعوته، وربطها بالماضي بدل التطلع الى المستقبل.

كيف افتقدت الأديان هذه الطاقات الخالقة، وهذا الاندفاع، وتحولت الى عامل كبح وتراجع؟ لماذا لم تعد ناظمة إبداع وخلق؟ وهل تكفي الإعلانات النظرية بأن الدين الفلاني صالح لكل زمان ومكان؟.

إننا اليوم أمام جوابين:

الأول: وهو الذي يتبناه فريق العقل الإيماني، الذي لا يزال يحلم بتثبيت الواقع، بل يرى أن الواقع بكل كتلتها يجب أن ينتقل الى الماضي

الثاني: هو ذلك الذي يتبناه فريق العقل العلمي والنقدي، والذي لا يزال يجاهد لإحياء طاقة الخلق المفقدة

لا يريد أحد أن يفرط بالنصوص، ولا بالهوية، ولكن وعلى ضوء النقطتين المشارتين: صلاحية النصوص عبر الأيام أن تكون عامل تقدم وتفسير، وهي النقطة الأولى، وضرورة مواكبة البشرية في حركتها باتجاه المستقبل، وهي النقطة الثانية، لا يجوز تضييع اللحظة: لحظة التقدم وصنع المستقبل المنشود. من هنا من هذه النقطة كان البحث في العقل الإيماني.

Bibliotheca Alexandrina



0358902